

رواية

تامر راضي

Tamer Radi

# الوهابي



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 1 8



الوبّاص (رواية)

تامر راضي (كاتب أردني)

الطبعة الأولى ٢٠١٩.

© حقوق الطبع محفوظة.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: جعفر العقيلي.

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، عمارة البيجاوي (٦٩)، ط ٣.

هاتف: ٧٩٧١٦٢٧٢٠، ٦٥٦٢٠٧٢٢ (+٩٦٢)

[alaan.publish@gmail.com](mailto:alaan.publish@gmail.com)

[www.alaanpublish.com](http://www.alaanpublish.com)

التدقيق والمراجعة اللغوية: د. دينا ملكاوي.

تصميم الغلاف: عبادة الفحماوي

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة

المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنّفه ولا يعبر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية

أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: (٢٠١٧/10/5631)

ISBN: 978-9923-13-028-5

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 1 8

تامر راضي

الوبّاص

رواية



## توطئة

كان القانون والعرفُ في مدينة الحرجف يقضي بقطع رأس كل من ثبتت عليه الخيانة، غير أن القبائل لا تقبلُ أن يُقتل أحد أبنائها دون مُحاكمةٍ وجلسة قضاءٍ بمجلس الحرجف؛ إلا إذا كانت المدينة في حالة حرب، ومع ذلك لا يؤتمنُ تمردُ أبناء القبائل على ذلك العرف. والمعضلة الراهنة كانت في أن التعامل مع الوباص لا يُعدّ خيانةً، على اعتباره ملكًا وحليفًا وليس عدوًا، وذلك ما على زيد أن يُفكر به ويمكر لأجله، وقد وثق الجاسم والموجودون بخطته، خصوصًا أنّ الفتنة تشتعلُ في المدينة وشيخان في سجونهم. وبالفعل خرج الحاضرون إلى قبائلهم ليجمعوهم، وانطلق الحراس يطوفون المدينة ويدعون لانعقاد مجلس الحرب. ولم تمضِ ساعةٌ حتى كان أهل المدينة كخلية النحل يحيطون بساحة الحرجف، وسادة القبائل يشقون الصفوف والحُضور فيدخلون الساحة ويتوسطونها.

## الفصل الأول

### الجَوْزَل

أينما تمنح الطبيعةُ خيراتِها يَنعمُ بها البشر وتكثرُ فيها الحركة والنشاط. كانت هذه مقولةً للتاجر القديم الذي أترى التجارةَ ونماها في هذه المنطقة (منطقة رأس الخير) كما أطلقَ عليها اسمًا. بالفعل فإن تلك المنطقة ولو اختلف قاطنوها في أصل تسميتها، كانت منطقةً مميّزةً من حيث الموقع وما تحويه من خيرات، فقد اغتنت بوجود المعادن كالذهب والفضة والحديد، وتنوّعت بالأشجار والنباتات مع اختلاف مناخها، وامتلاتُ سهولها بمختلف أصناف الحيوانات. أما العربُ أهلُ تلك المنطقة فلا يُطلقون عليها اسمًا إلا (منطقة رأس الخيل)؛ وذلك لأن مُدنها الكبيرة وقبائلها توزّعت فيها قديمًا على شكل رأس خيل، فقد بدأت جنوبًا بمدينةٍ كبيرة كضم الحصان، ثم توزعت باقي المدن في الوسط كالعينين، وشمالًا كالأذنين وانتشرت الغابات الكثيفة في الوسط من شماليها كغرة الفرس. كان اسم المنطقة مُطابقًا لشكلها لوقتٍ طويل حتى تغيّر نوعًا ما بسبب الحروب وشحّ الماء فتغيّرت جغرافية المنطقة ومعالمها تبعًا لذلك.

اختلفت الأسواق بمنطقة رأس الخيل باختلاف صناعاتها وتجارها داخل المدن، وتنوعت الجرف التي برع فيها أصحابها، وقدّمت الزراعة نباتاتٍ استخرجوا منها مواد عديدة دخلت في الدباغة والصباغة والنسيج والعمور والطبابة، وانتشرت الصناعات الحرفية كالحدادة وصناعة الأسلحة والدرع وصقل السيوف، وصناعة الأدوات الزراعية كالمناجل والفؤوس والمعاول والأواني الفخارية والمعدنية، فزَيّنوا الأقداح والصواني والمرايا والمسارج. كما انتشرت التجارة والصناعات الخشبية وصناعات الغزل

والنسيج كالأثاث المنزلي والأرائك والفرش، ونما أيضاً سوقاً للصاغة، فصاغوا وصنعوا الأساور والخلاخيل والأقراط والخواتم والعقود من الذهب ومن الجواهر الثمينة. وبالإضافة إلى ذلك، كان للثروة الحيوانية نصيبها في تعزيز صناعاتهم الحرفية وتجارتهم، فاستخدموا جلودها وأصوافها وأوبارها وألبانها، وجعلوا منها غذاءً وشراباً وملبساً دافئاً، كما حظيت الأسواق بالعديد من البضائع التي وردها التجار للمنطقة، كالمنسوجات الحريرية والقطنية، والمجوهرات والحلي، والعُدد والأدوات والصناعات غير العربية.

إنّ الموقع المميز لمنطقة رأس الخيل مع كثرة الخيرات، والأمان الذي حظت به وغلّف طُرقاتها، أدى إلى بروز حركة تجارية نشطة في مرحلة ما، فتحت أبوابها على مصراعها لأهل الهند والفرس والروم ولمختلف تجار العرب. وانعكس ذلك بشكلٍ واضح على استقطاب الكثيرين للعيش والعمل في هذه المنطقة، فتنوّع السكّان فيها رغم سيادة القبائل العربية وسيطرتهم عليها، وانتشر الصانعون والعاملون في أسواق المدن الكبيرة التي تحتوي محالاً متعددة ومتنوعة، وانصهروا في نسيج تلك المنطقة وتأثروا بفكر أهلها ومعتقداتهم وأثروا فهم، فعبدوا الحجر والشجر والقمر، وأمنوا أنها تجلب النصر والمطر، وتبعُد عنهم اللعنة والفقير.

طلع الصباح الجميل في مدينة الحَرَجَف وألقت الشمسُ رداءها القديم، واكتست بوهجٍ تخلّل الغُيوم المتناثرة في جنبات السماء المزرقّة، وانطلقت الطُيور تُغرّد ألحانها فوق الأغصان، والرُعاةُ مضوا في مواشيمهم، وسعى أهلُ المدينة ينتشرون في سوقهم ينشرون بضائعهم، فرصفوا الأرض بسلال الفاكهة والخضار والأقمشة وأطيب أنواع الهارات والبخور والعطور. وهُنا وهُنَا صَدَحَتْ أصواتُ الباعة وهم يعرضون بضائعهم، والصانعون يطرقون ويضربون الحديد والأخشاب والجلود ويبدلون جهدهم اليومي ليؤمّنوا طلبات قوافل التُّجار.

كان عليّة القوم من الشيوخِ ووجّهاء القبائل وكبارها مدعوين لمأدبة طعامٍ في بيت (أبي قيس) الجاسم بن بكر بن وُرثة، وهو في عقده السابع من العمر، متوسّط القامة مربع الجسد، أشيب الشعر ذو هندامٍ أنيق. وكان مجلسه كبيراً عالياً ينفذُ الضوء والهواءُ من ستائر شرفاته المتقابلة، والمسارج تُزِنُ جدرانَه والمواقِد تتوسطه، والمقاعد الفخمة المكسوّة بأفخر أنواع الأقمشة أحاطت به بشكلٍ دائري، وأمامها موائد مستديرة ذاتُ أرجل مقوَّسة عريضة. كان الرجال يتناولون أطيب الفاكهة ويتلذذون بأعذبِ الشراب المقدمِ إليهم من الخدم والجواري، ويتجادبون أطراف الحديث ويتحاورون بينهم عن أمور التجارة والأوضاع السائدة في منطقة رأس الخيل بين الحرب والسلم، حتى دخل عليهم ربيع بن مالك مُتأخراً، وهو سيد قبيلته ويُعدُّ شاعر الجرجف، فاستقبله الجاسم ورحب به حتى أخذ مجلسه. ولم يكد ربيع بن مالك يأخذُ رشفةً من كأسِ الشراب الذي بيده، حتى خاطبه ثابت بن سلمان وهو أحد وجهاء الجرجف وسيد قبيلته، فقال له ممازحاً:

أرى أنّ نساءك يشغلنك دوماً عن مواعيدك يا ربيع، فلا تحتجّ بعذرٍ غير هذا.

فهقه الجميع وقاطعهم ربيع: لستُ بحاجةٍ لعذرٍ فلم يجهز الطعامُ بعد. لم تتجسسْ أخباري يا ثابت؟ أترآك تحسدني!

ثابت: لا أتجسس أخبارك بل أتحمسها بالخير، ولستُ بحاسدٍ لك أيها المزواج.

ربيع: زُبما تهربُ من بيتك من شرّ زوجتك! وذلك ما تغبطني عليه.

ضحك الجميع على حديث ثابت وربيع، فطلب الجاسم من ربيع أن يُحدّثهم عن صفات النساء بحكم خبرته. فقال ربيع: شرهن نحيفةُ الجسم قليلةُ اللحم، الممرضُ المصفرةُ العسرة، سريعةُ الوثبة كأنّ لسانها حربة، تضحك من غير عجبٍ وتبكي من غير سببٍ، كلامها وعيّدٌ وصوتها شديدٌ، كثيرةُ الدعاء قليلةُ الإرعاء، تأكلُ لمّاً وتوسعُ ذمّاً، تبكي

وهي ظالمة وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور وسال دمعها بالفجور، ابتلتها الآلهة بالويل والثبور وعظائم الأمور.

أما أحسنهن يا قوم: فضحوك الثغر، جميلة من بعيدٍ مليحة من قريب، شريفة في قومها وذليلة في نفسها أمانة لبعلمها، ملساء اليدين ردماء الكعبين ناعمة الساقين، حمراء الخدين كحلاء العينين زجاء<sup>(١)</sup> الحاجبين، لمياء الشفتين بلجاء<sup>(٢)</sup> الجبين.

كان الجميع يضحك على حديث ربيع وبراعته في الوصف وجزالة معانيه، حتى قاطعهم الجاسم وأشار إليهم بالصمت: صه، أسمعون ما أسمع؟ أطرق الحاضرون قليلاً وأنظارهم تتقلب ورقابهم تتلوى مع آذانهم وهم يسمعون أصواتاً مبهمة تأتي من بعيد. وبعد قليل من الصمت والتركيز، تحدث نعمان وهو من أكبر التجار في المدينة وسيد قبيلته: لعلها مشاجرة في السوق، أفلا ذهبت يا قيس ونظرت ما الأمر.

خرج قيس بن الجاسم مع بعض الرجال، وبقي الجميع يستمعون للصوت ويقببون أنظارهم والقلق يعتريهم خشية أن يكون لأحدهم شأن بما يحدث بالسوق. ورجع قيس راكضاً وهو يلهث وعلامات الوجوم على وجهه: أدرك الناس يا أبت، إنه شيحان!! شيحان دخل السوق، والرجال اجتمعوا عليه يريدون قتله.

انطلق الجميع بسرعة نحو السوق بخطوات متسارعة ووجوههم سوداء متجهمة فهرولوا كأنما أصابهم جنة، وتقدمهم الجاسم وكل قد شد يده على سيفه دون أن ينبس ببنت شفة حتى وصلوا مكان التجمهر، والأصوات تلعو وقد تكأكأ القوم على شيحان وهو يمنعهم عنه ويصيح: أين الجاسم؟ انثوني به. شق الجاسم الجمع وأبعدهم عن طريقه شاهراً سيفه، إلى أن وجد نفسه أمام شيحان والرجال يحيطونه بسيوفهم، فصرخ بالقوم حتى سكنوا، وتمعن النظر إلى شيحان وهو يرتدي لباس الحرب، وبيديه

(١) زَجَاءٌ : مؤنث أَرْجُ. أَرْجٌ : الحاجب الرقيق الطويل.

(٢) بَلْجَاءٌ : مؤنث أَبْلَجُ. أَبْلَجٌ : أبيض حسن واسع الوجه.



عصًا غليظةً بدا أنه استعملها لإبعاد الرجال عنه ويظهر أنه أذى بعضهم بها. كان رأسُ شيحان مكشوفًا وثيابه ملطخةً بالدم فقد ناله بعض الجراح. ظلَّ السكونُ مُخيِّمًا حتَّى صاحَ بعض القوم: أيها الجاسم، ماذا تفعل؟ إما أن تقتله أو تترك لنا ذلك. لم يلتفت الجاسم ولم يُحرك ساكنًا؛ بل بقي واجمًا في وجه شيحان ويده تشدّ على مقبض سيفه بقوة. شيحان (سيّدُ مدينة الجَوَازِل) الفارسُ الفحلُ ذو الجسد الممتلئ وبشرته السمراء القمحية وعيناه السوداوان الواسعتان ورموشه الطويلة والكثيفة، ينظرُ للجميع نظرةً شزراء كعينِ الأسدِ المحمّرة، وشاربه الأسود يُزيّنُ لحيته الهدبَاء بوجهه المستدير، هو في عقده السادس وما زال يتمتّع بقوته وصلابته ووسامته.

هيا أيها الجاسم، ماذا تنتظر؟ صاح أحد الرجال، وصاح معه الكثيرون يُريدون ذلك.

تقدّم أوسُ بن هيثم بن ورنه ابن عمّ الجاسم وكان رجلاً شديدًا يخشاه كلُّ الرجال، فاستلَّ سيفه ثم توقف بجانب الجاسم وقال غاضبًا: لستَ رجلًا ولا حكيماً إذ أتيت بنفسك هنا يا شيحان.

ردَّ شيحان بكلِّ ثقةٍ وغرور: بل الحكمةُ والرجولةُ ما حملني لكم، تنحَّ يا أوس ودعني أتحدّث مع الجاسم.

ثار أوس وهمّ بالهجوم على شيحان، فمنعه الجاسم وأرجعه وأخذ سيفه من يده، كلَّ ذلك وشيحان واقفٌ كالصخرة لا يتزحّج ولا تطرفُ له عين. ألقى الجاسم سيفَ أوس أمام شيحان، وقال: خذ السيفَ؛ فلا يقولنَّ أحدٌ إنك قُتلتَ غدراً أو أعزل. لم يلتفت شيحان للسيف وألقى بالعصا من يده، ثم قال: ما جنّتكم لقتال.

صاح الجاسم بغضبٍ عارم: وفيما قدمك؟ كيف تجرأت وأتيت هنا بنفسك!

لم يردّ شيحان واكتفى بابتسامةٍ دافئةٍ ماكرة، ولم يُبدلَ نظره عن الجاسم الذي طلبَ منه مرةً أخرى حملَ السيفَ بحزمٍ وغرورٍ تكادُ تتفجّر من شدّة غضبه، فرفضَ

ولم يتحرك حتى صاح الجميع طالين قتله، والجاسم بدت عليه علامات الدهشة أكثر من علامات الغضب، فتقدم أوس مرةً أخرى. وقال: دعني أتولى أمره يا ابن العم. طفح الكيل.

شيجان: أنت سيد الموقف أيها الجاسم، مُر قومك أن يهدأوا..

قاطعه الرجال وقد اشمأزوا من كلامه وتعالَت أصواتهم وزاد حنقهم عليه وعلى الجاسم الذي لا يحزُم موقفه. وعندها رفع الجاسمُ يده قليلاً فاتحاً كفه، حتى عمَّ الصمتُ على الجميع، ثم قال: تكلم يا شيجان.

شيجان: وهل يصلحُ الكلام هنا! عندي الكثير لأقوله ولا يصحُّ أن يُذكرَ أمام الجميع. وقد جئتُ أعزَلُ إلا عصاً تعينني على الوصول إليك وإلى سادة القبائل في مدينتكم، فاذهب بي لمجلسك لتتحدَّث.

صمت الجاسم ونظر إلى الرجال خلفه، فلمس الفضول في نظراتهم والإشارة له بالتأني. وهمسَ نعمانٌ للجاسم: أنت الزعيمُ بعد غياب أخيك الغازي، فلا تُطلِ النظرَ واحزم أمرك دونَ تسرُّع، ومُر الرجال أن يستكشفوا المدينة من الخارج. فالأمرُ مهمٌ وغريبٌ ويستوجبُ الترويَ والحذر!

ماذا تنتظرون؟! صاح أحدهم. اقتلوا هذا المخادع، إنَّ هي إلا فتنةٌ يُريدُ أن يوقعنا بها. لا يوجد بيتٌ إلا وله ثأرٌ عند هذا السفّاح. ثم انتفض الرجلُ شاهراً سيفه ليقتلَ شيجان، إلا أنَّ لطمَةً من يدِ الجاسم أوقعته أرضاً. أعمدَ الجاسمُ سيفه، واتخذ قراره: أحضروه مُكبلاً إلى مجلسِ الحَرَجَف، وأدارَ ظهره ففتح الرجالُ له الطريقَ ثم تقدّمهم للمجلس.

صدرَ القرارُ ولزمَ التنفيذُ رغمَ كره الغاضبين وحمل أوس سيفه وأعادَه لغمده وانتظرَ حتى أحضر له الحُرّاس قيداً ليكبّل سجين مدينتهم. مدَّ شيجان يديه مضمومتين أمامه، فكبّلها أوس وعيناها الاثنان مُتصلتان، وأعين الجميع ترقبُهم. الصدمةُ كانت

أكبر من أن يتخيّلها الحليمُ العاقلُ في مدينةِ الحرجف: شيحانُ بن صخر بن مطلق، سيّد مدينةِ الجَوَازِلِ وفارسها، قطعاً الرُّؤوسِ وصانعُ السيوفِ، في مدينةِ الحَرَجَفِ أعزلُّ مدميّ الجسدِ والملابسِ مكشوفَ الرأسِ، ويمشي مكبلاً بين حُرّاسِ المدينة!! المحلاتُ أخذت تُغلقُ أبوابها في السوقِ، والرجالُ يمشونَ بجانبِ شيحانِ، والصبيانُ يرشقونه بالحجارة، وامتزجت صيحاتُ النساءِ بين فرحٍ ونواحٍ لذكرى قتلاهم. كم طعنةٍ يشتمها أهلُ الحرجف في صدرك يا شيحان! كم زُملت زوجةٌ وكم يثمّ طفلٌ وكم انتحب شقيقٌ على شقيقه من سيفك الصَّمصامِ الذي لم يرحم قط! من الأولى بقتلك ونزع روحك من بين ضلوعك! أهاتٌ وزفراّتٌ تننُّ بالصدورِ وأنت تمشي بينهم.

اتّجه الجميعُ إلى مجلسِ الحرجف، ذاك البناءِ الحصينِ المعدّ للاجتماعاتِ والتجهيزاتِ وإدارةِ شؤونِ المدينةِ في حربها وسلمها. وفي قاعةِ القضاءِ الكبيرة، ترَبّع الجاسمُ على كرسيِّ الحُكْمِ، وسيفه المغمودُ يقفُ بين يديه مُتكنّاً له، وعشرون رجلاً ونيّفٌ من عليّةِ القومِ تجلس في مقاعدهم. والرجالُ خارجُ المجلسِ يُتبرون الفوضى محاولين الدخولَ لمعرفةِ مصيرِ شيحان؛ لكن قيساً منعهم، فدخلَ وأمر الحراسَ بإغلاقِ البابِ، ثمّ توجهَ لأبيه ودنا منه وتحدث إليه بصوتٍ خافت: مرني يا أبي. فقال له الجاسمُ بهمس: أرسل بعض الفرسانِ خارجَ المدينةِ يستطلعون أمرها، وأرسل غيرهم لمدينةِ الجَوَازِلِ ليزوا أحوالها، ثمّ اجمع أبناءَ عمومتك واجعلهم على بابِ المجلسِ يقفون مع الحراسِ دون غيرهم، ولا يدخلنَ أحدٌ سواك حتى نأذن له. تحركَ قيسٌ لتنفيذِ أوامر والده بالحال، وأخذ أوس مقعده فيما ظلّ الحراسُ واقفين ينتظرون أمراً من الجاسمِ، وشيحان واقفٌ بين ظهورهم، فدفعهم عنه وصاح: أتخافون أن يُفكَّ هذا القيدُ أهما السادة!

ردّ الجاسمُ: ليس نحنُ من يخافُك في الميادينِ، حتّى نخافُك هاهنا. فُكّوا وثاقه وأحضروا له مقعداً ثمّ انصرفوا.

جلس شيحان على مقعدٍ وضيقٍ ليس له ظهرٌ، ثم أمسك بذرعه وخلعه مُتحاملاً على نفسه كي لا يُظهر ألمه من الجراح التي نالتة، وحين نظر الجميع له ولحالهِ الواهنة فاجأهم بالهوض وضرب المقعد بيده ضربةً فصلتهُ نصفين، ثم التفت لهم وصاح: ألسنمُ عرباً تُكرمون الضيف! ألا تُزلون الناسَ منازلهم! لا يحملني مقعدكم هذا. ثم مشى أمامهم وأخذ مقعداً كبيراً فخماً والأعينُ ترقبه، وعاد مكانه وجلس على المقعد ساندًا ظهره.

كان أول من بدأ الكلام أوسُ بن هيثم، وهو فارس الحرجف دون منازع، ضخم البنية ذوقبة عريضةٍ ووجهٍ مستدير وكان في مثل سنِّ شيحان، فقال بصوته الخشن والأجش:

هيا يا شيحان، قل لنا ما الذي يؤخرنا عن قتلك؟

شيحان: هل تظنُّ أنك قاتلي يا أوس! أم تظنُّون أنتم أني أؤخركم عن قتلي حفاظاً على روحي! لو أني أردتُ هذا لما أسلمتُ لكم نفسي وأنتم تعلمون من أنا، فترثتوا. عندي من الكلام الكثير، وأولى بكم سماعه وأجدي بكم فهمه.

نعمان التاجر: ولماذا علينا سماعه؟ ولماذا لم تُرسل لنا دعوةً للقائك؟!

شيحان: لقد علمتُ أن الغازي سيُدكم خرج مع ولده قُصي وبعض الرجال لمدينة العَصُوف؛ لمقابلة الوِثاص بن ضامر، ملككم وحاميتكم، ليطلبوا وقوفه معكم علينا، فارتأيتُ أن أنفرد بكم أنتم دون الغازي.

الجاسم: إذا فأنت تستغلُّ خروجه لتتحدث معنا نحن! وهل ظننتُ أن غيابه يمنعنا من النظر في أمرك أو جزائك؟

لم يُلق شيحان بالألما قاله الجاسم، ونظر إلى الحاضرين يتفحصهم فتفقدهم ليعلم من خرج منهم مع الغازي لمدينة العَصُوف ومن بقي عندهم، ثم التفت إلى الجاسم وقال: يا أبا قيس، كنتُ أعلمُ حقاً أن أخاك غادر المدينة، وأعتقدُ أنه سيرجُ على مدينة

القلباء أيضًا ليلتقي بسيدها الرّزّاع بن حمزة، لتجيش الجيوش علينا، غير أنّي لم ألمح العراف يا قوت بينكم! هل ذهب معهم أم انقضى أجله! ثمّ إنني لا أرى في مجلسكم رجالًا من جميع القبائل، وقد وددتُ أن تجعلوا لكلّ قبيلةٍ ممثلًا في موقفنا هذا، ليس الآن بل في الجلسات الأخرى.

قام ثابت بن سلمان غاضبًا، وقال: تماديت يا شيحان وأذيت، نحن كُنّا على قلب رجلٍ واحد، وأراك تحسبُ نفسك سيّدًا هنا وروحك بين أيدينا؛ فلا تمتحن صبرنا الذي أوْشك على الانتهاء.

الجاسم معقبًا: أدلّ بدلوك يا شيحان، فلستُ أضمنُ نفسي عن قتلِكَ حتى أمسك غيري عن ذلك.

ضحك شيحان ضحكة استهزاء: أما أن تقتلني فعاز عليك، وأما غيرك! فإنّه لك وأنت تجلسُ على سدة الحكم.

نهض أوس بن هيثم ثائرًا: طفح الكيل، هذه نهايتك يا شيحان. واستلّ سيفه ومثى صوب شيحان رافعًا سيفه وسط حبس أنفاس الجميع وتأهّمهم من مراوغة ومكر شيحان الذي لم يحرك ساكنًا غير ابتسامة ثقة تملأ وجهه، وما أن اقترب أوس منه حتى ازداد غضبًا من برود فعله فصاح به: ويحك، لماذا تتبسّم!!

لأنّ ابتسامة الرجل تجعل الموت هينًا. قالها شيحان وما زالت الابتسامة تكسو وجهه، وعيناه تلمعان كعيني الصقر.

تراخى السيف في يد أوس بن هيثم واستشرى الهدوء في جسده الضخم، وتغيّرت تعابير وجهه كئيًا فأكفّهز وتلبّد واتسعت حدقتا عينيه، وتراجع إلى الخلف قليلاً كمن فقد توازنه وهو يُسلطُ أنظاره الحائرة على شيحان، وأخذ يتمتم بصوتٍ ضعيفٍ بكلامٍ لم يفهمه كلٌّ من حوله: لا يمكن، لا لا، ليس أنت. ويحك يا شيحان، تبّا لك ولما فعلت.

الصمْتُ سيّد المتكّمين هذه الأثناء، فالجميع أذهلهم ذُهورُ أوس وكان نازلةً عصفت به. لم يكن لأوسِ الصنديد أن يرفع سيفًا ويثنيه أبدًا، ما الذي منعه ولجم يديه عن قتل شيحان الدّ أعدائه! هل ألقى عليه سحرًا فأصابه! النظراتُ تتقلّب والوجومُ يعومُ والأنفاسُ تثقلُ في صدور الجميع، كُلُّ ذلك اعتراهم وعلاماتُ الحيرة تجتاحُ أوس، وشيحانُ جالسٌ على مقعده لا يُغير ابتسامته ونظراته القاطعة. أدار أوسُ ظهره وأغمد سيفه مرةً واحدةً ثم رجع لمقعده، فجلسَ وطأطأ رأسه وتمهّل قليلاً كمن يستحضرُ رباطةَ جأشه والكلّ يترقبُ ما سيقول، فرفع رأسه وأرخا يديه على المقعد، ثم قال: أجزم الآن أن عند شيحان الكثير ليحدثنا به.

ماذا أصابك يا أوس؟ سأله الجاسم بنبرة الأمر مع نفاذ الصبر.

صمت أوس قليلاً ثم قال بهدوءٍ غير معهودٍ عليه: حسناً، قد علمتم ما كان في حربنا مع الجوازل التي غدرتنا بها الزّعزاع بن حمزة قبل بضعة أعوام، حين اجتمعوا علينا ولا طاقة لنا بهم. ظننتم ذلك اليوم أنني قُلتُ بعد رجوع من نجا من الرجال الذين كانوا تحت رايتي، والواقع أنني هربتُ وحيداً في طريقٍ غير طريقهم، وعندما تواريتُ بين الأشجار أصاب ذلك السهم جوادي في نحره، فسقطنا سقطةً صرعت الجواد وقصمت يدي. وما يجهلُه بعضكم أن رجلاً وضع سيفه على عنقي وأنا مُنكبٌ على وجهي، فنظرتُ إليه بطرف عيني ولم أتعرف عليه، فقد كان يُخفي وجهه بلثامٍ ويعضُّ عليه بين شفتيه، ولم أميز صوته يوماً من تنكره ومن أثر السقطة وما غطّى وجهي من الدماء المنهمرة.

لقد علمتُ الآن وأيقنتُ أنه شيحان لا غيره: فقد أعاد الابتسامةَ عينيها التي ابتسمتُ لحظتها حين سألتني عن سببها؛ فأجبتُه: لأنّ ابتسامة الرجل تجعل الموت هيناً. فليتي لم أبتسم ساعتها، وليتّه ما اعتقني.

الآن فهم الجميع تقهقر أوس، ليس في الحرب التي ذكرها؛ بل تقهقره أمام شيحان قبل لحظات. آلاف الأفكار عصفت بمخيلاتهم وقراءتهم للموقف، وعبثاً يجدون لها تفسيراً، كيف لعدو أن يعتق أشد أعدائه وأشرسهم!

قاطعهم أوسٌ موجهاً بصره إلى شيحان: لماذا لم تقتلني يا شيحان؟ لشخصي أنا وخوؤلتنا وتربيتنا لك صغيراً، أم ماذا!

شيحان عابساً: حسبك. لم يكن لخوولة أو قرابةٍ وأدموها، وقد علمت أنني أكثرتُ فيكم القتل. إنها الحرب يا أوس؛ غير أنني لا أقتل فارساً أسقطه جواده، فدع عنك هذا. استطرد شيحان بعد أن زال العبوس عن وجهه: قد ذكرت يا أوس أن الزعزاع قد غدر بكم في تلك الحرب، والحقُّ أنه قد نكل بكم هو وأخوه الفزاع، أتعلمون أنني لم أسأله وقوفاً لجانبنا ولم أرسل له؟ وليس بيننا وبينه موثيقٌ ولا عهد! لقد عرض علي الزعزاع نفسه أن يكون عند إشارتي ساعة الحرب وينقلب عليكم، فطلبتُ أن يتقدم صفوفنا إن صدق حتى أضمنه وأمنُ مكره، وذلك ما حدث يومها.

تململ الجميع وتبادلوا الأنظار بينهم، فقد كانت بدايةً غير موفقةٍ لنقاشهم مع شيحان، ففاجأهم بمعروفه مع أوس، وأشارت له لغدر الزعزاع معهم سابقاً، فسألوه عن سبب خيانتهم وعمّا غنمه منها.

شيحان: لا يخفى على عاقلٍ أن الزعزاع خائنٌ زلقٌ، لا آمنٌ جليسه ولا أيق، يلهث وراء السلطة والمال منذ عهد أبيه حمزة، فقد كبر نفسه وصغر أباه عندما أعلن نفسه خادماً لضامر والد الوَبَاص، حينما كان يسعى لزعامة المدن والقبائل، وقد كان الزعزاع أول من أطاعه وأسهم في بناء ملكه في منطقة رأس الخيل، وهو يدعم الوَبَاص كالخادم الأمين بعد موت والده وتربُّعه على العرش. أمّا لماذا غدركم ووقف بصفتنا نحن! ومن أين له المال؟ فهذه قطعاً ترجع إلى الوَبَاص؛ وذلك لأننا كُنّا الطرفَ الأضعف في تلك الحرب، ولأنَّ قوتكم غدت في أوجها آنذاك.

الجاسم: أراك خلعتَ ولاءَكَ للوباص يا شيحان، فالإلم ترمي!

شيحان: لم أمنح الوَباصَ ولاءً قط يا أبا قيس. كان الذي بيبي وبينه مدٌّ وجزر.

ثابت بن سلمان: إنك تُهرطق. لا يمكن للوباص أن ينقلب علينا أو يُحرصَ بيننا، إنّه

ملكنا، فلم لا يقف معك دون الحاجة للزعزاع لو أراد ذلك!

شيحان: ألم تَعوا بعد! أما أعجَبكم أنّ الوَباصَ يدعو لعبادة النجوم دون الأصنام،

ومع ذلك يجلبُ أوثانًا جديدةً ومختلفةً كل عامٍ فيبيعها أو يهبها لأهل منطقة رأس الخيل

فيتسابقون لعبادتها. إنّه الدهاء يا رجال؛ فقد أوصى الوَباصُ الزعزاعَ أن يقفَ ضدكم

وكفأه، والزعزاع لن يجد فرصةً أقوى من تلك فيتقدّم على الغازي في التقرب له. وقد

خطّط الوَباصُ لذلك حتّى لا تقوى شوكتكم فوق قوّتها، فتُصبحون له ندًا بعد أن تُبادَ

مدينةَ الجوازل التي تفصلُ بينه وبينكم، وهو لا يُريدُ أن يخسرَ إحدى المدن في المنطقة؛

فهو يعدّها كلّها مُلكًا له وهو راعها، ولا يُريدُ أن تقلّ قوته وهيبته بين الملوك بفقد بعضها.

إنّ الوَباصَ ديدنه خلقُ التوازن بيننا على أن تبقى تحت إمّرتة وجبروته. فهو لا يريد لنا

الهلاك؛ بل يريد أن نكون كالزعزاع وأخيه الفزاع، جنوده البواسل المؤتمرين بأمره

والطامعين برضاه. ولو أنّ الوَباصَ منع عنّا الماء فقط لمتنا عطشًا؛ فأبار الماء وينابيعها

عنده وليس أسهل من أن يمنعها عنّا فهلك أو نتحد عليه ونقاتله قتالًا يقضّ مضجعه!

ربيع بن مالك: يا قوم، إن كان قول شيحان صحيحًا، فلغاية في نفسه. أحسبُه قد

علم ألا طاقة له بنا وجاء لهدنةٍ أو مُصالحةٍ جديدة، وقد علمتم أنّه هو من نقض

معاهدتنا القديمة معه، وإلا فما قدمه في هذا الوقت، وقد أقرّ بعلمه بذهاب الغازي

للوباص! هو الدهاء والخوفُ ما جاء به.

شيحان حازمًا: أمّا الدهاءُ فربّما يا ربيع، وليس ما يُعيبُ الرجلَ ذاك. لكنّ الخوفُ؛

فليس لهُ مني كما تعلمون، وقد جنّتكم بعصاةٍ لا سيّما خشيةً أن تسبق غلظتي دهائي،

واخترتُ موعد خروج الغازي عيّى ألقى عقولًا تعي وتسمع، وما نقضت المعاهدة القديمة



إلا بعدما عرضتُ على الغازي ما أعرضُ عليكم، فطلبتَه الوقوفَ معًا في وجه الوَبَاصِ والزعراع، إلّا أنْ تذللّه للوَبَاصِ وحقدَه عليّ جعله يُفشي هذا السرّ ويكشف نواياي؛ وهو الآن يسعى ليأخذ الإذن لقتالنا، وسيطلبُ العونَ من الزعراعِ بن حمزة ومن قبيلتي (شَيَارِ وَأُوَهْدُ) اللثيمين.

كان وقعُ الكلامِ كبيرًا على الجاسم والحاضرين، فقد طعنَ شيحان بالوَبَاصِ وعاب الغازي واتّهمه بنقضِ العهدِ والخضوعِ والتذلل. صمّتَ الجاسم بحيرةً من أمره وهو يعصُرُ الأفكارَ برأسه، ماذا لو كان صحيحًا ما يقول شيحان في أخيك! هل أقتله وأنتي هذه المهزلة أم أستمع إلى كلامٍ لا أجدُ له ردًّا! ها هو أوسٌ قد خنعَ لرأيه! ما كان له أن يسمع قولًا كهذا، ولا يفترسِ قائله! لقد أعتقه شيحان بالحرب وأسرَهُ هاهنا في عقْرِ دارنا. أرى الرجال قد وقعَ أغلبهم في كلامه، ودبَّ الفضولُ بهم لسماعِ المزيد. عليك أن تحزم أمرك يا جاسم؛ إنّ شيحان الماكرَ أعدَّ نفسه جيّدًا لهذه الجلسة، أريدُ فتنتنا ويدفع روحه جزاءً لذلك! ماذا لو قتلته! لن يلومني الغازي أبدًا؛ كلا، سيزعمُ القومُ أنّي قتلتُه لأخفي ما يُخفيه عنّا. لو أنّ غيري تجرأَ وقتله لكان انتقاصًا من شأنِي، تَبًا لك يا شيحان، أيُّ مآزقٍ رميتني به! أظنُّ في جعبتك الكثير من المفاجآت بما تعلمه ونجهله، فمن أين لك كُـلُّ هذه الدراية! مُصيبةٌ إن كان في قومنا من يعمل لحسابك ويُمدِّك بالأخبار! سيستشري الشكُّ في نفوسنا كما يستشري الطاعون في الجسد إذا استمرّ الحال هكذا. يجبُ أن أحزمَ أمري فأنا السيّد في غيابِ الغازي.

اتخذَ الجاسم القرارَ وجعلَ الرجالَ يُكبّلون قدمي شيحان ويودعوه السجن، وأوصاهم بالطعام والشراب الذي يليقُ بأكابر المساجين، ثمَّ أوصى قيس أن يطلبَ حضورَ سادة القبائل لمجلسِ الحرجف، وركّزَ على حضورِ ياقوت (العراف) أيضًا. كان أهلُ المدينة جُلّهم مجتمعين في ساحة المجلس ينتظرون القرار، وحاول قيس أن يُفرّقهم فرفضوا وصاحوا مهديدين بقتل شيحان، فخرج لهم أوس غاضبًا فأسكهم وحذّهم أن

يتجرأ أحدٌ على شقّ عصا الطاعة، وأجبرهم على المغادرة مُكرهين. استدار أوس بعد أن تفرق الجمع فوجد الجاسم أمامه وقد تعمّد مُحادثته على انفراد. فطلب إليه بحزمٍ ألا يخنع لشيخان الماكروينسى ما أجزى به له، وأسرّ له شكّه بوجود خائني في المدينة ينقل الأخبار للجوازل، وقد قرأ ذلك بعيني شيحان، كما أوصاه أن يُرسل ولده (شهاب) في حال طلب القوم إرسال أحدٍ للغازي، ليرجع لهم بالحال ويُسرّب ما عنده قبل غيره. فهم أوس مقصد الجاسم وتخوّفاته، وعلم أنّ دخول شيحان لمدينة الحرجف أدخلهم في مرحلةٍ جديدةٍ وخطيرة.

توافد سادة القبائل تبعًا لمجلس الحرجف، ودخل ياقوت (العراف) قاعة القضاء بلباسه الغريب ووجهه القبيح وأسنانه الفُرق ومعه غلامان يحملانه؛ فعُمره جاوز قرنًا كاملاً وخفّت حركته، فاختر الجلس بطرف القاعة كي يتسنى له رؤية الجميع بعينه الواحدة، إذ أنّ عينه الأخرى قد أعدمها بياضها عن النظر. لم يكن الجاسم يُحبّ ياقوت؛ لكنه أراد وجوده لخصّ شيحان بالسؤال عنه، فكان عليه أن يستمع له ويعلم رأيه، علّه يكشف سرّ السؤال عنه. اتخذ سادة القبائل أمّاكهم في قاعة القضاء بعد أن حضرَ أعلّهم وغاب القليلُ منهم، وتناوب ثابت بن سلمان وربيع بن مالك بشرح ما كان لهم، فأخبروهم بكل ما حدث منذ وصول شيحان إلى المدينة وطلبه أن يتحدوا معًا ضدّ الوَباص، فتعجّب سادة الحرجف مما سمعوا وانتظروا الجاسم أن يفتتح اجتماعهم.

الجاسم: قد علم من لم يحضر موقفنا قبل بما حصل، ولقد أورد ثابت وربيع كل ما كان فيه من كبيرةٍ وصغيرة. اعلّموا يا قوم أنني أرسلتُ بعض الرجال يستطلعون مدينتنا وأمرتهم بترقيها من الخارج، وأرسلت غيرهم ليكونوا أعينًا على مدينة الجوازل؛ فإنّ ما جاء به شيحان لما يبعثُ بالنفس الريبة والحيرة، وقد كظمنا غيظنا وتأبينا بجزائه، فلو أنّنا تركنا أهل المدينة يقتلونه لكنّا الآن نتساءل عمّا جاء به! وهو الآن أسيرٌ عندنا وما جمعتمكم إلا لتندرس أمره فانظروا رأيكم.

قام ربيع بن مالك وقال: نِعَمَ العمل أُمُّها الجاسم، ماذا سيختلف إن قُتِلَ الآن أو قُتِلَ غداً! أرى أن نُقبِبه حَيًّا حتَّى يرجع الغازي ويفصل في أمره. ثمَّ جلس ربيع والرجال يثنون على رأيه.

صاح أذهب بن عدي سيد قبيلته: يا قوم، إن الوَبَاصُ ملكنا وليس بيننا وبينه إلا الوفاء، وشيخان المخادع هو عدوُّنا منذُ الأزل وما جاء إلَّا ليفتننا. إنَّه أسيرٌ بين أيدينا، فما يمنعنا الآن عن قتله وتحطيم مدينة الجوزل وقد غدوا كقوسي دون سهم! لا أظنكم تحسبون حسابًا لابنه الليث أو جلد بن ربيعة، فليس لهما في الحرب كما لزعيمةم شيخان، أرى أن ننتهز الفرصة ونغتنمها فنقضى عليهم. تعالت الأصواتُ مؤيِّدةً لهذا الرأي، والكلُّ يُبدي استعدادَه وشوقه إلى الحرب.

نهض سعد بن يحيى وهو سيد قبيلته، وقال: نعم، علينا أن نقتل شيخان ونستعد للحرب على وجه السرعة.

أوس (غاضبًا): ليس من شيمنا ولا أعرافنا أن نقتل أسيرًا أسلم نفسه لنا. صبرًا أُمُّها القوم ولا تتعجلوا. صاح زيد بن عياد وهو من أدهى سادة الحرجف، وأخذ يُحرك عصاته بين قدميه حتى استرعى انتباه الجميع فسكتوا، ثم تابع: تريثوا يا سادة فلا تأخذكم العجلةُ إلى الندامة، لعمري ما جاءنا شيخان إلَّا لأمرٍ جليلٍ لنا وله. وحذار إن تنتقصوا من الليث ابنه أو جلد بن ربيعة فارس الجوزل، أما اتعظتم من جهلنا لعزيمة شيخان وهو شابٌّ يطرقُ الحديد في مدينتنا! ألم يُذقنا بأسَهُ فأفطع بنا عُقبَ أن هجرنا! أعطى كلام زيد الحضور فرصةً للتأني والتفكير بعمقٍ فدكرهم كيف كان شيخان صانع أسلحةٍ بآسٍ، وكيف صار سيد الجوزل وفارسها وجعل مَهْمَا مدينةً قويةً بعد ضعفها. تابع زيد: إنَّ في شيخان من الرجولة ما يُرفِّعه عن الكذب؛ فالمكرُ شيءٌ والكذب شيءٌ آخر، غير أن مقصده مُهم! فهل جاءنا استسلامًا وتسليمًا! أم جاء ليفتنَ بيننا! أرى أن ننسى ثأرتنا عنده حتى نتيين نوابه.

صاح الرجال: قد استكنت وجانبك الصواب هذه المرة يا ابن عياد. كيف نسي تأرنا؟ من يترك قاتل أخيه حُرًا! القتلُ هو مصيره ولن يمنعا أحدٌ عن ذلك. لم يكثر زيد لغضب الغاضبين، فظلَّ يلعبُ بعصاه ويتبسّم في وجوههم حتى قام من مجلسه، ووضع عصاته على مقعده، فسكتوا بانتظار أن يُبدّل كلامه، فمشى بينهم بعمامته الطويلة التي تُخفي قُصر قامته وتوسّط المجلس.

زيد: ما اجتمعنا هنا لفرض آرائنا، وليس مدحُ العدو يُنهي عداوته وأنا من خيسرٍ ولديه وأخاه في حروبنا؛ إنّما التعقّل هنا هو من يفرض رأيه، فدعوا عنكم المشاعر وخاطبوا عقولكم، فإن اختلفنا في أمرنا اليوم، فسنختلف في حربنا غدًا. أليس لشيخان وقومه ثأر عندنا! فما حمله على أن يضع رقبته تحت سيوفنا! ولم أعتق رقبة أوس بن هيثم ألدّ أعدائه وهو في سَعارِ الحرب! فإمّا فعل ذلك شهامةً منه، أو ليُغيّر حربه معنا. وقد انقلب شيخان على الزعزاع بن حمزة بعد بضعة أشهرٍ من وقوفهما صفاً، وقد صدق في وصفه؛ فلو أنه أمِنَ مكره لجعله بين صفوفنا فينقلبان علينا ويمحقانا بجيشهما. وشيخان قال إنه لم ينقض المعاهدة حتى عرض على الغازي أن يتّحد معه، وادّعى أن الغازي رفض ذلك، بل أشعل نيران الحرب؛ فإن كان ما قال صحيحًا! فأين ومتى التقى بالغازي؟ وإن كان كذلك فلماذا رفضه؟ ولماذا لا يدري مجلسُ الحرب به؟ وهل سيذهب الغازي حقًا إلى الزعزاع! أو لشيّار وأوهّد! أرى أن نبعث رجالًا ليلحقوا بالغازي، فيرجع إلينا أو يخبرونا أين يذهب، وليس ذلك شكًا به فهو سيّدنا وكبيرنا، إنّما لنفهم رأيه ونتأكد من صدق شيخان.

شاب القاعة هدوءٌ حذر وأبناء عمومة الغازي يشتملون غضبًا من كلام زيد، وظنّ الجميع أنّ الجاسم لا يملك ردًا على ما سمع، حتى تحدّث: خيرًا تكلمت يا زيد، قد وصلت بنا إلى ما يُريد البعضُ قوله، ولو كنتُ أخشى أن أسمع مثل هذا الكلام لقتلتُ شيخان في ساعتها، إنّما تريتُّ وجمعتُكم هنا حتى نتحاور ونتجهز لما يخفى علينا. والغازي حكيمٌ

الرأي لبيب العقل، هو سيدنا وأدري بمصالحنا، ضحّي بكل ما يملك لتجهيز الجيوش وخوض الحروب، ولولاه ما كُنّا على حالنا هذا ننعم بما ننعّم به. سنتركّ له الإجابة عن أسئلتك يا زيد فهو أفضلُ فيها، وأخاف أن أوول عليه فأخطئ، وإن أردتم أن نرسل إليه رسالةً أرسلنا من يخبره بحيرتنا فيقرر هو ما العمل: فلا ندري ماذا يعرف هو من علمٍ نجعله! ولا ندري عن لقائه بشيخان الذي تعمد أن يدخُل مدينتنا في غيابه.

كان ردُّ الجاسم على زيد هو أفضل رد، فلا يحتملُ الوضعُ أن يُفتح باب الشك الآن بالغازي، وأولى به أن يبقى متربّعاً على سيادة القبائل ويحافظ على هيئته ومكانته حتى يرجع إلى المدينة؛ خصوصاً في ظلّ وجود داهية كزيد الذي لطالما كنّ مشاعر الكره للغازي. وانغمس الجاسم وزيد وغاصبا في أعماقهما يبحثان عن آلية الدفاع والهجوم والقيادة، والجميع يحسبون كلامهم في عقولهم قبل أن يلقوه؛ فكلّ كلمةٍ الآن قد تضعُ صاحبها في طرفٍ لا يدري أين وما هو. تتحنن العراف ياقوت وفي جوفه صوتٌ مخنوقٌ كمن أراد السعال، وأخذ ينظرُ بعينه الواحدة الحادة كعين البوم، ويداه المجعدتان ترتجفان على المقعد وشفته سرت عليهما رجةً خفيفةً إشعاراً بالكلام. نظر الجميع إليه ومندبله يُخفي وجهه فلم يظهر منه إلا أنفه الضخم، فقال:

لطالما عرفت أن شيخان سيقبل موازين القبائل مذ كان طفلاً صغيراً، أذكره وهو ابن بضعة أعوامٍ حين وكزه أحد أتراهه فأسقطه أرضاً، فلم يتكلم ولم ينظر لأحد المتفرجين عليه وهم يسخرون منه ويضحكون؛ بل نهض ومشى خلفه وناداه حتى التفت إليه، فما وصل إليه حتى حطَّ به الأرضَ خطأً وأشبعه لطمًا على وجهه وأدمى شفثيه.

أظنّ أنها كانت آخر مرة يطلق فيها الصبيان على شيخان لقب الجوزل (فرخ الحمام) نسبةً لقبيلته وتصغيراً من شأنه؛ فذاك الجوزل ما كان إلا صقراً أضاع أهله وضلّ طريقه ولم يفرد جناحيه بعد. أتذكرون حينما أصبح شيخان شاباً، غدت أنيابه حادةً كالسيف، فحين لم يجد ما يقتات به كان يصطاد الضباع ويأكلها، حتى أنه أطمع

أخته بدور من لحمها، ولن أنسى حينما عاد من تلك الجبال يحمل ضبعًا على كتفه والدم يتزل منهما الاثنين، فيقدر ما مزقت الضباع لحمه لم يثنه ذلك عن صيدها. ارتفع صوت ياقوت فجأةً وتنافضَ جسده: إنه الموت والهلاك ما يحمله لنا، ستحلُّ علينا اللعنات تترأ وسنهلك جميعًا لا محالة إن لم تقتلوه. افعلوا ما أقول لكم وإلا ستندمون، اقتلوه، اقتلوه ولا تنتظروا.

صاح الجاسم بالعراف وأمره أن يترك خُزعلاته وألغازه، فأدار ياقوت وجهه مُعرضًا عن الجميع وقد أفضعهم كلامه إذ مرَّ وقتٌ طويلٌ حتى شاهدوه على مثل هذا الحال والانفعال. وياقوت يُعدُّ مرجعًا لأهل الحرجف وله كلمته. فلطالما تنبأ بأحداثٍ غدت واقعا، وقد سعى مرارًا وتكرارًا للقضاء على شيحان قبل أن يُولد! فلما شبَّ واستيأس من قتله حرَّضَ أهل الحرجف عليه فطردوه من مدينتهم. حلَّ الصمت على الجميع، أترأه جُنَّ وخرف أم فقد بصيرته! أيعقلُ أن قوله صحيحٌ وأنَّ اللعنة قادمةٌ على الحرجف!.. نعمان: يا قوم، أظنُّ أننا انحرفنا عن موضوعنا، فهل سنُرسل للغازي؟ ومن سنُرسل! وهل نجلسُ مع شيحان؟ ومن سيجلس معه! هلاً أعددنا أنفسنا واتفقنا على ما سنفعل.

قاطع أصهب بن عدي نعمان وقال: ولماذا نُرسل للغازي؟ سوف نُقرَّر نحن ما نفعل بشيحان. وأنا ما زلتُ عند رأيي: علينا أن نقتله ونستعدَّ للحرب ضد الجوازل. سعد بن يحيى: نعم، صدقت يا أبا سري، ذلك ما علينا فعله، أليس كذلك أيها القوم!

سادت الفوضى العارمة المجلس وتراشق الجميع الاتهامات والتحذيرات، واختلف الموجودون في أمرهم فهض الجاسم من مقعده حتى عمَّ الصمت، فطلب منهم أن يُطيعوا ولا يثوروا، وأخبرهم أن القرار لن يصدر بحق شيحان حتى ينظرُ الغازي في أمره، وعلى ذلك جعل ربيع بن مالك ومعه شهاب بن أوس وبعض الرجال ينطلقون للغازي

لِيُخْبِرُوهُ بِمَا حَصَلَ فِي الْحَرْجِ فَيَرْجِعُوا مَعَهُ أَوْ يَرْجِعُونَ بِقَرَارِهِ. وَحَزَمَ الْجَاسِمُ رَأْيَهُ بِأَمْرِ شَيْحَانٍ، فَقَرَّرَ الْاجْتِمَاعَ مَعَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَاخْتَارَ بَعْضُ سَادَةِ الْحَرْجِ الَّذِينَ يُحَكِّمُونَ عَقْلَهُمْ فِي الْكَلَامِ لِيَكُونُوا مَعَهُ؛ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ الْعَرَاةَ وَأَوْصَاهُ بِالْتَّرْوِيِّ وَتَرَكَ الْهَرْطُقَةَ إِذَا تَكَلَّمَ، كَمَا اخْتَارَ أَوْسُ بْنُ هَيْثَمٍ وَثَابِتُ بْنُ سَلْمَانَ وَنَعْمَانَ التَّاجِرَ، وَكَانَ لَا بَدَلَ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ زَيْدُ بْنُ عِيَادٍ دَاهِيَةَ الْحَرْجِ، لِيُعِينَهُ فِي جَمَلِهِ وَيَأْمَنَ مَكْرَهُ. أَمَا أَصْهَبُ بْنُ عَدِيِّ وَسَعْدُ بْنُ يَحْيَى وَبَعْضُ سَادَةِ الْقَبَائِلِ رَفَضُوا فِكْرَةَ انْتِظَارِ الدَّارِ الْغَازِيَةِ وَالْاجْتِمَاعَ مَعَ شَيْحَانٍ، فَلَمَّا اسْتَثْنَاهُمُ الْجَاسِمُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ مَعَهُ أَسْرَوْا حَنْقَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَشَدُّوا عِبَاءَهُمْ وَخَرَجُوا غَاضِبِينَ لِبَيْتِ أَصْهَبِ بْنِ عَدِيِّ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى بَيْتِهِ كَيْ يَتَبَاحَثُوا مَا يَجْرِي، وَبَقِيَ الْجَاسِمُ وَمَنْ اخْتَارَهُمْ فِي قَاعَةِ الْقَضَاءِ، فَأَغْلَقَ الْحِرَاسُ الْأَبْوَابَ وَذَهَبَ قَيْسُ لِيَحْضُرَ شَيْحَانَ..

التفت الجاسم لمن في المجلس وأوصاهم: أريدُ منكم أن تنظروا إلى شيحان كمن أصدرَ فيه الحُكْمَ بالموت، فلا يظنَّ أننا أوكَلْنَا أمرنا للغَازِي فيستريح بكلامه ويُدَاهِنُنَا. وتجهزوا لسماع أي مفاجأةٍ منه، وإن احترتم في ما يقول فأخفوا حيرتكم فلا يلمسها فيكم ويسعدُها ويبيي عليها أمالاً وجلساتٍ أُخْرَى، علينا أن نلزمه بكشف خباياه.

كان الغروب قد حلَّ، وبدأ الليل يُسدُّ ستاره الطويل معلناً بدءَ مرحلةٍ جديدةٍ في مدينة الحرجف على بساطٍ من الحيرة التامة والمخيفة. أشعلَ الخدمُ النيرانَ للإتارة، ودخل قيس والحراس قاعة القضاء ومعهم شيحان يمشي بوسطهم مكبلَ القدمين، أشعثَ الشعر، وبقع الدم ظاهرة على قميصه، فأجلسوه ونظروا إلى سيدهم الجاسم، فأمرهم أن يقفوا عند باب المجلس من الداخل، ولم يأمرهم بفك قيود شيحان ليشعره أن وقته ليس بطويل، غير أن شيحان بدا غيبرَ مكترثٍ للقيود بقدميه وظل ينظر إلى الموجودين، وابتسم لرؤية العراف وزيد بن عياد ابتسامةً هادئةً زينت وجهه الأغبر، وشرع يخلع قميصه حتى ظهر كتفه الأيمن وبه جرحٌ بليغ، وأثارَ مخالبِ الوحوشِ تبدو كالوشوم

في صدره وذراعيه. رمقَ شيحان الجاسم تلك النظرة اللاهبة، ثم قال له: لم أكن لأتركَ أسيراً جريحاً قط إلا وأرجعته إلى قومه أو داويتُ جراحه. هل تخبّطُ أيها الجاسم حتى لا تأمر بعلاجِ جراحي! أم أنك تحكّمُ هنا بالحياة والموت فقط!

نظر الموجودون إلى شيحان وبدت لهم شَفِي جرحه البليغ الذي أصاب كتفه، فندم الجاسم على هفوته ولم يُظهر ذلك، وأمر الحُرّاس أن يحضروا الطبيب لِيُعَالَجَه بينما تألّم أوس لمنظر شيحان، ليس لأنه أعتق رقبته؛ بل لأنه كان يُكرم أسراه فعلاً، ولأن الرجولة تأبى مثل هذه الغفلة أو الخسة كما شعر بها، لم تكن بدايةً هذه الجلسة متوقعةً، فشئتت تفكير الموجودين إلا زيد بن عباد، فليس بالرجل الذي يُعرف شعوره أو تفكيره حتى وإن تكلم، فاستند ووجه نفسه إلى شيحان كمن يُعلن بدء الجلسة.

زيد: هل تعلم يا شيحان أنني قد توقعت لك ألفَ نهايةٍ، إلا أن أراك هكذا في مكانك هنا! قد عجبْتُ فعلاً أن تستسلم طوعاً على هذا الشكل! فلو أنك أرسلت لنا برايةٍ استسلامك مع غيرك، فحفظتَ جسدك أن يُجرح، ونستقبلُ نحن بدل غلماننا. لعلك لم تفكّر جيداً بتصرفك! أو لعل رجالك لم يرضوا عن فعلك!

ضحك شيحان وأكثر الضحك، ثم قال: كم تمنيتُ أن أجدك في سوق المدينة فأشجّ رأسك بعصاتي يا زيد، فتجلس أمامي معصوبَ الرأس أو تقعد ببيتك تغلي من شدة الضربة ويقهرُك عدم وجودك هنا، إن دهائك لا ينفع معي يا زيد. خشن شيحان صوته وصرخ: اسمع يا إمعة، قدومي لكم ليس استسلاماً، وقد تركتُ في قومي ألفَ شيحانٍ غيري، ثم هدأ قليلاً وقال بثقة: لو أنني أرسلتُ إليكم يا سادة، لثارَ الجاهلون عليكم بغيةٍ قتالي، فلا تستطيعون لجمهم ولا تحموني فأصلكم، ولا يسعنا إلا أن ننتظر الغازي حتى يرجع، فنلتقي بمعركةٍ جديدة.

طُرق باب القاعة ودخل الحراس ومعهم طبيبٌ شاب، فطلب الجاسم منه أن يُعالج شيحان، فاقترب منه وعاین جراحه، ثم أخرج من حقيبته عدته واستعان بأحد الحراس



ليضع بعض السكاكين في النار، ونظّف جراح شيحان بقطعة قماشٍ مُبلّلة، وانتظر السكاكين أن تجهب.

وأثناء انشغال الطبيب بعلاج شيحان، هام زيد والحاضرون يتخيلون بسريرتهم عدم قُدرتهم على كبح جماح الفوضى إن طلبَ شيحان اللقاء بهم، فلن يضمّنوا غضبَ أهل الحرجف عند دخوله. واحمرّت السكاكين فتناولها الطبيب وألقمها جراح شيحان حتى انتشرت رائحة الشواء في القاعة، وكانت نظرات شيحان للطبيب غريبةً فيما تحاشى هو النظرَ إليه وأكمل كي الجروح، واستعمل إبرةً وخيوطاً أحاط البالغ منها، ثم أخرج من حقيبته أعشاباً فطحنها وخلطها بماءٍ ساخنٍ ووضعها على الجراح ولقّمها بقطعٍ من القماش، وأنهى عمله وطمأن الجاسم على حال شيحان، وأخبره أن الجراح بحاجةٍ إلى تنظيفٍ مستمر حتى لا تلتهب وتتقرح، فشكره الجاسم على عمله ثم انصرف.

الجاسم: أنت بخير الآن أم تحتاجُ إلى راحة! لم تعد شاباً لتحتمل هذه الجراح.  
 شيحان (ساخراً): خُصتُ حروباً بجراحٍ أبلغ من هذه يا جاسم. دعك من جراحي، أرى الحيرة التي تُخفونها بصمتكم، فاتركوا عنكم المكر والدهاء وأجلّوه إلى أن تنظروا في أمركم، ولا تخافوا من غدرٍ أو مكرٍ فلستُ بمن يغدروما أنا اليوم بينكم بماكر، ولو كنتُ أريدُ بكم سوءاً لفتنتُكم بما أعلم عن بعضكم، فأحسنوا الظنَّ بي حتى نصل إلى ما جنّتُ له.

أوس: تقول إنك تُخفي عنا ما يفتننا وتريد أن نُحسن الظنَّ بك! لسنا بمفتونين فتحدث بما عندك أو كُفّ عن رمي الألباز لإثارة الشكوك عندنا.

شيحان: صدقت يا أوس. حسناً، عليكم أنتم أن تقررروا في شأني، وليس الغازي الذي أرسلتم إليه لينظر في أمري بعد أن اختلفتم. وما اختاركم الجاسم من بين أسياد الحرجف إلا ثقةً بكم وبأرائكم، وأظنُّ أنّ الآخرين الآن يجتمعون وهم يحملون الغضب

عليّ وعليكم، ومن ذهب ليرتقب مدينة الجوازل سيرجع ويخبركم بأنها هادئة وأمنة مطمئنة، ومن يرتقب مدينتكم سيملّ ولن يرى ويسمع إلا صوتَ الوحوشِ والطيور.

كانت تحليلات شيحان صائبة وصدمت الجميع، فوضع نفسه معهم في صفٍ واحدٍ، وعلى الجاسم ومن معه أن يُغيّروا من طريقة حوارهم فيُكاشفوه دون مكرٍ ومراوغة، وعليهم أن يتحملوا المسؤولية التي أناطها بهم؛ فلم يأتهم مُسَلِّماً رقبته لينتظر رأي الغازي به! وإلا فما الداعي لاجتماعهم به الآن! وهُنَا وقع الجاسم في حيرةٍ من أمره، فكيف له أن يتشاور مع عدوّه شيحان الذي يرفض مشاورة الغازي وينتقصُ منه! وكيف سيبدأ معه كلامًا عرضه على أخيه فرفضه! كانت الموافقة على كلامه والمضي قُدماً معه تعني الاعترافَ ضمناً بكلِّ ما ذكر، والجوابُ له الآن يجب أن يكون مدروساً، والجميعُ بانتظار من سيُبادر!

زيد: تُريد الصدق والمكاشفة يا شيحان! لك ذلك، فهلاً أخبرتنا لماذا الآن قررت الحربَ ضدّ الوَباص!

شيحان: سنكشفون الوجه القبيح له عاجلاً أم آجلاً، إنّه عدوي وعدوكم الأكبر، الوَباص لا يُحاربُنَا بجيشه بل يدعُ الأمر موكولاً بيننا، ونخسرُ نحن الرجال والمال في كل حربٍ وتزداد قوّته وحاجتنا إليه في كل يوم، ولا تنسوا أنّ الجوازل أصبحت بخطرٍ ونواياي قد كُشفت له، فحتى لو ترك الغازي الحرب معنا فسيحُثّه هو عليها.

تنحنج العراف مقاطعاً شيحان وتحدث بصوتٍ متحشجٍ خافتٍ: والماء، الماء يا شيحان! أبار الماء والينابيع كلها في مدينة العصوف، فمن أين لنا بها لو حاربنا الوَباص والزعاع؟ ولا تنسى (شَيَارَ وَأَوْهَدُ) فهما بالطبع تحت راية الوَباص؟. صاح العراف بغضبٍ شديد وبيده ترجفان: أخبرنا كيف ستمدّنا بالماء يا شيحان؟

كان كلام العراف يدخلُ في صلب الموضوع، بل قطع نصف الطريق وقفز للنهاية، فظلّ ينظر إلى شيحان بتمعنٍ محاولاً قراءة عينيه، ولاحظ الجميعُ وقع السؤال عليه

ودهشته ونظراته إلى العراف، فلم يعلموا من فيهما يقرأ عين الآخر! إلا أنهم تأكدوا أن سرًّا كبيرًا تتخلَّله تلك النظرات.

شيجان: إن أردتم الحرب فلا تخشوا نقص الماء، أنا من يتكفَّل بها لكم. دعوا عنكم الماء لوقتِه.

العراف (صارحًا): وكيف ذلك يا شيجان؟ نحنُ بالكاد نسدُّ حاجتنا اليومية من الماء، سيقطعه عنا الوَبَاصُ ونهلك.

أصرَّ العراف على معرفة حُطط شيجان لتوفير الماء وكيف يضمنه! وهو أعظم ما يُحسب حسابه في الحرب ضد الوَبَاصُ لو قُررت، فيكفيه أن يمنعه عن أعدائه فيهلكوا عطشًا ويخضعوا تذللًا، وأثر الجاسم الصمت في ظل هذا الحوار كي لا يُحسب عليه التخطيط مع شيجان في الحرب والانسياق وراء كلامه، وما دام العراف سأله عن ذلك فسيَسلم من الانتقاد وسيعلم الجواب دون أن تظهر نواياه. وظلَّ شيجان يتهرَّب من الإجابة ويسعى إلى تخطي تلك المسألة دون جدوى، فأصبح شأن الماء شرطًا لمتابعة الحوار.

شيجان: ألم يُخبركم أصهبُ بن عدي أو سعدُ بن يحيى بأمر الماء من قبل؟

الجاسم (متعجبًا): وما شأن أصهب وسعد بذلك! عن أيِّ ماءٍ تتحدَّث؟

شيجان: آبار الجوازِل. ألم يُخبركم أصهب وسعد بها!

تفاجأ العراف وقال: أيُّ آبار؟ تحدث يا شيجان.

شيجان: حسنًا، قد حسبتُ حسابَ الماء قديمًا وعملت طويلاً لأجله، فأحضرتُ (نهلان) - رجلًا اشتهر بالبناء والعمارة - قبل سنواتٍ من مدينة العصوف، وأجزلتُ له العطاء حتى يحفر لي آبارًا في مدينة الجوازِل، فحفرنا خمسة آبارٍ عميقة دأبنا على ملئها، ونحن نحفرُ غيرها الآن وننتظرُ أمطار الشتاء. أمَّا أصهب بن عدي وسعد بن يحيى: فأنا على يقين تام بأنهما علما عن الآبار وعمَّا تحتويه من ماء.

كان وقع الكلام كإطلاق السهم الأول في الحرب، فطاقت غمامةً سوداء قاعة القضاء، ولم يعد الحاضرون يدرون أي شأنٍ أكثر حيرةً وأعظم دهشه! هو موضوع الآبار واستعداد شيحان وتجهزه للحرب! أم إشارته بعلم بعض قومهم بذلك وعدم إفشائهم الأمر! وهل تُراه يكذب في أمرٍ منهما! أو يكذب في الاثنين معاً! أصابت الدهشة الحاضرين جميعاً وتلقّفتوا بينهم وطلبوا الدليل على وجود الآبار، والتفسير لعلم أصهب وسعد بها. قال شيحان: ابني الليث وجلحد بن ربيعة بانتظاركم لرؤية الآبار فأرسلوا من يُعيّنها. أمّا عن أصهب ويحيى؛ فأنا من طلب من نهلان أن يُخبرهما بذلك قاصداً، ولكم أن تسألأهما.

الجاسم: لماذا طلبت من نهلان ذلك؟

شيحان: كنت دائماً أضع من يترقب سادة قومكم إذا دخلوا مدينة العصوف، فمنهم من كان يذهب مع الغازي، ومنهم من يذهب دونه مثل أصهب وسعد، وقد أوصيتُ نهلان حين عمل عندهما بالحرص أن يخبرهما بسرّ الآبار قاصداً لأرى ماذا يصنعان إن علما! وقد أعلمني باجتماعتهما المتكررة مع الوَباص وفي مدينتكم أيضاً. ومن دهشتكم وعدم علمكم بأمرهما، فأجزم أنّهما يسعيان إلى خيانة الغازي والإطاحة به عن سيادة الحرجف.

لم تنقش الغمامة السوداء التي طاقت بالحاضرين: بل أصبحت أحلك سواداً وأشدّ ظلمةً، فقد وجّه شيحان رُمحَهُ الماضي في صدر مدينة الحرجف ولم يكتفِ بالسهم الذي أطلقه على الغازي. شرّد الجاسم واضطربت أفكاره، فلطالما استشعر نوايا سادة القبائل في مدينة الحرجف، لكنه لم يعلم أنّها وصلت حدّ الخيانة. هل صدّق شيحان! ولماذا يكذب؟ قد دعانا إلى زيارة الجوازل والتأكد من كلامه! هل أدعو أصهب وسعد وأسألها فترى من الكاذب أو الخائن؟ أيعقلُ أن يكون الغازي على علمٍ بذلك أيضاً؟ أين أنت أيها الغازي؟ قد تركتني في موقفٍ لأحسدُ عليه!.

قطع زيد أفكار الجاسم المتلاطمة وأفكار الحاضرين جميعًا: لعلك ما بنيتَ بئراً واحداً وأردت أن تنشر كذبةً تتقلبُ بها. كيف للوَبَاصُ أن يتركك تحفرُ الآبارَ؟ أم لكما منها غاية! شيحان: ألا يتجاوز دهاؤك بُعد أنفك يا زيد؟ أرسلوا أحداً ليرى الآبار بعينه؛ فإن كنتُ كاذبًا، فذلك مبلغِي ونهاية قولِي عندكم. وأنا أكثرُ عداوةً للوَبَاصُ من أي مدينةٍ أو قبيلةٍ، ولو سلِمْتُ أذاكم لمتُ في سبيل القضاء عليه، ولو كنتُ كما زعمتُ يا زيد أعملُ مع الوَبَاصُ لما خسرتُ الزعزاع؛ بل كسبتهُ ضدَّكم وما جئتُكم هنا! علم الوَبَاصُ عن الآبار حينما طلبتُ نهران من عنده، وعلم ما تستوعبه من الماء وكم تكفيننا من مُدَّة، وليس له أن يمنع أحداً عن حفر الآبار رغم كراهته لها. ألا تعجبونَ أَنَّهُ يُعطينا الماء دون مقابل! ما وهبه لنا إلا خوفًا فينا وطمعًا فيه، وهو يعلم أَنَّهُ قادرٌ على ترك حروبنا قائمةً فلا نتحد.

ألجم هذا القولُ زيدًا وكن الحاضرين، واعتبرتهم علاماتِ الوجومِ وسواهُ الوجوه، وتقلَّبتُ الأنظار في المجلس، وهمس البعض بينهم وعلّموا أَنهم سلّكوا منعطفًا خطيرًا بحيرتهم الظاهرة. غمز زيد الجاسمَ وأشار بأطراف أصابعه قليلًا كمن يطلبُ استراحة، فوجّه الجاسم نظره إلى شيحان عدوّهُ الذي لم يعد يخشاه كما بات يخشى أهل مدينته وقرر إنهاء الحوار، فأعاده لحبسه، ثم خرجوا جميعًا مع الجاسم إلى بيته ليتناقشوا مستجدّاتهم، فمروا من أمام بيت أصهب، وعنده الكثير من الرجال يجتمعون وأصواتهم تعلو وتهبط، فتابعوا سيرهم بصمتٍ حتى دخلوا مجلس الجاسم، وتناولوا الطعام الذي دعاهم إليه وتأخّر مواعده رغمًا عنهم.

أسرَّ الجاسم لجميع من عنده بأنَّ زيارة الغازي للعصوف لم تكن لاستئناف الحرب مع الجوازِل؛ بل ليطلب يد هند بنت الوَبَاصُ زوجةً لابنه قصي، فتفاجأوا جميعًا وأكثرهم كان قيس بن الجاسم! فذكر لهم أَنَّهُ على علمٍ بأنَّ أصهب بن عدي خطب هند لولده (سري) صديقه المقرب، وهم ينتظرون مع الوَبَاصُ أن تتوضَّح الأمور في الحرب بين الحرجف والجوازِل حتى يُتمّوا زواجهم ويُعلنوه!! وصعق الجميع من هذه الأخبار فتتابعت

المصائب عليهم وزادتهم بلاءً؛ فالغازي الآن لا يدري بهذا الشأن، وبأفعال أصهب الذي تكشفت نواياه. ضحك العراف ضحكةً ساخرةً والمندبلُّ يُخفي معالم وجهه، وسخر من الوضع الراهن الذي وقعوا فيه كما سخر من موقف الغازي المحرج الذي ينتظره، وعلل ذلك بأنّ الغازي لم يكن قريبًا من قومه، فظنَّ كل سيد قبيلة أنه سيّد المدينة كلها. وغضب الجاسم وأوس كثيرًا من كلام العراف، فويّخه أوس وهدّده أن يُكرّر قوله مرّةً أخرى فيقطع رأسه اللعينة، ومع الغضب العارم الذي نزل بالجاسم واجتاح أوس، أيد زيد بن عياد كلام العراف فأجّجهما وزاد من غضبهما.

فرّ أوس من مجلسه بصرخٍ ويتوعّد، فطلب منه الجاسم أن يهدأ ويجلس، فجلس مُكرهًا والنيران تشتعل في صدره، ثم طلب من زيد أن يوضّح وجهة نظره ويبيّن لها، فقام زيد واقترب منه واستقبله ووجّه بصره إليه ثم قال:

لقد اخترتنا لنذهب معك للقاء شيحان ثقةً بنا، عليك أن تتحمّلنا وتحسن الظن بنا وتُصارحنا بما تعلم وما تضمّره من تفكيرٍ وتخطيط. قل لي أيها الجاسم، ألم تُصب بالدهشة مما يعرف شيحان وما يُخطّط له؟ ألم يُدهشكم جميعًا عدم معرفة أيّ منا عن الأمور التي عرفها؟

الجاسم: بلى.

زيد: أتظن الغازي يعرف كل تلك الأمور؟ أصدقني القول.

هز الجاسم رأسه مترددًا وقد فاجأه السؤال: لا أدري.

اقترب زيد من أوس وقال: وأنت يا أوس، ستسمع كلامًا لن يعجبك فلا تجعل الغضب يملكك، إن لم تكن قادرًا على ضبط أعصابك فسينقلب أسياد الحرجف ضدكم؛ هذا إن لم تخسرونا نحن الحاضرين! ولو أردنا أن نتحدث بظهوركم؛ لكننا الآن في بيت أصهب بن عددي نشتم ونلعن كما نُريد.

دُهل أوس من جرأة زيد فهض غاضبًا: أتطمع أنت أيضًا بأن ترتبع سيادة الحرجف يا زيد! لقد تماديت.

أدار زيد نفسه إلى الجاسم مُشيرًا بيده إلى أوس وقال: هكذا أيها الجاسم سينقلب عليك أسياد الحرجف، حتى ولو لم تكن لهم نيةٌ لذلك. ثم نظر لأوس وقال: أرجو أن تجلس فلم أنه كلامي بعد، وأرجو ألا تُقاطعني حتى أفرغ منه.

نظر أوس بغضبٍ إلى زيد، ثم إلى الجاسم الذي لم يتكلم مطلقًا وأشار إليه أن يجلس ويسمع. ففعل ذلك والحنق يعصره عصرًا. وتأكد الجاسم حينها أن زيدًا أهلٌ للثقة ودهاء ليس عليهم بل معهم، فلو أراد الخيانة فعلاً لانضم إلى أصهب بن عدي وسعد بن يحيى، فذلك أنسبُ وقتٍ لينقلب عليهم، وعلم أيضًا أن كلام زيد سيكون ثقيلًا عليه وعلى أبناء عمومته وقبيلته، والأفضل أن يسمعوا الكلام منه عوضًا عن غيره؛ فالمؤامرات تدور بالخفاء.

بدأ زيد كلامه وهو يطوف أرجاء المجلس ويداه مشبوكتان خلف ظهره: يجب أن نعترف أن الغازي سيد الحرجف قد أخطأ أكثر من مرة، لن أفصل الأخطاء وسأتركها له لنستوضحها منه أو من ربيع بن مالك الذي أرسلناه ليلحق به. لنخوض بالمهم؛ شيحان في سجنه الآن ينتظرُ نتائج اجتماعنا هذا ويبيي عليه الآمال، وأهلُ مدينة الحرجف ينتظرون بفارغ الصبر أن تقتله، وأصهب وسعد ثبتَ تأمرهما على الغازي، ليس من كلام شيحان؛ بل بما نعلمُ عنهما من حقدٍ وكرهية، فكيف لأصهب أن يطلب هند بنت الوَبَاص لابنة سري دون علم الغازي! الواضح أنّ له ولسعد خططًا مع الوَبَاص لا يعلمها الغازي، لأنه لو علمها لحذّر الجاسم منها، أو أسرّ له بها قبل رحيله عن المدينة، ومأ ذهب إلى الوَبَاص يطلب يد ابنته. تابع زيد: رُبما يلحقُ ربيع بن مالك بالغازي قبل أن يلتقي بالوَبَاص أو قبل أن يطلب ابنته وهو على جهلٍ بما علمنا، فيتسرع الغازي بالحكم على شيحان أو يتسرع في طلب يد ابنة الوَبَاص، وسيُجنُّ الغازي عند علمه بأن هند مخطوبةٌ

لسري دون علمه. أرى يا قوم أن تُرسل بالحال من يلحق بالغازي وبربيع بن مالك، علّه يُدركهم ويخبرهم بما جدّ عندنا من أخبار، والأجدى بنظري أن يرجع الغازي بأسرع وقتٍ إلى المدينة.

لقي كلام زيد استحسانه عند الجاسم وعند أوس وقد زالَ عنهما الغضب. ونهض ثابت بن سلمان وأبدى استعدادَه لتلك المهمة، فقد استمع لجميع الحديث وفهمَ الغايةَ والمطلوبَ، ووافق الجاسم على ذلك وطلب منه أن يأخذ معه من يشاء من الرجال، وأوصاه ألا يعلم أحدٌ بذهابه للعصوف. وقبل أن يمضي بطريقه استوقفه العراف وطلب منه أن يعرِّج على مدينة الجوازل فينظر في آبارها بعد أن يلقي الغازي.

الجاسم: أتقصّد أن شيحان قد يكون كاذبًا! ربما يكون الغازي على علمٍ بالآبار، ففعلَ الوِياص أخبره بذلك.

العراف: لا أظنّ الوِياص يكشف للغازي عن الآبار وقد أخفى علاقته مع أصهب! ولعلّ شيحان نشر كذباً لينظر في أبعادها! وإذا كان الغازي على علمٍ بذلك، أفلا تُرسل رجالاً ليتربّوا مدينة الجوازل؟ إنها خيرُ وسيلةٍ لنعرف أحوالهم. فيزورهم ثابت ويرى بنفسه الآبار. ويرى من الليث وجلحد بن ربيعة ما نجهله من طريقة استقبالهم. ابتسم زيد وقال: لَعَمري أنك أدهى مني أيها العراف، قد أغفلتُ هذه المسألة ونسيتهما.

انطلق ثابت بن سلمان واثنتان من الرجال للعصوف، وطلب نعمان التاجر أن يُقرّروا ما سيفعلون باليوم اللاحق مع سادة الحرجف حينما يجتمعوا، خصوصاً أصهب وسعد! فخشي أن تتمّ مواجهتهما بكلام شيحان وتدبّ الفتنة في المدينة. زمجر أوس مُتوعداً أن يُكاشفهما بالحقائق ويُفطع بهما إذا ثبتت عليهما؛ لكن زيد حدّر من التسرع مُشيراً أنّ لأصهب وسعد أتباعاً كثيراً على شاكلتهم، بالإضافة إلى أنّ أهل المدينة الآن ينتظرون قتل شيحان بفارغ الصبر.



اقترح الجاسم ألا يجتمعوا مع شيحان مرةً أخرى حتى يرجع الغازي أويأتهم من عنده خبر. وأبدى زيد أنّ شيحان لم يُرد بهم فتنةً ولا يسعى لذلك ولا ضيرَ من الجلوسِ معه؛ فتعجّب الجميعُ من كلامه، فأخبرهم أنّه لمسَ ذلك من شيحان عندما تهرّب من موضوع الماء حتى غلبهُ إلحاحُهم وإصرار العراف، فأقرّ بما عنده، واعتقد زيد أنّ أصهب أو سعد لو كانا موجودين، لما كشف شيحان سرّهما وقد رأى فيهما خائنين للغازي خاضعين للوَبَاصِ. وعلى ذلك استنتج زيد أنّ شيحان لن يُسرّ بما يعلمُ إلا للجاسم ومن يثقُ بهم، وذلك سبب مجيئه بعد خروج الغازي من المدينة. وقرّر الجميع أن يُهوا نقاشهم الحائر على أن يلتقوا في بيت الجاسم صباحًا. وطلب قيس من والده الإذن بأن يُحدّث سري، علّه يعلم منه ما يخفي والده أصهب وسعد بن يحيى، فقبل الجاسم مُحذّرًا إياه أن يكشف شيئًا مما دار بينهم. وغادر الجميعُ لبيوتهم، ونام شيحان ليلته في سجنه المظلم، ينتظرُ مثلهم طلوع الصباح وخوض مواجهةٍ جديدةٍ مع أسياذ الحرجف.

أشرقت السماءُ مُعلنَةً يومًا جديدًا، ونهض أهل الحرجف أبكرَ من عاداتهم، وطرح سادة القوم ثيابهم القديمة وأبدلوها ثيابًا جديدةً للقائم المنتظر. كان الجاسم في مجلسه يتناول إفطاره ويتبادل حديثه مع زوجته أصال أم قيس كعادتهما كلّ يوم، وأثناء تناول الطعام دخل قيس على والديه فقبل رأسهما، ثمّ جلس إلى مائدة الطعام معهما، وأخبر والده أنّه بالكاد لحق بسري وهو يُغادر الحرجف، فتفاجأ لرؤيته وتلعثم لما سأله عن وجهته، فادّعى أنّه ذاهبٌ كعادته لبري حبيته هند عند خروجها من القصر ويُشيع نظره منها. أكّد قيس أنّ الكذب كان يقطُرُ من عيني سري، فلم يذهب قبلها بمثل هذا الموعد، وهو قطعًا ذاهبٌ لمدينة العصوف لمقابلة الوَبَاصِ بن ضامر، وليس لرؤية هند.

ظهرت نوايا أصهب ومن معه ولم تكن طيبةً؛ بل كان أمرهم مُقلقًا للغاية، وذلك ما جعل الجاسم يطلبُ وجودَ جميع أبناء العمومة حوله، فأمرَ قيس أن يُحضرهم إلى بيته ويجعل منهم من يقف عند مجلس الحرجف فيحموه بأنفسهم. وحين بدأ سادة القوم

يتوافدون وحضر أبناء عمومة الجاسم إلى مجلسه، حضر أصهب وسعد مع بعض السادة وأخذوا لهم موقعاً في زاوية المجلس. وتعالّت الأصوات وبدأت الأحاديث الجانبية، ولم يعد المجلس يتسع لاستقبال المتأخرين فاضطروا إلى الوقوف بباب المجلس أو الجلوس في ساحة البيت. ولما نظر الجاسم لمجلسه وقد استوفى من أراد حضورهم حيي الحاضرين وجلس مكانه، ثم طلب من زيد بن عباد أن يبدأ الحوار. لم يتوقع زيد طلب الجاسم منه افتتاح الحديث، فعلم أنه أولاه إدارة الجلسة والارتجال فيها لحسن ظنه به، وليكون موقفه واضحاً بين سادة القبائل، فقام وشكر الجاسم وحيي الحاضرين، ثم قال: أول ما أعلمكم به يا قوم أننا لم ولن نتخذ أي قرار في شيجان؛ فالمستجدات مُعقدة وتستلزم وجود الغازي نفسه معنا.

صاح سعد بن يحيى مُقاطعاً: من قال إن القرار ملككم؟ ولماذا ننتظر الغازي حتى يفصل في أمرين لا خلاف عليه!

أصهب: اسمع أيها الجاسم، إن تركتم شيجان حياً؛ فلا طاعة لأحدٍ علينا، فلكل منا ثأره ولن نتنازل عنه.

أوس: وبئس ما قلت، اصمت يا أصهب، وحقّ الألهة لو أنّ رجلاً اقترب من مجلس الحرجف لقتلته.

كانت الجلسة حامية منذ البداية، فتعالّت الأصوات بين مؤبّدة لكلام سعد وأصهب ومُخالفة لهما، وقد ظهر أنهما اتفقا على فرض رأيهما وإطلاق الفتنة في الحرجف. غضب أوس وأبناء عمومته لكنهم أمسكوا أنفسهم وألسنتهم وتركوا للجاسم الرد، وقد عرف من هم المتفقون مع أصهب وسعد ممن يُخالفهم؛ لكن بقي طرفٌ ثالث التزم الصمت ولم تظهر نواياه بعد.

صاح الجاسم: يا قوم، كيف نكون بين القبائل إذا غدرنا بمن دخل مدينتنا مسلماً؟  
ألسنا نفخرُ بقوتنا ونعتزُّ بأعرافنا! فلا يفتنكم عن مروءتكم قومٌ مردوا على النفاق،  
وحسبوا لأنفسهم مأثرةً وفضلاً بأن يُملوا علينا ما علينا.

أصهب: حسبك أيها الجاسم، لسنا منافقين فتلمزنا، سنقتل شيحان ونبيدَ الجوازل  
بمن عليهما، هذا الوقتُ المناسبُ للحرب ولن نُفوتَ هذه الفرصة العظيمة.

نهض سُهَيْل بن عيَاش وهو سيد قبيلةٍ وذو مكانةٍ عند كل القبائل في منطقة رأس  
الخيَل لحكمته وهيبته، فقال: يا أسياد الحرجف، لا تكونوا أسرعَ غضبًا فتصبحون  
أشدَّ ندمًا، أفلا يكفينا من الفوت ما ضيَعنا بحروبنا! لسنا الآن بصدد فتنةٍ تنزل  
بمدينتنا، والأمرُ مُريبٌ يستوجبُ التعقُّل، فهلأ أطلعتمونا على ما يُريد شيحان؟  
أصهب: مالنا ولما يُريد، ليس بيننا وبينه إلا الدم، لقد حرزنا أمرنا، سوف نقطع  
رأسه.

ظهِرت الرغبة العارمة بقتل شيحان في أعين سادة القوم، وخشي زيد أن ينقلبوا مع  
أصهب وسعد، فأيقن أن عليه كشف بعض الأمور حتى لا يجتمعوا على رأيٍ واضح  
وتختلط أفكارهم وتتبعثر، وعلى ذلك قرَّر أن يُرهق أصهب وسعد ومن معهما ويُغضبهم  
حتى يفضحوا أنفسهم بأنفسهم، فتشيراً أصابع الاتهام والخيانة لهم بدل أن تتجه نحو  
شيحان، خصوصاً وأنَّ الجاسم مُعرضٌ لأنَّ يخسر هيبته ويخسر سادة القبائل.

زيد: لم العجلة يا أصهب! ألا تُريدون أيها القوم أن تعلموا ما قال شيحان؟  
سُهَيْل بن عيَاش صارماً: بلى، فإنَّ أعلى درجات الجهل أن نرفض أمراً لا نعرف عنه  
شيئاً، ولم يدخل شيحان مُسلماً إلا وعلم أننا سنسمعه، وله كلُّ الحقِّ بذلك.

زيد: قد تبين لنا يا سهيل ويا سادة الحرجف أن شيحان ليس أكبر خطرٍ علينا من  
الوَبَاص بن ضامر.

سعد صارخًا: ماذا تقول؟ الوِثَاصُ سيدنا وملكننا، وكل أسياذ القبائل والمدن تحت أمره. وإلا فلماذا يذهبُ الغازي إليه؟

الجاسم: الغازي سيدُ الحرجف وله أن يُفاوض ويُحالف من ينفعنا حتى يرى غير ذلك: فإن غدر الوِثَاصُ بنا كُنَّا له أعداءٌ وخلعنا كُلَّ عهدٍ وميثاقٍ بيننا وبينه.  
زيد: الوِثَاصُ يُريدُ من شيحان أن يفتك بنا؛ لكن شيحان رفض ذلك وجاءنا لننقلب معه عليه.

أصهب: وهل صدقتم ذلك الكاذب اللعين! لن يتأمر الوِثَاصُ مع أحدٍ علينا.  
سهيل بن عياش: لم لا تدع زيدا يُكمل حديثه يا أصهب، دعنا نفهم المسألة.  
زيد: لقد زعم شيحان أنه حفر خمسةً آبارٍ في مدينة الجوازل قبل سنواتٍ مضت، فإن صدق في كلامه فما حفرها إلا وقد نوى أن يشنَّ حربًا ضروسًا ضدنا، وبمباركة الوِثَاصُ الذي لا شك أنه علم عن هذه الآبار ووافق عليها، وإلا لحدَرنا منها أو منع شيحان من بنائها.

تفاجأ الجميع وبدت الحيرة عليهم، وأدعى أصهب وسعد تفاجؤهما أيضًا، وعلم الجاسمُ أن زيدا شرعَ باستخدام حيله ليقلبَ الموازين في الجلسة. ما أدهاك يا زيدا!  
تابع زيد: إن شيحان يرفضُ أن يحدُربنا مع الوِثَاصُ، وقد طلب منا أن نتأكد بأنفسنا من الآبار، وضمنَ حُسنَ استقبالنا في مدينة الجوازل. فلما لا يذهبُ بعضُ قومنا وينظروا فيها ونُعابن قومه وطريقة تعاملهم؟ فإن كان الكلام صحيحًا ننظر في شيحان مرةً أخرى. ألا تذهبُ يا أصهب بنفسك وترى الأمر؟.

أصهب (مُتلعثمًا): أنا!.. كلا، لا أذهب إلى الجوازل إلا مُقاتلاً. وما علينا من صدق شيحان أو كذبه في تلك الآبار؟

سهيل بن عياش: كيف ذلك يا أصهب؟ لعلَّ شيحان يُريد أن ننقلب معه على الوَبَاصُ بدل أن ينقلبا معًا علينا! علينا التأكُّد من الآبار، فإن وراءها ما يُظهر جُلَّ المسألة. أتخشى الذهاب يا أصهب! أنا أذهبُ معك.

تقلَّبت الأفكار في الجلسة وتعالَت الأصوات تأييدًا للذهاب على عُجالةٍ لكشف تلك المسألة المهمة، ولاحظ أصهب وسعد أنَّ الحماس لقتل شيحان قد فتر، وعبثًا حاول أن يُثنيا أسياذ الحرجف عن اقتراح زيد المباغت.

أصهب (بصوتٍ هادئ): لن أذهب ولن يذهب أيُّ منا للجوازِل، الآبارُ موجودةٌ حقًّا وأنا على يقينٍ من ذلك.

سهيل مُتفاجئًا: وما أدراك يا أصهب؟ هل رأيتمَا بعينك؟ تكلم.

أصهب (مُتخبطًا): إنَّها موجودة، لم أرها ولكن علمتُ عنها.

نعمان: وأنتى لك أن تعلم عنها؟ وكيف لا تُخبرنا؟ أن تُخفِ هذا الأمر عن الحرجف ومجلس حربها فتلك خيانة يا أصهب!

أصهب غاضبًا: أخبرني نهلان الذي عملَ عندي بأمرها فهو من بناها، ولستُ خائنًا يا نعمان. إنها موجودةٌ حقًّا؛ لكن ذلك لا يعني أن الوَبَاصُ يقف مع شيحان ضدنا.

زيد: وماذا لو حاربنا الجوازِل ومنع الوَبَاصُ عنَّا الماء؟ سنهلكُ لا محالة.

سعد: لن يمنع الوَبَاصُ عنَّا الماء أبدًا، وتلك الآبار لا تكفي الجوازِل كثيرًا. هكذا قال نهلان وأكَّد على كلامه.

زيد: الوَبَاصُ اللئيم يُريد الهلاك لنا، وقد تأكَّدنا أنه هو من دفع الزعزاع للانقلاب علينا في حربنا الأخيرة مع الجوازِل.

أصهب: لا تشتم الوَبَاصُ يا زيد، فهو ملكنا وسيدنا، وبيننا مودةٌ وعهدٌ لم ولن ينقطع.

الجاسم: ما الوَبَاصُ إلا سيّد قبيلةِ كبرناه علينا، فعن أيّ عهدٍ ومودةٍ بيننا وبينه تتحدّث يا أصهب؟

نظرَ الجميغُ إلى أصهب وسعد وهما واجمان بعدما وقعا في كلامهما فلم يحسبا حساب هذه المناظرة، واسودّ وجه أصهب وهو يستمع إلى الشتائم تُلقَى على الوَبَاصِ، الملكُ المبجّل بنظره والذي ستجمعه به المصاهرةُ قريبًا. وفرح الجاسم بالنازلة التي نزلت بهما، وأعجب بطريقةِ زيد بتأليبِ سادة القبائل عليهم. انقلب أحدُ أسياد القبائل على أصهب بعد أن كان مُؤيّدًا لكلامه أوّل الجلسة. فقال: كيف تُدافع عن الوَبَاصِ بكلِّ جرأةٍ ولا تُطلعنا على مالك به علم!

ثار أصهب بغضب: الوَبَاصِ ملكنا، أغدق علينا بعيشٍ رخاخٍ وماءٍ نُفّاخٍ<sup>(1)</sup>. وأين الغازي الآن عن هذه المعمعة؟ إنّه لا يصلحُ لسيادة الحرجف ولا يدري عن شأنها شيئًا. أن لنا أن نختار سيّدًا جديدًا.

تجهّمت الوجوه وحدّت الأبصار وتقاذف الرجال الشتائم بينهم وطافَ الغضبُ بالمجلس. والكلُّ يُلقي بالخيانة على الآخر وكادت السيوفُ تخرجُ من أعمادها، فقام العراف وشدّ جسده النحيل وضربَ بكعبِ عصاه الأرض مرارًا حتى هداُ الجميغ، فمشى خطواتٍ قليلةً حتى توسّط المجلس فتوقف واستند إلى عصاه.

العراف: أخبرتكم أنها اللعنة ما جاء بها شيحان. سنحفّر قُبورنا بأيدينا. اسمع يا أصهب أنت ومن معك. حكّم عقلك وتكلّم بما تعلمم وإلا خرجت من هنا مُعلنًا الفتنة بين القبائل في الحرجف.

أصهب: ليس عندي غير ما قُلته.

الجاسم: لقد ظهرت نواياك القذرة. أين ابنك سري يا أصهب؟

(1) النُّفّاخُ : الماءُ البارِدُ العذبُ الصّافي.

نظر أصهب إلى الجاسم بغضبٍ عارم: أرسلناه إلى الوَبَاصِ يُبَشِّرُهُ، فقد عزمنا على قتل شيحان. ورأسه سيكون مهر ابني يُقدمه للزواج من هند بنت الوَبَاصِ.

انفضّ المجلس، وقام أصهب وأتباعه يُريدون الخروج فأوقعوا العراف أرضاً بان دفاعهم، وتشابكوا مع أوس وأبناء عمومتهم، وأوشك أن يُقتل بعضهم بعضاً لولا تدخل سهيل بن عياش وزيد وباقي القوم فمنعواهم، وخرج أصهب وسعد يتوعدان قتل شيحان وإعلان الحرب داخل الحرجف وخارجها، وأوس يشتمهم جميعاً: انصرفوا أيها الملاعين، بان مكركم ووجهكم القبيح. لأقتلنكم فرداً فرداً. وعمّ الهدوء بيت الجاسم وبقي سادة القوم عنده، وقد مالت كفة سهيل بن عياش وكفّتهم للجاسم ضد أصهب، لكنهم آثروا أن يُرأب الصدع فطلب سهيل أن يُصلح بينهم، ورفض الجاسم ذلك فحثّه زيد أن يتروى، فالهْدُنَةُ خبيرٌ للجميع في هذا الوقت، خصوصاً أن كل بيتٍ يتحرق لقتل شيحان، وقبيل الجاسم بتدخل سهيل لوقف الفتنة وتعاهد معه على حماية شيحان وعدم البدء بأي نزاع حتى يُفصل في شأنه ويعود الغازي للحرجف. وخرج سهيل مع وجهاء الحرجف لبيت أصهب ليُعقلوه ويكفّوا شره.

انطلق قيس مع باقي أبناء عمومته إلى مجلس الحرجف لحمايته، وأرسل إلى الطبيب بأمرٍ من والده ليُغيّر على جراح شيحان، ودخل رجلاً إلى مجلس الجاسم وكانا من الذين يتربّون أحوال مدينتهم ومدينة الجوازل، فأكّدوا أنّ الأوضاع طبيعية خارج الحرجف وكذلك داخل الجوازل ولا شيء يدعو إلى الريبة، وانصرفا تاركين الجاسم ومن عنده في حيرتهم والأسئلة تدور في أذهانهم: متى يأتي الغازي؟ أهي الحرب في الحرجف! هل يتجرأ أصهب على اقتحام المجلس؟ الخائنُ الماكريريدُ أن يتزعم المدينة ويصبح سيدها. أيقف أهل المدينة معنا أم معه! لقد قسّمنا لقسمين يا شيحان، ولا نعلم هل ستقسمنا أكثر من ذلك! إنها اللعنة كما قال العراف..

صفتن زيد وهام فسأله نعمان عما يخفيه، فتدارك شرود ذهنه مُبدئياً انتظاره عودة الغازي أو خبر من عنده، ورجَّح أنّ موعدهم قبل الغياب، كما أسرّ أمامهم بحيرته إن أدرك ثابت الغازي قبل أن يطلب هند لقصي أم لم يُدركه! والعراف، الذي جلس مُمدداً على مقعده كالجريح من أثر سقطته، سأل زيد بخباثةٍ عن توقّعاته لردّ الغازي وماذا سيفعلُ بأمر شيحان! فرّبما لا يجتمعون معه قبل أن يرجع الغازي. وبالفعل لم يكن لأحدٍ أن تطرق لهذا السؤال، وشعرَ الجاسم أن زيدا كان يتحدث بهذا الأمر مع نفسه وخشي أن يطرحه كي لا يُسأل عن رأيه به، فأصبر أن يعرف رأيه في هذا الشأن وما يخفيه، وطلبَ منه أن يُخرج ما في عقله. صمت زيد قليلاً ثم قال: لقد أغفل الغازي مسائلَ عديدةً يلزم أن يُراجع نفسه فيها، عليه أن يُعيد حساباته في أمر الوَباص، قبل أن يتخذ قراره في شيحان.

الجاسم: لن يتعجّل الغازي بالقرار، ولو قرّر شيئاً لراجعناه فيه حتى يتبين كل ما في أنفسنا، فاطمئن يا زيد.

أوس: كأنك تدعوان لأن نقف مع شيحان ضد الوَباص!!

زيد: ربّما يكون ذلك، أصبحنا لا نعلم حقاً من أشدّ عداوةً وخطراً، أهو شيحان أم الوَباص! أم الفتنة مع أصهب! ولا ندري من سينضم إلى أصهب من سادة الحرجف ورجالها!

أوس: أيعقل أنّ شيحان يُريد أن ينتصر لآلهتنا بالقضاء على الوَباص الذي نشر عبادة القمر في منطقة رأس الخيل!

العراف: إنك تُهطرق يا أوس، لم يتقرّب شيحان من الأصنام يوماً، وذلك أشدّ ما أمقته به.



رجع سهيل بن عياش ومعه بعضُ سادة القوم لبيت الجاسم ووجوههم عابسة، فما أن هدأوا وجلسوا على مقاعدهم حتى أخبروا الجاسم بأن أصهب يُعطي مهلةً حتى رجوع الغازي بالقرب العاجل، وعليه أن يُقتل شيحان بيده أو يترك سيادة القبيلة لغيره؛ مستغلاً كل الرجال الذين يطلبون الثأر منه. ثار أوس على هذا الرد، وأبدا معارضته وطلب من الجاسم أن يُعطيه الإذن بحمل السلاح وسرعة التصرف، فرفض ذلك وطلب منه الهدوء والتعقل حتى عودة الغازي، فإن كان لا بد عن القتال مع أصهب كان به. وخرج سهيل وسادة القبائل من المجلس ليقضوا حوائجهم وأعمالهم، وهم جميعاً ينتظرون عودة الغازي بفارغ الصبر، بينما شيحان مُمددٌ في فراشه وقطع القماش التي وضعها الطيب تُغطي جسده، فينتظر للقيود بقدميه ويتأمل سقف سجنه وأصواتُ طرق الحديد تتردد في ذهنه.

## الفصل الثاني

### الحنظل والعلقم

حظيت مدينة الجوازل بخصوصية حيوية حيث توسطت منطقة رأس الخيل كنجمة بيضاء في جهة حصانٍ أملح، وإلى الجنوب منها تمركزت مدينة العصوف وملكها الوَباص بن ضامر، ومدينة القلباء بزعامة الزعزاع بن حمزة متقابلتين كطرفي المقص إذا فُتِح. وتبعد مدينة الجوازل بمقدار أربعة فراسخ أو أكثر عن مدينة الحرجف الأقرب لها والتي تعلقها من جهة الشمال. ولم تكن قبيلتنا (شَيَارَ وَأُوَهْدُ) بعيديتين، فاستشرفنا مدينة الجوازل من الجهة الشمالية الشرقية على جبلين متقابلين. يقطعهما وادٍ جاف يلتفُ على مدينة الجوازل، ويمضي بارتفاعٍ مُتدرِّجٍ شمالاً فينتهي عند مدخل مدينة الحرجف وعلى بوابتها الرئيسة.

لم تُشرق الشمسُ ضاحكةً كعادتها هذا اليوم على مدينة الجوازل عُقبَ مُغادرة سيدها وفارسها شيحان إلى المجهول، فأصبحت الأسواق شبه خاوية من التُّجَّار والنساء، والقليل من الأولاد يلعبون بين زقاقها كأنَّ سُكَّانها هجروها أو خرج رجالها للحرب. وحاول كبارُ مدينة الجوازل أن يثنوا شيحان عن زيارته الخاطئة بنظرهم إلى الحرجف، غير أنَّه أصَرَ على ذلك وأمرهم بالالتزام بما عاهدوه عليه، فقد عاهدوه بالصلح مع الحرجف حتى وإن قُتل في سبيله. وقد عزمَ شيحان على كشف قناع الوَباص وردَّ كيده المكتوم في نحره، وطلب من قومه أن يثقوا به ولا يستيئسوا، فخططهُ المحكمة وأساراه الماحقة ستحميه وسيقلبُ بها المنطقة رأساً على عقب. ولم يكشف شيحان لأهل الجوازل أسراره

التي وضعتهم بين الأمل فيها والحيرة منها؛ فلها وقتها المحدد كما أخبرهم، وإما يتمكن من استغلالها فتُكشَف، أو يُحافظ عليها في أعماقِه وأعماقٍ من يعلمها غيره فتظهر في أوانها، ولم يملك أهل الجوازل حين ودّعوا شيحان إلا الثقةَ به، والدعاء له أن يُفلح بمقصده.

اجتمع أبناء العمومة والأصهار منذُ الصباح في بيت شيحان وكانَّ عندهم عزاء، فاجتمعت النساء بمجلسهن على الأرائك الخشبية المتينة، وجلس الرجال في مجلسٍ طويل بمقاعد ومحتوياتٍ بسيطةٍ وألوانٍ هادئة، حيطانه زُيّنت بسيوف شيحان اللامعة والمعكوفة التي صنعها وعلّقها في صدر مجلسه فخراً بمهنته. واحتضن المجلس: مالك بن مطلق الشيخ الوقور طويل اللحية حسن الوجه، (عم شيحان) وابنه ضرار وبعض أحفاده، وجلحد بن ربيعة وأبناءه الثلاثة، وهمام بن سليمان ابنُ عمّة شيحان وولديه. كما ضمّ مجلس النساء بنات شيحان الثلاثة، رُبي وسلمى وصبا، وأمهم رحانة بنت سليمان أخت همام، وعمّتهم بدور زوجة همام، وابنتها شروق، وريم بنت جلحد زوجة الليث. والليث بن شيحان الشاب الأبيض حسن القوام ذا الوجه الرقيق خفيف العارضين، علم أنّ عمته بدور تُخفي سرّاً من أسرار والده، فألحّ عليها أن تسرّ له به منذ خرج والده للجرجف فرفضت وزجرته أن يسألها مرّةً أُخرى، فأوصى زوجته ريم بنت جلحد أن تحتال على عمته وتستعين بابنتها شروق، علّها تكشفُ بعضَ ما عندها وتأتيه بما يُشفي غليله وقلقه.

دخل الليث مجلس الرجال متجهماً عابساً بعد مناورته الأخيرة مع عمته بدور، فجلس والقلق يعتصره على والده ومصيره في الجرجف، فواساهُ الجميع مُقدّرين تخوّفه على شيحان إلا صهره جلحد بن ربيعة، وكان جلحد طويلاً جسيماً في بُنيته ناتق الجبهة عاري الأشجاع<sup>(١)</sup>، خشناً في تعامله ولا يُجامل، فنهز الليث وطلب منه تحمّل مسؤولياته

(١) الأشجاع : عروق ظاهر الكف.

بشدةٍ وتعقل. التفّت الليث إلى خاله همام بن سليمان، وهو زوج عمته بدور ذو جسدٍ نحيلٍ أجنأ<sup>(١)</sup> ولحيةٍ مخضبةٍ بالحناءِ غائر العينين وحمش<sup>(٢)</sup> الساقين، فسأله إن أخبرته بدور شيئاً مهمّاً فنفى همام قاطعاً الأمل.

ليث: هل تنتظر عمّي بدور أن يموت والدي فتُطلعنا على أحد أسرارهِ!  
جلحد بغضب: حسبك يا ليث فقد أوجعتنا. أتريدُ أن ننوحَ كالنساء! أم نفتح عزاءً قبل وقته! إن جاءنا الموتُ رحبنا به، وإن جاءتنا الحرب أشعلناها، وإن جاءنا الصلحُ كُنّا أهله. فدع الأمور تمضي لما تقضي، وثق بوالدك فهو أدرى بما أقدم عليه.  
ضرار بن مالك: صدقت يا جلحد، ما أخفى شيحان عنّا شيئاً قط إلا تحوّطاً، هو سيّدنا وأدرى بما علينا أن نعلمه، لعلّ السرّ يُخصّه فلا يكشفه إلا مُجبراً!  
مالك بن مطلق: على رسلكم، فحقّ الليث أن يحتار! إنّ شيحان يمتلك من الغموض عن مدينة الحرجف ما ملكه والده وشقيقي صخر، لم يكن يكشفُ لنا كلّ الخفايا التي يعلمها، وقد قُتل في الحرب وترك أموراً كثيرةً مُعلّقةً بيننا.  
همام بن سليمان: وبدور أيضاً، لقد عانت الكثير في مدينة الحرجف وهي عندهم، لذلك لا تُحبّ أن تذكرها.

لم يقتنع الليث بجلوسه في المدينة مكتوف الأيدي، فكشف لهم مخاوفه من غدر أهل الحرجف فيقتلوا والده، لكنّ ضرارا بلحيته المهذّبة وعينيه التي بها غمضة خفيفة بدّد مخاوف الليث بابتسامةٍ هادئةٍ على محياه؛ وأقنعه أنّ شيحان لو لم يلمس بأهل الحرجف الكرامة والمروءة لما سلّم رقبته لهم، وطلب منه أن يصبر ويصبروا؛ فربما يأتيهم من ينظر في الآبار، أو تأتيهم الأخبار؛ خصوصاً أنّ جلحد قد اتفق مع أحد رعاة الحرجف

(١) الأجنأ الذي في كاهله انحناءٌ على صدره.

(٢) حمش الساق: ساقٌ دقيقةٌ نحيفة.

أَنْ يُقَابِلَهُ وَيُسْرَلَهُ بِمَا يَعْرِفُ، وَقَدْ أَجْزَلَ لَهُ الْعِطَاءُ وَوَعَدَهُ بِالْحِمَايَةِ وَالْعَيْشِ الْكَرِيمِ إِنْ أَحْسَنَ صُنْعًا.

سَأَلَ هَمَامٌ: وَأَيْنَ سَتُقَابِلُ الرَّاعِي يَا جَلْحِدُ؟

جَلْحِدُ: سَأَتُنْكِرُ بِلِبَاسِ رَاعِي، وَأَلْقَاهُ عِنْدَ شَجَرَةِ (الْمَجْنُونِ).

ضَحِكَ مَالِكٌ وَعَلَّقَ هَمَامٌ: أَلَمْ تَجِدْ غَيْرَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ يَا جَلْحِدُ! أَظُنُّكَ أَنْتَ الْمَجْنُونُ صَاحِبُهَا.

جَلْحِدُ بَابْتِسَامَةٍ مَآكِرَةٍ: وَمَا لَا تَكُونُ أَنْتَ صَاحِبُهَا يَا هَمَامُ! أَوْ خَالُكَ مَالِكُ! فَأَحَادِيثُ الْغَرَامِ لَا تُفَارِقُكُمَا أَبَدًا.

سَأَلَ مَهْنَدٌ، الْإِبْنَ الْأَكْبَرَ لِجَلْحِدٍ: هَلْ حَقًّا مَا يَقُولُونَهُ عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ! لَا أَظُنُّ مَجْنُونًا مِنْ أَهْلِ الْحَرَجِ صَعِدَ وَعَلَّقَ ذَلِكَ الْمُنْدِيلَ الْأَحْمَرَ بِأَعْلَى غِصْنٍ فِيهَا، أَظُنُّ الْهَوَاءَ حَمَلَهُ فَعَلِقَ وَالتَفَّ بِهَا، وَلَيْسَ لِرَجُلٍ أَنْ يَعْتَلِيَ ذَلِكَ الْجَبَلَ، وَإِنْ وَصَلَ قِمَتَهُ فَكَيْفَ لَتِلْكَ الشَّجَرَةِ الْجُرْدَاءِ أَنْ تَحْمِلَهُ! أَلَمْ تَرَوْا مِيلَهَا! لَوْ أَنَّ عُصْفُورًا حَطَّ عَلَيْهَا لَوَقَعَتْ أَرْضًا.

مَالِكٌ: وَمَاذَا تَحْسِبُهُ مِنْ أَهْلِ الْحَرَجِ يَا مَهْنَدُ! رَيْبًا كَانَ ذَلِكَ الْمَجْنُونُ مِنَ الْجَوَازِلِ أَوْ مِنْ بَاقِي الْقِبَائِلِ، وَالْجَبَلُ يَقَعُ فِي مُفْتَرِقِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْجَمِيعِ.

هَمَامٌ: لَوْ كَانَتْ الرِّيحُ مِنْ عَقَدَتِ الْمُنْدِيلِ لِأَخْلَتَهُ بَعْدَهَا، الْمُنْدِيلُ رُبُّطٌ بِيَدِ رَجُلٍ قِطْعًا، وَالَّذِي رِبَطَهُ يَعْلَمُ قُوَّةَ الشَّجَرَةِ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ. ذَلِكَ الْمُنْدِيلُ عَمْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَا يَزَالُ مَرْبُوطًا وَمَا زَالَتْ الشَّجَرَةُ ثَابِتَةً، أَظُنُّ صَاحِبَهُ يَؤَاظِبُ عَلَى زِيَارَتِهِ وَرِعَايَتِهِ حَتَّى الْيَوْمِ.

ضَحِكَ جَلْحِدُ: وَكَيْفَ لِمَجْنُونٍ أَنْ يَخْتَبِرَ قُوَّةَ الشَّجَرَةِ يَا هَمَامُ؟

هَمَامٌ: إِنَّهُ لَيْسَ مَجْنُونٌ الْعَقْلُ، بَلْ مَجْرُوحٌ الْقَلْبُ وَمَجْنُونٌ الْهَوَى. إِنَّهُ الْعَشَقُ مِنْ قُوَّةِ عَزِيمَتِهِ، أَظُنُّهُ وَعَدَ مَحْبُوبَتَهُ بِحَبِّ أَيْدِي وَحَالَاتِ الظُّرُوفِ بَيْنَهُمَا وَفَرَّقْتَهُمُ الْأَقْدَارُ وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِحَالِهِ، فَأَلْتَقَى بِنَفْسِهِ عَلَى أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْهَزِيلَةِ، وَجَعَلَ الْمُنْدِيلَ وَجَعَهُ الدَّائِمَ وَجَعَلَ مِنْهُ قِصَّةَ حُبٍّ تُنِيرُ دُرُوبَ التَّائِمِينَ.

جلحد ساخراً: وربما يكون وعد حبيبته أن يفعل ذلك ووافقت لتتخلّص منه. ماذا لو طلبته أن يعيد منديلها!

تتابعث الضحكات والسُخریات على شجرة المجنون. الشجرة الجرداء التي تضربُ جذورها رأس ذلك الجبل العالي بين مدينتي الجوازل والجرجف وجذعها وأغصانها اليابسة منحنيةٌ كأنها تُعاقق السماء، وصمت مالك بن مطلق كثيراً وهو يستمعُ للروایات والقصص التي يتناولونها عنها، فقاطعهم:

كان اسم تلك الشجرة قديماً (شجرة النذيرة)، وكانت مُثمرةً مورقةً وارفةً الظل، لخضرتها بهجةٌ تسرُّ الناظرين. واعتاد أهل منطقة رأس الخيل الاعتكاف عندها يوماً في كلِّ عام، وتحتها أخذت العهود وقُدّمت النذور، ولم يجرؤ أحدٌ أن يلمسها أو يفكر بقطع عُصنٍ منها، بل خشينا أن ندوس على أوراقها إذا سقطت. وذكروا أن رجلاً صعد إليها واقتطع عُصناً منها فحلّت عليه لعنتها فأخذ يصيحُ ويمرغ جسده بالتراب ويضرب رأسه بالأرض حتى لقي حتفه.

ضرار: وهل حقاً تجرأ عليها ضامري يا أبت؟

مالك: نعم، لقد ملك ضامرُ جُرأةً لم يملكها أحد ذلك الزمان، وأطلق على الشجرة سهماً أمام جمعٍ غفير، فقبحه أسياد القبائل على فعلته وذمّوه غيبةً، كما لعنه النُسّاك والكهنة وادّعوا أن الشجرة لعنته حينما تأخّر نسله، فلما بُشّر بولده الوحيد اسماه الوَبّاص، ومضى سادةُ المدن والقبائل يُباركون له حاملين العطايا الثمينة، فأدام الأفراح وأولم الولايم في مدينة العصوف سبع ليالٍ كاملة، وخصّص لسادة المدن والقبائل بئرماءٍ من آبار العصوف يسقون منها دون ممانعةٍ أو صد. هديّةً بقدم نجله الوَبّاص وكسر لعنة الشجرة التي يبست ولم تُورق بعد ذلك العام.

ليث: أخبرني يا عماء، لماذا نَقَمَ جدي صخر على ضامر وهو يُحارب الجرجف؟ .

مالك: آه يا بُني، لقد طالَت الحرب بيننا وبين الحرجف حتى نسينا أسبابها. ستون عامًا مرّت منذُ اشتعلت الحرب، كانت حياتنا هنيئَةً مسالمَةً قبلها ولم يعكس صفو أهل المنطقة شيئًا. ما زلتُ أذكرُ طعم البهجةِ العارمةِ حينما تحطّ قوافل التجار المحمّلة بالبضائع الهندية والرومية والفارسية رحالها في أسواق المدينة، فتُنصبُ السُرَادِقَاتُ<sup>(١)</sup> الكبيرة مُزِينَةً بالشرائط الملونة والأعلام، وتمتدّ فُسْحٌ كبيرة أمامها والنيرانُ تشتعلُ في الهواء الطلق استقبالًا لكبار ومسيري القوافل والسُفن التجارية الذين يربطون الشرق مع الغرب، وكان والدي مطلق يستقبلهم بابتسامةٍ وترحيبٍ كبير، والحراس والخدم يتناولون الخيول المسرّجة منهم ويقومون على خدمتها ويلقون العلائق على رقابها، والغلمان يطوفون على الجميع بكؤوس الشراب، وأصوات الضحكات تتناغم مع الجوّاري والراقصات يرقصن بأزيائهن الملونة مع إيقاع الطبول والغناء.

وضامر سيد العصفوف، ومدينته الأكثر حظًا بالمياه التي افتقرت إليها باقي المدن، كان قائدًا فذًا راجح العقل، استطاع بحكمته أن يُحقّق الرخاء والسلام والأمان في منطقة رأس الخيل، فدأب على عمل الولائم واللقاءات مع سادة القبائل والتُجّار ليحافظ على تلك الأجواء التي جعلت من المنطقة كلها سوقًا قويًا وتجارة رائجَةً ينعم بها الجميع، وأصبح هو محطّ احترام وتقدير سادة المدن وزعماء القبائل. أما شقيقي صخر فعدّ ما قام به ضامر من تواصل مع المجاورين، ما هو إلا درء للحسد ولخلق جوٍّ من الألفة كي تنعم بلاده بالرخاء، وليحافظ على مكانته في السيادة وتمكين مدينته من بسط نفوذها على جغرافية المنطقة.

في تلك الأيام تزوّج صخر من الرباب بنت ورنه، وكان عمّها عمران هو سيد الحرجف آنذاك، وأنجبت رباب ابنتها بدور في السنة الأولى من زواجها، فأصبح صخر في زياراتٍ

(١) سُرَادِقَاتُ :- مُفْردها سُرَادِقُ : خيمة يجتمع فيها الناس في مناسبة عامّة.

دائمة لمدينة الحرجف، وتوطدت علاقته على أثرها مع حنظلة بن عمران وأصبحت حميمةً جدًا، وانضمَّ لهما الربيعة (أبو جليحد)، وكان ثلاثهم دومًا يجتمعون في أسفارهم وسهراتهم ولهم أسرارهم التي أخفوها عن الجميع، وبقدر ما كان صخر يُحبُّ حنظلة وأهل الحرجف بقدر ما كان يكره العراف ياقوت، الذي لطالما حاول أن يفتن بين صخر وحنظلة بسمومه الحاقدة الحاسدة.

واستمرت الحياة بسلاسة ويسر إلى أن جاء هادم اللذات ومفرق الجماعات، الشرّ المستطير، بداية حقبة مليئة بالدماء والصراعات التي لم يحسب أحد حسابها. كان ذلك عندما نهض والذي مطلق فزعًا من منامه وموجهٌ رعبٍ عارمةٍ بللت قميصه من العرق، فصرخَ حتى جمعنا كلُّنا عنده، وأحضرتُ له كأس ماءٍ دلّقه بجوفه دفعةً واحدة وبلل لحيته وقميصه، وطلب حضور العرافة عشتار في تلك الساعة المتأخرة على عُجالة، فقد رأى حلمًا مزعجًا زلزل مفاصله ولم يكن الأمرُ عنده يستوجب التأخير. أرسلنا الخادمة لتحضر العرافة، فيما أخذ والذي نفسًا عميقًا ونزل عن السرير وأخذ يذرعُ المكان ذهابًا وإيابًا، ويحدث نفسه: يا له من حلمٍ قضّ مضجعي، أدعو الربّ ألا يكون تأويله سيئًا. وما زال على تلك الحال حتى حضرت العرافة عشتار تحمل بين يديها تخت الرمل وصدفاتها العجيبة وكانت تتمم بكلامٍ غير مفهوم، وما أن دخلت إلى حيث يجلس والذي بادرا إليهما قائلاً:

أسعفيني يا عشتار، لقد رأيت حلمًا كان عليّ أشدّ من وقع الحسام، قضّ مضجعي وهزّ كياني وأربك تفكيري.

قالت العرافة: ليحميك الرب يا سيد القوم من كل همزات ولمزات المنام، وما علق في قلب الأنام، قل لي ما الذي رأيته! علني أتدبر أمره وأفك غموضه وغوره.

استند والذي وأخذ يسرد لها الحلم: رأيت أنّ لي طائرًا أبيض، وبجانبه طائرًا أسود، ليس غرابًا فأجزم ولا بازًا فأرسو. كنا يمرحان واقتتلا فجأةً دون أن أعرف سببًا، وهجم



طائري على ذلك الطائر وضربه بمنقاره على رأسه وطرحه صريعاً، وتخضّب لون طائري باللون الأحمر واتجه صوبي وما زلت أحسن بتلك الدماء على وجبي ويدي. ما هو تأويلك لمثل هذا الحلم! واصدقيني القول إن كان خيراً أو شراً.

فردت عشتار تخت الرمل وألقت ما بحفتتها من أصدافٍ، وخطت بأصبعها أربعة خطوطٍ متعرجة، وظهرت على وجهها علامات غير مبشرة بالخير، ولذت بصمتٍ لاذع، مما جعل والدي يرتعد خوفاً وينظر إلى شفيتها بتمعنٍ كي تتحدث وتعبّر عما رأت بالحلم. ورفعت العرافة بصرها نحو والدي تطلبه الأمان فصاح بها أن تتكلم.

قالت العرافة وهي تنظر إلى تخت رملها: إنه نبأ عظيم، وشرٌ جسيم سيحلُّ على أهل المنطقة بسبب هذه الرؤيا. أما طائرك الأبيض فهو أحد أولادك، سيقتل رجلاً له مكانةٌ وحظوة، فتدب الحروب والثارات ويكثر القتل والويلات. واغفر لي يا سيدي إن كنتُ أنا من يؤول هذا الحلم الخطير، وأتضرع إلى الربِّ القدير ألا يُفسره كما رويته لك.

ولم يطلع صباحُ تلك الليلة إلا وصخر والربيعة بباب مجلسنا والدماء على ملابسهما وساعديهما فأيقنا أن الشر قد وقع، فصدقت رؤيا والدي وتفسير العرافة، وأخبرنا صخر أنه قتل صديقه ورفيق دربه حنظلة بن عمران، وكان مُجبراً على ذلك بعد أن نشب خلافٌ بينهما من شدة السكر سرعان ما تطوّر لسحب السيوف. وأرسلنا وفوداً من كبار القبائل لعمران لحقن الدماء وإخماد لهيب الغضب، وطلبنا من ضامر التدخل ل تهدئة النفوس وعقد مصالحة بيننا وبين الحرجف ووعدنا خبيراً، لكن عمران قام بتسيير جيوشه لقتالنا طلباً للثأر. وزادنا موقف ضامر حيرةً في حربنا؛ فكان عليه أن يُنذرنا بعدم قبول عمران للصالح، والأدهى أنه سمح لأهل الحرجف أن يتحكّموا بأبار الماء في العصور ويمنعوها عنا أثناء حربنا معهم وعلى مرأى من جنده وأهل مدينته. وقد عزم صخر أن ينقلب على ضامر في أول فُرصةٍ تسنح له بعد قتال الحرجف، لكنّه قضى في أول عامٍ من الحرب وقُتل معه الربيعة في اليوم نفسه، فانكسرنا بعده انكساراتٍ

متتالية، وكانت كل هزيمة أشد من سابقتها، وخاننا بعض قومنا وعلى رأسهم شيار وأوهد، فبايعوا الوياص ملكًا بعد أن ضمن لهم عدم دخول عمران مدينة الحرجف، فبنس ما شروا به أنفسهم وسُحِقًا لهم.

ولم يكن مجلس النساء بعيدًا عن القلق العارم الذي اكتنف مجلس الرجال حتى سروا عن أنفسهم بالأخبار القديمة، بل كان أشد توترًا وألمًا. بدور تقعد بجسدها النحيل في المجلس شاحبةً ساندةً ظهرها إلى الحائط وقد غطت نفسها بغطاءٍ خفيفٍ يدفئ قدميها المتعبتين من وجع السنين، ولم تكن قسوتها وغلظتها في التعامل مع الناس إلا من بعد أن خاضت مُعتركات الحياة واعتصرت ألامها، وجميع النساء حولها كُنَّ يواسينها ليُخَفِّن من أحزانها وبؤسها، كيف لا وهي الأكثر تخوفًا وقلقًا على أخيها الوحيد شيحان، وأخذت ريم تراوغها بالكلام مرّاتٍ ومرّاتٍ كما وعدت زوجها الليث حتى تكشف أسرارها معتمدةً في خُطِّها على ابنتها شروق لتُحَثَّ أمها على الكلام، وكانت شروق بنت همام صبيّةً جميلةً الوجه مليحةً الخد، لها عينان واسعتان تشبهان عيني والدتها وفمّ صغير وأنفٌ مستقيم يزيدنها جمالًا.

شروق: يا أمي الحبيبة، دعي عنك الحُزْنَ وحدثينا عن مدينة الحرجف، هل كانت

جميلة؟ ألا تشعرين بأي شوقٍ إليها؟

ريحانة: كفى يا شروق، إنَّ أمك في غنى عن الكلام الآن، فلا تزيدها وجعًا.

شروق: إنما أردت أن أستفسر عن الحرجف، فلم تُحدِثني أمي عنها أبدًا.

في الواقع إن بدور كانت هائمةً في شيحان والحرجف، تستعيدُ ذكرياتها البائسة المدفونة والتي لم تُطَّلَع عليها أحدًا، فضمرت الحزنَ في قلبها وظهرت الكأبة على وجهها. تهتد بدور وأخضعت رأسها ونظرت إلى قدميها تتأملُ جسدها الهزيل وعادت بنفسها إلى السنوات الغابرة، ثم بدلت نظرها إلى ابنتها شروق فحمدت الرب وشكرته أنها لم تُعاني

كما عانت هي، ولم تُحرم مما حُرمت هي منه. وصمتت بدور طويلًا ثم استهلّت حديثها مُفاجئةً الجميع.

عشتُ فتاةً مُدَلّلةً عند جدي ورنه بالحرجف وعند جدي مطلق بالجواز، وكنتُ صغيرةً لم أتجاوز السادسة من عمري ولم يكن شيحان مولودًا. شعرتُ آنذاك بأني أملكُ الدنيا وأطيرُ فرحًا فلم تكن أيّ خلافات بين الجواز والحرجف آنذاك، وفي تلك الليلة القاسية وأنا بين أحضانِ أُمِّي نائمة في ضيافة جدي ورنه، أيقظنا والدي صخر وعلى وجهه ملامح غامضة يصعب تفسيرها، فوضع يده على فمِ أُمِّي كي لا تثير الجلبة، وهمس لها بأنّ أمرًا جلا حدث معه، وقبل أن تهض أُمِّي نظرت باستغرابٍ إلى تصرفه، واتسعت حدقتا عينيها حينما وقع بصرها على يديه وملابسه الملطّخة بالدم، فلما أخبرها أنّه قتل ابن عمها وصديقه حنظلة بن عمران، شهقت ولطمت على خديها وعلى رأسها وكتمت بكاءها، وقد خيّرها والدي أن ترحل معه إلى الجواز أو تبقى عند أهلها، فأخبرته والدموع تفيضُ من عينيها أنّ مصابهما واحد ولن تعيش دونه مهما حصل.

ولم نلبث إلا لحظاتٍ حتى حملني أبي وخرج بنا عبر ممرات قصر جدي متسلّين كاللصوص، فلم نصطدم بأيّ عائقٍ حتى خرجنا من بوابة القصر، وظهر أمامنا شيخٌ رجلٍ يمرّ بجانبنا فتملّنا وكان العراف ياقوت، شملنا بنظرة عميقة ثمّ تابع سيره ومضينا حتى وصلنا إلى طرف مدينة الحرجف، وانزويينا عن الطريق حيث كان ربيعة يمسك بلجام جوادين وينتظر قدومنا بفرغ الصبر. لن أنسى في مُخيلتي ذلك المكان المخيف الذي لقينا ربيعة فيه، كان القمرُ بدرًا وقد رأيتُ جثة حنظلة ورجلين آخرين مُمددين على الأرض غارقين بدمائهم، حتى غطّى والدي عيني بكفّ يده وحملني على جواده واعتلت أُمِّي جوادها، فضرب ربيعة بباطن كفه على مؤخرة الجياد وطلب من والدي الرحيل بسرعة واعدًا إياه أن يُخفي كلُّ شيء وينقل الجثث بعيدًا ثمّ يلحقنا، وانطلق أبي وأُمِّي يهبان الأرض نهبًا على ظهر جواديهما إلى أن وصلنا الجواز ليلاً، فدخلنا بيتنا وظلّ والدي

يتقلب وينتظر الربيعه حتى أقبل، فمكثنا قليلاً ثم غادرا لبیت جدي مطلق يُخبرانه بوقوع المصيبة الكبرى التي قلبت حياتنا رأساً على عقب، فاشتعلت النيران ولم يُفلح الوسطاء أبداً في حل النزاع ووقف الحرب فدامت حتى اليوم.

في بداية الحرب كنتُ مع أمي في مدينة الجوازل، ولم تمضِ بضعة أشهر حتى قُتل عمها عمران وأخوها بكر (أبو الغازي)، واستلم جدي ورنه سيادة القبيلة، وعانت أمي الأمرين ووقعت بين البينين فناحت وحدها في مدينة الجوازل على فقد أخيها بكر، ولم تجد من النساء من تواسيها، وقد خسرن هُنَّ أيضاً رجالهن وأبناءهن على يد أهلها، ولم ينته العامُ حتى رجع أهل الجوازل حاملين جثةً والدي صخر وجثةً ربيعة مقتولين، وحينها فقط، بكت نساء الجوازل مع أمي حزناً وتشاركن معها بالبلاء.

لم تُطق أمي العيش في مدينة الجوازل وكلُّ الأنظار تراها ابنة أعدائهم، وهي أرملةٌ من غير أهل، فطلبت من جدي مطلق سيد الجوازل أن يسمح لها بالعودة إلى أهلها فلم يجد ما يمنعه من ذلك، ورجعنا إلى الحرجف عند جدي ورنه وبكينا والدي عند من قتلوه بسُيوفهم، وقلما خرجنا من البيت خوفاً من أنظار أهل الحرجف القاتمة العابسة والكلمات الجارحة التي لطالما انهالت علينا حتى من أبناء وبنات عمومة أمي.

عانينا الأمرين هُنا وهُنَا، وكانت الكارثة حين علمَ جدي ورنه بحملِ أمي، فغضب كثيراً وأقسم أن يقتل مولودها إن كان ذكراً، ولم تعد أمي تعلم أين تهرب وأين المفر، فأسلمت أمرها وظلّت تدعو على مَرِّ الأيام والليالي الطوال بالألا يكون ما في بطنها صبيً فيقتل. لن أنسى ذلك اليوم حين حانت ساعة الحسم وماتت أمي وهي تضعُ مولوداً فكان ذكراً، وانتحبتُ بكاءً عند قدميها ووجهها قد غُطي بوشاحها. ماتت أمي وتركتني وحيدة ولم يحزن جدي لموتها؛ بل اكتفى بسؤال خالتي والجواري عن المولود: أصبيُّ هو أم فتاة؟ فلما علم أنه صبي، دخل علينا وببده ذلك الخنجر اللامع المرصع بالحلي ولم يُكَلِّف نفسه عناء النظر لابنته الميتة، وكانت النساء خلفه يجرينَ ويبكينَ ويتوسلنَه أن يرحم هذا

الطفل ولا يقتله، وقد لطم جدي خالتي الصُّغرى فأسقطها أرضًا، وعبثًا حاول خالي الهيثم (أبو أوس) أن يمنعه.

وهرعتُ إلى أخي أحمله وأضمّه بين يدي ولم يكن عليه ما يُغطي جسده الرقيق، فأخذتُ وشاح أمي الذي غطى وجهها وكسوتُ به أخي، وحضنته بكل ما أملك من قوّة. وتقدّم جدي ومدّ يديه إليّ وصرخ تلك الصرخة التي هزّت جسدي كالزلازل: أعطني إياه. لم أطل الوقت وأنا مُغمضةٌ عيني وتائهة من الخوف، حتى جحظتُ عيني وشددتُ على أخي وكاد يموتُ خنقًا بين يدي، وصحّتُ بجدي: لن تلمسه إلا على جُثتي، لم يبقى لي أحد سواه، سأأخذه وأرجل به مع عابري الطريق، حينها فقط نظر جدي ورنه لجثّة أمي وتأمّلها، وأدرك أنها ماتت وفارقت الحياة وخلفت وراءها طفلين بائسين لا حول لهما ولا قوة، فارتخى جسده ثم نظر إليّ وأنا أعصر أخي خوفًا، وقال بصوتٍ حزين: لن يُقتل أخاك ما دُمتُ حيًّا. وبعدها خرج وأوصى بدفن أمي، فدخل خالي الهيثم وربت على كتفي وطلب مني أن أسمى أخي شيحان، دون أن يكلف نفسه النظر إليّ وجهه.

نزلت الدموع الثقال من عيني بدور وهي تروي بداية آلامها التي تجرّعها وهي طفلةٌ يئمتُ الوالدين قبل أن تبلغ الثامنة من عمرها ومعها أخوها الصغير الذي لم تُبصر عيناه بعد، ولم يجعلها قاسيةً كالأرض الصلِفة إلا ما كابدته من ضيق العيش وكدره، وبكت النساء عليها في المجلس أكثر مما بكين عندما سمعن قصتها، وأسقوها كأس ماءٍ ثمّ باشرت الكلام الذي أخفته سنوات في جوفها.

عشتُ منبوذةً أنا وأخي شيحان ولم نسلم من الهمز واللمز، وازداد البلاءُ علي حين مات جدي ورنه وتسلمّ الغازي سيادة الحرجف خلفًا له، وقد كان خالي الهيثم أولى بالزعامة فنأى عنها وتركها له حيث عدّ رجل تلك المرحلة، لما تحتاج للشدة والحزم بين أبناء قبائل الحرجف، وتحتاج للقوة في حربهم مع الجوازل.

وبعد وفاة جدي ورنة، حاول أهل الحرجف ومعهم العراف ياقوت قبخته الآلهة أن يقتلوا شيحان وهو ابن خمس سنوات، فاجتمعوا عند بيت الغازي وطلبوا رأسه، وافضين أن يكبر ابن صخر سيد الجوازل بينهم، ولم يقف بوجههم إلا خالي الهيثم فزجرهم بغضبٍ وعنفٍ الغازي بشدة، وأمرني حينها أن أذهب بشيخان لبيته ونهاني عن مغادرته أبداً، وذلك ما فعلت، فجعلتُ شيخان يلزم البيت، وأوهمته بأنه سيمرض وستحرق الشمس وجهه لو خرج إليها. وعشنا عند خالي في بيته سنوات حتى مات، فوجدنا أنفسنا منبوذين في بيت جدي ورنة في غرفةٍ ضيقةٍ للخدم لها بابٌ واحدٌ وليس فيها أي شرفة، وبقدر ما عانينا فيها من برد الشتاء كانت أرحم لنا من خارجها، كان الظلام يُخيم علينا قبل الجميع، وتسطع الشمس علينا بعد أن تُشبع أهل الحرجف من حرارتها ونورها، ولم أتمكن وقتها من الاستمرار بالكذبة التي أوهمتها لشيحان؛ فالشمس أصبحت ضرورةً لا بُدَّ عنها ولن تحرق وجهه ولن يمرض إن خرج إليها.

عاني شيحان كثيراً فلطالما رجع داميًا ممزق الثياب من الأولاد الذين يشتمونه ويلقون عليه الحجارة ويلقبونه بالجوزل، وكان إذا رجع إلى الغرفة والدم ينساب منه يرفض أن ألمسه وأنظر في جراحه، فيلقي رأسه على الأرض وينام بعد أن يُطيل نظره في سقف الغرفة الحقيرة، حتى كبر وأصبح يخرجُ إلى المدينة دون أن يكثر لأحد، وقلما عاد وفيه ضربةٍ أو بدا عليه العبوس حتى نسيتهُ متى آخر مرة بكى فيها. ولم يكن لشيحان أصحابٌ يُحدثهم، فاعتاد أن يغلو بنفسه في أعالي جبال الحرجف حتى يُخيم عليه الليل، ولطالما طلب مني الرحيل إلى الجوازل، وكننتُ أرفض طلبه خوفاً من المجهول وقسوة الحياة، وأمنعه بحجة أن أهلنا تجاهلوننا وهم يعلمون أننا كالعبيد عند أهل الحرجف.

كبرتُ وأصبحتُ صبيةً ولم أفرق بين نظرات الحبِّ والشفقة التي ألقيتُ إلي، وظننتُ الجاسم ابن خالي يحبني من حسن معاملته ورفقه بي، فلمّا تزوج، علمتُ أن مشاعره كانت شفقة، فمن سيفكر بي زوجةً له بتلك الثياب البالية! وأنا أعمل مع الخدم وأكل

معهم من بقايا الطعام. واستمرت الحرب بين الحرجف والجوازل، ولم أكثرث بالسؤال عنها أو عن قتالها وكأنني لا أنتمي لأي طرفٍ فيها، لكنني كُنْتُ أعلمُ لمن الدائرة بينهم من احتفالات الحرجف في انتصاراتهم، فيشربون ويثملون ويذبحون الذبائح. ويوزعون الطعام والولائم بين الناس ولعابري السبيل.

بلغ شيحان الخامسة عشر من عمره وبدأ العمل بصناعة السيوف عند رجلٍ يُدعى آزاد، أغدق عليه بلطفه وعلمه فنون القتال بالسيف، وأُعترفُ أنني خفتُ عليه حينما حمل سيفًا من صنعه، وخشيتُ أن يشتدَّ عوده كثيرًا فيُكسر من غلظة أهل الحرجف وحقدهم عليه. وذُهلْتُ حين أحضر لي شيحان ملابس ومناديل جديدة. وفرح حين شاهد غبطتي بها وتركتي أردتها، كانت طويلةً علي، لكني لم أجد أجمل منها في حياتي فزيتُ السواد في قلبي بعدما نسيْتُ الابتسامة لسنوات. لم أعمل بتلك الملابس في شؤون الطبخ حتى جاء ذلك اليوم الذي ارتديتها وخرجت بها من غرفتي، فشاهدتني زوجة الغازي (أم قصي) وشتمتني وطلبت مني أن أنظف غرفتها، وما أن هممتُ بذلك مكسورة الجناح حتى أمسك شيحان بيدي، وسحبني إلى غرفتنا وأمرني أن آخذ كل حاجاتنا ونذهب لمكانٍ آخر، وخرجنا لا أعلم أين حتى وصلنا بيتًا صغيرًا استأجره شيحان من آزاد، فأخرج مفتاحه من جيبه ودخلناه.

استمرَّ شيحان بعمله في صناعة السيوف، وكان ماهرًا في صناعتها وأعجبَ آزاد فلم يبخل عليه في شيء، بل ائتمنه على محله عند أسفاره لطلب الحديد والبضائع. وبقينا على حالنا ذاك بضعة أعوام حتى خرجتُ إلى السوق يومًا، فشاهدتني العراف ياقوت وحرصَ بعض صبيان الحرجف عليّ وجعلهم يسخرون مني ويرمونني بالتراب والحجارة، وهو ينظر إليهم مُبتسمًا بما يفعلون، وحاولتُ التملص منهم حتى سمعتُ صرخاتهم فنظرت وإذا به شيحان ينهال عليهم ضربًا، فصاح العراف وجمع رجال الحرجف عليه، وأخذوا سيفه بغمده وخلعوه منه، وأمروه ألا يحمل سيفًا أبدًا وإلا قتلوه. وفي عصر ذلك

اليوم، جاء الجاسم ابن خالي بكرومعه بعض الرجال وأمرنا بمغادرة المدينة. وبالفعل أنهى شيحان أموره مع آزاد وأخذ منه بعض السيوف وابتاع حصانين. ورحلنا عن الحرجف مع الغروب دون أن نلتفت لها.

كان ذلك اليوم آخر عهد بدور في مدينة الحرجف، ونظرت النساء إليها شفقةً وبؤساً على حالها، وقامت شُروق وقبّلت رأسها ومسحت الدموع من خديها وطلبها أن ترتاح من الكلام ولا توجع القلوب أكثر من وجعها. وتأملت ربحانة وقد حرّمها شيحان هذا البوح المخفي في الصدور، ولطالما أحسّت أنّ قلبه مُعلّقٌ بخيوطٍ عشقيّ قديم، فسألت بدور على استحياء إن كان له حُبٌّ في الحرجف! فأجابها بدور أنّ شيحان كتوم لا يُفضي بأسراره، لكنّها لمست عنده بعض الحُبّ المحكوم بالفراقٍ قسرًا. وسكّنت جميعًا في المجلس حتى سألت ريم بدور عمّا حصل بعد الحرجف، فحمدت بدور الله وشكرته على رجوعها إلى الجوازل واللقاء بأهلها، رغم المنغصات التي عانت منها هي وشيحان بعد ذلك، وتابعت حديثها:

مشينا إلى الجوازل وحلّ الليل علينا، ووعدني شيحان أنّ حياتنا ستغدو أفضل عند أبناء عمومتنا وعند جدنا مطلق، وأقسم أنّ يعوّضني عن النذل الذي لقيناه، وطلب منّي ألا أخاف وأخشى شيئًا، وأخرج من خُرج حصانه خنجرًا وأعطاني إياه، وأوصاني ألا أتركه أبدًا وأن أستعمله إن اقتضت الحاجة إليه!. لم تُكن الطُرق تلك الأيام آمنةً فوقفنا بالقرب من أحد الجبال نتوارى عن البرد والأنظار، واستكشف شيحان المكان وعابنه، فأنزلنا متاعنا وفراشنا وأشعلنا النار، ثم تناولنا القليل من الطعام، وبعدها استلقيتُ على الأرض وغطيتُ نفسي، وتركتُ شيحان يجمع المزيد من الحطب لباقي ليلتنا. حلّ الظلام، وسمعتُ نعيقَ بومٍ، فتفحصتُ مكانه وتبيّنته، وظهر طيفه على الأشجار القريبة التي تراقصت أغصانها تحت ضوء القمر الخافت، فغطيتُ رأسي واختفت الأصوات



وسمحتُ لعيني أن تكشف بعض ما حولي، وشَقَّ السكونُ فجأةً عواءَ ذئب، لكن التعبَ كان أقوى فسرعان ما باغتني النوم، تاركَةً شيحان يتأملُ النجوم وكأنه يُحدثها.

انهضي يا امرأة... صحيتُ فزعةً على صوت رجالٍ مُلثمين أحاطوا بي، ففُطِعت أنفاسي والسيوف تلمع أمامي مع وهج النيران، وارتعدت مفاصلي وأُخرجتُ المنديل وغطيت به رأسي المكشوف، وضممتُ غطائي بشدةً أعتصره بيدي. حتى صاح أحدهم: مع من تُسافرين أيُّها الحسناء؟. نظرتُ حولي وإذا برجلين آخرين يُفتَّشان جيادنا ويُبعثران متاعنا منها. كانوا خمسةً فُطِيعاً طرق، تَلَقَّتْ ولم أر شيحان في فراشه ولم يظهر أمامي! ولم أعلم أين هو، وظننتُهم قتلوه فصرختُ بأعلى صوتي: شيحان.. شيحان، أين أنت يا شيحان!.

قال أحد الرجال: من هو شيحان؟ أهو زوجك، أم عشيقُك وتَهْرَبِينَ معه؟

قال آخر: أظنُّه قد هرب ونجا بنفسه. نَعِمَ الرجلُ أنت يا شيحان.

صاح أحد الرجال عند الجياد: يا علقم، وجدنا مالاً وسلاحاً!. علمتُ أنَّ علقم هو كبيرهم وزعيمهم، وكان أترم<sup>(1)</sup> ذا منظرٍ مخيفٍ وفي وجهه أثر ضربةٍ وعيناه بارزتان. وضعتُ يدي تحت الغطاء وأمسكت بالخنجر برفقٍ ولم أدري ماذا أفعل، أهرُبُ أم أقتل نفسي! ثمَّ نظرتُ لهم واسترحمُهم نفسي الضعيفة: خذوا المال والخيل ودعوني وشأني.

علقم: ههه، ليس من المروءة أن تترك وحيدةً في هذا المكان أيُّها الجميلة! اتحسين

أنا مثل شيحان!

اقترب علقم والرجلان مني، وعلمتُ أنهم يُريدون بي شراءً. الموتُ أهون من أن يلمسَ أحدهم شعرةً من رأسي، أُخرجتُ الخنجر ووضعتُه على عنقي: سأقتل نفسي إن اقتربت مني.

(1) أترم: من كسرت سنه من أصلها.

علقم: مهلاً يا امرأة، لا تؤذي نفسك. قالها وما زالت خطواتهم تقتربُ مني. غرستُ الخنجر في عنقي قليلاً ولم أشعر بألمه من طغيان الخوف وسريانه في جسدي، حتى سمعتُ صرخات الموت بالخلف عند الجياد. إنه شيحان.. شيحان، نعم شيحان. لقد ظهر لهم على غفلةٍ قطعن رجلاً في صدره، وعرسَ سيقاً في بطن الرجل الثاني، ثم ركله وأسقطه وسحب السيف منه فتطايرت دماؤه وتناثرت على الأرض. ثم تقدّم وعيناه تلمعان شرراً، وكلتا يديه تلوح بسيفٍ عطشٍ غاضب، فاقترب من الرجال الثلاثة الباقين، وحُبست أنفاسهم خوفاً وترتثوا، وعلقم ينظر إليه بعينٍ حذرةٍ حائرة وخشي مقاتلته، فقد صقل عمله بالحديد ذراعيه وقسى عظامه وظهرت مهارته بحمل السيوف كما بدت عليه الثقة والشدة، ولا يرمي رجلٌ نفسه بين خمسة رجالٍ إلا إن كان درباساً لا يخشى الضباغ، ولعمري أنك سيد السباع يا شيحان.

ترددت خطوات الرجال بين تقدّمٍ وتقهّؤٍ، وشيحان كالصخرة لا يتزحج عن موضعه، وسحبتُ نفسي خلسةً من خلفهم وتسلّلتُ صوب شيحان حتى احتميتُ خلفه، فطلب مني أن أسرج الخيل وأركب حصاني وهو ينظر إليهم: ركبتُ حصاني وجلبتُ الآخر له، فأمرني أن أسبقه فسبقته متخطيةً الجُثتين وعلى مرأى من قطاع الطُرق. كان شيحان واثقاً من نجاتنا منهم، لكنه أترأ أن يتجنّب القتال مع بقيّتهم، فترك المال لهم ووعد علقم أنه سيرجع له ويقتله هو وجميع الرجال معه.

مضينا ولم نتوقف حتى طلع النهار ونحن على مشارف الجواز، فوقفنا ننظر لها نظرةً الأمل والخوف، ومد شيحان يده وأعطاني ماءً لأشربه، وأخبرني أنه تخفى بين الأشجار لعلمه بوجود قطاع الطرق في المنطقة، وتجنّب أن يُخبرني بذلك فيعتريني الخوف أثناء السفر، ولم يتأخر عني في خضّم ذلك الموقف إلا ليتأكد من عدد الموجودين منهم ومواقعهم، فيحتال عليهم. وحينما سألتُ شيحان مُمازحةً إياه: ماذا لو كانوا سبعة أو عشرة رجال! ماذا ستفعل؟. قال لي والغضبُ يشعّ من وجهه لشكّي في موقفه: لو كانوا

ألفَ رجلٍ لقتلهمُ يا بدورِ قبل أن يلمسكَ أحدهم. ثم تأتَى قليلاً وقال لي: أتراكِ تحسِين  
أني لن أرجع لهم وأقتلهم!

أنهت بدور قصتها على مشارف مدينة الجوازِل، فتاةً قاربت الثلاثين عاماً من  
عمرها، وجاء اليوم الذي انتظره أخوها شيحان ليرجع فيه لقبيلته ومدينته.

وفي مجلس الرجال وبعد قصصٍ طوال، ازداد الليث تهاً وقلقاً من المجهول، وشعرَ  
أنه يتقلّب بدوامٍ من الأسئلة والفضول، وقد جهل الكثير من الأمور في المنطقة كما جهل  
ماضي والده شيحان، ولم يكتفِ من طرح الأسئلة على الموجودين حتى اغتاضوا من  
إلحاحه، وعتّفوه بأدبٍ ودعوه إلى الصبر وترك الأمور تأخذ مجراها، ولم يفهموا أنه يسعى  
لأن يُمسك زمام الأمور قبل أن تتطوّر الأحداث وتلتهب، وعليه أن يعلم الغتّ من السمين  
فيُنهي فضوله وقلقه. ولذلك جزم الليث أنّ ذلك الوقت هو الأنسب لمعرفة كلِّ ما يُريد،  
بينما ظنوا أنّ أسئلته ليست ضرورةً ولا في وقتها، فبدأت زفرائه تصح كمن يكظّم غيظه  
ويعتصره وهو يشدُّ على جانب مقعده.

ليث: إما أن تُحدّثوني بما أريدُ الآن وإما بلا.

جلحد: ماذا تعني بقولك يا ليث؟

ليث: سيكون قراري من رأسي فقط، ولن يكون لكم فيه أدنى رأي. فلستُ بحاجةٍ  
لمن ينصحي ولا يقتنع بي كسيدٍ للجوازِل. فإما سيّد كما هو أبي، أو تركتُ لكم الزعامة  
تتشاركونها بينكم.

جلحد (غاضباً): أظنّ أنّنا نسعى إلى الزعامة يا ليث! أهكذا تعرفنا!

مالك مُقاطعاً: ليس ذلك ما قصده الليث.

جلحد: إذن فما قصده غير ذلك!

مالك: انظرُ إليه يا جلحد: هل تراه ينتظرُك لتكشف له عن خفايا الحرب والقبائل  
إن قُتل شيحان! وهل ستكونُ بوعيك ورجاحة عقلك إن جاءك خبرُ وفاته أم ستتخبط

وتسحب سيفك لتستأنف الحرب! هذا هو الوقت المناسب ليعلم الليث كل شيء. فيما الآن وإما بلا... أصبت يا بُني، قد أن لك أن تُكشّر عن أنيابك كما فعل والدك.

تأمل جلدك وهمام وضرار منظر الليث ونظرات الحزم تملو وجهه. كيف فاتهم تلك المسألة! لم يتخيّلوا أنّ شيحان سيدهم وأعرّفيقي لهم سيقتل، ولم يُفكروا بما بعد ذلك حقّ التفكير، وأدركوا ما قاله مالك، فالليث يطلبُ أبسط حقوقه لاستلام سيادة الجواز، ولم يكن انفعاله جهلاً أو تسرعاً، إنّما مُتطلبات الزعامة ومقاليدها؛ فلن يخدع نفسه ولن يكون صاحب عزيمة وشكيمة إن حارت تساؤلاته، فيما يأخذ الزعامة عن جدارة واستحقاقٍ أو لا يُريدها.

جلدك: تحدّث أنت أولاً يا أبا ضرار وأخبر الليث بما يُريد معرفته وما يُعينه على ما أمامه. تحدّث، فأنت أكبرنا عمراً وقدرًا، وأنت أعلمُ بكلّ الأمور.

مالك: سنتحدث جميعنا بما نعلمه، ماذا تُريدُ أن تعرف يا ليث؟

ليث صارمًا: كلّ شيء. أريدُ أن أعرفَ كلّ صغيرة وكبيرة.

ضحك الجميع على شهية الليث وشغفه، ووعدوه أن يُلبّوا رغبته ويُخبروه بما يُريد حتى يجزع، فأمامهم ساعاتٌ انتظارٍ طويلةٍ ومُقلقةٍ سيُشغلونها بالأحاديث المفيدة. فسألهم عن والده شيحان حين دخل الجواز، وعن بداية حربه مع الحرجف، ولماذا لم يُقاتل ضامر أو الوَباص قبل الآن؟ والعديد من الأسئلة التي تحفرُ الماضي وتُدرِك الحاضر وتُستشرف المستقبل. أرخى مالك ظهره واستند على مقعده:

يجبُ أن تعلم يا بُني أنّ مدينة الجواز ظلمت والدك حينما جاءنا شابًا في العشرين من عمره، فلم تأبه به ولم ترحمه وتركته كالغريب دون أهل. وقد أخطأنا جميعًا بحقه حينما فرّ إلينا، فما قدرناه حقّ قدره واستحققرناه، ولولا سعة صدره لما وصلت بنا المحبة كما هي الآن. لقد كان لوالدك الأسباب الكثيرة ليمتلئ قلبه بالكراهية لنا، فأبت كرامته

وزِنَةُ عقله إلا أن يترَفَع عن صغائرِ الأمور التي عَظَمَناها، حتى صار سَيِّدًا للجوازِل، وسأخبرك عنه من أول يومٍ دخل فيه مدينتنا..

دخل شيخان وبدور صباحًا مدينة الجوازِل هارِبين من ظُلمِ الحرجف وأهلها لهما، وطالِبين العيش في ظلِّ القبيلة التي انتسبا إليها والمدينة التي عُبِّرا في الانتماء إليها، ولما دخلا بيت والدي مطلق استقبلناهم باستغراب! وبكت أختي صباح (أم همام) ووالدي مطلق المقعد حين عرفناهم. كان شيخان يُشبهه صخرًا لأبعد الحدود، بقوامه الطويل وجسده المفتول وأنظاره الحادة، وتفاجأ هو وبدور بأن البيت الكبير لا يوجد به غيرنا، ولا نملك خدْمًا ولا حشْمًا ولا حُرَّاسًا كأدنى بيتٍ في المدينة. دخل علينا شيخان ذلك اليوم وقميصه مُلطَّخٌ بالدماء، فسألناه عن السبب وأخبرنا بأنّه قتل رجلين من قُطاع الطرق، ولم نُصدِّق ذلك وسخرنا منه حينها، خُصوصًا أنّهم من جماعة علقم الذي كان من أشرس الناس وشرّهم في المنطقة، ولطالما أرعبت جماعته المدن ونكّلت بها والجوازِل على رأسها.

لم يَكُن شيخان يعلمُ أنّنا خسرنا كلَّ أموالنا وجاهنا في الحرب، وأنَّ شوكة والدي مطلق وقبيلتنا انكسرت، وأنَّ زعامة المدينة شاغرةٌ يتنافس عليها المتنافسون، وكلُّ سيدِ قبيلةٍ فيها يعدّ نفسه سيدًا على الجوازِل؛ فاعتقد أنّ كل ذلك الكلام الذي كان يسمعه في الحرجف ما هو إلا محضُ كذبٍ وسُخريةٍ منه ومن قبيلته. وفهم شيخان حينها أنّ الحرب انتهت تقريبًا بعد أن أزهقتنا وجرت علينا المصائب وفرقت أهل المدينة، وأدرك لاحقًا أنّ القبائل اختلفت في الجوازِل أبان الحرب؛ فبعضُ أسياها قاطعوا الحرب منذُ بدايتها مع الحرجف، والآخرين تخلّوا عنها بعد أن سئموا لوعتها، والأشدُّ تطاولًا وخسّةً كانوا قبيلتنا شَيَارًا وأُوْهُدُ؛ للذين خانونا بحجّة أن الحربَ ليست حريمهم، وأخذوا ميثاقًا من الحرجف ألا يدخلون الجوازِل بالسلاح أبدًا إذا امتنعوا عن القتال في صفوفنا.

تناقل أهل الجوازل خبر رجوع شيحان بن صخر إلى المدينة بسُخرية واحتقار، وحضر القليل من أبناء العمومة للقائه والتعرف عليه، وأطلعنا على ما حصل معه في الحرجف. ورُبما تبخّرت الأمالُ عنده هو وبدور بعد علمهما بما حلّ بنا وبوهننا، ومن الطعام القليل الذي قدّمناه لهما ليأكلاه. لكن شيحان لم يستسلم، وكيف يستسلم وقد ازداد الغضبُ في صدره لتلك الأحوال التي استقبلته على عتبة بيت جده مطلق!

بات شيحان تلك الليلة كالقتيل من شدة التعب، واستيقظ مُتأخراً في اليوم التالي، فجلس قليلاً مع جده مطلق ثم طلب من ضرار ابني وهمام أن يخرجوا معه إلى المدينة، فخرجوا ثلاثتهم وقد سمعتُ أنّ لشيحان موقفاً في السوق ذلك اليوم ولا أذكره. أفلا يُحدّثنا عنه أحدٌ منكم!.

تنحج جلود وقال: أنا أذكر ذلك الموقف ولن أنساه أبداً، سأكمل عنك حديثك يا أبا ضرار.

دخل شيحان السوق مع ضرار وهمام وعرفنا أنه ابن صخر، وما زلتُ أذكرُ شكله وهو يحملُ سيفين على جانبيه كعادته حتى اليوم، فأخذ يُقلّب نظره على الناس والمحلات والبيوت حوله حتى وصل محلّ (مهران) صانع السيوف، فدخل محله وعرضَ عليه سيفيه وطلب العمل عنده. سمعنا صوت ضحكات مهران حتى خرج وألقى سيفي شيحان أرضاً وسخر منه ومن صناعته، وضحك الجميع على شيحان وما بلغ بقبيلته حتى أصبح ابن صخر يطمع في العمل حداًداً. حاول ضرار وهمام أن يرجعا بشيحان إلى بيت مطلق، لكنه حملَ السيفين من على الأرض ولبسهما، ثم سحهما من غمديهما بكتا يديه، فقطع ضحكات الجميع بصلصلة سيفيه وبريقهما وطريقة حمله لهما، ثم أشار بأحد سيفيه لمهران الذي ارتعس<sup>(1)</sup>، وأدار بالأخر يوجهه على من حوله في السوق وقال: لا

(1) ارتعسَ : ارتعش : أي ارتجف واضطرب.

عجب أنكم خسرتم الحروب وهذا صانعُ أسلحتكم، إن لم تعلموا بنصال السيوف فماذا ستعلمون عن أفعالها!! إنها جعجعةٌ أو جنونُ العظمة، يبدو أن هذا الفتى المغرور لا يعلم عن مكانته شيئاً!! هكذا قال كلٌّ من رآه وكلٌّ من سمعه إلا أنا، فقد لفت انتباهي الدم على سيفيه وبصرتُ إلى الأنياب والمخالب التي يُخفيها. أغمد شيحان سيفيه ومشى باتجاهي، فقطعتُ طريقه وتعمدتُ اعتراضه، فطلب مني أن أتحنى بكل هدوء، فابتسمتُ له وفتحتُ له الطريق حتى مضى يشقّ السوق شقاً.

ولم يمضِ أسبوعٌ واحدٌ حتى تعرفتُ على شيحان وعرفته بنفسه، وأصبحنا صديقين كما كان والدانا، وعرفته بالمدينة وأهلها وبكلِّ ما أراد معرفته عنها، فحدثته عن سطوة شيار وأوهد وتجربهما على أهل الجواز، واستغلالهما العلاقات مع ضامرومع الحرجف في السيطرة على تجارة المدينة والتحكم في سوقها. ظلّ شيحان يتقرّب من أبناء عمومته ومن أبناء قبيلة همام وقبيلتي أيضاً، وكُنّا قبلَ أن نلتقي به نجتمعُ دومًا عند مضارب المدينة نسهر ونتسامر ونلهو. وبعد أن تعرّفنا به بدأ يُؤثّر بنا شيئاً فشيئاً، فأصبحنا نمضي أوقاتنا نتبارز بالسيوف ونتعلّم فنون القتال، ونتحدّث بأمر المدينة وأحوالها، واعتاد شيحان دومًا أن يختلي بنفسه خارج المدينة، ولم نكن ندرى عمّ يبحث وماذا يُريد.

وفي ليلةٍ طلب مني شيحان أن أذهب معه إلى الحانة، وقد ذهلتُ لطلبه وفرحت، فلطالما دعوته إليها ورفض، ولما ذهبنا إلى الحانة وجلسنا، قدّمت لنا الساقية الشراب، فطلب مني ألا أشرب الكثير منه، فلم يأت لي لهو بل جاء ليتعرّف على أهل الجواز وهم يثملون. ارتشفتُ القليل من الشراب وهو ينظرُ حوله في الحانة، فاستدار إلي وقال:

أتعلم أنّ شارب الخمر تعتريه أوصاف أربعة! وذلك أنّه أول ما يشربها وتدبّ في أعضائه، يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاووس، فإذا جاءت مبادي السكر لعب

وصفّق ورقص كما يفعل القرد، فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأُسدية، فيزجرُ ويعرِد ويهذي بما لا فائدة فيه، وإن بلغ المرحلة الأخيرة نام وشخر كما يفعلُ الخنزير.

جعل كلامُ شيحان يضربُ في رأسي وأنا أضحكُ معه، وذكرتُ أمامه كلّ مراحل السكر التي بلغتها قبلاً، ووعدتُه أن أجهدُ بالأصلَ مرحلة القرد أبداً. وتمايلت الرؤوس في الحانة والجواري يرقصن طرباً والأقداحُ تعلو وتُقرع، ورجعتُ الساقيةُ لنا وتمايلت علينا لنملئُ أقداحنا، فامتنع شيحان رغم إلحاحها، فنظرتُ إليّ ورفضتُ أيضاً، فعلمتُ أننا لن نشرب تلك الليلة شيئاً، فذهبتُ إلى مالك الحانة وتحدّثتُ معه وأشارت إلينا بيدها، فأخبرتُ شيحان حينها أننا يجب أن نطلب شراباً حتى لو لم نشربه، أو طردونا من الحانة وظنّوا أننا لا نملكُ مالاً. ابتسم شيحان وقال:

دعهم يفعلوا ما بدا لهم. ثم نظرتُ في الحانة وزبائنها وقال: ألا ترى أنّ معظم من في الحانة يسكرون من قبيلتي وقبيلتك! ألا ترى أننا أسياد الحانة الليلة؟ كيف لصاحب الحانة أن يطردنا منها! اسمع يا جلحد: لن أشرب الليلة ولن أشرب غداً، فأنا بحاجة ماسة الآن إلى عقلي وأنت كذلك.

أخرجني شيحان بنظرتِه إلى المكان عن كلِّ رغبةٍ في اللهو والمتعة وأحوال أبناء عمومتنا يُرثى لها، فيكدون ويشقون صباحاً ثم يُطلبون كالبهائم ويشربون بالأقداح الصدئة مساءً، وعاذل بن شيار يتربع كالمملك في الحانة وحوله رجاله يشربون بأقداح من الفضة والذهب يتملقونه ويستهمزون بمن أرادوا. وصدح صوتُ عالٍ فنظرنا وإذا زهير ابن عمي قد كسر مقعده ووقع من شدة ضخامته وسمنته، والجميعُ أخذ يضحكُ على منظره. وبعد لحظات، جاءنا صاحبُ الحانة مع رجلين من قبيلة شيار، ووقفوا عندنا أمام طاولتنا فعلمتُ أن المصائب قادمةٌ لا محالة، لم يتحدّث صاحبُ الحانة وتولّى الحديثُ أحدُ رجال شيار، وهو يُمسكُ بقدحٍ من الخمر ويتمايل من الثمالة، وقال: يدعوكم سيدي عاذلُ بن شيار إلى الشراب، فقد بدا أنكم ترغبون بذلك لكنكم لا



تملكون المال لشرائه، وبصق في القدرح الذي بيده، وما أرخى يده قدرًا أنملة حتى رفس شيحان القدرح بباطن قدمه ونثر الشراب بوجهه وأوقعه أرضًا، ودفع صاحب الحانة وأسقطه على الطاولة، ثم أمسك بالرجل الآخر وحمله بيديه ورفع، وأسقطه على الأرض سقطه مؤلمةً قطعت الأصوات بالحانة.

لم نتظر حتى يهجم علينا باقي رجال عاذل ورفاقه؛ بل باغتناهم أنا وشيحان وحطّمنا المناضد على رؤوسهم وأسقطناهم جميعًا أرضًا. وقف شيحان أمام عاذل وهو يرجفُ ويرتعدُ في مجلسه من تساقط رجاله، فقال: ألا تدرون من أنا؟! أنا ابن شيار، ستقتلان أيها الأحمقان. لم يلق شيحان بالأ إلى كلامه وأخذ كأس الشراب الذي أمامه وقربه مني وأمرني أن أبصق فيه، فبصقتُ به، والتفت إلى الموجودين في الحانة ومشى بينهم وأمر أبناء عمومتنا بأن يبصقوا في القدرح، وكانوا واجمين ينظرون لنا وكأننا عفاريت من الجن فمشى شيحان بينهم كالمدارد فيما بال عاذل على نفسه خوفًا ورهبةً. امتلأ القدرح من السُّكاري. وكان لزهير ابن عمي نصيبًا بذلك، كما لصاحب الحانة وقد أرغمه شيحان على ذلك، حتى رجع بالقدرح وجلس بجانب عاذل، وأبعد مقعده قليلاً حينما رأى ملابسه مُبللة، ووضع القدرح على الطاولة وقال:

لن تكون أكرم مني يا ابن شيار، هذا ما جمعتُ لك، فاشربه دُفعةً واحدةً وحذار أن تتزك فيهِ رشفةً، وإلا أجبرتك أن تشرب عشرة أقداحٍ غيره، فتغرق الجوازل من بولك. ضحك الرجال في الحانة وتوسّل صاحبها شيحان أن يكفّ عن ذلك، حتى رأى نظرتة الغاضبة فخاف أن يلحقه عقاب عاذل وسكت.

اقترح شيحان على عاذل أن يُشارك أصحابه شرابه الفاخر، فأخضعوا رؤوسهم وأنظارهم في الأرض يخشون أن يرفعوها. وقال شيحان: من لا يشرب معك من هذا الكأس فكيف تأتمنه على روحك يا ابن شيار! هيا اشربها وانصرف. أمسك عاذل الكأس ولا خيار له غير ذلك، ولكم أن تتخيلوا كيف كان منظره وهو يشربها، والموجودين كلهم

يحيوه وهو يقلب كأسه حتى شرهها، ثم خرج من الحانة يوارى لباسه بيديه وتبعه أصحابه هارين. لا أدري أي طعمٍ حوت تلك الكأس غير الذلِّ والمهانة، وحدّرتُ شيحان من ردة فعل شيار وأبناء قبيلته، فضحك وأكّد أنّه لن يفعل شيئاً. وشكّ أن يفضح عاذل نفسه وأبناء عمومته وقد تجرّعوا الذلّ. وبالفعل ذلك ما حدث، فبلغ صيئتُ الحادثة جميع أهل المدينة باستثناء شيار، وقويت أعينُ أبناء عمومتنا وباتوا يتقربون منّا ويفخرون بنا، وأصبح أبناء القبائل الأخرى يهابونا ويحسبون حسابنا.

تذكّر جلحد ذلك الموقف وكأنّه يقف أمامه الآن، فلم ينسأه أبداً وقد قفز شعوره تلك الفترة فوق أسوار الجهل والقهر والذل، واستشرف الشموخ والقوة والعز. وصمت جلحد وأخذ دوره ضرار بن مالك في الحديث.

كنا خارج المدينة نلعبُ بالسيوف كعادتنا ونتبارز، وشاهدنا نفرًا من الرجال يركضون ويصرخون فلحقنا بهم إلى مجلس الجوازل ووقفنا بساحته، كانوا تُجَارًا اعترضهم علقم قبل وصولهم المدينة، فقتل بعضهم وسرق مالهم وبضاعتهم وإبلهم. توافد سادة القوم والتجاريّون عن علقم ويلطمون بسبب خسارتهم للرجال وإبلهم وأموالهم. وكان علقم زعيم جماعةٍ قوامها أكثر من مئتي رجل من اللصوص الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم المشينة، فلم يعترفوا بالمعاهدات والاتفاقيات وعاشوا كالأنشباح يسلبون وينهبون التجار وعابري الطريق دون رحمة، وقد امتازوا بالشجاعة وقوة البأس والمضاء<sup>(١)</sup> وسرعة العدو، وكانت غاراتهم تتركز في المناطق الجبلية الوعرة لترصد قوافل التجار. ولما حضر سادة الجوازل كان شيار وأوهد أكثر الناس تضررًا منهم، فدعوا لمحاربة علقم بفرسان الجوازل واسترداد ما نُهب منهم.

صاح أوهد: سنرسل لهم جيشًا ولنقتلهم جميعًا.

شيار: صدقت يا أبا نمر؟ سُنْجِزُ الرجال الصناديد للانتقام من علقم والخلاص منه.

تحدّث شيحان: أترسلون جيشًا إلى قُطَاعِ طُرُقٍ يا سادة الجوازِل؟  
قطع شيحان الحماس الزائف ونظر إليه الجميع بدهشةٍ فما عرفه أغلبهم وظنوه  
أحد التجار. وتهامس الرجال بينهم وانتفضوا: من تظن نفسك لتقف هنا وتعطي رأيك  
بيننا؟ من أنت؟

أنا شيحان بن صخر بن مطلق. قال شيحان.  
فهقه الرجال وسخروا منه. ثم صاح أوهد: وماذا تريدُ أيها الفتى؟ هل فني الرجال في  
قبيلتكم حتى يأتينا غلمانكم!. هيا اذهب إلى جدك ودلّك له قدميه.

شيار: انصرف من هنا وإلا جعلنا الصبيان يجزّونك في سوق المدينة.  
ضحك الجميع وصاح أحدهم: دعوه يتكلّم، قد مرّ وقتٌ طويلٌ مُذ سمعنا أحدًا من  
قبيلته يتكلّم.

وقف شيحان صلبًا كالحجر وكانّ الكلام لا يعنيه، ولا تعنيه ضحكاتهم؛ فقد علم  
أنهم لا يفقهون في الحرب شيئًا، وليسوا إلا أهلاً للتجارة لا أكثر، فاستدار يتأمّل التجار  
وأشكالهم البائسة ثم قال:

حسنًا يا سادة القوم، إن علقم وجماعته تحت حماية الملك ضامر بصفةٍ غير  
ظاهرة، وقد عاينتهم مرارًا ولاحظتُ أن جماعته يمنحون العطايا له ويحمون قوافله، وإلا  
ما تركهم يقطعون وينهبون دون حسابٍ. ولا يتجرأ علقم على قوافل الحرجف خوفًا  
ورهبًا، فلن يتركوه ولو سرق منهم حبة قمح، إنّما يتجرأ علينا وعلى الضعاف مثلنا؛ لأنه  
علم أنّكم أنتم سادة هذه المدينة، فأنيّ ضعف أنتم فيه! لا عجب أنكم هجرتُم ساحات  
الوغي! فليس عندكم إلا الكلام والثثرة.

أشعل شيحان الغضب في سادة المدينة وسحب شيار سوطه ورفع له ليضربه به، فأمسكه شيحان وسحبه من يد شيارورماه على الأرض. واستل أوهد سيفه وأراد أن يقتله ومنعه الرجال، فأغمد سيفه وهويكيل أفضع الثتائم عليه وعلى قبيلته. وزجره الجميع وسبّوه، وأمروه أن يترك المكان حتى لا يقتلوه ويزداد بؤس جده مطلق، ونفى شيار وأوهد كلامه جُملةً وتفصيلاً، ونعتوه بالكذب والسذاجة، وأكّدوا أن علقم يسرقُ جميع القوافل ومن شتى المدن والقبائل. لم يُزجر شيحان ويُجمع بل أمسك نفسه، وأقسم أن يقتل علقم بيديه ويأخذ كل ما ملكت يديه من أموالٍ وكنوزٍ دون معونة سادة الجوازل، فضحكوا عليه سُخريّةً وقد جهلوه، وسامحوه بأموالهم إن غنمها، وألقوه بأفضع السباب: أحمقٌ مجنون، ذلك الوقح، يجبُ أن نلقنه درسًا كي لا يتجرأ أمثاله علينا، لم يبق إلا الصعاليك حتى يتجرؤوا علينا. خرج شيحان من بينهم وعلى ثغره ابتسامَةٌ لا تُمحي من ذاكرتي، فوقف واستدار لهم وقال: لا تُجهدوا أنفسكم وتُطيلوا تخطيطكم، ولا تُرسلوا أحدًا إلى علقم فلن يجدوا إلا جُنته.

أمرتا شيحان أن نجتمع كلُّ شبابنا عند بيت جدي مطلق، وخصّ منهم الذين اعتادوا السكر والسهر وقلة العمل. وسبقنا إلى بيت جدي فيما ظلَّ شيار وأوهد يُخططون لتجهيز جيشٍ لمعركتهم الأولى. جمعنا أنا وجلحد وهمام أبناء عمومتنا فسُقناهم من الحانة ومن بيوتهم وعيونهم ناعسة ثملة، ودخلنا بهم إلى بيت جدي حيث كان أبناء قبيلتنا مجتمعين. كان الجميع يسخرون من موقف شيحان وتهوّه وقد اختلط مزاحهم بجدهم، وأغاظوه بضحكاتهم ولم يُعيروه اهتمامًا إلى أن طلب منهم جدي أن يتورّعوا وقد أُعجب بكلام شيحان وموقفه، فسكتوا وأغلبُ ظنّهم أنّه خَرَف وقد بلغَ أرذل العمر، وما زال عنده أملٌ بأن تُقام لقبيلته قائمة. وحلَّ الصمتُ بانتظار شيحان أن يُتحفهم بأمانيته ورغباته.

شيحان: عشتُ في الحرجف صغيرًا وأنا ابن الدِّ أعدائهم، ورغم هذا، لم ألقَ إهانةً لقبيلتي أكثر مما لقيتُ في عقر دارها، ورأيتُ بعيني ما وصلنا إليه من سوء الحال، وأرى

وعليكم أن تروا مثل ما أرى أنه حان وقت النهوض، فأنا أطلبُ منكم تجميع رأيكم على قلب رجلٍ واحدٍ نُؤيِّيه زعامة القبيلة مهمّة شبابنا. فلانذلّ بعدها ولا نستكين أبداً، فانظروا لأنفسكم واختاروا أحدكم. فما الآن وإما بلا.

لم يكن الحاضرون ينتظرون مثل هذا الكلام، إنها الأوهام في نظرهم. لقد رحل الكثير من أبناء القبيلة وتفرقوا بعد عُسر الحال وقلة المال والضعف، أي كلامٍ يريد هذا الفتى! ألا يدري عمّا أصابنا من والده في الحرب التي أشعلها! لم يكن صخرٌ ليجمعنا في ذروة قوتنا حتى تجمعنا أنت الآن يا شيحان!

اختلطت السُخرية مع الخوفُ في نفوس الحاضرين وهم يتلقفون بينهم وعلى السكارى الذين أحضرناهم إلى المجلس، وخافوا أن يزيدَ شيحان من غضب أهل الجوازل عليهم بما يتصرف به. فالموت والبلاء أو الأمل والرجاء ما يطلبه، وصاح أغلهم:

نحن لا نملك المال الذي نقتات به هذه الأيام. فما المطلوب منا يا شيحان؟! إننا نمشي في الأسواق كالغرباء، ونأكل طعامنا كاللبؤساء، وننام في فراشنا كالجبنةاء. دع الأيام تتكفل بمصيرنا المجهول، ولا تُحملنا شقاءً فوق شقاء، واتركنا نعيشُ بما بقي لنا بسلامة من الأذى، دعنا نعيشُ أيامنا دون أن نُعدّها أو نُحصي لبيالي جوعها وبردها، لعلنا نجد قبورًا تحتضنُ رُفاتنا ورجالاً يدفنون جُثثنا الهامدة. لن يكون لنا سيدٌ أبداً يا شيحان، فمن يجرؤ أن يُرجع حلاله الذي سُرق! أو ماله الذي سُلِب! أو كرامته التي انترعت!

استمع شيحان لما أُفِرغ في صدور الجميع، ثم قال نعم القول الذي لم نُدرکه يومها: إن وصلنمُ إلى هذه المرحلة فقد وصل غيركم لأفضع منها، وقد سمعتمُ ما حل بالتجار من علقم، وليست الجوازل كلها قادرةً على أن يجتمعوا عليه. فلا يؤلنكم حالكم، فالحالُ كلّه أسوء من بعضه. اعلّموا يا قوم، أني قد قطعْتُ عهدوداً لن يحول بينها وبينني إلا الموت، سنقتلُ علقم وجماعته ونأخذُ مالهم وكلّ ما نهبوا في السنين الماضية، وسنفعلُ

ذلك بينما أهل الجوازل يُفكرون ويُخططون، وسيذهلهم فعلنا ويُلقى الشك بأنفسهم وزعامتهم المصطنعة على غيرهم وعليكم.

لم يقتنع الموجودون بكلام شيحان وأماله المحطمة بأعْيُهم وعزمه اللامتناهي إلا لأفزع النهايات، واستنقصوا من شأنهم وشأنه عدا جدّي مطلق، فسألوه:

وكيف سنقتل قطاع الطرق! ومالنا وهذا الشأن؟ ومن سيقاتل منا ومعنا؟ لقد صددت سيوفنا ولانت جلودنا، وتقوست ظهورنا وكملت خيولنا؟ إن أردت سيادة القبيلة فخذها، ليس لك بها منا معونة فاتركنا كما نحن.

قال شيحان: انظروا إلى هؤلاء الفتية، سأقاتل بهم علقم. فإن غلبنا أصبت فيما أصبو إليه، وإن فشلنا، فقولوا إننا سكارى هربنا من المدينة ولقينا ما نستحقّه.

طلب شيحان أن يجمع الشباب ويأخذ السكارى على رأسهم لقتال علقم، ووعدهم أن يجعل منهم فرساناً تفرّ الجبابرة من لقاءهم. واقتنع الحاضرون لحظتها أنه فاقد العقل، فأى شرذمة يطلب له عوناً! هؤلاء الضعفاء لا يقدرّون على ذبح بهيمة حتى يحملون سيفاً. هل هذه الزعامة التي يبحث عنها؟ وبعدها وافق الجميع على أن يولّوا شيحان على إخوانهم وأبنائهم، فلم تكن لهم كلمة عليهم بعد أن تمرّدوا وفقدت الهيبة بكبارهم، واستياسوا منهم وفقد الترابط بينهم واندثرت الحميّة في أنفسهم وأصبحوا لا يجدون أنفسهم إلا في ثمالهم اليومية. فليذهبوا معه إلى الجحيم، ولعلّهم يقتلون فيرتاحون منهم ومن أحلام شيحان البائسة. كان ذلك مُبتغى شيحان أن يُقاتل بأضعف أبناء قبيلته وأقلمه شائناً؛ فإن مات أحدهم لا يُعتبونه، وإن أفلحوا! جعل الذين سخروا منهم يخجلون من باقي رجولتهم المدفونة في أعماقهم.

وركبنا على البغال والحمير وانطلقنا بثلاثمائة رجل أغلبهم من السكارى لقتال علقم، وجميع أهل الجوازل يودّعوننا سخريّةً وداعاً لا رجعة فيه. انتصرنا بتلك المعركة وقتل

شيحان علقم شرقتله، لكنه أُصيب بطعنةٍ في خاصرته أفقدته وعيه، وظننا أنه مات، فحمله جلد إلى المدينة ولقيه والدي مالك وبدور فأشبعوه لطمًا وشتمًا.

ضحك مالك: هل تذكر تلك اللطمات يا جلد؟ ههه.

فقهه جلد بشدةٍ بالغة: أيها العجوز الخرف. أي لطماتٍ بيدك الضعيفة! أنا لم أدرك وجودك ساعتها: كنتُ مصدومًا لظني أنّ شيحان قد مات.

مالك: وأنا لم أكن بوعبي حينها، فكنتُ كمن تلقى ضربةً شجّت رأسه وأنا أنظر إلى بدور تنوح عند رأس شيحان، ووالدي مطلق يذرفُ الدموع الثقال على نهايته ونهاية الأمل الذي عاشه للحظات، ظننتُ أنّ شيحان وجلد أخذوا ابني ضرارا وأبناءنا ورموهم للموت وعادا دونهم بحصانين! وددتُ لحظتها أن أحنق شيحان وأخلص منه قبل أن تسمع بدور أنفاسه، واقتلع رأس جلد بأصابعي، وكنتُ مصدومًا حتى استفاق جلد من حالته وأخبرنا أنّ ضرارًا حيّ وأنهم انتصروا وغنموا. وتوافد أبناءنا وجلسنا نتضرّع أن يُشفي شيحان وأخبرنا جلد بكل ما حدث، فأخفينا ذلك عن أهل الجواز. وقد ازدادت شماتهم بنا وظنّوا أنّ شيحان رجع مقتولًا وأهلك أبناءنا، فقالوا: لو أنهم تركوا بغالهم وحميرهم لأهلهم ينتفعون بها! كما أشاعوا أننا لم نُقم عزاءً لأبنائنا وتبرأنا منهم ومن فعلهم. وجبّز شيار وأوهد جيشًا قوامه ثمانمائة فارسي من فرسان الجواز، وأرسلوهم للقضاء على علقم.

سأل ليث: وكيف كانت المعركة؟ وماذا حصل مع شيار وأوهد بعدها؟

تهد ضرار كمن يمسحُ عرقَ السنين عن جبينه، وفتح يديه كمن يتضرّع بالدعاء وقلمهما وهو ينظر إلى التجاعيد التي تعرّجت بهما كالسيول، تلك اليدان اللتان خاضتا أول قتالٍ لهما وأول اختبارٍ لفروسيته التي لطلما انتظرها، وقال: كنّا ننتظر بفارغ الصبر الوقت الذي نعرف أنفسنا فيه حتى أضحينا على ما نحن عليه، والشرفُ بذلك

لشيحان، فعلمنا أسرار السيوف وفصل لنا كل ذرة بها، وعلمنا كيف ولماذا صنعت، وأين الحدة والقوة فهما؟ ولم ندرك صلصلتها حتى سمعنا أصواتها، وضرينا وقطعنا بها. جمعنا ذلك اليوم السيوف والسهام التي عفا عليها الزمان في بيوتنا، وانطلقنا بها حتى اقتربنا من موقع قطاع الطرق، فأخفينا الدواب ومشينا على أقدامنا حتى وصلنا إلى طرف الجبل المقابل لهم، وتسللنا أنا وشيخان وهمام وجلحد واعتلينا الجبل ووصلنا إلى مكانٍ لطالما مكث فيه شيخان ليُراقبهم. أخذنا ننظرُ بحذرٍ بالغ حتى ظهر قطاع الطرق أمام أعيننا، فرأيناهم وسمعنا أصواتهم وضحكاتهم وهم يفتشون مجالسهم بشقّ الجبل ولم يظهروا جميعاً لنا، وترقبنا تحركاتهم ودرسنا مواقعهم لساعاتٍ وجلسنا نرسم الخطة لقتالهم.

علم شيخان أنّ علقم سيخرجُ تلك الليلة ليقطع الطريق، فقد أخرجوا خيولهم الشقراء، أقوى الخيول وأسرعها عندهم، وأخبرنا شيخان أن بعض قطاع الطرق يحرسون الإبل خلف الجبل الذي يحتمون به، أو ذهبوا بها لبيعوها. وأحكمتنا الخطة ووزعنا المهام على الجميع، وانتظرنا أن يخرج علقم وفرسانه من وكرهم.

غابت الشمس وحلّ الظلام وأشعل قطاع الطرق نيرانهم، وانطلق علقم ومعه سبعين فارساً ومرزوا من جانبنا ونحن نستمتع لحوافر خيلهم وهي تركضُ وتصلحُ فوق رؤوسنا، وظلّ الباقون في مخدعهم. وانطلقنا لناخذ مواقعنا فتحرك جلد مع مجموعته ليُحضرنا بعض دوابنا، وصعد همام بمجموعته الجبل الذي كُنّا نترقب منه، وكان صعب المنال فيطلقون منه السهام ويحتمون به. وتحركت أنا وزهير ومجموعتي لموقع اخترناه بعنايةٍ واختبأنا به، أما شيخان فاستدار للجهة المغايرة منا وتربصُ هناك. وما أن ابتعد علقم ورجاله المسافة المطلوبة، حتى شرع جلد مع مجموعته في التنفيذ، فأخذوا يتضاربون بالسيوف ويتصايحون ويطعنون البغال ويهيجونها كأن معركةً دائرةً في مكانهم، ووقع جماعة علقم الذين لم يخرجوا معه في الفخ، فظنّوا أنّ القتال الذي يسمعون



صيححاته مع علقم وفرسانه، فحملوا أنفسهم على عُجَالِيَّةٍ وانطلقوا مُتَخَبِّطِينَ إلى مصدر الأَصْوَاتِ. ركض شيحان ومجموعته إلى أسفل الجبل الذي نزل منه قطاع الطرق وأطلق صيححته إشارةً لبدء الهجوم. واهتزت الحجارة وانتفضت من شدتها وكانَ صداها للآن يَضْرِبُ أَسْمَاعِي. تَفَاجَأَ قِطَاعُ الطَّرِيقِ وَارْتَبَكُوا وَلَمْ يَفْهَمُوا الْكَمِينَ بَعْدَ، وَأَمْطَرْتُهُمْ أَنَا وَجَمَاعَتِي بِالسَّهَامِ كَمَا فَعَلَ هَمَامٌ، فَفَرَقْنَاهُمْ وَقَتَلْنَا الْكَثِيرَ مِنْهُمْ وَكَانُوا مَكْشُوفِينَ بِالنِّيرَانِ الَّتِي يَحْمِلُوهَا وَلَمْ يَعْلَمُوا مَوَاقِعَنَا، وَهَجَمَ عَلَيْهِمْ جِلْحَدٌ مِنْ جِهَةٍ وَشِيحَانٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَتَحَرَّكَتْ وَمِنْ مَعِي صَوْبُهُمْ فَحَاصِرْنَاهُمْ وَأَثَخْنَا فِيهِمْ وَقَتَلْنَاهُمْ فَرْدًا فَرْدًا، وَخَسِرْنَا الْقَلِيلَ مِنْ رِجَالِنَا.

رجعنا إلى الجبل وقد جاء قطاع الطرق الذين كانوا يحرسون الإبل المسروقة، فركض شيحان وهاجمهم بسيفيه وفَجَّرَ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ يَنْبِوعًا مِنَ الدَّمَاءِ، وَأَضْرَمْنَا فِي مَخْدَعِهِمْ نَارًا كَبِيرَةً مِنْ خِيَمِهِمْ وَفَرَشِهِمْ، وَأَخَذْنَا مَوَاقِعَ جَدِيدَةً اسْتَعْدَادًا إِلَى الْخُطَّةِ الثَّانِيَةِ. كَانَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ كَفَيْلَةً بَأَن تَرْجِعَ عَلْقَمَ وَفِرْسَانَهُ لَهَا، فَلَمَّا رَجَعُوا تَرَجَّلَ بَعْضُهُمْ عَنْ خَيْلِهِمْ وَشَاهَدُوا الْجِثَّةَ الْكَثِيرَةَ، وَمَشَوْا بِحَذَرٍ بَالِغٍ وَاحْتَارُوا أَيَّ مَكِيدَةٍ وَقَعُوا بِهَا. خَرَجَ جِلْحَدٌ وَمَجْمُوعَتُهُ مِنْ عِنْدِ النَّيْرَانِ وَصَاحَ بَعَلْقَمَ أَنَّ يَهْرَبُ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُقْتَلُوا، وَاسْتَغْشَى عَلْقَمَ مِنْ تَمْتَرَسٍ <sup>(١)</sup> جِلْحَدٌ مَكَانَهُ، وَمِنْ عَدَمِ إِقْيَاءِ السَّهَامِ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ مُحَاصِرًا! فَتَقَدَّمَ رِجَالُهُ صَوْبَ الْجَبَلِ بِبَطْءٍ شَدِيدٍ حَتَّى وَصَلُوا أَسْفَلَ الْجَبَلِ، وَمَا أَنْ صَعَدُوا إِلَى مَنْتَصَفِ الْجَبَلِ وَتَوَزَّعُوا بِجَنَابَاتِهِ وَاقْتَرَبُوا مِنْ رِجَالِنَا صَاحَ جِلْحَدٌ فَأَمْطَرْنَاهُمْ بِالسَّهَامِ وَالرَّمَاحِ، وَتَرَاجَعُوا إِلَى الْخَلْفِ فَلَقِيَهُمْ شِيحَانٌ بِرِجَالِهِ، وَانطَلَقْتُ بِمَجْمُوعَتِي وَنَزَلْتُ جِلْحَدٌ بِمَجْمُوعَتِهِ فَحَاصِرْنَاهُمْ وَالتَحَمْنَا مَعَهُمْ بِقِتَالٍ شَرِسٍ. تَمَلَّصَ عَلْقَمَ وَبِضْعَةِ رِجَالٍ مِنْ إِحْدَى الْجِهَاتِ، فَاعْتَرَضَهُمْ شِيحَانٌ وَأَغْلَقَ الطَّرِيقَ بِنَفْسِهِ وَتَصَدَّى لَهُمْ بِكَلْتَا يَدَيْهِ

(١) تَمْتَرَسٌ: قَبِيحٌ بِتَحْفَازٍ وَحَذَرٍ.

فجعل يُمناه للقطع واليسرى للطنن، كما اعتاد على مسك السيوف وصهرها بيساره وطرقها وضرها بيمينه؛ إلا أن طعنه نافذةً أصابته، ولم يبق إلا علقم وحيداً فطلب منا شيحان أن نتركه؛ فقد وعده أن يرجع إليه ويقتله بيده، فتحامل على نفسه ولحق به حتى وصل قاع صخرة فرفع علقم سيفه؛ لكن سيف شيحان كان أمضى وأسرع، ففصل رأسه عن جسده وقال: ها قد بررتُ بوعدِي. ثم سقط مغشياً عليه.

انطلق جلحد حاملاً شيحان إلى الجوازل، وتأخرنا حتى جمعنا موتانا وجمعنا الأموال والأسلحة والصناديق الثمينة التي أخفاها علقم بشقّ الجبل، وطلع الصباح وحملنا الغنائم على البغال والحمير وسقنا المواشي، وركبنا الخيول الأصيلة الشقراء إلى المدينة حتى اقتربنا منها فشاهدنا فرسان الجوازل خارجين للقضاء على علقم! ودُهّلنا كثيراً من خروجهم! ألم يصلهم شيحان وجلحد؟ ألم يلقوهما في طريقهم؟ أما علموا أننا قتلنا علقم وجماعته! تقدمتُ أنا وهمام منهم، ولم تُكن دهشتنا تبُلغ من دهشتهم إلا قليلاً، ولعمري كأنهم ينظروننا كأشباح أو عفاريت، ففُطعت أنفاسهم وتغيرت ألوانهم وهم يلتفتون إلى بعضهم وينظرون لنا ولما نعمله معنا، فبشّرناهم أننا قتلنا جميع قُطاع الطرق، وسألناهم عن شيحان وجلحد، فلم يُصدقنا أحدٌ منهم، فتركناهم يذهبون وينظرون بأنفسهم لذلك الجبل المخضّب بالدم، بعدما أخبرونا أنهم سمعوا أصوات النواح في بيت جدي مطلق وأن شيحان مات.

رجعنا نجرّ أذيال الخيبة بدل أن نرفع أعلام النصر، فبكينا وندبنا أنفسنا على فراق شيحان، وفقدنا لذة الانتصار وفرحته. وصلنا مشارف الجوازل وكان بعض أبناء قبيلتنا ينتظرون عودتنا، فأرسلوا يُبشرون من في المدينة وخرجوا يصيحون ويقرعون الطبول، أهُم فرحين بملاقاتنا! هل أنستهم فرحهم بالغنائم شيحان وعظيم صنعه وموقفه! وصلناهم وزجرناهم على فرحهم الذي ليس له بُد وسيدهم قد مات، فضحكوا وقرعوا الطبول وهلّلوا، وأخبرونا أن شيحان حيٌّ ولم يمُت!. لم تسعنا الأرض من سعادتنا ودُقنا

لَدَّةَ النَّصْرِ لِحِظْتِهَا، وَأَخَذْنَا نَرْقِصُ وَنَلْعَبُ كَالْمَجَانِّينَ رَافِعِينَ سَيُوفَنَا، فَصَدَحَتْ حَنَاجِرُنَا وَصَبَحْنَا: نَحْنُ رِجَالُكَ يَا شَيْحَانَ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ، نَحْنُ رِجَالُكَ يَا شَيْحَانَ، هِيََا أَهْضُ فَيِنَا الْآنَ.

خَرَجَ أَهْلُ الْجَوَازِلِ قَاطِبَةً عَلَى أَصْوَاتِنَا وَنَحْنُ نَهْلُهْلُ وَنَرْقِصُ فَرِحًا، وَخَرَجَ جَدِي مُطْلَقٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ بَيْتِهِ مِنْذُ أَعْوَامٍ لِاسْتِقْبَالِنَا وَالدَّمُوعِ بَعَيْنِيهِ وَائْتَانِ مِنَ الرِّجَالِ يَحْمِلَانِهِ. وَنَظَرَ شِيَارًا وَأَوْهَدَ وَبَاقِي سَادَةِ الْجَوَازِلِ إِلَيْنَا بِتَعَجُّبٍ لَمَّا نَظَرَ بِهِ، وَخَلَفْنَا قَوَافِلُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَائِمِ. لَقَدْ أَشَاعُوا أَنَّنا مَتْنَا وَتَبَرَّأَ أَهْلُنَا مِنَّا! فَلَيَقُولُوا مَا شَاءُوا، نَحْنُ السُّكَّارِيُّ، نَحْنُ فَرَسَانِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ. أَمَرْتُ الرِّجَالَ بِأَنْ يَسُوقُوا الْإِبِلَ وَالْخَيْلَ لِمُرَاعِي قَبِيلَتِنَا وَيَحْرُسُوهَا، ثُمَّ أَمَرْتُ بَاقِي الرِّجَالَ أَنْ يَسُوقُوا الْغَنَائِمَ إِلَى بَيْتِ جَدِي مُطْلَقًا، وَحَمَلْنَا جَدِي عَلَى حِصَانٍ أَصْهَبَ وَمُضِينَا فِي طَرِيقِنَا حَتَّى اعْتَرَضْنَا شِيَارًا وَأَوْهَدَ وَسَادَةَ الْقِبَائِلِ فَسَأَلُونَا عَنِ الْخَيْلِ وَالْغَنَائِمِ أَنَّى لَنَا ذَلِكَ! وَأَخْبَرْنَاهُمْ أَنَّنا قَتَلْنَا عُلُقْمَ وَجَمَاعَتِهِ، وَلَنْ يَرَى فَرَسَاتِهِمْ إِلَّا جِثَّتِهِمْ، فَصَعَقُوا وَلَمْ يُصَدِّقُوا مَا سَمِعُوا وَاتَّهَمُونَا بِالسَّرِقَةِ وَالْكَذْبِ، ثُمَّ تَدَارَكُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْغَنَائِمِ الْمُهَيَّبَةِ وَطَلَبُوا مَا يَمْلِكُونَ مِنْهَا وَمَا يَمْلِكُهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالتَّجَارِ..

صَاحَ أَوْهَدٌ: أَيُّهَا الرِّجَالُ هَذِهِ غَنَائِمُ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا وَبِضَائِعِ التُّجَّارِ الَّتِي سُرِّقَتْ، لَنْ نَسْمَحَ لَهُؤُلَاءِ الرُّعَاعِ أَنْ يَأْخُذُوهَا.

تَقَدَّمَ جَدِي مُطْلَقٌ بِحِصَانِهِ وَأَمْسَكَ اللَّجَامَ بِيَدِهِ وَاسْتَدَانَ رَافِعًا ظَهْرَهُ وَشَامِخًا بِرَأْسِهِ: لَنْ نَتَجَادَلَ مَعَكُمْ فِي حَقِّ هَذِهِ الْغَنَائِمِ حَتَّى يَأْمُرَ سَيِّدُنَا، فَحَذَارُ أَنْ تَقْرِبُوهَا. وَمَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

شِيَارٌ: أَوْلَيْسَتْ سَيِّدُ قَبِيلَتِكَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ؟

مُطْلَقٌ: لَمْ أَعُدْ كَذَلِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَكَمَا قُلْتِ يَا شِيَارَ، مَا أَنَا إِلَّا عَجُوزٌ عَاجِزٌ. سَيِّدُ قَبِيلَتِنَا هُوَ حَفِيدِي شَيْحَانَ بْنِ صَخْرٍ، فَانْتَظِرُوا حَتَّى يَفِيقَ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِكُمْ.

دُهل سادة الجوازل من قول جدي مطلق وقد ظنّوا أنّ شيحان مات، فزادت دهشتهم ونظروا بأنفسهم، وصاح شيار بدهشة شديدة: حتى لو لم يمّت، هل تنتظرنا لنتكلم مع ذلك الصبي المتكبر يا مطلق؟ أرى أنك قد جُننت!.

قال جدي مطلق بكل هدوء: ذلك الصبيّ المتكبر هو سيدنا وفارسنا الآن، قولوا هذا الكلام أمامه إن استطعتم عند لقائه. ولى ذلك العهد القديم يا سادة الجوازل، وقد جاءنا من طال انتظاره، فانتهموا لما يخرجُ من أفواهكم من كلامٍ أنتم في غنى عنه وإلا قُطعت ألسنتكم.

أنهى جدي مقاله وشدّ لجام حصانه، ومضى دون مساعدةٍ أو عونٍ لبيته الذي احتجزه لسنوات، فتبعناه بفخرٍ واعتزازٍ والكُل يخشى أن يُلقى بكلمةٍ واحدة. نعم لقد جاءنا من طال انتظاره، جاءنا من جعل السُكاري فرساناً، وجاءنا من يصهر الحديد ويُلينه ويذوب في قبضته، جاءنا من يُعيدُ أمجاد القبائل التي اندثرت وهي على قيد الحياة. سيكون للكلام وزنٌ لمن ابتغى القولُ من تلك اللحظة، نعم ذلك عهدٌ قد ولى إلى غير رجعة، لقد جعل شيحان في قبيلتنا وقبيلتي جلد ومام ألف شيحانٍ مثله، ولن يشمل رجالنا بعد اليوم إلا شجاعةً، وسيعفرون رؤوس من يُعاندهم ويمرغون أنوفهم بالتراب. آن الأوان الآن أن تُسمع كلمتك يا شيحان، ويمضي رأيك، وتجمع قبيلتك، وتهض بمدينتك.

وعلم شيار وأهد وبقاى سادة الجوازل المصطنعين حينها أنّ القبيلة التي حطمها صخرٍ بقتله حنظلة بن عمران بدأت تتعافى بقتل شيحان لعلقم، وعلموا أنّهم أمام حربٍ قاسيةٍ وشرسةٍ إن أرادوا أن يخوضوها، فالتلّة التي ذهبّت أمامهم تعالي الحمير رجعت تركبُ خيولاً أصيلة، وفرسانهم الذين أرسلوهم إلى قطاع الطرق لم يجدوا أمامهم إلا جُنثًا هامدةً، ومدّما ينزفُ إلى سفح الجبل، والغريان تُحلّق وتطوف فوق الرؤوس المقطوعة.

أنهى ضرار حديثه عند هذه المرحلة من حياة شيحان والدموع بعينيه، المرحلة التي غيرت مصائر حياة قبيلته، لابل القبائل كلها في مدينة الجوازل، كيف قلب ذلتهم وانكسارهم شموخاً وعزة، لقد أخرجتنا من الوحل يا شيحان.

الوبّاص - تأمل راضي

## الفصل الثالث

### خيانة وقيود

استوت الشمسُ في كبد السماء، إلا أن ظلام الشكِّ خيمَ على أهل الحرجف بانتظار ساعة الغياب؛ لعلَّ فجر الحقائق ينكشفُ أمامهم، فمن سيأتهم بالأخبار أولاً؟ أهو ربيع بن مالك وشهاب بن أوس؟ أم سيرجع الغازي بنفسه؟ وماذا سيحصلُ مع شيحان؟ ولماذا ذهب سري بن أصهب إلى الوَباص وبماذا سيعود؟ كلُّ تلك الأسئلة تمَّ طرحها في المجالس العامة والمغلقة. ولمع تحت الرماد وميضُ جمرٍ يُوشكُ أن يَضمَر؛ فثارت الأفكار واشتعلت الشكوك وانتشرت التُّهم عن الخيانات والملاسنات، وبات الجميع يتحدَّثون عن القلائل التي غزت المدينة بدخول شيحان إليها، كباراً وصغاراً نساءً وعلمانا، أهي الفتنة أم الحرب! هل هي الحرب مع الجوازل أم العصوف! هل سيقطع الوَباص الماء؟ وكيف نحيا دونه؟

ومع كلِّ الأفكار والهواجس التي طافت المدينة، كان الجاسم يعيشُ صراعاً مع ذاته، فبقدر ما كره شيحان، وجدَّ في كلامه ما لامس فؤاده وباطنه الساكن، وداعب مخيلته الحائرة فحلَّق به مُتجاوزاً عصر الحروب المنصرمة والفتنة الملتهبة، ومُحطِّماً جيوش الوَباص وأسواره، وحطَّه في أعالي العصوف، حتى أعادته ذاته إلى مجلسه فانتظر مع المنتظرين عودة أخيه الغازي سيد الحرجف الذي لم يسلم من الذم والتجريح..

وعلى باب مجلس الحرجف أمرَ قيس أحد الحراس أن يأخذ الطبيب لشيحان كي يُنظَّف جراحه، فمشى به ونزلا السلالم حتى دخلا زنزانته. جلس الطبيب على السرير

المجاور لسرير شيحان وألقى حقيبته على الأرض وبدأ يُخرجُ منها الدهون والأعشاب، ثم طلب من الحارس أن يُحضر له ماءً ساخنًا، فخاف عليه أن يبقى وحيدًا مع شيحان، فأخبره ألا يخاف ويغلق الباب إن شاء، فخرج الحارس وأغلق الباب خلفه. وأعجب شيحان بالطبيب لثقتة وعدم خوفه.

شيحان: ما اسمك أيها الطبيب؟

الطبيب: سواريا سيدي. كيف جراحك الآن! هل أمتك؟

شيحان: لقد كانت تلك الأعشاب جيدة، أشكرك على صنعك.

تأمل سوار شيحان فرأى القيود المكبّلة بقدميه وقد رُبِطت بسلسلةٍ انتهت بحلقةٍ معلّقةٍ بالجدار، ثم نظر للأسرة المتباعدة، والكنيف<sup>(١)</sup> بزواوية الزنزانة دون ساتر. وللنافذة الصغيرة في الأعلى، التي تسمح للهواء أن يدخل ولأشعة الشمس أن تؤانس وحدة شيحان. قام سوار واقترب من باب الزنزانة ونظر من فتحة خلسةً، فوجد حارسًا يقف بهيأة السلم من الأعلى وبالكَاد تظهر قدماه، فرجع مكانه ونظر إلى شيحان ومشاعر القلق والحيرة ظاهرةً عليه.

شيحان: ما بك أيها الطبيب؟

سوار بصوتٍ خافت وهو ينظر لفتحة باب الزنزانة: إنَّ معي أمانةً لك.

شيحان: أمانة! ممّن؟

سوار: أجب على هذه الأسئلة بصدقٍ حتى تأخذها.

شيحان بدهشة: هات ما عندك.

سوار بخجلٍ وخوفٍ شديدين: هل أنت المجنون؟

(١) الكنيف: كَنيفُ البَيْتِ: المِرْحَاضُ، بَيِّنُ النُّطَافَةِ.

نظر شيحان إلى سوار وأمعن النظر فيه، فتعجب وصُعق وكادت عيناه تخرج من مكانهما، وقال: أنت! أنت! أنت لست من أهل آرام! فمن أين لك أن تعرفها؟  
سوار: إنها عمتي.

شيحان وهو يتأمل ملامحه: آه، لمحتُ بعض الشبه بينك وبين جدك آزاد، لكني لم أعلم بأن له أحفادا!. وما جاء بك للحرَجف؟

سوار: كنتُ مع والدي في مدينةٍ بعيدة، فلما مات حملني نعمان التاجر طفلاً صغيراً إلى الحرَجف، وأوصلني لعمتي آرام وكانت تسكنُ خيمةً ضيعةً، بعد أن أكل زوجُها مالها ورماها بالعرء مع ابنتها وداد. فرقَّ قلب نعمان علينا وحزنَ لما أصابنا من بؤس. وقد كان يعرف جدي آزاد ويحبه، فاشترى لنا بيتاً وأسكننا فيه، وما بخلَ علينا بشيءٍ أبداً.

اقترب سوار وبدأ يخلع الضمادات عن جراح شيحان وهو ينظر إليه شاباً أبيض البشرة رقيق الوجه، جميل المظهر وكأنه طيفٌ من الماضي يجلس بجانبه، فهذا حفيد آزاد، آزاد الذي علمه صناعة السيوف وجعله فارساً، وعلمه الحكمة والشجاعة. آزاد الذي فتح له بيته وأواه هو وبدور في الوقت الذي تنكّر لهما أخوالهما. هذا الشاب من رائحة الماضي الجميل والمؤلّم، ومن رائحة أهل المحبة والوجود.

شيحان: وكيف هي عمك آرام؟

صمت سوار، ثم نظر إلى شيحان وقال: أجب على أسئلتني أولاً. هل أنت المجنون؟  
شيحان: نعم، إنه أنا، بشحمي ولحمي.

سوار وقد أدهشه الجواب، فتدارك دهشته: حسناً، هل أنت صاحب المعروف؟  
شيحان: بل مُرجِعُهُ لأهله.. الجوابُ: نعم.  
سوار: هل سألتَ أو علمتَ قبل أن تَقْتُل؟  
أجاب شيحان بحزنٍ دفينٍ بعينيه: نعم.



هَزَّ سوار رأسه وأخرج من حقيبته منديلاً ووضعته تحت فراش شيخان وأخفاه بحرصٍ شديد، ثم قال: هذه رسالة من عمتي آرام، ولا أرى حكمةً في حملها! فاقرأها بحذر.

شيخان: أولاً تريدُ آرام جواباً على هذه الرسالة؟

سوار: لا أعلم! أظنك أجبتَ.

شيخان: وكيف هي عمّتك آرام، أهي على ما يُرام.

نظر سوار إلى شيخان نظرةً عتابٍ وألم ثم قال: كانت على ما يُرام قبلَ مجيئكَ للجرجف.

سمع سوار وقعَ الأقدام عند باب الزنزانة، فصمتَ وجعلَ يمسحُ بعض الجراح، ولم يُكن يعلمُ أنّه أوجع قلب شيخان وألهب جراحه المدفونة. دخل الحارس ومعه الماء الساخن، ووقف ينتظر سوار لينتهي عمله، فنظّف الجروح وجففها ثم وضع لشيخان بعض الدهون وبعض الأعشاب ثم ضمّدها مرّةً أخرى بقماشٍ جديد، واستأذن الحراس أن يتصرف، فأخرجوه من الزنزانة وأغلقوا الباب ثم أوصلوه إلى باب المجلس، فلقى قيس وطمأنه عن حالة شيخان وأكد على حاجته لتغيير جراحه يوميًا. أخرج شيخان المنديل من تحت فراشه، ففتحه ووجد بداخله رقاً - صحيفةً بيضاء رقيقة مصنوعة من الجلد - وتلك الصحيفة المطوية خطّت آرام عليها رسالةً برزت كلماتها للخارج كالنقش في الصخر، فلامس شيخان امتداد الأحرف بأصابعه كضربٍ يقرأ الكلمات ويخاف أن يجرحها، ونفت الهواء من صدره كمن تناوبت عليه الهموم والأوجاع وتراكت على كتفيه المثقلة بالجراح، ورجع بظهره إلى الحائط وفتح الرسالة بكلتا يديه وبدأ يقرأها.

الرسالة:

(لم أسمع بخبر المنديل الأحمر إلا بعد أن تزوجت: فلما قتلت زوجي حملتُ نفسي واليتامى بين يدي وركبتُ قافلةً توصلني إليك، فما وصلتك إلا ليلةً زفافك، فرجعتُ

بأكيةً ببعض عزة النفس، وزاد بكائي حينما شاهدتُ منديلي الأحمر مُعلّقًا على تلك الشجرة. علّقتُ منديلي الأحمر على شجرتك أيها المجنون، فعلّقت قلبي معه إلى آخر العُمر، وأصبحنا مثلًا للعاشقين ولا أحد يشعُر بنا! وفي كل يوم تحركه الريح فتحملُ أنفاسه لي وتتسرّبُ أحاديث الغرام عنه في مسامات جسدي كقطرات الندى بين الأغصان. لا أدري أيُّ مُصيبةٍ أوقعتَ روحك فيها الآن يا شيحان؛ لكن إن خرجتَ فخُذني معك، أو فُك عقدة المنديل واجعله يرحل في مهبِّ الريح، فقد رثَّ ومهت، ولم أعد عُصن البان الذي وصفته قبل عُقود؛ فتلك الأغصان من ثقلِ الهموم كُسرت، ومن كثر الدموع جفّت أوراقها وتبعثر عيبرها وتقلّص ظلّها).

للحبِّ عجائبٌ يصعبُ تفسيرها وتصديقها! فلا يُمكن لأحدٍ أن يتخيّل أن شيحان الفارس الحكيم ذا العقل الرزين، هو من اعتلى (شجرة النديرة) وكسرت لعتها بعدما فعل ضامر، وغير اسمها إلى شجرة المجنون، فعلق المنديل الأحمر بأغصانها اليابسة، وجعل منه سرّاجًا للتائهين، ولا يعلم بقصته إلا هو وأرام فقط. لم يكن شيحان يعلم ذلك الزمان أنّه سيحارب السيوف التي صنعها وصقلها لأهل الحرجف، فاشتعلت الحربُ بينه وبينهم وقرعت طبولها قبل أن تُقرع طبول زفاف محبوبته آرام، فتزوجت كُرّها لا حُبًا بأسوأ الرجال وأقبحهم، حتى لا يضيعَ مال والدها بعد موته، فمات أزد وضاع المالُ، وطردها ذلك النذل من بيتها، وتركها في العراء مع طفلةٍ صغيرة. وبعد أن علم شيحان عن قلة مروءة زوجها وسوء تصرفه وعشرته معها، تعمد لقاءه في الحروب وقتله شرّ قتلة، فرمّل آرام نُصرةً لها من ذلك الظالم الذي أذلّها، وزار بيتها أكثر من مرة فكان يضيعُ على عتبه المال دون أن يقرع بابه أو يلقِ سلامًا.

اجتمعت مشاعر الحُزن والحنين وعصف الأمواج والسنين في نفس شيحان، فتذكّر الماضي القاسي الدفين؛ وعشقه الأول بين أنياب الوحوش ومخالبها، ونُدور حُبّه العُندي الطاهر، والعهد الذي نقضه ونقضته حبيبته بالأل يفرقهما شيءٌ إلا الموت. وتخيّل شيحان

أرام التي كانت أضعف من أن تحمِلَ همَّها حتى اجتمعت الهمومُ وتكالبت عليها، وما زالت على عهدِها تنتظر من نَسِها، أو تناساها كما تظُن. وقد رحلت له مُستغيثَةٌ ملهوفةٌ، فوجدته يَهَيءُ بفرحه دونها، فحملت كرامتها واليتامى معها، ثم مضت تنتظرُ تصاريْفَ الزمن والأملِ بالمفقود.

تذكَرُ شيحان أصواتَ طرق الحديد ومعلِّمه آزاد يقفُ فوقَ رأسه ويتسم له ابتسامته الوادعة، تذكَرُ وجهه الطيب والبشوش وهو يُحدثه عن خبراته في الحياة من أسفاره ومعاملاته، فأهدى إليه نصائحَ وحكم عديدة، رسَّخت في ذهنه وعلقت في وجدانه. وما هو شيحان يرى نفسه ذلك الشاب في مُقتبلِ عمره، بما لبسه البالية والممزقة، يصهر الحديد أمام آزاد فيحدثه، ويُعطيه جُملةً من حِكَمه:

(يا بُني يا شيحان، لا يُلجِمُ العقل عن التفكير إلا العقلُ نفسه، أنظر إلى نفسك روحًا في جسد لا جسدًا في روح، ولا تجعل ضربك للحديد يُشعلُ الغضب في نفسك، بل استعمله في امتحان صبرك وقوتك لتُدرك معدنك، وتعلم معادن الرجال وصلابتها، فلا تُكثر الطرق بتعبٍ يضرك دون نتيجة تُسرِّك، واعلم أن هذه السيوف لو سُحبت من أغمادها فسيغدو لونها أكثر احمرارًا مما عرفت، فأياك أن تسحب سيفك وقد علمتَ كيف صنَّع ولماذا صُقل. واعلم أن الراحة والسعادة في القناعة وليست في المال، وما المال إلا وسيلةٌ لذلك؛ فإن تَمَّت السعادةُ دون مالٍ فلا حاجة إليه، وإن جاءت بقليله فلا حاجةٌ لكثيره، فكم من صاحبٍ مالٍ أجاعه طمعه فجعله يتلوى ويزداد جوعًا، وكم من حاسدٍ نسي ما عنده فحزن لما وجد عند غيره وأفنى عُمره حزنًا، لا تفقد هيبة الصمت برخيص الكلام، واجعل عقلك لجام نفسك، فلا يغرُك هيجان الخيول طالما أمسكتَ لجامها، وتعلَّم الأدب، فإنه زيادةٌ في الفضل. ودليلٌ على العقل، وصاحبٌ في الغربة، وأنيسٌ في الوحدة، وجمالٌ في المحافل، ودواءٌ لكل مصيبة، وسببٌ إلى درك الحاجة).

لم يحزن شيحان على فقدان عزيزٍ عليه، بقدر ما أحرزته وفاءً آزاد، كانت نصائحه وكلماته لا تغيبُ عنه في أسعد الأوقات وأصعبها، فقد صقلَ شخصيته قبل أن يُحسن صقلَ الحديد، ولم ينسَ أيام الجوع والظلم الذي لقيه وأخته بدور، حتى أغدقَ عليه آزاد بحسن معاملته وثقته به. وها هو سوار يشبه جده آزاد شكلاً وخلقاً، فما أسرع تقلبات الزمن وما أكثر مفاجآته، لقد شاءت الأقدارُ أن يُعالجَ شيحان من ضربات السيوف بيد حفيد الرجل الذي علمه كيف يُمسكها ويضرب بها.

نظر شيحان إلى الحديد المكبلَ بقدميه فأمسكه وفرك ما تحته من جلدٍ متجعّد، ثم أطلق نظره للسماء الصافية خارج الزنزانة عبر النافذة العالية، وأراح رأسه على الوسادة وأرخى جسده، فطال تفكيره وشروده حتى استسلم للنوم وغمضت عيناهُ. وبعد ساعتين استيقظ على صوتِ حارسين وهما يدخلان بطبقٍ من القش عليه الطعام والشراب، تقدّم أحدهما يحمل الطبق، ونظر الآخر إلى الممر بحذر ثم غمز صاحبه فألقى الطعام على الأرض بين قدميه، وأمر شيحان أن يأتي ويأكل منه مثل الكلاب. علم شيحان أنّ الحُراس يمكّرون له ويريدون به شرّاً دون إذنٍ من الجاسم، فما حاجتهم ليتأكدوا من عدم وجود أحدٍ يراقبهم.

الحارس: هيا أمها الحقير، تعال وكُل كما أمرتُك.

نظر شيحان إلى الحارس، فأمسك غضبه وقال: خذ الطعام أمها الحارس وانصرفا، لستُ جائعاً.

الحارس: ستأكلُ رغماً عنك. وإلا تلدّنا بعدابك قبل أن يُؤمرَ بقتلك.

الحارس الآخر: هيا انهض أمها العجوز وإلا وضعنا رأسك في الأرض وأطعمناك غصباً.

تحدث شيحان وهو يُرجعُ رأسه إلى الوسادة: أظن أنني سأنام، فاخرجوا ولا تمتحننا

صبري.

غضب الحارسان وسحب أحدهما السلسلة التي قُيد بها شيحان وأخرج الآخر سيفه، ثم هجما عليه. تعالت الأصوات في الزنزانة فانطلق قيس وأبناء عمومته والحراس صوبها ودخلوها متوشّحين سيوفهم، فوجدوا الحارسين مُلقين على الأرض تحت قدمي شيحان، يصرُخان ويبكيان طالين رحمته وهو يضع سيفهما على رقبتيهما.

صاح قيس: ماذا تفعل يا شيحان؟ أترك السيوفين من يدك، وإلا...

نظر شيحان إلى قيسي وقال بغضب: وإلا ماذا يا فتى؟

قيس: لستُ أطيقُ صبراً حتى أفتلك. فيها أعطني الحقّ...

لم يكمل قيسُ كلامه حتى ضرب شيحان أذنَ حارسٍ منهما فقطعها، وسقطت أمام عينيه وسط ألمه وعويله، حاول الحراس الانقضاض على شيحان فاعترضهم قيس وطلب من شيحان أن يترك الحارسين ويلقي السيوف من يديه؛ لكنه لم يلتفت البتّة بل سأل الحارس الآخر: من دفعكما لذلك؟ تكلم وإلا قطعُت رأسك.

الحارس: أرجوك لا تقتلني، لقد أكرهنا على ذلك. اسأله هو، هو من يعرف.

شيحان: أظنّه لا يسمع الآن، ألا ترى أذنه؟ تكلم قبل أن أقطع أذنيك الاثنتين.

الحارس: أصهب، إنه أصهب بن عدي. طلب منا أن نُذلّك ونجعلك تثور؛ فإن

غضبتَ قتلناكَ دفاعاً عن أنفسنا.

شيحان: لا عاش من يدُلّي، وماذا أعطاكمُ لقاء ذلك؟

الحارس: كيسان من الذهب، ووعد أن يحميننا من العقاب. أرجوك إني لا أكذب.

سامحي أرجوك.

ألقي شيحان السيوفين من يده على الأرض، وأرخی قدميه عن الحارسين واستند على سريره، فزحفا من تحته وهربا صوب الباب فلقهما قيس غاضباً من فعلهما وخُبت أصهب، فطعن أحدهما وأوقعه ميتاً ليكون عبرةً للحراس.

صاح شيحان غاضبًا: قف أمها الأهوج ولا تهور، ستحتاجون من يكون شاهدًا على أصهب.

قيس حازمًا: ذلك ليس من شأنك، أنت عدونا ولا رأي لك علينا.  
ابتسم شيحان ابتسامهً مأكرة وقال: أحمقُ أنت يا قيس: إذ لم تكتشف أن أعداءكم أقرب لكم مني!

خرج قيس من الزنزانة وأمر الخدم بتنظيفها وأن يُحضروا طعامًا جديدًا لشيحان، وألقى الحارس الخائن في زنزانة مع جثة صاحبه، وشدّد على أبناء عمومته بحراسة المجلس، ثم توجه مُسرعًا إلى بيت والده الجاسم، فلقى نعمان وزيد بن عياد والعراف عند بابه فدخل معهم وحدثهم بكل ما حصل، وعلم الجميع حينها أن أصهب لم يُعط مهلةً لرجوع الغازي كما قال لسهيل بن عياش، بل يحاول قتل شيحان مكرًا وغدرًا. ثار أوس أعظم ثائرة، وعلا صوته على الجاسم طالبًا الإذن برفع السيوف وقتل الخونة جميعًا: فأصهب يسعى لدبّ الفتنة في المدينة ويجب قطع رأسه. إلا أن الجاسم صبر نفسه وأمر أوس ألا يُثير جلبةً، فقد اقترب موعد وصول الغازي المتوقع.

أمر نعمان بعض الرجال أن ينتظروا عند مدخل المدينة، فيُخبروهم على عجلٍ إذا جاء الغازي أو من تبعه، وطلب زيد من الجاسم أن يضع عيونًا لمراقبة بيت أصهب، فيعلم من يدخله ويخرج منه، وأوصى أن يُخفوا موضوع خيانتهم مع الحارسين عن الجميع، فاتفقوا على ذلك وجلسوا ينتظرون قدوم الأخبار بفارغ الصبر. غرّبت الشمس وطال الانتظار ومرت ساعات ثقيلة ولم يأت أي خبر، ثم دخل أحد العيون الذين راقبوا بيت أصهب فأخبرهم أن ابنه لؤي رجع إلى البيت باستعجالٍ مُريبٍ ويظهر أنه كان خارج المدينة.

انتصف الليل وزاد قلق الجميع ودبَّ الشكَّ فيهم، وتوقع زيد أن الغازي لن يصل قبل الصباح وربما يتأخَّر أكثر من هذا، وطلب أن يحسبوا حساباتهم مع شيحان وفي شأن المدينة دون الغازي.

الجاسم: أتريدُ أن نُقرِّر بشأن شيحان قبل أن يأتي الغازي يا زيد؟!  
نظر زيد إلى الجاسم وقال: ليس ذلك بالتحديد؛ إنَّما علينا اتخاذ قراراتنا وحماية شيحان. لقد حيرتني جرأةُ أصهب على ما أقدم عليه؛ فكيف يُمهلنا لقدوم الغازي على عجلٍ، ويمكِّر لقتل شيحان في الوقت نفسه! هناك أمرٌ غريب.

الجاسم: بماذا تُفكر يا زيد؟ أخرج ما في عقلك.  
زيد: لا أدري، إنَّما أخشى أن يكون أصهب قد أرسل ولده سري لأمرٍ آخر.  
أوس: وما قد يكون إذن؟

زيد: فلنتمهَّل ولا نستبق الأحداث. ما هي إلا وساوسُ تغزو عقلي.  
أوس: لقد هوستُ عقولنا بكلامك يا زيد. بماذا يوسوسُ عقلك هذا؟  
العراف بصوتٍ خافت: لقد وصلت وساوس زيدٍ إلى الوَبَاصِ يا قوم.  
الجاسم (بقلق): أصحيحٌ هذا يا زيد! لا تدعني أشجُّ رأسك فأقرأ ما فيه، هيَّا تحدَّث.  
زيد: لقد بتُّ أشكُّ بأن أصهب ما أرسل ابنه سري إلا ليأخذ الإذن بالانقلاب على الغازي والمدينة، وما دام الوَبَاصُ يفتح قصره لأصهب؛ فإني أخاف من مكره أكثر من مكر أصهب.

الجاسم: ما الذي تقوله يا زيد؟ هل تعتقد أن الوَبَاصُ يغدر بالغازي؟  
زيد: حبِّذا لو قاطع الغازي كلامي ودخل المجلس الآن، فأقطع أفكار السوءاء.  
أخشى يا قوم أن يكون الوَبَاصُ أجبر الغازي ومن معه ومن تبعه أن يتأخروا، وذلك حتى يقوم أصهب بالاستيلاء على زعامة الحرجف وسيادتها، ويتصدَّر القرارَ بأمر شيحان فيقتله. ولعمري لو كانت الخطة كذلك! لَيَقْتُلُ بعضُنا بعضًا. فأصهبُ الآن لا يُخفي ولاءه

القاصع للوبّاص، ولا يُخفي شكّه واستخفافه بالغازي ورغبته الجارفة في سيادة الحرجف. وها هو الآن يجمع حوله من هم على شاكلته؛ فحذارٍ من خُبثه وجُرّأته.

الجاسم: هذا كلامٌ خطيرٌ يا زيد. لن يجرؤ الوّباص على ذلك.

نعمان: ولماذا يفعلُ الوّباص ذلك؟ فالغازي لا يُشكل خطرًا عليه أبدًا، بل هو أكثرُ زُعماء المنطقة قُرْبًا منه؟

العراف: إن الوّباص لا يعرف صديقًا ولا عدوًّا، إنه لا يعرف إلا نفسه وعظّمته وجبروته، قد أحسنت إذ تكلمت بهذا الكلام يا زيد، فلو أنني قُلْتُه لاعتبرتوني خرفًا. غير أن هُناك ما يُثير الوسواس عندي فوق كلِّ هذا.

الجاسم: ماذا أيها العراف، بماذا توسوس أنت أيضًا؟

رفع العراف رأسه إلى سقف المجلس كمن يتأمل أو ينتظر الإلهام أن يأتيه ليشجو بما في خُله، ثمّ نظر إلى الجميع نظرة عُبوسٍ أرعبت قلوبهم بسواد وجهه وجحظ عينه، وقال: أخشى أن يكون لشيحان يدٌ بتأخر الغازي!

الجاسم: شيحان! وكيف ذلك؟

نعمان: إن شيحان يطلب منّا الوقوف ضد الوّباص، وهو كما ذكرنا وخبرنا صادقٌ لا يكذب.

العراف: لا أتكلم عن وقوفه مع الوّباص، بل عن تغيُّب الغازي وتأخره. لا أدري لما شعرتُ أن شيحان على يقينٍ في قرارة نفسه من تأخر الغازي وعدم رجوعه سريعًا إلى المدينة.

أوس: ألا يكون الغازي قد ذهب إلى مدينة القلباء؟ فربّما عرج على الزعزاع قبل أن يذهب إلى الوّباص!

زيد: إن ذهب هُناك حقًا، فأين من أرسلناهم ليلحقوا به؟ لماذا لم يرجع منهم أحد؟



الجاسم: نعم صحيح لقد تأخروا عنَّا وهم يعلمون ما نحن فيه. اللعنة، لما لم يرجع أحدٌ حتى الساعة!

نهض نعمان من مجلسه وقال: كفانا يا قوم، فلسنا نتحدث إلا بتوقعاتٍ وهواجس. وجب علينا الذهاب إلى بيوتنا فأمامنا يومٌ طويلٌ في الغد.

قام زيد من مجلسه: أنا بحاجةٍ إلى الراحة الآن، ولكن إن جاء أي خبيرٍ فأرسلوا إلي بالحال.

العراف: وأنا أيضًا لم أسهر هكذا منذ عقود.

أمر الجاسم قيس أن ينتظر مع الحراس على أبواب المدينة، لعلَّه يلقى سري بن أصهب ويستقص منه عن زيارته، ويسأله عن الذين تأخروا. وغادر الجميع مُشتتين بأفكارهم وتخوفاتهم، والقلق يعتريهم من اليوم الذي سيُصبحون عليه، وهم بأسرون شيحان في سجونهم، ولم يعد هو من يخيفهم فقط؛ بل أصبحوا يخافون غدر الوَبَاص ويخشون أنفسهم إذا وقعت الفتنة واشتعلت بينهم، فباتت الحرجف تلك الليلة كأنما تنامُ على بُركانٍ اقترب من الثوران. وفي الزلزلة، تمدد شيحان على ظهره وهو ينظرُ إلى تلك الفتحة الصغيرة التي أذنت لضوء القمر أن يتلمس قدميه، ويتسلَّل إلى الحديد الذي استيقظ بريقه وهو يحيطُهما. لم يسمع شيحان ذلك اليوم أصواتًا تتوعده من خارج زنزانته، فعلم أن الفتنة قد سرت بين سادة الحرجف ولم يتخذوا قرارهم بعد، وأدرك أنَّ الغازي لم يرجع ولم يعد أحدٌ من رجاله أيضًا، فنام نومًا هادئًا بانتظار يومه التالي الذي سيُحدد مصيره.

مع ساعات الفجر الأولى لليوم الثالث من قدوم شيحان، وعلى مشارف مدينة الحرجف، لمح قيس والحراس حصانًا يقتربُ منهم، وعلى ظهره رجلٌ يترنح ويبدو عليهما الإعياء والتعب، فلما دنا إليهم دُهبوا حين علموا أنه شهاب بن أوس؛ وقد كان مدمي الرأسٍ ومُجهدًا. أمر قيس أحد الحراس أن يسبقه ويُحضر الطبيب إلى بيت والده

الجاسم، ومن ثمَّ يُبلغ أوس بالأمر، ثمَّ أمسك بلجام حصان شهاب وساقه بخطواتٍ بطيئةٍ إلى المدينة، وما أن وصلا بيت الجاسم كان الجميع بانتظارهما بملابس نومهم مصدومين فرعين، فحملوا شهاب لبيت الجاسم والطبيب معهم، وأوس ينتفضُ قلقاً وأمَّ شهاب تولول وتلطم على منظر ولدها وحالته السيئة، فكان محمومًا وجسده يرتعش، ويهذي بكلامٍ غير مفهوم، فمددوه على السرير، وأخذ سوار يقصَّ شعره حتى تبين مكان الجرح برأسه، ثمَّ خلع ملابسه وغسله بماءٍ بارد، وغلا له بعض الأعشاب وطلب من الجاسم أن يجّهزوا له مرقاً فيطعمه إياه حتى يستعيد عافيته.

أغمض شهاب عينيه، وطمأن سوار الجاسم والموجودين بأنه على ما يُرام وستتحسّن حالته، فجرحه ليس بليغ، إنّما مُجهّد ومتعبٌ من الطريق، فشكروا الآلهة، وبكت أم شهاب فرحًا واطمأن قلبها ثمَّ انصرفت لمجلس النساء مع آصال أم قيس. أمر الجاسم ألا يعلم أهل المدينة بما حصل مع شهاب، وأرسل إلى نعمان وزيد والعراف وكبار أبناء عمومته يطلبُ حضورهم، وذهب ليُبدّل ملابسه. جلس سوار بجانب شهاب وتفقد حرارته، وانتظر إلى أن تأكد من انقطاع نزيف الدم من جرحه، فأخاطه وعصب رأسه بمنديلٍ أبيض. دخل الجاسم وجلس قرب شهاب، ثم حضر زيد ونعمان والعراف وأبناء عمومة الغازي فرعين، وأخبرهم سوار أن شهاب بحاجةٍ إلى الراحة، وسينتظر عنده قليلاً حتى يُعاین حرارته.

تعافى شهاب قليلاً ونظر إلى من حوله وإلى والده فاسودَّ وجهه، وأحضر الخدم له الطعام فأطعمه قيس القليل منه.

سأل أوس بفضولٍ لا يخلو من العطف: ما بك يا ولدي؟ ألا تقدرُ على الكلام الآن؟ من فعل بك هذا؟

شهاب وقد أحنى رأسه: بماذا سأخبركم؟ الويل لي.

الجاسم: إن كنت متعباً فلا تُجهّد نفسك، أخبرنا فقط أنّ الغازي وباقي رجالنا بخير.

نظر شهاب في الموجودين ثم نظر إلى والده والجاسم. وكأنه لا يثقُ بأحدٍ حتى يتكلم بما عنده. فطلب الجاسم منه أن يتكلمَ فما من غريبٍ بينهم. حاول شهاب أن يرفع رأسه ويستند قليلاً فلم يستطع. فطلب من قيس مساعدته، فساعده على رفع ظهره قليلاً واستند إلى بعض الوسائد. أثناء ذلك شكر الجاسمُ الطبيبَ سوار على حضوره، وخرج معه إلى الباب وطلب منه ألا يُخبر أحداً بوجود شهاب في الحرجف أيّاً كان. غادر سوار، ورجع الجاسم إلى المجلس، وجمعت المقاعد بالقرب من سرير شهاب فجلسوا وقابلوه في جلستهم حتى يستمعوا لما عنده.

تملّم شهاب: لا أعلم من أين أبدأ الحديث.

الجاسم: ابدأ من حيث شئت. وإن طلبت الراحة تركناك وقمنا عنك.

شهاب: ليس الآن وقت الراحة؛ الغازي وباقي رجالنا سُجناء في العصوف.

الجاسم في ذهول وقد قام من مجلسه: ماذا؟ ولماذا؟

شهاب: لا أدري، ولكن رجال الوَبَاص يسجنون أي رجلٍ يعرفون أنه من الحرجف،

إلا أبناء أذهب!

أوس بغضبٍ عارم: كيف يسجنونه؟ وهل رأيتم؟

نعمان: ماذا عن ربيع بن مالك وثابت بن سلمان؟

الجاسم: هل آذوا رجالنا؟ وكيف هربت منهم؟

تخبّط شهاب من ردود أفعالهم وأسئلتهم: أنا لم أُرهم في السجن. وربيع بن مالك

بخير، لكن بقية الرجال الذين ذهبوا معنا قُتلوا. وثابت بن سلمان والرجال الذين معه

التقيتُ بهم عند باب مدينة العصوف وتركهم هناك.

تابع شهاب وقد طأطأ رأسه خجلاً وقهراً: لقد هربتُ، سَحَقًا لي. لقد هربتُ.

أوس: هربتَ من ماذا وممّن؟ تكلم يا بُني.

صار الكلام في مجلس الجاسم عشوائياً وأصبحوا في فوضى جارفة، فطلب نعمان من الجميع الهدوء وقد بدت على شهاب الرهبة والحيرة وعدم القدرة على شرح روايته. نهض زيد وأعطى شهاب كأساً من الماء فشربه، ثم طلب منه أن يتحدث بما شاهد وعلم بروية ودون تعجل.

شهاب: سأبدأ منذ وصولنا مدينة العصوف، فقد دخلناها بعد الظهر أنا وربيع بن مالك وثلاثة من رجالنا. ولم يبدها أي شيء يدعو إلى الريبة. ولما وصلنا السوق فوجئنا بوجود لؤي بن أصهب هناك.

زيد مقاطعاً: تقصّد سري بن أصهب! ليس لؤي؟ لقد علمنا أن سري ذهب للوَباص. شهاب: بلى إنه لؤي، وسري قد جاء باليوم الثاني. دعوني أكمل لكم.

أخذ شهاب نفساً عميقاً وسط ذهول الحاضرين، ثم عاد ليكمل قصته: ساورنا الشك حينما شاهدنا لؤي في العصوف، فترجلتُ عن حصاني ووقفتُ أرقبُه خلسةً. بينما مضى ربيع مع بقية الرجال لقصر الوَباص، وطلب مني اللحاق به بعد أن أفهم سبب وجود لؤي. انتظرتُ قليلاً حتى تعالت أصوات قتالٍ عند باب القصر، وتحرك الناس ومشيتُ بينهم مُتسللاً خشيةً أن يلمحني لؤي، وعندما اقتربتُ من البوابة؛ رأيتُ ربيعاً ملقياً على الأرض، والحراس يمسكونه من يديه، ويجزونه معهم لداخل القصر، ثم رأيتُ رجالنا الثلاثة صرعى على الأرض، فقد قتلوهم وتركوا ربيع حياً. وقد وقف لؤي أمامي ولم يرتي. وكان يتبسم لجنود الوَباص وهم يسحبون جُثث رجالنا، فأخفيتُ نفسي عنه.

نهض الجاسمُ غاضباً: سجنوا الغازي وقتلوا رجالنا! سحفاً لهم. إنها الحربُ إذن. أوس: لقد صدق شيحان بقوله، الوَباص لا يعرف صديقاً ولا عدواً. وأصهب يعلم كل هذا ويتأمر معه علينا.

ثار قيس وقام من مقعده: سأجمع الرجال يا أبا الآن. إن كانوا يُريدون الحربَ فنحنُ

أهلُّ لها.

العراف: اهدأوا جميعاً. لقد تملّككم الغضب وأصبحتم تتخبّطون. لم يكمل شهاب حديثه بعد.

خجل شهاب من موقفه وشعر بالخزي والعار. وهو ينظرُ في عيون الموجودين يرقبونه وأعيهم تشتعلُ ناراً وشراراً، وأخبرهم أن ربيع رآه بين المتجمهرين لا يُحرك ساكناً وحراس القصر يجروه، فأومئ برأسه أن يبقى هادئاً فلا يُكشِفُ. وانهار شهاب صائحاً: تَبَا لي.. لقد جُبنتُ.. لقد جُبنتُ أيها القوم وخفت من الموت.

زند: إنه ليس جُبناً يا شهاب، فما لك من حيلةٍ معهم، بل هي حكمةٌ وتعقلٌ.

شهاب: بل الخوف ما منعي وليست الحكمة.

الجاسم: وماذا كنت ستفعل بشجاعتك وقتها؟ ستقتل رجلاً أو اثنين، وبعدها ستقتل أو تُسجن، ونبقى نحن ننتظر أخباراً عنكم ولا ندري شيئاً!

نعمان: صدقتم، أيُّ رجلٍ منا كان ليفعل ما فعل شهاب لو كان بالموقف نفسه.

أوس (صارخاً): لا تصف نفسك بالجبن يا بُني. الحرب باتت على الأبواب، فاشحذ سيفك وارفع رأسك. ولنتأرن من الوَبَاص وأصهب أشدَّ تأراً. هيا، أخبرنا ما كان معك بعدها.

شهاب: انتشر حُرّاس الوَبَاص في كُلِّ مكانٍ، فدخلتُ السوق وبعثُ جوادي وتواريتُ عن الأنظار ومشيتُ في الأسواق كأنني تاجرٌ فقلّبتُ بضائعهم واستمعتُ إلى أحاديثهم، وعلمتُ أن الغازي وقصي كانا في ضيافة الوَبَاص مُعزّزين مُكرّمين فما أن بلغه خبر دخول شيحان للحرّجف قام بحبسهما، وأغلبُ ظنّي أنّ لؤي من أخبره بذلك فلم يلتفت الحراس له أبداً وهو ينظرُ إليهم. وبعد لحظات أغلق الحُرّاس بوابات المدينة الأربعة، وتركوا واحدةً فقط مفتوحة، فكانوا يُراقبون ويُفتشون كلَّ من يعبرها داخلًا كان أم خارجًا.

ولما حلّ المساء وأغلقت المحالّ، لم أجد إلا الحانة التي جئنا إليها، فجلستُ فيها وطلبتُ شرابًا، وتظاهرتُ أنني أتملّ كسائر الموجودين. وسمعتُ الرجال يتحدثون عن مدينة الحرجف والجوازل وعن منع الذهب إليها أو التعامل مع أبنائها وإلا تحمّلوا المسؤولية وأتهموا بالخيانة، وازداد خوفي وبدا عليّ الوجوم في الحانة، فمازحتني بعضُ الرجال وسألوني إن كنتُ من الجوازل أو من الحرجف، فأخبرتهم أنني تاجرٌ من قبيلة شياروجنتُ لأشتري بعضَ الجلود. تأخرتُ بالحانة ولم يبقَ إلا بضعةُ أشخاص، وارتبتُ من الرجال الذين مازحوني؛ فأخرجتُ كيس المال من جيبي، ودفعتُ لصاحب الحانة، ثم غادرتها حاملاً زجاجةَ خمرٍ بيدي. لحق بي بعضُ الرجال ولم أنظرَ لهم وتابعتُ مسيري مترنّحاً ومُدّعياً السكر، فغافلوني وضربوني على رأسي وأخذوا أموالِي دون أن أقاومهم، ثم سكبوا المشروبَ على وجهي وعلى ملابسي وولّوا هارين.

بقيتُ في أرضي قليلاً حتى جاءني بعضُ الجنود فسألوني عن حالتي وحقّقوا معي وهم يشمّون رائحة الخمرة الفظيعة؛ فأخبرتهم وأنا أدعي السكر والغباء أنني تاجرٌ من قبيلة شيار، وقد وقعتُ عن ظهر حصاني، وقد هرب مني في المدينة، فسألوني عن لونه؛ فأخبرتهم أنني نسيتُ شكله، فلمّا رأيتُ الحيرة في عيونهم أخبرتهم أنني أذكرُ اسمه فقط، فسألوني اسم من أذكر؟ فأخبرتهم أن اسم حصاني متروك. وأخذتُ أنادي كالمجنون متروك. متروك، أين ذهبت وتركتني يا صديقي؟ فضحكوا عليّ كثيراً وحملوني إلى بوابة المدينة حملاً، وتركوني أبحثُ عن حصاني (متروك) خارج أسوار المدينة، فخرجتُ وقلبي يخفقُ من صوت ضحكاتهم حتى وصلتُ أول الطريق، فالتقطتُ أنفاسي اللاهثة من الخوف والتعب، وكنتُ لا أعلمُ أين أذهب ولا ماذا أفعل. اختبأتُ بين الأشجار عند مدخل مدينة العصوف أترقبُ القادمين لعلّي أجدُ وسيلةً أخرجُ بها مما أنا فيه. ولم أبح مكانِي حتى شاهدتُ رجالاً يمرّون بجاني، ولم أعرفهم بدايةً، فلمّا تأكّدتُ أنه ثابت بن سلمان ومعه رجالنا اعترضتُ طريقهم واستوقفهم، وتفاجئوا برويتي على تلك الحال..

تَوَارِينَا قَلِيلًا عَنِ الطَّرِيقِ وَأَنْزَوِينَا بَيْنَ الْأَشْجَارِ، وَحَدَّثْتَهُمْ بِكُلِّ مَا حَصَلَ مَعِي، وَأَخْبَرَنِي ثَابِتٌ عَنِ خِيَانَةِ أَصْهَبٍ وَسَعْدِ بْنِ يَحْيَى وَبَعْضِ الْقَوْمِ مَعَ الْوَبَاصِ، وَأَثْنَاءَ حَدِيثِنَا لِمَحْنَا سَرِي بْنِ أَصْهَبٍ يَتَّجِهَ لِبَوَابَةِ الْعَصُوفِ، فَرَاقَبْنَاهُ حِينَ وَصَلَ الْحِرَاسَ، وَفَتَحُوا لَهُ الْبَوَابَةَ وَرَافَقَهُ بَعْضُهُمْ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ. جَلَسْنَا نَتَشَاوَرُ بِمَا عَلَيْنَا فَعَلَهُ، فَاسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ آتِيَكُمْ بِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُ، وَيَنْتَظِرُ ثَابِتُ سَرِي حَتَّى يَخْرُجَ فَيَأْتِي بِهِ مُكْبَلًا إِلَى الْحَرْجَفِ، فَتَنْظُرُوا أَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَصَلَ وَالِدَهُ أَصْهَبَ. وَبِالنَّسْبَةِ لَطَلْبِكُمْ مِنْ ثَابِتٍ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْجَوَازِلِ لِيَنْظُرَ بِأَبَارِهَا فَإِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ الْأَمْرَ حَتَّى يَرْجِعَ، أَوْ تَرْسَلُونَ أَحَدًا غَيْرَهُ. وَلَا أَحْسِبُهُمْ سَيَتَأَخَّرُونَ. فَسَيَكُونُونَ هُنَا قَبْلَ الظَّهْرِ إِنْ لَمْ يَتَأَخَّرْ سَرِي عِنْدَ الْوَبَاصِ!

اشْتَعَلَ الْجَمِيعُ غَضَبًا، وَأَمَرَ الْجَاسِمُ بِمَنْعِ دُخُولِ الْمَدِينَةِ أَوْ مُغَادَرَتِهَا لِأَيِّ كَانَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَأَنْطَلَقَ مَعَ الْحَاضِرِينَ لِمَجْلِسِ الْحَرْجَفِ، وَطَلَبَ حُضُورَ سَهِيلِ بْنِ عِيَاشَ وَبَعْضِ سَادَةِ الْقَبَائِلِ الثَّقَاتِ لِيَجْتَمِعَ بِهِمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي قَاعَةِ الْقَضَاءِ صُعِقَ سَهِيلُ وَأَسْيَادُ الْحَرْجَفِ بِمَا سَمِعُوا عَنِ حَبْسِ الْغَازِي فِي الْعَصُوفِ، وَمَحَاوَلَةِ أَصْهَبِ قَتْلِ شَيْحَانِ، وَالْخِيَانَاتِ الَّتِي يُحْيِكُهَا مَعَ الْوَبَاصِ ضِدَّ الْمَدِينَةِ. وَاحْتَارَ الْجَاسِمُ بِشِدَّةٍ؛ فَالْمَوْقِفُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الْحُرُوبِ الَّتِي خَاضَهَا فِي حَيَاتِهِ وَأَكْبَرَ مِنْ كُلِّ الْمَوَاقِفِ الَّتِي سَمِعَ بِهَا، فَهَا هُوَ عَدُوَّهُ اللَّدُودُ شَيْحَانُ فِي سَجْنِ الْحَرْجَفِ، وَالْغَازِي سَيِّدُهَا وَابْنُهُ فِي سَجْنِ الْوَبَاصِ بْنِ ضَامِرٍ، مَلِكُ مَنْطِقَةِ رَأْسِ الْخَيْلِ، صَاحِبُ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ وَالْأَسْوَارِ الْحَصِينَةِ وَالْجِيُوشِ الْكَبِيرَةِ. وَهَا هِيَ الْحَرْجَفُ تَقْتَرِبُ مِنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى بُرْكَانٍ دَمٍ مِنْ خِيَانَةِ الْأَنْدَالِ وَغَدْرِهِمْ. نَهَضَ زَيْدٌ قَاطِعًا حَبْلَ أَفْكَارِ الْجَاسِمِ وَصَاحَ: أَنْتَ سَيِّدُ الْحَرْجَفِ الْآنَ يَا أَبَا قَيْسٍ، وَنَحْنُ مَعَكَ فِيمَا أَمَرْتَ وَقَضَيْتَ، وَلَنْ نَبِيعَ مَدِينَةَ الْحَرْجَفِ لِأَنْدَالِ الرِّجَالِ - وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ أَصْهَبَ وَجَمَاعَتَهُ -، ثُمَّ أَعْلَنَ نَعْمَانَ وَسَهِيلُ بْنُ عِيَاشَ وَبَقِيَّةُ السَّادَةِ الْحَاضِرِينَ عَنِ وَقُوفِهِمْ تَحْتَ رَايَةِ الْجَاسِمِ وَالْوَقُوفِ مَعَهُ حَتَّى آخِرِ رَمَقِي فِيهِمْ، فَكَانَ لِمَوْقِفِهِمِ الْأَثْرَ الْبَالِغَ فِي تَخْفِيفِ الْبَلَاءِ النَّازِلِ بِالْجَاسِمِ، فَشَكَرَهُمْ وَأَثْنَى عَلَى نُبُلِهِمْ وَعَظِيمِ مَوْقِفِهِمْ وَوَفَائِهِمْ.

الجاسم: الخيانة الآن واضحة والعقاب سيكون عسيرًا. إنها الحرب يا رجال، أعلنها الوَباص قبل أن نُفكّر فيها.

العراف: والماء أيها الجاسم! سيقطعُ الوَباص الماء عنا، إنها أول حربه معنا قطعًا. يجب أن نتأكد من كلام شيحان وصدقه بخصوص الآبار التي ذكرها. إلا إذا ابتغيتم سبيلًا غير الحرب!

أوس مُستنكرًا: وأي سبيلٍ غيرها أيها العراف؟

العراف: أرسلوا رسولًا إلى الوَباص ينتظرُ فيما يُريد.

الجاسم: ويحك أيها العراف. أتريدُ أن نستسلم لذلك الحقيبر وقد سقط القناعُ عن وجهه!

العراف: إنّه يأسر سيدكم، سيقْتله أو يُهددكم بقتله. ونحنُ أمام حربٍ هنا في الحرجف أولًا. فماذا أنتم فاعلون مع أصحاب وباقى الرجال الذين معه؟!

أوس: سنقتل الخونة جميعًا أيها العراف.

العراف: وكم سيبقى لنا من الرجال بعد أن نُقتل بعضنا بعضًا؟ وماذا عن الجوازل! وماذا عن شيحان!

زيد: أيها القوم، علينا أن نؤجل أمر الغازي والوباص حتى يرجع ثابت بن سلمان ومعه سري بن أصهب، وبعدها لنا حديثٌ آخر. الأولى بنا أن ننهي موضوع أصهب وأهل الحرجف؛ فلو أننا لم نقتل شيحان الآن، لظنّ الجميع أننا نخونُ الوَباص مع الجوازل، ويبرأ أصهب من الخيانة، فينقلبوا علينا بدل أن يكونوا معنا.

أوس: ولماذا لا نفضح أمر أصهب ومن معه ونتخلّص منهم؟

زيد: صبرًا يا أوس. إن أصهب ومن معه عددهم ليس قليلًا، فإن قتلناه! أشعلنا حربًا لا ندري أثرها على مدينتنا، ولا نُحكم السيطرة عليها بعدها، ولا ندري كم ومن سيموت



مَنَّا أو منهم. وأصهب ما هو إلا رأس الأفعى، فإن قطعنا رأسه، قطعنا السُّمَّ وقدرنا على باقي الجسد.

الجاسم: وما الحلُّ يا زيد.

نهض زيد من مكانه، ووضع يديه خلف ظهره كعادته، وبدأ يمشي في القاعة على مهلٍ، وهو يهزُّ رأسه ذهابًا وإيابًا، وبقي على هذه الحال حتى توقَّف، فقال: سأجعل أصهب وسعد يعترفان بخيانتهم أمام مجلس الحرجف بألسنتهما، فنُحاكهما دون أن يتوقَّع أحدٌ ذلك.

سهيل: وكيف ذلك يا زيد؟ كيف سُحاكهم ونحن لسنا في حالة الحرب؟ وهل سيعترفان بما أقدمنا عليه!

زيد: سنعقد مجلس الحرب بحجة استئناف القتال مع الجوازل، وسُحاكهما بتهمة الخيانة. وأجعلهما يعترفان بها، ثنوا بي. سيحضُران إلى مجلس الحرجف، وسوف أرتجلُ هناك ما يُفاجئهما ويجعلهما يتخبَّطان؛ فإن أقمْتُ عليهما الحُجة وتُبَّتْ خيانتهم أمام أهل الحرجف وسادة القبائل، فلتقمَّ يا أوس أنت ورجالك فتقتلها.

نعمان: سوف يثور أهل قبيلة أصهب وسعد ونتقاتل هُناك في وسط المدينة يا زيد.

سهيل: نعم ستشتعل الحرب وسط المدينة.

زيد: إن كان لا بُدَّ عن ذلك، والقتال حاصلٌ لا محالة فهذا أخفُّ الأمرين؛ فإن دعوناهم إلى القتال خارج المدينة نكون قد أجبرنا كل رجلٍ أن يتحرَّب لقبيلته، وقد يجتمع معهم من لا نحسب حسابه، أمَّا إذا قُمنَّا بقتل أصهب وسعد بتهمة الخيانة عند مجلس الحرجف، فلن يكون أبناء قبيلتهم متوقعين الحرب ومُتجهزين لها مثلنا نحن. وقد يجبنوا أو يرجعوا عن خيانتهم مع أسيادهم، وسيعلمُ كل من سولت له نفسه بأن يقف بجانبهم أن يرجع لرشده.

كان القانون والعرف في مدينة الحرجف يقضي بقطع رأس كل من ثبتت عليه الخيانة، غير أن القبائل لا تقبل أن يُقتل أحد أبنائها دون محاكمة وجلسة قضاء بمجلس الحرجف؛ إلا إذا كانت المدينة في حالة حرب، ومع ذلك لا يؤتمن تمرز أبناء القبائل على ذلك العرف. والمعضلة الراهنة كانت في أن التعامل مع الوباص لا يُعدّ خيانةً، على اعتباره ملكًا وحليفًا وليس عدوًا، وذلك ما على زيد أن يُفكر به ويمكر لأجله، وقد وثق الجاسم والموجودون بخطته، خصوصًا أنّ الفتنة تشتعل في المدينة وشيخان في سجونهم. وبالفعل خرج الحاضررون إلى قبائلهم ليجمعوهم، وانطلق الحراس يطوفون المدينة ويدعون لانعقاد مجلس الحرب، ولم تمض ساعة حتى كان أهل المدينة كخليفة النحل يحيطون بساحة الحرجف، وسادة القبائل يشقون الصفوف والحضور فيدخلون الساحة ويتوسطونها.

انتشر الحراس في شوارع المدينة، واحتشد أبناء قبيلة الغازي وأبناء القبائل الأخرى في ساحة مجلس الحرجف، يلبسون لباس الحرب وعيونهم تطلق شررًا على كل من ينظر إليهم، فظن من ظن أنّ موعد قصاص شيخان قد حان، واعتقد غيرهم أن الحرب على الجوازل أوشكت، وتوقع الخائنون أنّ الفتنة ستثور في المدينة ويبدأ فيها القتال. صاح أوس بصوته الغليظ بأهل الحرجف وأمرهم بالصمت، وظهر عليه الغضب الشديد وهو متوشح سيفه وأنه لن يحتمل أي بليلة من أي شخص كان. وجلس الجاسم على كرسي سيد الحرجف العالي، فقابل سادة القبائل الجالسين أمامه وأخذ ينظر إلى الحشود العظيمة وسط المدينة، وإلى النساء والأطفال الذين يرتقبون من الطرقات، ومن على أسطح منازلهم.

صاح سعد بن يحيى: هيا أيها الجاسم؟ أخبرنا عن سبب تجمعنا وعن قراركم في شيخان.

أصهب: لن يغنيننا شيء عن قتل شيخان أمام الجميع وهُنا في هذه الساحة.

زيد: أخبرني لماذا نتعجل في قتله يا أصهب؟ وماذا تريدُ بعد أن نقتله؟  
أصهب: أريد كما يريدُ أهل الحرجف. أن نقتصَّ من شيحان ونستأنف الحرب مع الجوازل.

الجاسم: لقد عقدنا مجلس الحرب لننظر في الحرب مع الجوازل، وقد اكتشفنا بعضَ الخيانات في المدينة يا أصهب.

سعد: الأمر لا يحتاج إلى مشورةٍ أو نظر. لقد حانَ وقتُ السيف.  
صاح أصهب وطلبَ جلب شيحان للقصاص منه، وصاح الكثيرُ من أهل الحرجف تأييدًا لكلامه: اقتلوا شيحان، اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه.. ولم يدُم التحفيز كثيرًا حتى قطعه أوس بصوته الجهبر، ونظر إلى زيدٍ كأنه يُعطيه فُرصةً ليبداً هجومه، قبل أن يفقد أعصابه ويقتل أصهب، ويُسْتَع في قتلِ كُل من يؤدّه أو يلقاه بطريقه. أشار زيدٌ لى الحراس، فظنَّ الجميع أنهم سيجلبون شيحان، لكنهم عادوا بالحارس الخائن مُقيدًا وألقوه على الأرض. مشى زيدٌ باتجاه الحارس، ثم استدار لسادة الحرجف وقال: نعم إنّه وقتُ السيف. هل منكم من يعرف هذا الحارس أوله علاقة بما أقدم عليه؟  
أصهب: وما شأننا بهذا الحارس الأغر؟ أحضروا شيحان أمامنا لنقتله.  
تقدم أوس من الحارس وسحب سيفه أمامه، وقال: هل ستتكلّم بشيءٍ قبل أن أقطع رأسك أيها الخائن!

سعد: وما الحاجة إلى هذا الحوار؟ هل جمعتمونا لنقتل حارسًا وضيعًا!  
الحارس: سأتكلم، إنه أصهب بن عدي. هو من أمرني بذلك.  
أصهب: ويحك يا غلام. ماذا تقول!  
الحارس والدموع تهمر منه وهو ينظر إلى أصهب: أمرني أن أقتل شيحان غدراً، ووعدني بالحماية وأعطاني كيسًا من الذهب. الرحمة أرجوكم، الرحمة، الرحمة.

تفاجأ الجميع من كلام الحارس، وقد بدا صدقه من تغيير وجه أصهب وشحوبه، ولعلم الجميع أن الحارس مَيِّتٌ لا محالة. فلماذا يكذب وسيفُ أوسٍ يُرفرفُ فوق عنقه؟! نظر أوس إلى الجاسم فأوماً برأسه، فقطع رأس الحارس، وطار ثم سقط مُتدحرجاً على الأرض أمام أعين الجميع. وارتعدت مفاصل أصهب من نظرات أوس له وقد تناثر دم الحارس على لباسه ووجهه.

زيد: لماذا أمرت الحارس بقتل شيحان يوم أمس؟ ومن معك بذلك أيها الخائن.  
تلعثم أصهب: يجب أن يموت شيحان وأراكم تُطيلون في مصيره. وأنا لستُ بخائنٍ للحرَجف.

زيد: وتقتله هكذا!!! وبيننا اتفاقٌ مُسبقٌ على أن نتركه وشأنه حتى يرجع الغازي. ليست من شيمنا ولا من رجولتنا أن نقتل أسيرنا غدرًا. ومن سيئهم إذا قُتل شيحان؟ فلن تعترف بفعلتك الخسيصة كما أوصيت الحُراس وأجزلت لهم العطاء، بل سنلقي الفتنة فينا، وسيقولُ أهلُ الحرَجف ساعتها أن الجاسم أمر بذلك خوفًا من كلام شيحان أن يفضحهم كما تنشرون في مجالسكم. أليس كذلك أيها الماكر.  
أصهب: حسبك يا زيد، فلن أسمح لك أن تُطيل لسانك.

الجاسم بحزم: بل يُطيل لسانه أكثر من ذلك أيها الخائن. ولماذا لم تنتظر الغازي حتى يرجع؟

أصهب (غاضبًا): لن يرجع الغازي لكم أبدًا.

فرح زيدٌ في نفسه وأبدا استغرابه من كلام أصهب وسط صمت الجميع: ولماذا لا يرجع يا أصهب؟ ماذا تُخفِ عنا؟

أصهب وقد فضح نفسه: لقد سجنه الوياص بن ضامر.

الجاسم: ولماذا سجنه؟ تكلم عليك اللعنة.

ثار أوس ورفع سيفه وتقدم لأصهب الذي جمده في مقعده مذهولاً: سأقتلك أيها اللعين، فتكلم.

ارتعب أصهب والتفت إلى سعد وإلى الرجال بجانبه محاولاً أن يستنفرهم، فرأى فهم الخوف وعدم القدرة على الكلام وسيف أوس يتراوح أمامهم ويقطرُ منه الدم، ونظر في أبناء قبيلته فوجدهم مذهولين بما سمعوا، وبأبي رجال الحرجف قد أعرضوا عنه غضباً من خيانتهم لسيدهم الغازي.

أوس: تكلم أيها الخائن، لماذا سجن الوَبَاصُ الغازي؟ وماذا عن باقي رجالنا الذين ذهبوا معه؟

أصهب: الوَبَاصُ يُريدني أنا سيداً للحرجف. فهو يخشى أن يتفق الغازي مع شيحان وينقلبوا عليه. وقد قُتل بقية رجالكم في العصفوف.

زيد: قُتلوا! ويحك أيها الخائن اللعين؟ من يشترِكُ معك أيضاً في الخيانة؟

خيّم الصمتُ على الجميع، وثبتت الخيانة بحق أصهب فطأطأ رأسه مُستسلماً وعلم ألا مفرّ من جزائه، ونظر أوس إلى الجاسم وإلى زيد ليأخذ الإذن بقتله. كان الجاسم مُتعطشاً إلى تلك اللحظة أكثر من أوس، فها هي اللحظة الحاسمة الآن لقطع رأس الأفعى دون الحاجة إلى حوض حربٍ داخلية، أو تمرّدٍ من أي قبيلة بعد أن انكشفت خيانة أصهب، فأعطى الإذن لأوس بقتله أمام الجميع. رفع زيد يده لأوس وصاح به أن ينتظر، ثم تقدم لأصهب.

زيد: من أخبر الوَبَاصُ بدخول شيحان إلى الحرجف؟ ومن أخبرك بسجن الغازي؟ وأين سري ولؤي الآن؟

رفع أصهب رأسه ونظر إلى زيد نظرةً جمعت بين الاسترحام والغضب وقال: ما شأنكم بمن أخبرني! قد علمت وحسب. وسري ليس في المدينة، ولا علاقة لولديّ بما قُمتُ به.

زيد: ومن ينقل الأخبار بينك وبين الوِثَاصِ إذن!

تقدم لؤي من بين الرجال ووقف وسط الساحة عند والده: أنا من جاء بالأخبار إلى أبي، وقد أخبرتُ الوِثَاصِ بدخول شيحان إلى المدينة؛ لكنه كان على علمٍ بذلك!.  
الجاسم وهو ينظر إلى أصهب والرجال حوله: إذن فمن أين علم الوِثَاصِ بذلك! من أيضاً يخوننا معك يا أصهب.

قام سعد بن يحيى بعد أن رأى الأنظار تلتفه، وقال: أنا لم أخطط لقتل شيحان غدراً، لقد أخبرتُ أصهب أن الوِثَاصِ يريدُ أن يُسلمه سيادة الحرجف، ويُنجي الغازي؛ لكنني لا أعلم أن الغازي في السجن الآن، لم أعلم بهذه الأمور.

لم يعلم الجاسم وزيد وسادة القوم إن كان سعد يعلم بذلك حقاً أم لا، لكنهم ارتاحوا بداخلهم لعدم وقوفه مع أصهب الذي ألقى عليه نظرات اللؤم واللوم، وعجب الجاسم من صبر زيد على كُلِّ تلك الأسئلة الآن، فقد كشفت نوايا أصهب وخيانتته هو وأولاده، لكن زيد لم ينته بعد.

زيد بغلظة: هل رأيت رجالنا في مدينة العصوف يا لؤي؟ وكيف علمت أنهم قُتلوا؟  
تكلّم أيها الغلام.

لؤي ذليلاً: نعم رأيتُ الحراس يقتلوهم على باب قصر الوِثَاصِ، وقد أسروا ربيع بن مالك.

سهيل: ويحك أيها الخائن النذل، إنهم أبناء مدينتك!

اقترب زيد من أصهب، وسأله: ولماذا يا أصهب يقتلون أبناءنا وليس بيننا من شيء؟  
بماذا وعدت الوِثَاصِ حتى يتأمر معك على تسليمك قيادة الحرجف؟

أصهب بصوتٍ عالٍ: إنه علم أنكم لن تقتلوا شيحان. وهو يعلمُ أن شيحان يُريدُ منا أن ننقلب عليه مع الجوازِل، وخشي أن يتم ذلك ويُقنعكم به. ولقد وعدني الوِثَاصِ بقيادة الحرجف عندما أقتله.

زيد: إذن فأنت لا تُريد قتله تَأْزًا لمدينتنا، بل طمعًا وخيائنةً. ولماذا لم يطلب الوَبَاصُ

من الغازي أن يقتل شيحان؟

صمت أصهب ثم قال: لأن الغازي لن يفعل ذلك!

الجاسم وقد علت الدهشة وجهه: ولماذا؟!

أصهب: الغازي علم أن الوَبَاصُ يُريدُ أن يخلعه عن زعامة الحرجف ويضعني مكانه؛

لأن ثقته بي أكبر من ثقته به. وقد علم الغازي أن ابني سري سيتزوج ابنة الوَبَاصُ بدل

قصي ابنه، وهذا جعل الوَبَاصُ يتيقن أن عودته إلى الحرجف غاضبًا لن تجعله يقتل

شيحان، بل سيَتَقَفَنان معًا ضده؛ لأن منزلته ومكانته انتهت عنده. فأودعه بالسجن حتى

لا تُفكروا أن تنقلبوا عليه، وقتل رجالكم حتى تعلموا أنه لن يهاون في شأن شيحان.

وماذا ستفعلون الآن؟ هل ستقتلونني! أم ستقدمون رأس شيحان إلى الوَبَاصُ. لعله يُخلي

سبيل الغازي سيدكم!

نهض الجاسم (مُزْمَجِرًا): هذا لم يعد شأنك أمها الخائن. اقتلوه واقتلوا ابنه لؤي،

واقتلوا كلَّ خائنٍ يؤيده. ابتعد سعد والرجال عن مقعد أصهب رافعين أيديهم يَبْرُؤُون منه

ومن خيائنته. حتى دنا أوس من أصهب وأمسك الرجال بابنه لؤي، فصاح زيدٌ بصوتٍ

عال: تمهلوا، تمهلوا...

نظر الجاسم بغضبٍ إلى زيد وصاح فيه: ما بك يا زيد؟ صدرَ الحُكْم وانتهى الكلام.

زيد: أنت سيد الحرجف الآن ولك القرار فيما شئت. لكنني أرجو منك أن تؤجل

القصاص، دعنا نسجِّهُما وننظر بما يعلمان غير ما أخبرانا به، فقد نستفيد من أي

معلومةٍ عن الوَبَاصُ لا نعلمها.

أصهب: اقتلانا، فليس عندنا غير هذا الحديث.

دنا زيد إلى رأس أصهب: وهل ترغب برؤية رأس لؤي مقطوعًا ويتدلى أمامك! أم

نتنظر سري حتى نفتلكم جميعاً؟

أصهب: افعلوا ما شئتم، لست أخشى على حياتي الآن.  
زيد (بصوت هادئ): اطلب الرحمة لك ولولديك يا أصهب، فيسجنكم بدل أن يقتلكم.

أصهب (مُستسلماً): وما طيبُ العيش بعد اليوم يا زيد!  
زيد: اطلب الرحمة حتى أشفع لك عند الجاسم، لعله يُنفيك وأهلك عن المدينة.  
نظر أصهب إلى لؤي راكعًا والرجال يُمسكونه حتى يُدقَّ عنقه، ثم إلى قومه الذين خذلهم وخذلوه. ونظر إلى أوس وهو يتلهف؛ لأن يُشفِّ غليله بقطع الرؤوس. وتذكر ابنه سري الذي سيرجع إلى مدينة الحرجف ليجد الموت ينتظره.

أطال أصهب التفكير حتى بدأ صبرُ الجاسم وأوس بالنفاد. فهمس بأذنه زيد: هيا يا أصهب. اطلب الرحمة، فهذا ما جئيت به على نفسك وأهلك، فاطلب الرحمة لك ولهم.  
أصهب (بصوتٍ ضعيف): الرحمة، الرحمة، الرحمة أيها الجاسم.  
أوس: إنك لا تستحق الرحمة أيها الخسيس.

زيد: ها هو يطلب الرحمة منك أيها الجاسم، فانظر أنت بما تشاء.  
أمر الجاسم أن يُسجن أصهب ولؤي، وأن يُسجن كل من يعترض على قراره أو يُشكِّ في خيانتة. وأمر أن تُرفع رايات الحرب في المدينة، وعدم خروج أحد أبناء المدينة لأي مكانٍ خارجها حتى يؤذن له. وأخذ الحراس أصهب ولؤي مكبلين إلى السجن دون أي بلبله أو تمردٍ أو اعتراض أحد. وغادر أهل الحرجف ساحة المجلس بعد تنفيذ القرار، وغادر سعدُ بن يحيى ومن كان على شاكلته صاغرين، فتسللوا بين الرجال خافضي رؤوسهم، ورجع الجاسم وباقي سادة القبائل الموثوقين لقاعة القضاء، وجلسوا مسرورين بما حققوا.

الجاسم: لماذا طلبت ألا نقتل أصهب يا زيد؟

زيد: قد نحتاجه أيها الجاسم. ثم إننا إن قتلناه سيستعجلنا أبناء قبيلته وأهل الحرجف بأن نقتل شيحان أيضًا، أرى أن شيحان كُتب له عمرٌ طويلٌ بعد اليوم.



أنهى الجاسم والجميع مرحلة دراسة الخيانات، ثم انتقلوا إلى مرحلة تقديم الأولويات لما يجب فعله، فبدأوا بالترتيبات اللازمة للسيطرة على المدينة من الفتنة، وعيّنوا من يُراقب سعد بن يحيى وكبار قبيلة أصهب، كما اختاروا سهيل بن عياش للذهاب إلى مدينة الجوازل للتأكد من صدق شيحان بموضوع الآبار، وليستكشف نواياهم عند لقائه. وعملوا على جمع أخبار القبائل والمدن في منطقة رأس الخيل بسرية تامة؛ فأرسلوا عُيونًا إلى قبيلتي شيار وأوهد وإلى مدينة القلباء التي يزعمها الزعزاع بن حمزة، وطلبوا منهم أن يحتاطوا من غدرهم، فأمرهم أن يأخذوا معهم من عرف تلك القبائل من تجار الحرجف، فيدخلونها كأنهم يعرضون بضائعهم ويشترون من أسواقها. وحين أصبح شيحان والوَبَاصُ محور حديثهم، اختلفوا حول ما يفعلون، إذ لم يُخططوا قبل ذلك لحربٍ مع الوَبَاصُ ملك المنطقة وسيدها، ولا يجدون إلا شيحان يمدّ يده للتحالف معهم.

وفي خضم تلك الأحداث لم ينسَ الجاسم حاجة شيحان إلى الطبيب فطلب قدمه. وتأخر سوار حتى جاء بحقيبه ودخل المجلس، فسلم على الحاضرين ثم مشى مع الحُرّاس إلى زنزانة شيحان ودخلها، وأخرج عُدته وطلب من الحُرّاس أن يُجهزوا ماءً ساخنًا، فخرج أحد الحُرّاس ليحلب الماء فيما بقي الآخرون يُراقبونهما بحرصٍ شديد. عالج سوار شيحان ونظف جراحه بالماء الساخن، وبلّل قطعةً بيضاء من القماش بقليلٍ من الماء البارد، ووضعها على جبينه وأخبره أن هذا القماش يجب أن يُبقية على رأسه لأن حرارته مُرتفعة. وخرج من عنده مع الحُرّاس دون أن يكلمه بشيء، ولما لقي الجاسم طمأنه على صحة شيحان ثم انصرف.

لم يعلم شيحان ماذا يدور في الحرجف، ولم يعلم سبب الأصوات التي تعالت في ساحتها، فظنّ أن الحُرّاس اقتحموا زنزانه ليأخذوه إلى مصيره، أو لمقابلة الجاسم حتى دخل معهم سوار. ولم يتمكن شيحان من محادثة الطبيب لوجود الحراس في الزنزانة.

فلما خرج الجميع من عنده، أزال شيحان قطعة القُماش عن رأسه وفتحها وأخرج منها رسالتين مطويتين، فتعجب لوجودهما وجلس على سريره مسنداً ظهره إلى الحائط، وقام بفتح إحداها وقراءتها.

### الرسالة الأولى:

(فُجعتُ بك اليوم ثلاثَ مرات؛ الأولى حين رأيتُك في منامي مسموماً ومحموماً وأحشاؤك تتقطعُ ألماً والعرقُ يهْمُرُ منك، فإن جاءك طعامٌ فحركهُ جميعه بعضه ببعضه وكُل منه لُقمةً واحدةً، واصبر حتى تتبين سلامته، فإن استسغته فكل ما شئت. أما الفاجعةُ الثانية، فكانت وقت الفجر حين طرَقوا بابنا يُريدون سوارا، فظننتُ أن حُلمي قد تحقق، ولم يهدأ لي بال إلا عندما رجع سوار وأخبرني أن مريضهُ ليس أنت. والثالثةُ يا شيحان، كانت لما سمعتُ الحراس في المدينة يدعون إلى مجلس الحرجف، فخفتُ أن تُقتل بسيوفهم، وحضرتُ المجلس من بعيد، وعلمتُ أنك قد نجوتَ لأيامٍ آخر من كلام سادة المدينة. أتمنى أن تنجو بنفسك من مُصابك الذي أقيتَ نفسك به، فإن خرجتَ سالماً مُعاقٍ فاتركَ المنديل الأحمر كما هو).

انتهى شيحان من قراءة الرسالة الأولى فوضعها بجانبه كأنما يُهدي نفسه هديةً ثمينة، ثم أمسك بالرسالة الثانية وكانت من سوار، كتبها له لأنه توقع أن تُشدّد الحراسة عليه بعد محاولة الحراس قتله وذلك ما حصل فعلاً.

### الرسالة الثانية:

(لم ألقَ من أهل الحرجف إلا كَلَّ طيبٍ وكرمٍ، وما أكتبهُ لك يُعدّ خيانةً لهم، ولا يُركِّبه في نفسي إلا نيتي الصداقة وأملِي أن تنتهي الحربَ بينكم وتسوقهم إلى بر الأمان، فخذ العلم الذي في كتابي علّه ينفعك).

اعلم أنّ الحرجفَ الآنَ في حالة صراعٍ غريبٍ لم أَلحظهُ قبلاً. فقد عالجتُ فجرَ اليومِ شهابَ بنِ أوسَ الذي جاء من مدينةِ العصفوفِ مدمياً مفزوعاً. وما علمتُه أنّ جُندَ الوَبَاصِ قتلوا ثلاثةَ رجالٍ من أهلِ الحرجفِ وأسروا ربيعَ بنَ مالكٍ، كما أنّ الوَبَاصِ سجنَ الغازيَ وابنهَ وبعضَ رجاله في مدينته، وقد كان يُخططُ لإزالته عن سيادة الحرجفِ وتوليةِ أصهبِ بنِ عدي سيداً عليها، فكشفت خيانتُهَ وما هو الآنَ يقبُعُ هو وابنه في الزنازينِ المجاورة لك.

أعلمك أيضاً أنّ حالةَ الحربِ أعلنت في المدينة، وشدّدت الحراسةَ على مداخِلها ومخارجها. فإن كُنْتُ بحاجةٍ أن تُوصلَ رسالةً إلى أهلك فأرسل معي، فأنا أكثرُ الرجالِ حُرِيَّةً في التنقُلِ بينَ المدنِ والقبائلِ).

قرأَ شيحانُ تلكَ الرسالةَ بعنايةٍ وابتسمَ ممّا وجدَ فيها، وقد تبيّنَ له الكثيرُ من الأخبارِ التي يحتاجها، فأثارت فضوله ودهشته، واستأنسَ بوحدهِ ومن ظلامِ سجنه، وفرحَ بنخوةِ سوارِ واستعداده لتقديمِ العونِ، وأعجبَ بحكمته التي طابقت صفاتِ جده آزاد. وجهزَ شيحانُ نفسهَ لمناظرةٍ جديدةٍ مع سادةِ الحرجفِ، تكون فيها كَفْتُهُ أثقلَ وزناً، وأقوى موقفاً، ثم أمسكَ بالرسالة، وأبدلها برسالةِ أرامَ التي قرأها سابقاً بين يديه، وأخذ يُعيدُ قراءتها ويتأملُ فيها، وكأنّه يحملُ طفلاً صغيراً يُداعبه.

وصلَ ثابتُ بنُ سلمانَ ورجاله إلى مدينةِ الحرجفِ عُقبَ الظهيرةِ، ومعهم سري بنِ أصهبِ مكتوفاً ومعصوبَ الفمِ والعينين. فوجدوا الحراسةَ مُشددةً عندَ مدخلِ المدينة، وعلموا أنّ حالةَ الحربِ قد أُعلنت. وعلى بابِ المجلسِ استقبلهم قيسٌ، فسلمَ على ثابتٍ، ونظرَ بعينٍ غاضبةٍ لمن حَسِبَهُ صديقه سري مُكبلاً صاعراً، فأدخلهما إلى قاعةِ القضاءِ ودخلَ معهما. استقبل كبارَ المجلسِ ثابتُ بنُ سلمانَ، وجعلوا الحراسَ يُكبّلون سري بالحديدِ ويلقونه في زنازِنِه وحده، فاستوقفهم قيسٌ وفكَّ اللثامَ عنه ونظرَ في عينيه نظرةَ الازدراءِ والاحتقارِ، ولما انصرفوا به، سألَ ثابتٌ عن شهابِ بنِ أوسٍ، فأخبروه بحالته

وظمأنوه عنه وذكروا ما قد سمعوا منه. ثم سألهم عن حالة الحرب في الحرجف، فسردوا له جميع ما غاب عنه وما كان مع أصهب، ومن أرسلوا من الرجال إلى مختلف المدن والقبائل يستطلعون أخبارها.

أخبر ثابت الجميع في المجلس ما ذكره له سري بن أصهب عن الوَبَاص، وعن غضبه الشديد من بقاء شيحان حيًّا في مدينة الحرجف ومن محاولات أصهب العابثة لقتله، فاستنتج أنّ الوَبَاص لا مهمّة من يتولّى سيادة الحرجف، ولم يَسجن الغازي إلا ليتأكد من موت شيحان، والنتيجة باتت واضحة: رأسُ الغازي مُقابل رأس شيحان. والوَبَاص يُجَهّز نفسه الآن لأكبر حربٍ قد يخوضها في تاريخ مدينته ومنذ زمن والده ضامر، وما يُريدُ إلا أن يُحافظ على عرشه ومُلُكه مهما كان الثمن وكيفما كانت الوسيلة.

صاح أوس غاضبًا: سأقتل الوَبَاص بيدي إن مسّ شعرةً من الغازي، وسأنتقم لقتله رجالنا وسيندمُ على غدره، ولن نُسامحه أو نُسامح أي خائنٍ يقف في صفّه.

العراف: لقد وصلنا مفترق الطرق الآن. إما يُقتلُ الغازي وتشتعلُ الحرب، وإما نُسلم شيحان ونتجنّبها.

أوس: والرجال الذين قتلوهم! والغازي، أيرضى بذلك؟ ستقتلني غيظًا أيها العراف.

هل نبيعُ كرامتنا بين القبائل!

الجاسم (بغضب): ذلك القدر، وإن أعطيناه رأس شيحان هل سيضمنُ ألا نُقاتله أو نقفُ مع الجوازل.

زيد: نعم سيضمنُ ذلك. فلو أننا سلّمناه شيحان، لكننا أثرنا حياة الغازي على الحرب، ونكون قد قطعنا كلّ ما يُمكن أن يجمعنا مع الجوازل باستسلامنا المخزي. وكيف للقبائل أن تحترمنا أو تحترم موثيقنا بعد ذلك!

اختلفت الآراء وسادت الحميّة على العقول، واقترح الجاسم أن يذهب بنفسه إلى الوَبَاص، فيحتالُ عليه ويطلبُ منه أن يُطلق سراح الغازي حفظًا لكرامتهم، ومن ثمّ

يقتلون شيحان أو يُسَلِّمُوهُ لَهُ. فَإِن سَلِمَ الْغَازِي وَخَرَجَ مِنْ سَجْنِهِ، سَيُخَطِّطُونَ بَعْدَهَا لِقِتَالِ الْوَبَاصِ.

زيد: لا لا، لِن تَنْفَعُ تِلْكَ الْحِيلَةَ. لَا تَعْتَقِدُ أَنَّ الْوَبَاصَ غَيِّ حَتَّى لَا يَكْشِفَ نَوَائِكَ، سَيُظْهِرُ عَلَيَّ وَجْهَكَ الْحَقْدُ وَالْغَضَبُ مِنْ قَتْلِهِ لِرَجَالِنَا، وَمِنْ سُوءِ فِعْلِهِ مَعَ أُخِيكَ الْغَازِي، وَمَا دَامَ قَدْ تَجَرَّأَ عَلَيَّ سَجْنِهِ وَقَتَلَ رَجَالِنَا، فَمَا يَمْنَعُهُ عَنِ سَجْنِكَ أَوْ قَتْلِكَ! فَهَذَا الرَّجُلُ لَا يَعْرِفُ الْعَهْدَ إِلَّا فِي قُوَّتِهِ، وَإِن خَافَ فَلَا يَعْرِفُ مِنْهَا شَيْئًا.

الجاسم: وهل لديك فكرة أفضل يا زيد!

زيد: ليس عندي الآن أي فكرة، لكننا لن نُغامر بحيلة لا يُؤْتَى أَكْلُهَا.

أوس: ليس لدينا وقتٌ لكي نُقررَ ماذا نفعل.

العراف: نعم، سيقطعُ عنا الوَبَاصُ الماءَ.

نعمان: إنها كارثة لو فعلها، لكن الوَبَاصُ لا يدري عن أمرنا شيئًا، ولن يعلم إلا ممن سجنناهم هنا، أصهب وولديه، ولن نسمح لأحدٍ أن يُسرِّبَ خبرًا خارجَ مدينتنا، فكيف يقطعُ عنا الماءَ!

العراف: إن تأخَّرَ الرَّدُّ عَلَيْهِ سَيَعْلَمُ أَنَّ أَصْهَبَ قَدْ كُشِفَ، وَبَعْدَهَا سَيَقْطَعُ الْمَاءَ عَنَّا بِالتَّأَكِيدِ. حَرِيٌّ بِنَا أَنْ نَكْثُرَ وِرْوَدَ الْمَاءِ الْآنَ، وَتَخْزِينِ مَا نَسْتَطِيعُ تَخْزِينَهُ، فَالْقَادِمُ أَدهَى وَأَمْرٌ.

فَكَرَّ الْجَمِيعُ بِصَمْتٍ وَبَدَأَتْ الْخُطَطُ وَالْحَيْلُ تَعْصَفُ بِأَذْهَانِهِمْ، فَيَتَرَدَّدُونَ مَرَّةً وَيَحْزَمُونَ مَرَّةً أُخْرَى، وَبَقُوا عَلَى هَذَا الْحَالِ مِنْ كَثْرِ الْكَلَامِ وَالسَّجَالِ، إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى حَلِيقَةٍ مُفْرَعَةٍ، فَكُلَّ خِيَارٍ يَقْتَرِحُونَهُ يَفْتَحُ أَبْوَابًا مِنَ الْإِحْتِمَالَاتِ غَيْرِ الْمَوْكَدَةِ. نَهَضَ زَيْدٌ وَزَمَّ عِبَادَتَهُ عَلَيْهِ يَنْوِي الْخُرُوجَ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَتَعَجَّبَ الْحَاضِرُونَ مِنْهُ وَاسْتَغْرَبُوا حَاجَتَهُ لِتَرْكِ الْمَجْلِسِ فِي هَذِهِ الْمَعْمَعَةِ وَهَذَا الْوَقْتُ الْعَصِيبِ.

الجاسم: أين يا زيد؟ هل تُريدُ الذَّهَابَ إِلَى مَكَانٍ!

زيد: ليس أنا وحدي. بل جميعنا.

أوس: وأين نذهب ونحن في عزّ الحاجة إلى الكلام يا زيد؟ هل فقدت عقلك!

زيد: سأفقدُ عقلي إن بقينا هكذا، لقد حلّ المساء ونضبت عندنا الأفكار. وسيذهب كلُّ منا إلى بيته، ونترك ثابت يرتاح من سفره. فنحن الآن بحاجةٍ إلى الراحة والتأني، ولن نصل إلى قرارٍ رشيدٍ لو اجتمعنا لأيامٍ على هذه الحال.

قام زيد ومشى باتجاه باب المجلس، ثم استدار ونظر إلى أوس وإلى الجميع وتبسّم قائلاً: إن شئتم أن تكملوا حديثكم فأكملوه، لكنكم ستُجهدون أنفسكم دون جدوى، ولن تتمكن من الجلوس مع شيحان ونحن بهذه الحال نتخبّطُ في قراراتنا. وما فائدة طول انتظارنا لو خرجنا من مجلسنا متأخرين أمام أهل المدينة دون قرار، سينتقصون من قدرتنا على حل المشاكل وتضعفُ هيبتنا أمامهم، ونحن أحوجُّ ما نكون لها الآن. فلنخرج جميعاً وننظرُ في أحوال الحرجف وأهلها، ونقضي على باقي الفتنة بشدةٍ وحزم، ومنتظر الغد حتى نجتمع، وكلُّ شخصٍ فينا يكون قد فكر بترؤٍ وأعدَّ خطةً مُحكمةً ليُدلي بها. لعلنا نستقرُّ على رأي!

ثابت: لعمرى أني ما تعبتُ من سفري بقدر ما تعبتُ من التفكير، حتى أني وصلتكم دون أن أشعر بوصولي. أنا كما قال زيد، بحاجةٍ إلى راحةٍ عقلي وجسدي.

اتفق الجميع بعد أن أقنعهم زيد بضرورة أخذ استراحةٍ كافيةٍ للتفكير بجميع المعتركات أمامهم، وبعد استنفاد كل الخُطط التي اقترحوها وباءت بالفشل. أمر الجاسم الحراس أن يتأكدوا من تخزين المياه لجميع أهل الحرجف ولواشيمهم، ثم خرجوا من مجلس الحرجف صامتين لا يتكلمون عما تباحثوه، على موعدٍ مع يومٍ لاحقٍ يُفصلُ فيه في آرائهم وقراراتهم. ومشوا جميعاً بالسوق يتبخثرون وينظرون زهواً لمن يُقابلهم، حتى لا يجروُ أحد على أن يشكَّ فهم ويلمسَ القلق الذي بأسرهم، والحيرة التي تعترتهم.

ولا يدري أحدٌ ما تُخفيه له الأيام، ولا يدركُ معنى قلبِ الموازين إلا حينما تُقلبُ به أو أمامه. فقد تغيّرت الأحداث في المنطقة على عكس العادة، وامتألت الزنازين بأصحاب النفوذ والزعماء بدل أن تمتلئ باللصوص والأسرى وقُطاع الطرق؛ فها هو شيحان سيّد مدينة الجوازل يقبعُ في سجون الحرجف، وبجانبه أصهب بن عدي وولديه سري ولؤي، وها هو الغازي زعيم مدينة الحرجف سجينٌ في مدينة العصوف ويشاركه سجنه ولده قصي، وربيع بن مالك في زنزانهِ واحدة.

الوبّاص - تأمل راضي

## الفصل الرابع

### زعيمٌ واحدٌ فقط

خيم القلقُ والخوفُ في مجلس شيحان على الجميع، بدور وزوجها همام وعمها مالك والليث وبعضُ الأضهار وأبناء العمومة، كانوا مُتحرِّقين أن يأتيهم خبرُ بقاء شيحان حيًّا، وقد خرج ضرار وجلحد منذُ الصباح الباكر لجلب الأخبار عنه وعن الحرجف، ومضوا إلى شجرة المجنون للقاء الراعي كما تمَّ الاتفاق معه سابقًا، وقد غابت الشمسُ ولم يرجعا حتى الآن. فُرع باب المجلس ففتحه الخدم، ودخل زهير ابن عم جلحد ومعه نهلان. كان زهير طويلًا جسيمًا كثيف الشعر، ووجهه دائريٌّ بشوش وعيناه صغيرتان، فجلس وأخذ مكان رجلين فلم يكن لأي مقعدٍ أن يستوعب ضخامته، أما نهلان فكان أصلعَ مكشوف الرأس، قويّ البنية رغم قصره، وكانت لحيته تتدلى على صدره.

بقيت بدور في المجلس كما اعتادت دائمًا الجلوس مع الرجال، فنظرت إلى زهير وهو يضع رأسه في الأرض خجلًا، فسألته إن أراد منها الانصراف إن ابتغى حديثًا خاصًا، فرفع يديه وحركهما نفيًا دون أن يُبدل نظره. لم يتغير زهير أبدًا رغم كبر سنه ووفاة زوجته وبقائه وحيدًا، فضل طيبًا لدرجة الغباء، وخجولًا قليل الكلام حتى لا يقع في الأخطاء، حتى صحته بقيت كما هي. وما زال جميع من عرفه يُدهش كيف يحمله حصانه ويتحمّله، فكانوا يُمازحونه دومًا، ويطلبون منه أن يسبقهم في السفر بيومين حتى لا يؤخرهم بمسيره. قدّم الخدم الفاكية وتناول زهير قطعًا من العنب وقطع منه خُصلةً، وبدأ يأكل منه حبةً حبه، وكل الأنظار كانت عليه فضحك مالك من طريقة أكله



المصطنعة، وضحك الآخرون كذلك، وعلم زهير أنهم يضحكون من طريقة أكله، فوضع العنب على الطبق وتوقف عن الأكل، واستند واضعاً يديه على بطنه الكبيرة، وكأنها وسادةٌ يستند إليها.

مالك (ضاحكاً): إِنَّ خُصْلَةَ العنب لم تظهر بين أصابعك يا زهير. هيا خُذْ قطعاً كاملاً وضعه في فمك كما عرفناك.

زهير: لقد شبعْتُ يا أبا ضرار، كلوا أنتم إن شئْتُمْ.

همام: أشبعْتَ أم سُدَّتْ نفسك عن الأكل! إِنَّ أبا ضرار مختصٌّ في سدِّ الأنفس. هيا كُلْ ولا تكثرث لكلامه وتعليقاته، إِنَّمَا يحسُدُك على صحتك وعافيتك.

بدور: هل أَطْلُبُ لك طعاماً يا زهير؟ لعلك جائعٌ ولم تأكل بعد!

زهير بشكلٍ مُحزن: بلى، جنْتُ من عند الآبارِ إلى هنا مباشرةً، ولم أكل شيئاً منذُ الصباح، إِنَّ نَهْلانَ يمنعنا عن الطعام! إن لي شهراً لا أَكُلُ إلا زَيْتاً وخَبْزاً وأَعْشاباً لا أدري ما هي.

ضحك الجميع وقهقه ليث وصاح بالخدم أن يجهزوا أطيب الطعام للحاضرين، ثم طلب من نهلان أن يترفق بمن معه، فقد كان جاداً في عمله يمنع الطعام عن العمال، وحتى عن زهير الذي يُشرف على عملهم ويحمي الآبار من الاقتراب والعبث. وسأل مالك: كيف الآبار يا نهلان؟ أغاضَ الماءَ فيها أم فاض!

nehlan: لقد فعلنا كما طلب منا شيحان؛ جهزنا الآبار الخمسة وملأناها بالماء، ونحن قائمون على استكمال الآبار الجديدة، وقد اتهمنا من حفر بئرين نعمل على ملئها.

لم يقتنع الليث بكفاية الآبار وسدّها للحاجة إن دخلوا الحرب، فتلك الآبار بالكاد تكفي الجوازل أشهر معدودة، فكيف إذا تحالفوا مع الحرجف وتقاسموها معاً! طرح الليث أسئلة كثيرة وتعتمد ذلك لوجود عمته بدور، فحاول أن يستدرجها في الكلام فتبوح بما تُخفي عنهم، وعبثاً كانت محاولاته، وكان الوقت لانتظار جلد وضرار طويلاً قياساً

بمدى القلق الذي يعترهم، فقرر مالك أن يُخرجهم من الحزن ويسرد لهم قصة شيحان بعد أن قضى على علقم وجماعته، فقال: حسناً يا ليث، أرجو ألا تخونني ذاكرتي وأنا في سَيِّ هذا، فإن غفلتُ عن شيءٍ فهاهنا همام وزهير وبدور، سيذكرون ما أنساه..

مضى يومان وشيخان في غيبوبته يُصارحُ الموت والآمه، وبدأت القشعريرة تسري في جسده ومفاصله، فظننا أنه هلك، ولم تفارقه بدور لحظةً واحدةً، فلم تأكل طعاماً ولم يغمض لها جفنٌ أبداً، بل بقيت عند رأسه ترعاه، فقد كانت أمًّا وأختًا، رعته صغيراً وكبيراً. وأهل الجوازل كانوا يتجنبون الاحتكاك معنا حينها رغم اجتماعاتهم وتحضيرهم لوادٍ عزيمتنا، والقضاء على ما ظهر من قوتنا، واسترجاع الغنائم التي حظينا بها. استفاق شيحان فجر اليوم التالي، وفتح عينيه فوجد بدور ذابلاً أمامه، فصرخت من الفرح صرخةً جمعتنا كلنا عندهما. استفاق شيحان وتلقّت حوله كمن فقد ذاكرته، وسألنا عن حاله وما الذي حصل معه، فابتهجنا وهلبلنا فرحاً أفزع أهل الجوازل قاطبةً.

ومن فرط السعادة التي ألمت بنا، لم ننتبه لوالدي مطلق وهو يحبو كطفلٍ صغير بيننا ويزحفُ على يديه رافضاً أن يحمله أو يعاونه أحد، حتى أخذ مجلسه عند رأس شيحان، حاول شيحان أن يهنّض ليقابله ولم يستطع، فطلبنا منه أن يرتاح وألا يتحرك فتفتق خيوط جراحه، فأراح رأسه للخلف ورفع عينيه لوالدي وهو ينظر له بابتسامةٍ ساحرةٍ أسرت قلوبنا وأغرقت عيوننا، وأمطرت دموع والدي وانهمرت على رأس شيحان فمسحها بيديه المجعدتين، ثم طبع قبلة الفخر والاعتزاز على رأسه، وقال باكياً: لم أحلم يوماً مُنذ وفاة صخر، أن أعيش لأرفع رأسي في بيتي هنا، حتى رفعته أمام أهل الجوازل كلمهم، لقد جزمتُ سابقاً أنّ دمي ودم أبنائي وأهلي قد اندثر بالتراب، لكن ههات، ههات إلا أن يُعانق السماء، ويسطع كالنجم في الفضاء.

لم نعد ننظرُ إلى شيحان كما رأيناه أول مرة صبيّاً مُتجرفاً ومُفتعلًا للعراكات، بل أصبحنا ننتظرُ أن يهنّض فينا، فنضربُ بسيفه كل من سولت له نفسه أن ينتقص منا،

ويحملنا إلى أقصى ما يستطيع أن يبلغَ بطموحه ورؤيته وعزمته. ولم نَم تلك الليلة أبداً، بل سهرنا في بيت والدي وذبحنا الذبائح، وأولمنا الطعام للجيران والمحتاجين وعابري السبيل. وعاد إلى بيت والدي عزّه الذي اندثر. فسهرنا تلك الليلة وكأنه أول عرسٍ لنا بعد سنواتٍ من الألم والعزاء.

مرّت أيامٌ على إفاقة شيحان من غيبوبته وزاد الحنق في المدينة. وجاءنا خبرُ تجمّع شياروأوهد وباقي سادة الجوازل عند مجلس الحرب يتباحثون بشأننا، فأخفينا الخبر عن شيحان حتى لا يُجبرَ نفسه على اللقاء بهم وجراحه ما زالت نديّة، ومضيتُ أنا وأبناءُ عمومي إلى مجلس الحرب للقاءهم. اقتربنا من ساحة المجلس وسمعنا أصواتهم تتعالى تهديداً ودمماً، وتوعداً لشيحان ومن يقف بصفه بأقصى الجزاء والعقاب، ودخلنا بينهم فسلمتُ عليهم ولم يردّوا تحيةً ولا سلاماً وقطعوا كلامهم. كانت كل المقاعد شاغرة فلم نجد لنا مجالسَ بينهم، ولم يُقَم منهم أي أحد، فوقفْتُ أمامهم أنتظر ماذا يقولون وماذا يُريدون، فنظروا إلينا بغرابةٍ ودهشةٍ، وقد مرّ زمنٌ طويل منذ أن دخل أحدُ أبناء قبيلتنا مجلس الحرب.

طلب مني شيارأن أقدمُ الغنائم لمجلس المدينة، فهي ملكٌ للجميع، فرفضتُ ذلك وأخبرتهم أنّها ملكُ شيحان وهو صاحبُ الشأن فيها. لم يُعجب كلامي سادة الجوازل وسخروا مني ومن حديثي، ولم نصل إلى نتيجةٍ بعد جدالٍ طويل، فحملتُ نفسي ثم أدرتُ ظهري لهم ومشيت، فغضب الجميع ولحق بي شياروأمسك كتفي، فنظرتُ إليه والشرُّ يتطايرُ من عينيه، فقال: هذه الغنائم ملكُ مدينة الجوازل، ولن ننتظر من غلامٍ أن يمنعنا عن تقسيمها، سوف نأخذها عنوةً دون مئةٍ أو تأخير. وصاح أوهد وباقي سادة الجوازل أيضاً تأييداً للكلامه، فغضبتُ وأنزلتُ يدَ شيارمن على كتفي وأوشكنا أن نتعارك معهم، حتى صاح أحد الرجال وأخبرنا أنّ شيحان في طريقه إلينا.

انفصلنا وعاد كل رجلٍ إلى مجلسه وعمّ الصمت، وشيخان يمشي صوبنا بخطواتٍ جريئةٍ وسيفاه على جانبيه حتى وقف بجاني، فطلب من حراس المجلس أن يحضروا مقاعدَ لنا، فنظروا إلى شيار وأوهد ليُعطوهم الإذن، فصرخ شيخان فهم صرخةً أربعتهم: ماذا تنتظرون؟ هيا أحضروا المقاعد على عجل. وبالفعل أحضر الحراس المقاعد، وجلسنا أمام أسياذ الجوازل، وطلب شيخان من الحراس أن يُنادوا التجار الذين هُبوا من قِبَل قطاع الطرق، فانصرفوا لذلك دون أدنى مملعة. لم تُعجب أسياذ الجوازل طريقة شيخان في فرض الأوامر أمامهم، وانصياغُ الحراس له وخوفهم منه، فنظر شيار إلى أوهد وإلى باقي الحاضرين معه، ثم أعاد نظره إلى شيخان وقال: أراك تأمروتنه هُنا يا شيخان! أتراك صدقت أنك سيدٌ في الجوازل، ما أنت إلا سيدٌ على قبيلتك فقط كما يزعمون ويدعون، فلا تغترّ بذلك.

ضحك شيخان وقال: لو أنكم يا سادة ما اقتنعتُم أني سيدٌ، فلما انتظرتم كل تلك الأيام تجتمعون وتتشاورون تحسبًا للقائي! ولولم أكن سيدًا، فلماذا يستمع الحراس إلى كلامي! حريٌّ بكم أن تتركوا الكلام الذي لا فائدة منه لما هو أولى، فإن كُنتم حقًا لا تجدونني سيدًا ففيمَ جلوسكم هنا! هيا أروني ما أنتم فاعلون!

أوهد: هل تُهددنا يا شيخان؟

شيخان: أنا لا أهدد، فلستُ مثلكم كثير الكلام والمشورة، أنا أفعل ما أقول، ولا أحسبُ حسابًا لأحدٍ فيكم. وكلامي كالسيف، إن شئتُم جربوه، وإن استطعتُم فجربوه.

نهض شيار من مجلسه غاضبًا: إنك تتكلم بما هو أكبر منك يا غلام، هل تحسبنا نقول ولا نفع! احذر من كلامك حتى لا تندم فتنتهي طموحاتكم الغبية.

حاولنا النهوض من مجلسنا بعد أن قام بعضُ رجال شيار وأوهد غاضبين، ثم عدنا سريعًا إلى مقاعدنا بعد أن رأينا شيخان جالسًا لا يتحرك، مُكتفياً بالنظر إلى شيار ورجاله. استمر الجدل وكان شيخان كلما تحدث، ازداد غضبُ سادة الجوازل وأفقدهم

أعصابهم، وبدأ عليهم النفورُ والاستنفارُ وعليه السكينة والوقار، وحاولوا أن يُخيفونا بالاستعراض برجالهم وسلاحهم، ولكن هُمات أن ينفع ذلك مع شيحان الذي قرَّرَ نتيجة اللقاء والحوارِ قبل أن يتم.

وصل التجار الذين سُرقت بضائعهم ووقفوا أماننا، واستفسر منهم شيحان عن مُدَنهم وعن قبائلهم، فتبيَّن أنَّ بعضهم غريبٌ عن الجوازِل والباقون من أهلها، ثمَّ سأَلهم عن بضائعهم وأموالهم فأخبروه عنها. لم يُفكر شيحان كثيرًا، فطلب من التجار أن يذهبوا معي لاستلام كلِّ أموالهم وبضائعهم بعد أن ينتهي مجلسنا مع سادة الجوازِل. وابتعد التجار عن مجلس الحرب بعد أن شكروا شيحان وأثنوا على شجاعته وكرمه، ووقفوا وسط السوق ينتظرون انتهاء جلستنا وهم في أشدِّ الفرح والبهجة. ورجع شيحان إلى حديثه مع أسياد الجوازِل، وأخبرهم أنه أنهى اجتماعه بهم وأنهى موضوع الغنائم. فثاروا جميعًا وثار من خلفهم من أبناء قبائلهم وأتباعهم.

وصاح شيار: ونحن، أموالنا وحلالنا! هل ذهبت سهلًا؟ إن لنا حصَّةً من تلك الغنائم.

قال أوهد: جميعُ الغنائم كانت من مدينة الجوازِل، إنَّ لنا أموالًا وحلالًا سُرقت قبل ذلك.

ضحك شيحان وقال: ولماذا لم تأخذوها حين سُرقت؟ وأين كُنتم طوال تلك السنين؟ ألم تقولوا أنكم ستسامحونني بأموالكم إن غنمتم! وما قد غنمتم فلما بدلتُم كلامكم.

شيار وهو يتلعثم: لقد أرسلنا جيشًا لُرجعها، وهي لنا ولن تثنيننا عن أخذها ولو بالسيف.

صاح شيحان: أرى أن جُرأتكم علينا أكبر من رجولتكم، فكفاكم جدالًا واستعراضًا برجالكم، واحذروا أن تجرحكم سيوفكم إن سحبتموها من أعمادها، فما أنتمُ بأكفَاءَ

لتحملوها. هذه الغنائم ملكٌ من غنمها، والموتُ عاقبةٌ من يتجرأ على ذكرها أو يحاول الوصول إلى مراعيها. هل سمعتم؟

استشاط غضبُ سادة الجوازل واحتدمت النيرانُ بيننا وكُنَّا قلَّةً مقابلهم، فسحب بعضهم سيفه ودعا آخرون إلى الهدوء، ولم نقم نحن بأي فعلٍ بل تركنا شيحان يتولَّى زمام الصراع الذي اشتعل في الأنفس. وما هي إلا لحظات حتى سمعنا صوتَ الخيل تدقُّ الأرض وتنقرها نقرًا، فنظرنا جميعًا وإذ برجالنا يطوفون المجلس، وقفز جليحد وضرار وهمام كالأسود من على خيلهم ووقفوا جوارنا، فغزا الرُعبُ وجوه شيار وأوهد وكلَّ من كان معهم، وأذهلوا من جاهزية رجالنا للقتال وغلظتنا، وارتعدت فرائصهم<sup>(١)</sup> خوفًا. ترك شيحان لشيار وأوهد الكثير من الوقت ليفكِّرا في موقفهما تلك اللحظة، وقد علمنا أن شيحان لو طلب منا سحب سيوفنا لخصبناها بالدماء، فقلبًا أنظارهما بينهما ثم التفتنا إلى رجالهم وطلبنا منهم غمد سيوفهم فأغمدها ثم طلبوا منهم الانصراف وانصرفوا.

ومرَّ أوهد وشيار أمامنا، وقال أوهد: لنا لقاءٌ يا شيحان.

تبسّم شيحان ابتسامته الساحرة: بالطبع يا أوهد، ألا هل تُعجلون به. فنحنُ لا نطيقُ صبرًا للقائكم.

تبدلت الأحوال وشعرنا أنّ القوة والمنعة ستكون دومًا لنا، وأخذنا عهدًا مع شيحان أن نُظهِر الجوازل من أسيادها الأتذال، ونحميها من الأعداء الذين اعتادوا ضعفنا. ومرّت الأيام وفي كل يومٍ كُنَّا نزداد قُوَّةً وعزّةً، ونموًا وثراءً. وأخذ كلُّ فردٍ في قبيلتنا وقبائل أحلافنا الذين وقفوا معنا مألًا وحلالًا أكثر مما يحتاجُ إلى بيته، وفتحنا المراعي والسهول لمواشينا، ونزلنا نزرعها ونسقيها ونرعى حلالنا أينما شئنا، فلم تعد حكرًا لأسياد الجوازل كما كانت سابقًا. وتغيّر أسلوب التجارة في المدينة، ولم يعد شيار وأوهد يتحكمان بسوقها

(١) فرائصهم : الفريضة لحمة بين الجنب والصدر والكتف ترتجف عند الخوف.

كما كانا سابقًا، فأصبح التجار يتقنون بنا ولا يرغبونَ إلا بالتعامل معنا، فحملت قوافلهم ما طلبنا وأوصينا، وحملوا ما صنعناه وزرعناه.

وقمنا بشراء الحانة وقلبناها إلى ما هي عليه الآن، مخزنًا ومصنعًا للسلاح والحدادة، فبرعنا في صناعة الأسلحة والدروع، وصناعة المناجل والفؤوس حتى حدّوات الخيل، وأعطانا شيحان خبرته العميقة ومهارته في تصنيعها، وعملنا معه كل يوم، ولم تنقطع أصوات طرق الحديد في المدينة. وأفضت مضاجع أسياد الجوازل وأرعبتهم. ولم يعلم مهبران، صاحب محل الأسلحة، أن الغلام الذي طلب العمل عنده وسخر منه، سيكون أكبر تاجرٍ في المدينة وأقوى سيدٍ فيها. فبعد أن استحوذنا على سوق الصناعات، تلاشى الطلب على بضائعه داخل المدينة ومن الأسواق البعيدة، ولم يعد يبيع شيئاً فعرض بضاعته بأرخص الأثمان ولم يجد أحداً يشتريها منه؛ فذهب إليه شيحان واشترى جميع ما عنده ولم يبغسه حقّه، وأقنعه بالعمل معنا، فاستعمله هو وأبناؤه وعماله وها هم يعملون معنا حتى اليوم.

ولم نكتفِ بالتجارة والصناعة والزراعة، بل توسّعت نشاطاتنا واهتماماتنا، فجمعنا الرجال ودرّبناهم على حمل السلاح والقتال، وأساليب المزاوغة وجيَل الحرب وخدعها، وجعلنا من كلِّ شابٍ فارسًا لا يُشقى له عُبار، وبنينا جيشنا العظيم، وأصبحت كتيبة السكارى أقوى الكتائب فيه، فهزّت كلَّ المدن والقبائل في منطقة رأس الخيل! وذاع صيبتنا وصيبت شيحان، وانتشرت أخبارنا في كل البقاع مع التُّجار والشُّعار الذين حملوها. وضحك أسياد الحرجف كثيرًا في مجالسهم، وهم يستمعون إلى أخبارنا التي تغزوهم، واستنكروا أن يوحدنا شيحان ويصبح سيدنا.. لم يكن يتفصنا طوال تلك السنين إلا قائدٌ يقودنا، لم نعد جوازلَ ذوات ريشٍ قصيرٍ تطيرُ قرب الماء والقمح، بل أصبحنا صُقورًا تضربُ أجنحتنا أعالي السحاب، ونجوبُ الأرضَ دونَ خوفٍ أو كلل. وألصقنا آماننا على

أسنة الرماح وحملناها بأيدي من حديد، وعلمنا أنّ الوحدة والزعامة شرف يُصان ولا يُنتزع، كالعرض يهون الموتُ في سبيله.

مرت بنا الأيام والشهور دون أن نشعرَ بها، وزادَ عددُ أتباعنا واشتدَّ تماسُكنا، وتزوَّجت بدور من همام، وتوفي والدي مطلق بعدها بأيام قليلة وهو في قمة سعادته، فمات عزيزاً كريماً، وأوصانا قبل موته ألا نعصي لشيحان أمراً، وأن نكون سنداً له حتى يُصبح ملك منطقة رأس الخيل كلها، ونكون نحنُ أسيادُ أسيادها. توقف مالك عند وصية والده وبكى، فبكت بدور وهمام، وعمّ الحُزن على الحاضرين وانقطع الصوتُ إلى أن قضم زهير قضمَةً كبيرةً من تُفاحةٍ بيده، فصَدَحَ صوتها كصوتِ مزعٍ قميصٍ مهترٍ، فنظر الجميع إلى زهير وتبسّموا، وهو ما يزال يُمسك التفاحة بيده وأسنانه، ثم استرسل في مضغ تلك اللُقمة ببطءٍ شديدٍ وهو ينظرُ إليهم.

كان بُكاء مالك وبدور مزيجاً من الأحزان والذكريات القديمة، مع الخوف على شيحان أن يُقتل أو يموت دون تحقيق الحلم الذي حلموا به جميعاً. وتحنج همام واسترعى انتباه الجميع، وأخذَ الإذن من مالك أن يُكمل القصة التي لم يُتها، فأذن له مالك وبدأ همّام بالكلام..

حاولنا مراراً وتكراراً أن ندفع بشيحان لسيادة الجواز، وكان يؤخر ذلك رغم قدرته التامة على الزعامة، وقد انكسرت شوكة أسياد القبائل أمام عزيمته وصلابته. وجاء ذلك اليوم الذي لمعت فيه شرارة الحرب، وأضرمت بعد أن قام مجموعة رجالٍ من الحرجف بالاعتداء على موردِ ماء الجواز وبثرها، فعكروا الماء بخيلهم ودوابهم بعنجهيةٍ وسخريةٍ. في السابق اعتاد أهل الجواز على هذا التصرفِ ذُلًا وهوانًا، لكن بعد قدوم شيحان، ورفع العزة فينا، فلم يقبل أبناء الجواز الحاضرون ذلك الفعل، فاعترضوا على رجال الحرجف الذين قابلوهم بالتهكم والضحك، واحتدم النقاش بينهم حتى وصل



إلى رفع السلاح والقتال، فقتل أكثر رجال الحرجف وهرب الباقون إلى ديارهم، ورجع رجال مدينتنا يحملون قتلاهم إلى مجلس الجوازل.

اجتمعنا في ساحة المجلس وشيخان معنا، فاستنكر شيار وأوهد تصرف رجال مدينتنا، ووبّخوهم وعنفوهم على فعلتهم، لا بل تَبَرَّؤوا منهم، وحذا بعض أسياد المدينة حذوهم رغم مقتل أبناءهم، ثم طلب شيار وأوهد إرسال وجهاء الجوازل إلى الحرجف، ليتقوا شرهم ولا تتأزم الأوضاع بيننا وبينهم. لم نحتمل كلامهم وآراءهم والرجال المقتولين مرميين في الأرض أمامنا، فنظرنا إلى شيخان وانتظرنا منه أن يتكلم ويحزم أمره، فُنَجِّهَ الجيش الذي صنعناه ونقرع طبول الحرب، فما نطق شيخان بأي كلمة، بل ابتسم ابتساماً ساخرة وأدار ظهره إلى سادة الجوازل، وطلب منا أن نترك المجلس!. ولما اجتمعنا بمجلس جدّي مطلق غضبنا على شيخان وتعالّت أصواتنا عليه، كيف يترك ذلك الموقف دون أن يتكلم ويتصرف! وكيف له أن يكون سيّداً وشياراً وأوهداً يأمرّون ويحكمون في المدينة ويُنفذ أمرهم!. كانت صدمةً كبيرةً نزلت بنا، فما طلب منا شيخان إلا أن نترك سادة الجوازل يفعلون ما يشاؤون حتى نتيين النتائج، وبعدها سيُقرّر ما نفعل.

أعترف أنّ حميئتنا غلبت صبرنا حينها، فلم نقنع بكلام شيخان. وخارت عزائمنا من ردة فعله غير المتوقعة. وأرسل سادة الجوازل وجهاءهم إلى الغازي سيد الحرجف، محملين بالإبل والأموال لدفع ديّات المقتولين، ولوآد الخلاف قبل أن تشتعل نار الحرب. وأصبح شيخان حينها لُفمةً سائغةً في أفواه أهل المدينة، فظنّ البعض أنّه يخاف الحرجف، أو استكان بسبب خوولتهم له، والبعض ظنّ أنّه لا يصلح إلا أن يكون سيّداً لقطاع طرقٍ لا أكثر، ولذلك لم يشأ أن يعتلي سدة الحكم في مدينة الجوازل، فهوليس أهلاً لها. ومضى يومان وعزيمتنا تضعف أكثر فأكثر، وانكشفت بوادر الفرقة بيننا، وتحزّبتا لجماعاتٍ متضادّةٍ كل جماعةٍ تهشّ بلحم شيخان أكثر من غيرها. ورجع وجهاء الجوازل من الحرجف، ونحن نعمل بمصنع السلاح، فطلب منا شيخان أنا وخالي مالك

وضرار أن نذهب للقاءهم ومعرفة نتائج زيارتهم، وأوصى بعدم ذهاب جلد معنا، وبقي بالمصنع يطرق الحديد بقوة بالغة، وكانت طرقاته ثابتة لا تتغير، وفي كل طريقة كان يضرها كانت آمأنا وطموحاتنا التي علقناها به تتصاعد وتتبخّر فتضمحل وتتلاشى.

وفي الطريق إلى المجلس صادفنا جلد متوشحاً سيفه، فأراد المضي معنا، ولم نستطع أن نمعه فكذبنا وأخبرناه أن شيحان ينتظره في مصنع السلاح على عْجالة، فتوجه إليه وتركنا أمرهما لهما يُدبرانه. وصلنا إلى مجلس المدينة ورأينا البؤس الذي طُبِعَ على وجهاء الجواز، وعلمنا أن الغازي لم يقبل بالصلح ولا الأموال والإبل كدياتٍ لقتلى مدينته، ووعد أن يأخذها غنائمَ حرب بعد أن يسحق مدينتنا ويقتل رجالنا. كانت تلك كالنازلة على أسياذ القبائل، فلم يدخل جيش الحرجف قبل ذلك إلى مدينة الجواز أبداً! إنها الحربُ الماحقةُ التي لا ترحم، الحربُ الضروس التي تُسرّدُ كلِّ أمٍ عن أبناءها، وتُفرك كلَّ رجلٍ عن إخوانه، هذا ما كان يُريدهُ الغازي وأهل الحرجف.

قرّر بعضُ أسياذ الجواز الهروب من المدينة والنجاة من الحرب والدمار، والبعضُ اقترح تدخل ضامر وطلب الحماية منه، وفئةٌ قليلةٌ طلبت الدفاع عن الجواز، وخوض الحرب بجيشنا الذي جهّزناه، وقدّموا أنفسهم متحمسين للانضمام إلى صفوفنا من أجل الحرب، رجعنا إلى شيحان فوجدناه ما زال يطرق الحديد كما تركناه، وجلد يجلسُ أمامه لا يتكلم، وينظرُ إليه بغضبٍ شديد، ومهزّبُ برجليه من شدة انفعاله ونفادِ صبره. توقف شيحان عن عمله ودعانا إلى الجلوس، فجلسنا وتحدّثنا بكل ما سمعنا، فثار جلد غضباً وحماساً للحرب، وضحك شيحان ضحكةً صغيرةً، وهز رأسه والفرحة على وجهه، ثم صفت وبدأ يُفكر بسريرة نفسه.

صاح جلد: لا تمتحن صبرنا أكثر من هذا يا شيحان. هيا قل ما عندك. شيحان (بهدوء وثقة): لن ندعو إلى الحرب أبداً بل سننتظر أياماً أحر.

نمض جلود (غاضبًا): ننتظرُ ماذا؟ هذا الموقف لا يحتاج إلى تفكير، ولا يُفكر به إلا الجُبْناء. سأخرج إلى المدينة الآن وأعلن الحرب دونك إن لم تفعلها الآن.

صرخ شيحان: ويحك أيها الأحمق. هيتا اخرج من عندي وافعل ما بدا لك. هاجَ جلود وصال في المصنع مُزْمَجِرًا، ووقفنا خوفًا أن يتقاتل مع شيحان الذي شدَّ يديه على مقعده غضبًا، وأخرج أنيابه الحديدية فبرقت عطشًا وهو ينظرُ إلى جلود وقد اعتراه الجنون، فأخذ يرمي بالحديد على الأرض، ويضرب المقاعد ويقلمها، وأمسك بالسيوف وألقاها على الأرض أمانًا. لم ينطق شيحان بحرف، وسكت غضب جلود وهدأ، ونظر إلى شيحان بكرهية شديدة، وقال: مات أبناء الجوازل رفضًا للذلِّ والهوان وقد أعدنا فهم الحمية، ولا أراك إلا تُريد أن تُطفئها وتسعى إلى مصالحك، ألا سَحَقًا لك ولأمثالك. خرج جلود غاضبًا من مجلسنا، وشعرنا حينها أنها بداية الفرقة والفتنة في المدينة والحربُ تطرُقُ أبوابنا. وبقي شيحان غاضبًا وكان نظراته لنا تقول: من يُريد الانصراف أيضًا فليفعل!، ترددنا بين اللحاق بجلود وبين الانتظار لسماع ما عند شيحان وقد سقطت هيبتُه في داخلنا، فاستقرَّ قرارنا على الترتُّب، مُتمسكين بأخر أوصالِ الأملِ الذي نَضِب في أوداجنا<sup>(١)</sup>، فأعدنا المقاعد على حالتها وجلسنا.

شيحان: لقد طلبتُ أن تمنعوا جلود عن حضور اجتماع مجلس الجوازل عامدًا، حتى لا يظهر رأيه وكأنه رأبي أنا، فيمُثِّلني بغضبه كما كان منه قبل قليل، ويتكلم بما لا ينفع ولا يُقنع وما لا أرضاه.

مالك: ولماذا لم تذهب أنت وتتكلم إذن؟ هل كُبرت على الجوازل حتى تجتمع بأهلها؟ ولماذا تنفردُ برأيك وتنتظرُ منا الطاعة فقط؟ أرى أنك تكبرتُ وغاليت في شأنك حتى نسيت أقرب صاحبٍ لك.

(١) أوداج، جمع ودج : عرق في جانب العنق يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.

وقلتُ أنا: لعلك أرسلتنا لاجتماع الجوازل لتُعلي من شأنك أمام أهلها!  
 وقال ضرار: أو لعلك تنتظرُ أن يأتيك أهل الجوازل صاعرين يطلبون حمايتك!  
 مالك: ونحن لا ندري ما سببُ خناعتك بهذا الموقف الجلل يا شيحان!  
 كان وقعُ الكلام على شيحان شديداً، وأظنّه فكّر أن يُبري النقاش ويقطع كلَّ خيطٍ  
 بيننا وبينه، لكنّه أسرَّ غيظه وكظمه في نفسه، ونظر إلينا بدهشةٍ وبألمٍ بالغٍ لن أنساه،  
 وقال: عجباً لكم! بالأمس كُنتم تدفعون بي لزعامه المدينة. واليوم تسلبوني الثقة التي  
 أوليتموني إياها! أخطأتم أيها القوم، ولم أعتقد أنّ هذا ظنُّكم بي! وددتُ أن تُعفوني عن  
 إلقاء النُصح لكم أنتم بالذات، وعمي مالك على رأسكم، أما وقد بلغتم هذا الحدَّ فحقَّ  
 عليكم سماعي..

تعلّمتُ من الحياة وصناعة السيوف الكثير. فالحديدُ إذا طُرِقَ دون حكمةٍ مرَّقَ  
 الأيادي والأكتاف، وأنعمها دون فائدةٍ تُرجى، بل كان نتاجها حديداً غير ماضٍ ولا قاطع.  
 لقد علّمتُ أنّ القوّة والغضب إذا اجتمعا لا يُنجبان إلا سلاخاً وفعلاً شرساً لا يعودُ على  
 صاحبه إلا بالندم. ومن أراد قراراً ناجعاً فليصرف عنه الغضب؛ فالغضبُ أشدُّ الأعداء  
 ضراوةً من كل الخُصوم، وقد نظرتُ وتأمّلتُ في عواقبه، فوجدتها أكثر فتكاً وشرّاً منه  
 ومن أسبابه. ولما زاد فهمي وزادت درايتي، علّمتُ أن أعظم انتصارٍ يبدأ بالتغلّب على  
 الغضب، فامتلكته قبل أن يتملّكي ويستحوذ علي، وعالجته بتأخيره إلى ساعةٍ لا بدّ منها.  
 فكم غضبٍ أجّلته وجمعته في أعماقي، حتى أعلم متى أخرجه وكيف وأين ستخرجُ براكينه  
 الحارقة.

رفضت الزعامه وانتظرتُ أن أختبر أهل الجوازل أولاً، ظاناً أنني اجتزته معكم، فتبيّن  
 لي عكس ذلك، وأجزم أن موقفي هذا وكلامي معكم لن يُعاد ولن يُكرّر مع أحدٍ كائنًا من  
 كان. فكيف لي أن أكون سيّداً للجوازل طوال حياتي، وقد استشرى الشكُّ في أنفسكم

ولم تمنحوني حقَّ السيادة المنزوع! فما صبرتم ولا تربتتم، بل ثرتم وترددتم وقلتم أشبع ما نطقت به ألسنتكم وشردت به أدهانكم الطليقة!

لو أنكم منحتم أنفسكم القليل من الصبر والحكمة فنظرتم في جميع أحوال قبائل الجوازل، لكان خيرًا لي ولكم. وفي السيادة والقيادة، إما أن تكونوا أصحاب رأي، أو تكونوا تابعين لا تسألون سيدكم شيئًا فتطيعونه دون تفكير. وقد فضلت لكم الأولى على الثانية فلا هذه كنتم ولا تلك فعلتم. هذا كلامي لكم، فقررُوا ماذا تُريدون الساعة: إما أن أكون سيّدًا، فتُحسنوا الظنَّ بي وتُعطوني ثقةً كاملةً دون انتقاص، وتجمعوا آراءكم وتوزنوها قبل أن توجّهوا سهامكم؛ أو تعدّوني كما فعلتم حين جئتم أول مرة، الشابّ الحالم المتكبر، فأبقى أحد أبناءكم، عليّ ما عليكم ولي ما لكم!! فهاتوا رأيكم إن شئتم، أو اخرجوا كما فعل جلد.

ترك لنا شيحان لحظتها أن نُقرر، فإما نكون عونًا له، أو نفترق ويمضي كل شخص منا في سبيله. فما طال تفكيرنا حتى اعتذرنا عن موقفنا لشيحان، وعاهدناه على الوفاء والإخلاص ما حيينا، وقابل اعتذارنا باعتذارٍ عن كلامه. تمنينا تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعنا من ردّ شيحان، فما كانت حدّته إلا من حُسنِ إمضاءه في قوله، ورباطة جأشه وثقته، كما هو فعله دومًا في المواقف وفي شحذِ أنصالِ السيوف. واعتارنا الخجل، وكان ذلك الموقفُ امتحانًا لنا، فأعطينا شيحان بعدها الثقةَ كاملة، ولم يشمها أيُّ شائبةٍ أو أدنى شكٍ إلى يومنا هذا.

اجتمع جلد بمجلس المدينة مع أبناء قبيلته، ومن أراد الدفاع عن الجوازل من أبناء القبائل الأخرى، وقد قرروا أن يُنظّموا جيشًا ويجهزوه للقاء الغازي وقتاله، وطلبوا رجالنا للمشاركة في الحرب في صفوفهم تحت قيادة جلد إن أرادوا. وكاد انفصالُ شيحان عن جلد حينها أن يُنتجَ انقسامًا حادًا، في وقتٍ يكاد فيه تجمّع القبائل قاطبةً أن يفعل شيئًا. واختلفت القبائل كلها في شأن الحرب، وأبت النذالة أن تفرق أهلها؛

فخرج شيار وأوهد وبعضُ سادة الجوازل بوفدٍ إلى ضامر سيد العصوف وملكها، وقد رفض حماية الجوازل أو التدخّل في شأن الحرب مع الحرجف. فلما رجعوا جمعوا أبناء قبائلهم ورحلوا جميعاً عن المدينة التي لطالما تنافسوا على زعامتها، أخذين معهم حوائجهم ومالهم ومواشيهم، ونزلوا واستقروا في مكانهم الذي هم فيه حتى الآن. مُتقابلين على تلك الجبال الجرداء، والواد الجاف الذي يفصل بينهما.

بدأ جلدح يجمع الرجال في ساحة مجلس الجوازل بعد أن تفرّق سادتها، وأخذ يجهّز العُدّة ويخطط كأنه قائدُ الحرب وسيد الجوازل، وقد انضمّ إليه عددٌ من أبناء القبائل وبعضُ أبنائنا بينما احتار الباقون، وأصبح أكثرُ الجيش في قبضته. وأطلعنا شيحان عن قوّة الحرجف وقادة جيشها وتدريباتهم التي جهلناها، وتوقّع ألا يُرسلوا جميع جيشهم قناعةً منهم بضعفنا وللأخبار التي ستصلهم عن هروب أبناء مدينتنا، وتوقّع أن يكون ردّ الغازي سريعاً فلن يغيبوا أكثر من يومين حتى يصلوا أبواب المدينة، فحربهم ثأريّة وليست مدروسة ومُجهزة، ونحن حينها بحاجةٍ إلى سرعة التنفيذ والإعداد، فليس أماننا الوقت الكافي لأيّ خلافاتٍ وانقسامات، فأعددنا أنفسنا واستقرّرنا على أن نرأب الصدح بين شيحان وجلحد، فقرّر شيحان أن نذهب جميعاً إلى ساحة المدينة، حتى نلتقي به وببقية الرجال، ونُخطط سوياً للحرب التي تزحفُ باتجاهنا. وكان لا غنى عن توحيد الجيش، وذلك لا يأتي إلا إن كان للجوازل قائدٌ واحدٌ فقط!. فسيطر الخوفُ علينا جميعاً عدا شيحان وجلحد رغم تفرّقهما، فكلُّ منهما يملك من الشجاعة والعزيمة ما لا نملكه كلُّنا.

مضينا في طريقنا إلى ساحة المدينة حتى اعترضنا زهير، فاستوقفنا وأخبرنا أن جلدح ذهب مع بعض الرجال لمصنع الأسلحة، وسيأخذ ما يشاء من الأسلحة وسيدفعُ ثمنها، ولن يقبل أن يعترض أحدٌ على أخذها، فهدد وتوعد من يحاول منعه عن ذلك. ظننا حينها أن الحرب بدأت في الجوازل قبل أن تبدأ مع الحرجف، فأزالت ابتسامه

شيحان الهادئة الخوف الذي أقلقنا، وغيرنا وجهتنا صوب مصنع السلاح، فوصلناه وشاهدنا الرجال يخرجون من المصنع وهم يحملون الأسلحة، وجلحد يقف بينهم. وتقابل شيحان وجلحد. فسأله عن اقتحامه للمصنع دون إذن منه، فأخرج جلحد من جيبه أكياسًا من الذهب، وألقاها أمام شيحان.

صاح جلحد: خُذ، هذا أكثر من ثمن الأسلحة.

شيحان: لم تُجب يا جلحد، لماذا تأخذ السلاح دون إذنٍ مني؟

ردَّ جلحد (بجلافة): ليس لك رأيٌ حتى يكون لك إذنٌ أو نهْيٌ بعد اليوم. فخُذ ثمن السلاح، أو اسحب سيفك وامنعني إن استطعت!. وسحب جلحد سيفه في لحظةٍ قطعت أنفاسنا جميعًا، ولم نفلح بهدئته وتهدئة رجالنا ورجاله، فتركنا الموضوع لشيحان يتصرف به، فانقسمنا لقسمين متقابلين وكأنا الحربُ بيننا.

شيحان (بكل هدوء): ليس الآن وقت قتالٍ بيننا يا جلحد، فجميعُنا لا طاقة لنا بالغازي وجيشه، فاعقل ولا تدع غضبك يُفقدك أدبك.

جلحد: وهل جئت لتقاتل معنا أم تسترجع مكانتك التي سقطت عنك. ليس الآن وقتُ الأدب والجُبْن يا شيحان.

قال ضرار: لقد خرجنا للقائك يا جلحد، فأخبرنا زهير عن فعلك فجئناك هنا. فلا تُكن أحمق وتُشعل النار بيننا.

جلحد: وهل جئتم أنتم، أم رجعتُم لهذا المتكبر! إما أن تُقاتلوا تحت سيفي وإما ترحلوا عن هذه المدينة كما هرب منها جُبناؤها ونساؤها.

شيحان: مُر رجالك أن ينصرفوا، وهلمَّ معنا لتباحث الأمر.

جلحد: لن أفعل ذلك يا شيحان حتى يعلم الرجال كلهم من السيد فينا. أنا أم أنت! لقد كُشفت خستك أمام الجميع، فليس لك منا طاعةٌ ولا معروفٌ، وهذه الأسلحة حقٌ للجوازل يُدافعُ أبناؤها عنها بها، فخذ ثمنها حتى لا يُقالُ إننا سرقناها، بل أخذناها بحقها.

لم يُرد شيحان أن يخسر جلحد، أو يترك الرجال يختلفون في أمر سيادة المدينة وقيادة الجيش، فالثقة في تلك الحرب هي أهم سلاح لتحقيق النصر. أغلق جلحد عقله وأعميت بصيرته، فسيطرت عليه الحمية والغضب، واستفز شيحان أكثر مما يحتمله. وقفنا جميعاً لا ندري ماذا سيُسفرُ عنه هذا الموقف، هل سنقتلُ بعضنا وقد أمضينا حياتنا نتمنى وحدتنا! فما أسرع تقلُّب القلوب، وما أصعب سرعة الغضب، وما أقدر سوء الظن. حسب شيحان كل الاحتمالات في ذلك الموقف؛ فلن يسمح أن تسقط هيئته أمام أحد، وقد علم في قرارة نفسه أنه الأقدر والأقوى لتلك المرحلة والمراحل التي بعدها، ولم يجد مخرجاً يُعيدُ فيه جلحد إلى رُشده دون أن يخسره أو يخسر رجاله، فصمت طويلاً أمام اتهاماته حتى استيأس منه، واستنفذ كل السُّبل في اقناعه بالتعقل. التفت شيحان إلينا وطلب أن ننفذ ما سيأمرنا به دون تردد، ومشى بين جلحد والرجال الذين خلفه وتجاوزهم وهم ينظرون إليه ويتساءلون ماذا يفعل! ووقف بباب المصنع، ولم نعلم حينها ماذا سيفعل أو ماذا يُريد.

صاح شيحان: الآن سيكون للجوازل زعيمٌ واحدٌ فقط، فامضوا جميعاً إلى ساحة الجوازل، وانتظروا أن يأتيكم سيدها، بعد أن ننهي أنا وجلحد من هذا الأمر. هيا انصرفوا من هنا جميعاً، وهلمَّ يا جلحد لساعةٍ لا غنى عنها.

تقدّم جلحد نحو شيحان وقال: وهو كذلك. هيا انصرفوا جميعاً.

أردنا ظهورنا وخطونا خطواتنا على مهلٍ ونحن نختلس الأنظار، وكان شيحان وجلحد ما يزالان يقفان بباب المصنع ينتظران اختفاءنا حتى يتقاتلا. واختفيننا عن أنظارهما، ووصلنا ساحة المجلس ووقفنا فيما ننتظرُ قدوم سيد الجوازل، وكم توقعنا مثل هذا الموقف أن يحصل بين شيحان وشيار أو أوهد، ولم نعتقد أبداً أن جلحد سيكون هو المتحدّي. لكن كما قلُّت سابقاً فجلحد لم يفعل ذلك إلا من حميته ورجولته المفرطة، ولذلك فقد طلب من الرجال أن يمتثلوا إلى شيحان إن انتصر بالقتال، كما



طلب شيحان منا ذلك، وهذه صفاتُ الرجال الرجال، يقدّمون المصلحة العامة على مصالحهم الشخصية رغم خلافاتهم.

انتظرنا أكثر من ساعة، وأعصابنا تحرقنا أكثر من حرّ الشمس اللاهب، وتراخت أيدينا في حمل السيوف التي كادت أن تُلطّخ بالدماء، حتى شاهدنا جلد وشيخان يمشيان سويًا، فأثّجت صُدورنا لرؤيتهما معًا دون أذىٍ بهما. وحين وصلا إلينا نادى جلد فينا أن استقبلوا سيدكم شيخان، فباركنا له فرحين به وبانتفاء خلافه مع صاحبه، وترعّ زعيمًا على كرسي السيادة وجلحد على يمينه، وجلسنا حولهما دون أن نعلم حتى هذه اللحظة التي أحدثكم بها ماذا حصل بينهما، وكلّ ما عرفناه بعدها أنهما لن يفترقا أبدًا ما عاشا، فكان جلد وما زال الأقرب إلى شيخان من نفسه، والأشدّ حرصًا عليه وصاحب سرّه.

انتهت مرحلة الخلافات واقتربت ساعة الحزم، فأخرجنا أهل المدينة منها تحسبًا لاقتحامها ومكرًا بأعدائنا، وأذاع التجار وعابرو السبيل خبر هروب القبائل من المدينة، واحتمأهم بالجبال خوفًا من الحرب. وعلمنا أن جيش الحرجف قد تحرك تجاهنا، وعددهم أكثر من ضعفي عدونا. ولما اقترب منا الغازي، نُودي فينا ساعة الفجر، أن استيقظوا فقد جاءكم العدو، فأخذنا مواقعنا وتجهّزنا كما خططنا، وانتظرنا حتى وصل الغازي بجيشه إلى مشارف المدينة وكانوا سبعة آلاف مقاتل مُدجّجين بالسلاح والعتاد، ويقرعون طبول الحرب ويتبخرون. وقف الغازي أمامنا، ونظر باستغرابٍ شديدٍ إلى بوابة المدينة وجيشنا الصغير؛ فكُنّا ثمانمائة فارسٍ راكبين على خيلنا وليس معنا نبالين. تقدّم الغازي والجاسم وبعض فرسان الحرجف، وتقدّمتُ أنا وشيخان وضرار وبعض رجالنا إلى منتصف المسافة بين الجيشين، وتقابلنا مع الغازي، وبدت عليه الفرحة والغبطة من منظرنا، فصاح بازدراءٍ بالغ وهو ينظر لنا: من سيدكم وقائدكم؟

شيخان: أنا سيد الجوازل، شيخان بن صخر بن مطلق.

الغازي مُتهكماً: ههه، ليس بعجيبٍ أنّك أصبحت سيِّداً لهذا الجيش الكبير.

شيجان: سيزول عنك العجب اليوم إن بقيت حيّاً!

ضحك الغازي ورجاله بصوتٍ عالٍ أفزع بعضَ رجالنا: لماذا لم تهربوا كما فعلت  
نساؤكم! قد أعجبتني شجاعتكم.

قاطعه شيجان: هلاً انتهيت من جعجعتك!

ثار الغازي: لن أنتهي حتى أقتلكم جميعاً وأقطع رؤوسكم، وسألحق بمن هرب منكم  
فلا أغادرُ منهم أحداً.

شيجان: إن أردت أن تبدأ الحرب بمبارزةٍ فأخرج خمسةَ رجالٍ نُخرجُ لكم ندهم، أو  
ارجع واستعد للمعركة.

الغازي: بل نُخرجُ لكم أشدَّ فُرساننا للمبارزة، فتجهّزوا.

رجع الغازي إلى جيشه، وأخرج خمسةَ رجالٍ من أقوى فُرسانه، وصاحوا بأسمائهم  
واحداً تلو الآخر، وجيشُهم خلفهم يقرعُ الطبول ويُحيونهم، فطلبوا منا أن نُخرجَ نظراءهم.  
فخرج شيجان وحده فتقدم وصاح باسمه، ولم نقرع طبلًا، ولم نُحييه أبداً كما أوصى.  
نظر الرجال الخمسة إلى شيجان ونظروا إلى الغازي الذي بدأ الغضبُ يعتريه، ولم يفهموا  
جُراً شيجان وعدّوه غروراً وغباءً عظيماً، فليس من عاداتهم أن يخرج سيد القوم وقائد  
الجيش في أوّل مُبارزة.

الغازي: أخرجوا أربعةً من رجالكم أو نُرجعُ رجالنا، هل جبنتم حتى لا يخرج منكم إلا  
هذا المغرور! إن شئتم فأخرجوا منكم عشرةَ رجالٍ مُقابل فُرساننا، وأبدا فُرسانه  
استعدادهم لذلك بثقةٍ وحماسةٍ عاليةٍ وسط صيحات جيشهم.

قال شيجان: أتخافُ أن أقتلُ رجالك أيها الغازي!

الغازي: بل أخافُ أن تقول العربُ إنّنا قبلنا برجلٍ واحدٍ ندّاً لخمسةِ فُرسانٍ منّا.

شيحان: السيفُ من يُقرّر ما يكتُبه الشعراءُ وتتحدّث به العربُ، فاتركَ الكلامَ للحُسام فهو الحدُّ الفاصل بينهما.

قفز شيحان عن حصانه دون درعٍ يحتمي به، وثبتت قدميه في الأرض كالأوتاد، وسحب سيفيه ولوّح بهما يُنادي خصومه أن تعالوا إلى حتفكم الذي ينتظركم. نظر الفرسان إلى الغازي فأعطاهم شارة البدء، فانطلق أولهم وصاح وهو يهجم على شيحان، وضرب سيفه بكل قوّته فالتقفه شيحان بين سيفيه، ثمّ دفعه فاتحاً ذراعيه على مصراعهما، فوقع على الأرض وكاد أن يُسقط سيفه، فهض ثائراً أكثر من ذي قبل وأدار نفسه بحركةٍ خاطفةٍ وقبل أن يضرب ضريته، لقيه شيحان وقد غرس سيفه في بطنه وأخرجه من ظهره. فصحنا جميعاً بصوتٍ عالٍ: شيحان، شيحان، شيحان.

ألقي الفارس الثاني درعه واستبدله بسيفٍ آخر، وهجم باتجاه شيحان فتبارزا، وصلصت السيوف عاليًا كصلصلة الخلاخل في أقدام النساء الحسنان أمام أعين السكاري، والتحم شيحان بالرجل والتصق به وسيوفهما تتصارع بينهما، حتى ضرب شيحان برأسه وجهَ خصمه، ثم أتبعه سيفيه وغرسهما في أحشائه. وركض الفارس الثالث هائجًا، فسحب شيحان سيفيه من أحشاء الذي قبله، ثم انحنى بخفةٍ وتفادى ضربة السيف فوق رأسه وغرس سيفًا في عنق الفارس الثالث فقتله. كنا كلُّما قتل شيحان رجلًا، أعدنا ترديد اسمه حتى فزع جيشُ الحرجف كلهم وقُطعت أنفاسهم، وتقدّم الفارسان الآخران واقتريا من شيحان من جهتين مختلفتين، فدارا حوله كالضباع عندما تلتفُّ بالأسد، وأيُّ موقفٍ ووصفٍ يليقُ بك يا شيحان وقد عشقت لحم الضباع صغيرًا. عادت صلصلة السيوف تصدح ونحن في كُله لحظةٍ نخشى أن يتمكن أحدهما من ضرب شيحان، فغير من مسكةٍ يده اليسرى لمقبض السيف، وأمسكه معكوسًا للأرض ولوّح بهما بنصف دورةٍ يمينًا ويسارًا، ففرقهما وأبعدهما عنه كُلاً في جهة، ولم ينتظر، بل وثب على أحدهما وثبة الأسد وقطع رأسه، ثمّ رجع إلى الآخر راكضًا باتجاهه،

وانحنى قبل أن يصله، فتخطّاه بعد أن مزع بطنه وقطع رجله فهأوى ثم سقط جثته هامة. ومشى شيحان حتى وصل حصانه، فاعتلى صهوته، وطلب من الغازي الذي اختفى تعجبه أن يسحب القتلى من ساحة القتال، ورجع إلينا يتبختر على حصانه وكأنه علّمه الحنجلة، فكانت حوافره تُداعب الأرض وتُبعر التراب كلما ضربتها. ونحن نصيح: شيحان، شيحان، شيحان.

أخذ جيش الحرجف جثث القتلى، وتراجعنا إلى ساحة المدينة فكُنّا دون البوابة إلى الداخل، وازداد قلقُ الغازي وجيشه من رجوعنا، فلم يكن لهم إلا أن يرجعوا من حربهم، أو يتقدموا بجيشهم فيهجموا علينا. وهذا ما خططنا له، فكان عُصْرُ المفاجأة أفضع ما لاقوا، وكلّما تقدّموا بجيشهم خطوةً، رجعنا نحن خطوةً حتى وصلنا منتصف المدينة والسوق، وسحبناهم تجاهنا كما تُسحبُ الفرائس لفخاخها. دخل جيش الحرجف مدينتنا ولم يستطيعوا مواجهتنا صفًا واحدًا ومرّةً واحدة، فانتشروا في المدينة وبين زقاقها، وعندما اقتربوا من سوقها، أمر الغازي النبالين أن يتحضّروا لرمي السهام، فنادى شيحان أن اقرعوا الطبول، فقرعناها وصدحت أصواتنا في المدينة كلها، وخرجت السهام والرماح من مخادعها، فباغتتهم واستقرت في جيشهم، فتخبّطت خيولهم وسقط منها ما سقط، وشرد منها ما شرد. بقينا في مكاننا ننتظر ردّ الغازي فأعطى أمره وهجموا علينا، فنادى شيحان مرّةً أخرى أن اقرعوا الطبول، فقرعناها وخرج جلحد وضرار والفرسان من مجلس الحرب ومصنع السلاح ومن البيوت والزقاق، واشتعلت الحرب بينهم من الوسط ومن خلفهم، واحترار الغازي وجيشه، فما هرب منهم إلينا كُنّا له بالمرصاد، فأفزعنا بهم وقتلناهم شرّ تقتيل، وحصد شيحان وجلحد رؤوسهم، وتفرق جيش الغازي وحطمت صفوفه وعزيمته. ثمّ تجمّع جيشنا في منتصف السوق، وأعدنا تنظيمه بصفوفٍ مُجوّفةٍ كالأقواس، فكان شيحان وجلحد كأنهما السهام الموجهة إلى صدر جيش الحرجف، ونحن خلفه مُستعدين لإطلاقهما والانطلاق معهما.

توقفنا لحظاتٍ عن القتال وانتظرنا الحركة التي سيُقدم عليها الغازي وقد تقدّم جيشه مواجهًا لنا، فانتظر إعادة تشكيل جُنده المتبعثرين لصفوفهم العشوائية. وكان وقتها يملكُ فرصةً كبيرةً للهرب والنجاة بنفسه ورجاله. بدل أن يتكبّد خسائر أكبر مما لحق بجيشه المتخبّط كالأمواج المتلاطمة، لكنه لم يفعل. تقدّم شيحان على حصانه، ونحن نتقدّم معه بخطواتٍ ثابتةٍ مُحافظين على شكل صفوفنا. وبدت خطوات حوافر خيل جيش الغازي تتقهقر رويدًا رويدًا، فطلب الغازي منهم الثبات وما ثبتوا، فجَبُنوا وتخبّطوا وأخذ معظمهم يدورون بأحصنتهم يُريدون الهرب، فزادوا حيرةً فوق حيرتهم وعمّتهم الفوضى. ولما وصلوا أقصى درجات الضعف والوهن، نادى شيحان مرّةً ثالثةً أن اقرعوا الطبول فُقرعت، وخرج رجالنا من فوق المنازل ومن بينها، وأمطروهم بالسهم والرمح، فهاجت خيلهم واضطربت، وشُلّت حركتهم. واغتنمنا تلك الفرصة السانحة، فانقضضنا عليهم نحصد رؤوسهم، ونلحق بمن هرب منهم حتى خرجوا من المدينة يجزون أذيال الخيبة، والغازي على رأسهم.

أنهى الحُسامُ الكلام وانتهت الحرب، وخسرنا من رجالنا القليل مُقارنةً بالخسائر التي لحقت بجيش الحرجف، ففروا كالصعاليك ينجون بأرواحهم. وتحول عنهم العجبُ الذي اكتنفهم حين أقبلوا إلى سُحوبٍ وهُزل، ورجعوا لديارهم مهزومين. لقد هزمهم شيحان بمكره وشجاعته أشدّ هزيمة، شيحان الذي خرج من مدينتهم مَطْرودًا مع أخته بدور يطلبون مأوىً أمينًا وعيشًا كريمًا، لقد كسر شوكة أهل الحرجف وطردهم لمدينتهم مكلومين مُخضّبين بالدماء. فأنشد الشُعراء مدحًا لنا وذمًا فيهم، وصدح صيْتُ شيحان في كُلِّ المحافل والأماكن، فمن كان يظنُّ أن الجوازل ستهزم جيش الحرجف المهيب والكاسر! الجيش الذي كان من أقوى الجيوش وأعتها!.

كانت مفاجأةً صادمةً للجميع، فقد نهضت الجوازل من جديد، وأصبح الجميع آنذاك يحسبون حسابها وحساب شيحان، وقد استغلّ غرور الغازي وقلب شروره عليه،

وأخّر الحرب قاصدًا ولم يُبادر لسيادة الموقف، حتى لا يقول أهل الجوازل أنه أراد الحرب لنفسه أولينتقم من الحرجف، وليعلم الغثّ من السمين في المدينة، وليدرس موقف ضامر الذي أسقط الجوازل من حساباته ولم يكثرث لاندثارها. فلمّا انتصرنا واستقرت مدينتنا بعد الحرب؛ كانت صفةً قويّةً له، فأرسل يطلبُ مقابلة شيحان للتودّد إليه وكسب ولائه، كما رجع الذين هربوا من مدينتنا، يلتجئون إلى بيوتهم وقد فارقوها فراق غير راجع، فلقيناهم على أبواب المدينة واستوقفناهم، ورفض شيحان دخول شيار وأوهد خصيصًا إلى المدينة، واستثنى أبناء قبيلتهما، بعد أن تنكّرا لمدينة الجوازل وتركوها في عزّ الحاجة، وسمحنا للباقيين أن يدخلوها شريطةً ألا يفرّ منهم أحد إذا قرّعت طُبول الحرب مرّةً أخرى، فرجعوا نادمين من هروبهم، وعاشوا معنا وحاربوا وما خانوا أبدًا، وترك شيار وأوهد المدينة ولم يدخلوها قط بعد ذلك اليوم.

تأخر شيحان في لقاء ضامر حتى قبلَ دعوته وتعرّف عليه، فطلب ضامر الولاء منه فمِنحه إياه، شريطةً ألا يتدخل بشؤوننا ولا يقطع عنا الماء، ولا يكون طرفًا في حروبنا، لا معنا ولا ضدنا. فاتفقا على ذلك، وأوفى ضامر بما تعاهد عليه، فلم يقبل أن يقف مع الغازي في الحرب التي حضّر لها، للدرد على خسارته المفجعة، بل دعاه إلى الصلح مع شيحان، فرفض رفضًا شديدًا، وكرّس نفسه لتجميع القبائل ليخوض حربه الثانية ضدنا.

أعدنا بناء مدينتنا بعد الحرب الأولى بشكلٍ مُغاير لما كانت، فجعلنا مداخلها وبيوتها عاليةً كالقلاع ووسّعنا سوقها، فأصبح أشبه ما يكون كساحةٍ للقتال، ونشرنا العيون في كلِّ مكانٍ حتى نتحصّر لأي حربٍ تزحف باتجاهنا، فدارت الحروب بيننا وبين الغازي ولم تتوقّف حتى الآن، وفي كل مرّة كنا نردّ جيشه خائبًا، حتى جمّع معه القبائل واستعان بالزعزاع بن حمزة وجيشه فصددناهم جميعًا، غير أن خسارتنا كانت كبيرة. وكانت آخر حربٍ شهدناها هي الحربُ التي انقلب فيها الزعزاع معنا على الغازي، فدمرنا جيشه كما

لم نفعَل من قبل. فطالَت الحربَ ومَلَّ الشُّعراءُ عن نظمِ أشعارهم، وغدا الثَّأرُ هو سيِّدُ الحربِ، فلا يجرؤُ أحدٌ على طلبِ الصلحِ، أو وقفِ سعارِ الحربِ وإخمادِ نارها، وأثمُّ كُلِّ من دعا إلى الصلحِ بالجبنِ والخيانة.

ولم تتحسنِ الأحداثُ بعد وفاةِ ضامرٍ، واستلامِ ابنه الوَبَاصِ الملكِ خلفًا له، بل زادتِ الحروبُ، وزادتِ معها الخسائرُ بالأرواحِ والأموالِ، فتذبذبتِ التجارةُ وتقلَّبتِ الأسواقُ، فكانت تُفتَحُ تارةً وتُغلقُ تارةً أُخرى، وانقطعتِ الأعمالُ معها أيضًا، فأهملنا الزراعةَ والصناعةَ وقلَّتِ مواردنا، والواضحُ أن أكثرَ الخاسرينَ لذلك نحنُ والجرجفُ، بينما كان الوَبَاصُ يزدادُ تقدُّمًا وقوَّةً وسطوَّةً، وكذلك استفادَ شيار وأوهد من قُرْبهم منه، فتحسَّنتِ أحوالهم وازدادتِ منعتهُم. أما نحنُ فلو بقينا على هذا الحالِ فسوف تُستزرفُ جميعُ خيراتنا تبعًا لتلك المجرباتِ، وسيعمُّ فينا الفقرُ والحاجةُ وعُسرُ الحالِ، فها قد عادَ قُطاعُ الطُّرُقِ بالظهورِ والانتشارِ مُستغلينِ أوضاعَ الحربِ الدائرةَ بيننا وبينِ الجرجفِ، وقد ارتحلَ الكثيرُ عن مدينتنا للبحثِ عن مكانٍ آمِنٍ مُستقرٍ، ولم تعدِ أسواقنا تزخرُ بما كانتِ تَعَمُّ به سابقًا.

فرغَ همامٌ من كلامه بعد أن تحدَّثَ عن شيحانٍ ومفاصلٍ من حياته في الجوازِلِ. ولم تكنِ تلكَ القصصُ لتُغني عن وصفه ومواقفه وبطولاته، لكنها بالطبع تسدُّ رَمَقَ الليثِ، وتُمسكُ عنه عطشه ولهفته. وشردَ همامٌ يستذكرُ في نفسه موقفًا مع شيحانٍ لم يُبديه لأحدٍ البتَّةَ ولم يشهدَ عليه أحدٌ غيرهما، فتذكَّرَ حينَ طلبِ من شيحانٍ قبلَ عقديٍّ من الزمنِ وقفَ الحربِ مع الجرجفِ، داعيًا منه أن يُعيدَ حساباته بنتائجِ الحربِ الآتيةِ والمستقبليةِ إن استمرت؛ فأغضبه ذلك كثيرًا وألمه وجعله يَتهَمُّ بالجبنِ. وها هي الدعوى لوقفِ الحربِ قد حانتِ، وبانتِ الحاجةُ الملحةُ لها، فكان همامٌ أوَّلَ من فكَّرَ ودعا لذلك. وتذكَّرَ همامٌ حينَ زاره شيحانٌ يعتذرُ عن موقفه السابقِ.

شيحان: سأعترف لك أنني غضبت منك عندما طلبت الصلح والهدنة سابقًا، وقد ظننته جبنًا فيك ومصالحةً لك أو تكسيرًا لكلامي. أما الآن فيأتي عاقدُ العزم عليه بعد أن أعدتُ حساباتي، وسأمضي له ولعلي أقضي فيه. ولو أنهى والدي صخر الحرب مع الحرجف لأفنى روحه للتخلص من ضامر، ولن نستطيع هزّ عرش العصفوف ما دُمننا نتناحر بيننا. وما قد جئتُك أطلبُ النصيح والرأي، وأود منك مسامحتي على سوء ظني وتغفري لفظاظتي وقسوتي.

همام: لم أنتظر منك اعتذارًا يا شيحان، فما قدّمته لنا يُغنيك عنه وعمّا هو أكبر منه، فيحقُّ لك ما لا يحقُّ لغيرك، وسنبقى جميعًا لك من السامعين والناصحين. إنّما هو الوقت يا شيحان! الوقتُ لديه طريقته الخاصة في تغيير الأمور، فما نراه اليوم واجبًا، كان في الأمس مُستحيلًا، وما نحسبه اليوم منكرًا، قد يكون غدًا لزامًا، وبين الصواب والخطأ سنبقى تائبين. فانظُر في ما تراه ونحن من ورائك أينما ذهبت حاضرون.

انتهى حديث همام والحاضرون هائمون بالماضي القديم والحاضر الغامض، والخوفُ ما زال في قلوبهم على سيدهم وفارسهم شيحان. ودخل الخدم بالطعام فوضعوه على المائدة الكبيرة، فطلب الليث من نهلان وزهير والجميع أن يقوموا لتناوله، فنهض زهير وحده على عجل، ولم يكد يجلس مكانه حتى قُرع الباب! فنهض الجميع من مقعده وقفز الليثُ ليفتح الباب، فسبقته بدور وفتحت الباب كاملاً، وإذا بجلحد وضرار يقفان أمامها. وقفت بدور تعترضُ الطريق وكأنها لا تأذن لهما بالدخول، فنظرا إليها وقد شحب وجهها، والجميع خلفها مشدوهين، فنطق ضرار: إنه بخير. إنه بخير.

صرخت بدور فرحًا، وهجع الجميعُ كما تهجعُ النَّارُ في الليالي الحالكة تحت الرَّماد، وتعالّت الأصواتُ طربًا في مجلس النساء، وسقطت بدور أرضًا من شدة الفرح، فحملها الليث وهمام وأوقفاهما حتى أخذتا لها مجلسًا بين الرجال، وجلس جلحد وضرار، والأعينُ ترقمهم وهم يضمّون بعضهم بعضًا، ويربتون على أكتافهم بشدّ أيديهم غبطةً وسعادةً.



مالك بلهفة: ماذا لقيتُم!

جلحد ممامحًا: مهلاً أيها القوم، لن نتكلم حتى نأكل، نحن جائعان وقد أعيانا التعب. بدور بغضب: لعمرك ما أكلت، لن نأكل حتى نتكلم يا جلحد، ولن نأكل أبداً، هيا تكلم.

ضرار ضاحكًا: ماذا تُريدين يا بدور؟ أخبرناكِ أنه بخير، فهديني من روعك.

صاحت بدور وبكت: إنه بخير، شيجان بخير.

جلس جلحد بكل عنجبيةٍ على مائدة الطعام وتبعه ضرار فجلس الجميع أمامهم وقد دبّ فيهم الفضول.

ليث: لماذا تأخرتما؟ لقد قلقنا كثيرًا.

جلحد: لقد تأخر الراعي عن مواعده، حتى جلب لنا كُلاً ما حدث بالحرشف والعصوف.

همام: وبماذا أخبركما الراعي؟

جلحد: على رسلكم، دعونا نأكل. وأخذ بيده قطعةً من اللحم.

همام: هيا يا جلحد، دعنا من بطنك التي لا تشبع. ألا يكفينا ابن عمك زهير!

صاح زهير: ما شأنِي أنا! دعوني فقد فُتحت شهيتي.

ذكر جلحد وضرار كل ما سمعوه من الراعي أمام الحاضرين، عن الخيانات والفتن المشتعلة وعن حال شيجان في سجنه، فذهلوا من الأخبار واطمأنت قلوبهم وسكنت أعصابهم، وبكت بدور فرحًا وأملاً. وبدأ الجميع يتناقشون ما ستؤول إليه الأحداث في الأيام القليلة المقبلة.

همام: أتظنون يا قوم أنهم سيُقايضون شيجان بالغازي؟

جلحد: لا أعتقد ذلك يا همام، الجاسم ومن حوله غاضبون من خيانة الوَبَاص أشد الغضب، ولن يغفروا له فعلته.

ضرار: ستظهرُ نوايا الجاسم غدًا، فإن أرادوا حربًا مع الوَبَاصِ، فسيطلبون لقاءنا، أو يرسلون وفدًا ليستكشفوا آبارنا. صحيح، هل شحَّ الماء الذي تردونه؟ هل منعكم أحدٌ عنه!

نهلان: كلا، إنه كالعادة.

همام: هل ثمة خطبٌ يا جليحد؟

جليحد: زُيما يقطعُ الوَبَاصِ عنَّا الماء.

ليث: ولماذا يفعلُ ذلك؟ ولماذا لا يقطعها عن الحرجف فينصاعوا إلى طلباته! ضرار: لقد فكرنا بهذا كثيرًا أنا وجليحد في طريقنا، قد يقطعُ الوَبَاصِ الماءَ عنَّا فقط، لهلكنا وحدنا، فيُجبرنا على القتال ضده، أو نغزو على المدن والقبائل خشيةً هلاكنا. ونحن لا نأمنُ مكرَ الوَبَاصِ.

همام: نعم هذا تخمينٌ صائب، ولن يقطع الوَبَاصِ الماءَ عن الحرجف حتى يتأكد من نواياهم ضده. فلو أنه قطع عنهم الماء لأجبرهم على خوض الحرب بصفتنا.

ظل الموجودون يتناقشون في شأنِ الحرجف والعصوف، وداروا في حلقةٍ مفرغة: فرقبةٌ شيحان تحت رحمةِ الجاسم سيد الحرجف، فهل يستسلم للوَبَاصِ ويبيع شيحان بئمنٍ بخسٍ لِيُنقذ الغازي! اختلفت الآراء وحارت الظنون وساورهم الشكُّ في التوقعات كلها فطلب همام أن يتركوا الهواجس حتى يأتيهم أيُّ خبرٍ يُعَوَّلون عليه أحكامهم، ويُخططون بناءً عليه لردّة أفعالهم، ففنعوا جميعًا وفوضوا أمرهم للآلهة فدعوا وتمنّوا أن تمضي الأمور على خير، إلا الليث، فلم يلقَ ذلك الرأي الإعجاب بنفسه، فما يجمله لا يضمُّه ولا يأمنه، فحاول أن يُراجع كُلَّ الاحتمالات ولو في عقله وحده فقط.

وتناوب الجميع بالضحك على زهير وهو يأكلُ بشراهةٍ ونهمٍ، فعبروه بأنّه يخشى انقطاع الطعام عن الجوازِل أكثر من انقطاع الماء، ووصفوه أنّه يأكل اللحم وكأنّ له نأزًا عنده، وأعطاه جليحد قطعة اللحم التي بيده خوفًا أن تُغصَّ بحلقه من شدّة ما حدجها

زهير بعينيه. ونظر جلحد إلى ليث وهو شارد الذهن، فسأله عن الأحاديث التي سمعها وإن بقي من فضوله شيء، فأخبره ليث أنه لم يعرف ما حصل بينه وبين والده بمصنع السلاح، ولم يعرف كيف التقى والده مع ضامرو وكيف بنى علاقته معه! ولماذا لم يُقاتله أو يقاتل الوَبَاصُ حتى الآن!

كان الموقف الذي حصل لجلحد فاسياً، وقد قطع عهداً لشيخان ألا يُخبر أحداً به، حفظاً لكرامته وهيبته بين أبناء الجوازل. فتهدد جلحد وهو ينظرُ بين الحاضرين وعرف أن ذلك السر لم يُعد سراً أمام فضولهم ولو دخلوا أن يسألوه عنه، فحدثهم عنه..

علمتم أن الشيطان دخل ببني وبين شيخان لحظة صمته القاتل والذي حسبته جُبناً وخُبناً، والحر جف تُجهز جيشها لإبادتنا، ولم أطمع بسيادة الجوازل حينها، لكني فقدت الأمل في شيخان واستيأستُ منه، فاجتمعتُ بمن رضي بي قائداً للحرب، وأمرتهم باقتحام مصنع السلاح لاستخدامه في الدفاع عن الجوازل. فلما دخلت مصنع السلاح مع شيخان وحدنا لتُحدّد من سيكون القائد فينا، جلس وألح علي بالجلوس والتحدّث إليه فأبيتُ غضباً، وأخرجت سيفي وأمرته أن يُبارزني: فلن يرجع إلى مجلس المدينة إلا زعيماً واحداً فقط.

صاح بي شيخان: وهل الزعامة في السيف! أفلا تنظرُ إلى نفسك فترى قلة عقلك. أنت لا تصلح أن تكون سيّداً للجوازل يا جلحد، ولو كنت كذلك لوهبتها لك دون أن تطلّجها.

قلت: وأنت لا تصلح أن تكون سيّداً إلا لقطع طُرق يا شيخان، فذاك مبلغك. لن يحول الكلام ببني وبينك، فاحمل سيفك ولا تُجادلني على ما عزمت.

نهض شيخان وخلع مِحزَمَ السيف عن جسده وألقاه أرضاً، ثم تناول قضيباً من الحديد، يُريد أن يُنازلي به. غضبتُ وأخبرته أن يسحب سيفاً ولا يُقاتل كالأطفال، فما أعطاني من جوابٍ حتى طغح الكيلُ عندي، فشعرتُ أنه يستفزّي لأقصى ما أتحمّل،

ويجرني على قتاله وهو يحمل تلك الحديدية. تبارزنا وتقاتلنا كُلِّ بما في يده، وطالت المبارزة بيننا، وشيخان يهربُ من سيفي بخفّةٍ ورشاقة، وفي كُلِّ ضربةٍ أضرّ بها كان يتلقاها بحديدته، فيصده صوتُها الحاد ويوتّرني فوق غضبي وهيّجاني، وأشعرُ أن يدي تهتزُّ من صلابتها، حتى أخرجتُ كُلَّ القوّة في جسدي، وضربتُ ضربةً ماكنةً لأكسر الحديدية أو أسقطها من يده، فكُسر سيفي وبقيت الحديدية في يدِ شيخان، وقعقتها تهزّ مفاصلي وتنخرُ عظامي، وما بقي معي إلا غمدُ سيفي وبقيّة منه. رجفَ ساعدي من شدّة الضربة وكانَ يدي سُلت. فضرب شيخان على كتفي بحديدته، وأسقط ما تبقي من سيفي أرضاً، ثم عاد وجلس على مقعده، ورمى بالحديدية حتى تدرجت واستقرت فوق سيفي على الأرض وعيناي ترقبها.

انتهى القتال، وشيخان يجلسُ أمامي لا يتكلّم، فنظرتُ له ولم أفهم معنى نظرته لي، فلم تكن استهزاءً ولا شماتةً، ولم تكن فخرًا ولا غرورًا، وهممتُ بفتح الباب، ودعوته إلى الخروج وإنهاء ما اتفقنا عليه، فأبارك له بالزعامة أمام من بقي من أهل الجوازِل في ساحة مجلسها. فاستوقفني وسألني: أين تُريدُ أن تذهب؟

فأجبتُ: سنذهبُ إلى ساحة المجلس، فيستقبلونك سيّدًا. ثم...

ابتسم شيخان وقاطعني: لم نفرغ بعد. اجلس الآن ودعنا نتحدّث.. فجلستُ على مضضٍ، أنتظر ما يقول.

شيخان: علمتُ من أول لقاءٍ معك حين اعترضت طريقي بالسوق أننا لا بُد سنتواجهُ يومًا، فأنت لا تكف عن فحص مدى رجولتك حتى علّقتها بي، ولستُ أشكُ بها، إنما ليست الرجولة بالصرعة والغلبة، بل كيف تحفظ نفسك، وتأخذ حَقَّك بأقل الخسائر دون أن تُمسّ كرامتك. كنتُ أعلمُ أنني سأغلبك يا جلد لسببين اثنين: أولهما؛ لأن غضبك يكشفُ عيوبك، فأنت لم تُقاتلي لتقتلي، بل كان تركيزُك يكمنُ في تحطيم الحديد بيدي فهزمني. أما السببُ الثاني؛ فلا يُمكن أن تكسر حديدًا صلبًا بسيفك يا

جلحد، هذه السيوف الحادة صُنعت للسيوف ولا تنفعُ مع الحديد الصلب، بل تتحطّم أمامه. ولا تظنّ أني خدعتك بهذا، فما خدعت إلا نفسك. لن أحمل سيفًا وأبارك ما حييتُ يا جلحد، ولا أقاتلك أمام رجالنا وهم عصبَةٌ واحدةٌ فيتفرقوا. أنا لا أطمحُ للزعامة لكني لا أرضى أن يأخذها إلا من يستحقّها، وليست الزعامةُ أهمُّ عندي من أن أخسرک، فانظر ماذا تُريد ولن تأخذ إلا ما يُرضيك عن طيبِ نفسٍ لا كراهة.

بعدها أهما القوم، قام شيحان وضمّني إلى صدره بشدّة. ولم ينتظر ممّي إجابة، بل همسَ في أذني: ليس أقربُ إليّ من نفسي إلا أنت يا جلحد، فلا تخنّ ثقتي بك. ولم أشعر إلا وذراعي تطوقانه وتشدّ عليه أسفًا وخجلًا مما فعلتُ به، فرجع عني وربت على كتفي وهزّي هزًّا أيقظني من هيجان مشاعري، وقال: هيّا ليس لدينا الكثير من الوقت، فخرجنا إلى مجلس المدينة كما كُننا قبلها وبعدها، نمشي متلاصقين دومًا في أسواقها، ووصلنا ساحة المجلس حيثُ ينتظرنا الرجال، فوقفْتُ وقُلْتُ لهم: استقبلوا سيّدكم شيحان.

أما عن ضامر يا ليث: فقد لبينا دعوته إلى مدينته العصوف، فدخلناها وأذهلنا حُسن بنائها وعظمة سورها وحصنها، وتعجّبنا من سوقها وكثرة الحركة والنشاط فيه. ولما دخلنا القصر المنيف استقبلنا ضامر وابنه الوَبَاصُ ووزيره شامان، فأحسنوا استقبالنا وأكرمونا وجلسوا جوارنا في صالة القصر المهيبة. كان لقاءً ودّيًّا أثنى فيه ضامر على شيحان وعلى سمعته رغم صغر سنه، فأهداه شيحان سيفًا مُرصعًا غمده ومقبضه بالذهب، وأخبره أنّه من صنع يده، فحمل ضامر السيف وسحبه من غمده ونظر إلى العروق المحفورة فيه، والفنّ في صناعة نصله وإتقانه، فأعجبه جماله وحدّته كثيرًا، وقبله هديّةً طيبةً بعد أن تمّنى المزيد كهذا السيف؛ على أن تكون تجارةً بينه وبين شيحان. وتناولنا طعام العشاء وكانت مآدبةً كبيرة حضرها كبار مدينة العصوف وشيوخها، فتلذّذنا بأطيب الطعام وأفخر الشراب، وتسامرنا تلك الليلة حتى حان موعد نومهم، فأخذنا شامان إلى عُرف الضيافة الواسعة والشرحة بستائرها الحريرية وألوانها

الفاطنة، فوضعنا رؤوسنا على أجود النمارق واستلقينا على أنعم الفرش، ومننا ليلتنا هائنين.

منحَ شيحان الولاء لضامر في اليوم التالي شريطةً ألا يقطع الماء عنّا ولا يتدخل بحروبنا أبداً، فأتّمّا عهدهما على ذلك. ولما خرجنا من العصوف سألتُ شيحان عن رأيه بضامروقد سرّتي تعامله وتواضعه وأدبه، فتبسم شيحان ثم قال: إياك أن تخدعك المظاهريا جلحد، فما هي إلا زينةً تزَيّنوا بها كحلّم حريهرم، فرغم نعومتها وجمال منظرها إلا أنّها لا تقي حرّ الصيف وبرد الشتاء. أتهم أخبثُ مما تصوّرت، فالرجولة والكرم لا يلتقيان مع النفاق والخوف. اعلم يا جلحد أنّهم لم يحاولوا أن يُصلحوا بيننا وبين الحرجف، بل استمتعوا بحربنا معهم، واعلم أنّهم تنكّروا لقومنا الذين استغاثوا بهم قبل الحرب، فتركوهم ليواجهوا مصيرهم دون أدنى التفاتةٍ لهم، وها هو يطلّب لقاءنا الآن بعد أن عرف قوتنا وبأسنا. والملكُ الحقُّ يا جلحد لا يتركُ من تحت مُلكه يَقتلوا أو يُقتلوا حتى ولو أخطأوا، إلا إذا أراد أن يبني عرشه على تفرقتهم! فاصبر يا جلحد وستبدي لنا الأيام ما تُخفيه ابتساماتهم الماكرة.

لطالما وضع شيحان الويّاص نُصب عينيه وسعى للإطاحة به، لكن الويّاص جاوز بدهائه ومكر والده ضامر، فلعبَ بالمنطقة ببراعة وجعل حروبنا مشتتةً أبداً، وانقسمت طاعةُ أسياد المدن له لقسمين: طاعةُ الأغبياء مثل الغازي، وطاعةُ عمياء، مثل الزعزاع وشياروأوهد. والغبي، لن يفكر. والأعمى، لن يرى؛ لذلك أهلكتنا الحرب على الغازي طوال السنين الماضية، وأصبح هدفنا أن نمحقَ الحرجف ولم نُحقّق من ذلك شيئاً.

أنهى جلحد حديثه، وطلب من الجميع أن ينصرفوا ويتجهّزوا ليومهم اللاحق، فنوايا الحرجف ستتضح فيه حسب توقعاتهم. وغادروا جميعهم بيت شيحان. وتفرّقوا بالطرقات كُلّ لبيتته، وبقي الليث وحيداً في المجلس، ينظرُ ويتأمل السيوف المعلقة بجداره وتزيّنه، وتلمعُ كما تتلألأ النجومُ في الظلام الدامس، فصنّف بالسيوف حتى دخلت عليه

زوجته ريم، فواسته وطلبت منه أن يرأف بنفسه ويرتاح من الهمّ الذي جعل وجهه شاحبًا، فتبسّم لها تلك الابتسامة الهادئة التي ورثها عن والده، وطلب منها ألا تقلق عليه وتخلد إلى النوم، فانصرفت عنه وتركته في تأمله.

الوبّاص - تأمل راضي





## الفصل الخامس

### التحالف

طلعَ الصبأُ وكان هذا اليوم هو الرابع لدخول شيحان للحرجف، ولحبس الغازي وابنه قصي وربيع بن مالك في زنازين العصوف، وكما قُيِّد في سجونهم، قُبِدوا هم في حُجْرَةٍ مظلمةٍ صغيرة، يستندُ قصي ظهره على جدارها، وينظر إلى ربيع بن مالك نائمًا بجانبه، ووالده الغازي مُمددٌ أمامه على كتفه، ورداؤه تحت رأسه يُقلِّبُ خديه عليه كلما استدار. لم يحتمل قصي الشاب الوسيم ذو الشعر الطويل، القهر والمهانة التي رُجوا بها في زنازين العصوف، فحرمته النوم واستبدَّ به الغضب واليأس، وكان ينظرُ إلى نفسه وإلى والده وربيع كسيوفٍ مغمودةٍ وهزَّابٍ مأسورة. وزاد مرارة سجنه فوق بؤسه، قصَّة عشقه وهيامه لهند بنت الوَبَاص، حبيبته التي تراقص قلبه شوقًا ولهفةً للقائها وهو قادمٌ لخطبتها؛ فتبخَّرت أمله تحت جدران سجنه المظلم وغدر الوَبَاص.

والوَبَاصُ بن ضامر ملك العصوف ومنطقة رأس الخيل، رجلٌ مهيبٌ معتدل القامة أسود الشعر والعينين، له ذقنٌ بارزةٌ ولحيةٌ سوداءٌ قصيرة، ونظراته حادة كحدَّة ذكائه وطبعه. كان ملكًا قاسيًا مُتكبِّرًا واسع المعرفة والعلم، جادًا في العمل والحكم، لا يغفر لأحدٍ زلَّة، ذا طموحٍ كبيرٍ وبصيرةٍ ثاقبة، غلبَ جِدُّه مزاجه وصعبٌ مزاجه. وكان الوَبَاصُ مُولعًا باقتناء السباع وتربيتها، فخصَّصَ في باحة قصره مكانًا لها وأقام فيه بيوتًا بأزاج<sup>(١)</sup>.

(١) أزاج : جمع أَرْج، بناءً مستطيلٌ مُقَوَّسٌ السَّقْف.

وجعل لها ساسةً فُرسٌ يقومون برعايتها وخدمتها، فيطعمونها ويكنسون أوساخها ويبدلون التراب لها باستمرار. وللسباع أوقات تفتح فيها سائريوتهم، فتخرج كلها إلى الساحة وتتمشى فيها وتلعب وتتقاتل وتتواكب مع بعضها بعضاً، فتقيم ساعاتٍ حتى يصيح بها الساسة فيدخل كلٌ سبعٍ إلى بيته. وقد ربط الويَاص بعض السباع على باب قصره، وألبسها أساور من ذهبٍ وجيلالٍ منسوجة من الحرير، لإظهار القوة والقدرة وإثبات الهيبة ولبئى الخوف في قلوب الرعية.

كان للملك الويَاص خمسُ بناتٍ فاتناتٍ، ولم يكن له إلا ولدٌ واحدٌ فقط، اسمه الأمير عمير، وقد أتمَّ السنة الثالثة عشر من عمره، اجتهد الويَاص في تربيته والقسوة عليه حتى لا يغدو طفلاً مُدللًا بين إخوانه، فجعل أهل العلم يُعلمونه القراءة والكتابة والأدب، كما جعل قائد جيشه (دحام) يُدرِّبه بنفسه على المبارزة والقتال. أما هند، فكانت أجمل بنات الويَاص وأذكاهن، ذات شعرٍ طويلٍ ناعم، ورقبةٍ طويلةٍ رقيقة، وفم وأنف صغيرين، ولها شامة صغيرة في خدها الناصع الأبيض. وقد حبست هند نفسها في غرفتها منذُ سُجِنَ قصي، عشيقها الذي استقبلته خلسةً كلما جاء للعصوف، فجمعتما لقاءات الغرام والغزل وحلمت به زوجًا وفارسًا لها، إلا أنَّ سقم العشق قد نزل بها؛ فطال سهرها وطاحت دموعها وندبت حظها واشتعل الألم في قلبها الرقيق وكرهت والدها الويَاص، الذي فرَّقها عن حبيبها ورماه بالسجن، ولم تجرؤ أن تستعطفه لفلك أسره، وقد علمت أنه وعد سري بن أصهب أن يتزوجها إن قُتل شيجان. فبكت كثيرًا وبلَّلت وسائدها بالدموع وهي تتمنى أن تُنقذ قصي من سجنه وتهرب معه.

وفي الوقت الذي دخل فيه قيس بن الجاسم زنزانة شيجان حاملاً طبقًا من الطعام بنفسه، اقتحم حراس الويَاص مع كبيرهم (شداد) زنزانة الغازي، فأيقظوه بفضاظةٍ وتعنيف، فانتفضَ قصي وربيع غضبًا وانقضَّ على الحراس؛ لكنَّ قيودهما المربوطة بجدار الزنزانة ألجمتهما، فحمل الحراس الغازي إلى الخارج مُقيّدًا بالحديد والإحباط

والنذل، فشتمهم قصي وتوعدهم بالقتل والوَبَاصُ اللعين على رأسهم. استدار شداد ليُلق الباب بجسده الضخم، ونظر بحدّة لقصي، وقال: تحدّث كما شئتُ أيها الأحمق، سأقطعُ لسانك قريبًا، إنما أنتظرُ وأمر سيدي الوَبَاصُ.

صاح ربيع في الغازي والحراس يجزّونه: بِئْسَمَا تاجٌ على رأسِ خانعٍ ذليل.. ونعمًا قيّدُ في ساعدِ حرّ أبي. اشمخ أيها الغازي، اشمخ ولا يستفزّك الوَبَاصُ أبدًا.

وفي صالة القصر الواسعة الهيّبة، وشرفاتها العليّة وستائرُها الحريرية، ترّبع الوَبَاصُ على عرشه وشامان وزيره يجلس بجانبه، وعلى الرغم من كبر شامان في السن، إلا أنّ شكله لا يدلُّ على ذلك من هندامه ولباسه الحريري واهتمامه بنفسه، والخواتم اللامعة البرّاقة في يديه. وقد حظي بمزلةٍ رفيعة، وأقنى عمره في ذلك القصر الكبير، فخدم ضامر بأمانةٍ حتى مات، وها هو يُكمل ما تبقى من عمره في خدمة الوَبَاصُ، الذي لا يُمضي قرارًا أو حاجةً إلا بمشورته، فعقله الماكر ما زال يرسمُ المؤامرات ويحيكُ الخُطط لطموحاته الكاسرة، ولعلّ دهائه ومكره وقوّة شخصيته هي من أبعثت الحاشية عن الوَبَاصُ، فاستغنى عن كثيرهم واكتفى بقليلهم.

دخل الحاجبُ واستأذن الوَبَاصُ أن يُدخل الغازي إلى مجلسه، فأشار إليه أن يفعل. فدخل شداد به مُكبلاً صاغراً، وأجلسه على مقعدٍ أمام الوَبَاصُ، وبقي واقفاً بجانبه كي لا يتحرّك أو يثور بوجه الملك.

الوَبَاصُ ساخرًا: كيف أصبحتَ في ضيافتنا أيها الغازي؟ قد نسيّتُك أيامًا واشتقتُ لجلستك.

الغازي (بغضب): لا أعرفُ ما أقولُ لك أيها النذلُ الحقير. فلا...

لطمَ شداد الغازي على رأسه فقطع كلامه، وأراد أن يُكمل ضربه فهأه الوَبَاصُ عن ذلك، وطلب منه ساخرًا أن يُوسّع صدره ويتحمّل الغازي ويعذره. تداخل شعورُ الغضبِ العارم والندم العميق في صدر الغازي، وغلّفه الهوان مع قلة الحيلة، فاشتعل الغيظُ في

جوفه، وحاوَل أن يتملّص من مقعده فما استطاع أن يُحرّك نفسه من الحديد الذي يُكبّل يديه وقدميه، ومن قبضة شداد القوية على رأسه، فأناخته وأحرقت كرامته أمام ابتسامات الوَباص وشامان الموجهة.

شامان: تكلم بما يليقُ بمقام ملكك أيها الغازي، ولا تُحمّل نفسك فوق طاقتها.  
 الوَباص يهدوئُ مُصطنعٍ بارد: دعه يا شداد، فإن أردتُ منك إسكاته أمرتُك بذلك.  
 أرخى شداد يده وقال: أمرُك يا مولاي.  
 رفع الغازي رأسه بعدها فقال والشرُّ يتطايرُ من عينيه: لن تسلّم بفعلتك يا وباص أبداً، لن تأخذني بك أيُّ رحمة.

شامان: عليك أن تشكر الوَباص على كرمه، إذ أبقى على ابنك قصي وربيع بن مالك أحياء معك.

أمام الضحكات الأثمة، تبدّل حقد الغازي على شيحان إلى الوَباص؛ فتمتّى لوأنه يُرسل رسالةً إلى الجاسم فيأمره بتسليم شيحان راية الحرجف. ومع كل المشاعر التي اكتنفته وأثقلت عليه لم يتمنَّ الموت بقدر ما تمّتّى أن ينظر بعين الوَباص كما ينظرُ هو إليه الآن.

الغازي: ماذا تريد مني أيها الوَباص؟ هل احترت بشيءٍ فأردت عنه نصيحةً أم ماذا؟

الوَباص: احتارُ بماذا؟ أحببتُ أن أُحادثك فقط.

الغازي: لكني أرى الخوف في أعينكم.

الوَباص ساخرًا: أي خوفٍ أيها الأحمق!

الغازي: شيحان.

الوَباص: ههه، سيموت شيحان أيها الغبي.

الغازي: لا تتأمل كثيرًا، فلم لم يمُت بعد!

حاول شامان أن يُغيّر محور النقاش حتى لا يكشف الوَبَاصُ عَمَّا عنده من علم، فأصرَّ أن يتكلّم ومصير الغازي محتومٌ عنده ولا مفر منه، فسُقِتل هو وولده وربيع بن مالك وتقطع رؤوسهم. بعد أن يُنهي حربه مع الجوازل أو الحرجف أو الاثنين معاً. الغازي: لن يقتل الجاسم شيحان أبداً، حتى لو أسلمتني لهم.

الوَبَاصُ بضحكةٍ عاليةٍ مفرطة: سَيُقْتَل شيحان دون أن يُعرف قاتله. أخفى الغازي علمه بمحاولة أصهب قتل شيحان، وتساءل مُستنكراً: ومن سيقبله؟ ابتسم الوَبَاصُ ابتسامةً غادرةً، وقال: إن لم يفعلها أصهب ولا أحسبه يُفلح؛ فقد استعنت بمن يستطيع تحقيق ذلك. سَيُقْتَل شيحان غدرًا وتقوم القائمة في الحرجف، وسوف يشكّ قومك ببعضهم، وحيثما ستفشل كل محاولات الحرجف في إقناع الجوازل بالتحالف، فأنتى للجوازل أن يرحمكم من غضبهم بعد قتلهم لسيدهم. لن يُفلح أصهب بما طلبت منه، فهو ليس بالذكاء المطلوب، إنّما أمرته بذلك لتعمّ الفوضى وتستشري الفتنة عندهم. قد تكون مُشتعلةً الآن ونحن لا ندرى! سننتظرُ هنا ونرى ما سيكون مصير شيحان، ثم مصيركم ومصير الجوازل بعدها. لا تظنّ أيها الغازي أن لي يدًا واحدة في مدينتكم، بل لي أيدي وأرجلٌ وعقول عديدة، تمشي وتجول وتحكم في كل بقعةٍ من بقاع منطقة رأس الخيل.

هام الغازي وسرح في كلام الوَبَاصُ، وتبيّن له أنّ مكره فاق حدود تصوّره. فلم يترعب الوَبَاصُ ملكًا على عرشه إلا وعلم كيف يسوق الرجال في مملكته، كما يسوق الماء لهم في وديانهم. وعلم الغازي أنّ الوَبَاصُ لم يُبقه حيًّا إلا تحسبًا لأيّ مُفاجأةٍ تطرأ، أو ليشتت به ويستمتع بإذلاله، فاستجمع رباطة جأشه وأخفى الألم الذي يعتصره، وابتسم قائلاً: لا بدّ أنّك أخطأت في تقدير الأمور، وستدهش بما لا تتوقّعه فانتظر كما تشاء، واستمتع بعرشك ونعيمك فإنه زائلٌ كما أراك أمامي.

صاح شامان: خسئتُ أيها الإمعة، سيبقى الوَبَاصُ ملكًا على رؤوسكم أيها الكلاب.

الوَبَاص: دع له الكلام يا شامان، فليس قادراً إلا عليه. وما الأخطاء بحساباتي أيها الغازي؟ أعلمت عن آبار الجوازل؟! هل تظن أنها ستوحدكم؟ لن تكفيكم إلا أشهراً، فتركعون أمامي طالبين الرحمة والصفح، وتُمطرونني بهداياكم وعطاياكم الثمينة، ولو اجتمع كل رجالكم على قلب رجلٍ واحدٍ ما بلغنم أسواز العصوف.

ابتسم الغازي لأنه استطاع أن يستفز شامان والوَبَاص ولو قليلاً، وقال: أعترفُ أنني لسْتُ بالذكاء المطلوب، وإلا حَقَقْتُ رغباتك أيها الوَبَاص وأرحتُك من مُعاناتك التي تُعانيها الآن: فالقلق يظهر بين ثنايا ابتساماتك المعدودة والمصطنعة، لكنك أغفلت أهم شيء، فأخبرني ما الذي يعتمدُ عليه شيحان للقضاء عليك!.

الوَبَاص: ليس شيحان إلا رجلٌ أحمقٌ مثلك، ولو كان ذكياً لكسب طاعتي ورضاي بدل أن يُسلم نفسه لمن هم على شاكلتك. علمتُ عن الآبار التي حفرها قبل أن يعلم بها أحد؛ بل قبل أن يحفرها هو. لقد هرم شيحان وخارت عزائمه ولم يعد كما كان. ولو آتته بقي حياً فما له من حيلةٍ ولا وسيلةٍ تنفعه وتنفعكم.

كان الغازي ينتظر إلى شامان أثناء حديث الوَبَاص، ولمس في داخله بعض الشك والقلق وعدم الطمأنينة من مكر شيحان، فرمقه بنظرة حادةٍ خاطفةٍ بالكاد استطاع النفاذ من شرها وقال: أظن أن لشامان رأياً مُغايراً أيها الوَبَاص.

التفت الوَبَاص إلى شامان بكلِّ ثقةٍ، ينتظرُ إجابته وردّه السريع كما اعتاد عليه، فنفى شامان ما ألقى عليه جُملةً وتفصيلاً، وكال الشتائم والسخرية من شيحان وكل رجاله، ومن محاولاتهم البائسة في الخروج عن طاعة ملكهم الوَبَاص.

ظهر الارتباك على وجه شامان بحديثه، ففرح الغازي لأول مرة وهو في قمة ضعفه وهوانه من مكر شيحان وهيبته، شيحان الذي عاش حبيساً في نفسه وتجرع همّه سنين طوياً وليالي ثقالاً، فأخذ على عاتقه أن ينتقم منه مهما طال به الزمان، وها هو الآن يفخرُ بشجاعته ومكره الذي عرفها حق المعرفة، وعاصرها عقوداً طويلة ومُتعبة.

استأنفَ الغازي لحظته المناسبة وبقليلٍ من اللذة التي غمرته، فقال: ستعلمُ من هو شيخانُ أيها الوَبَاصُ.

غضب الوَبَاصُ: ماذا أيها الغازي؟ أرى أنك بتَّ تُحبُّه الآن وقد كنتَ تتمنى موته، وتطلبُ مِنِّي القضاءَ عليه!

الغازي: إنَّه القلبُ يا من جهلته! ما سميتُ بذلك إلا من تقلُّبه. قد كنتَ سبباً في كُرهننا، وغدوتِ الآن السببِ في محبتنا. ويلٌ لك لو حملَ شيخانُ رايةَ الحرجف، أو حملها ابنه الليث.

الوَبَاصُ: وماذا سيفعل لو حملها! ومن الليث حتى تُخيفنا به؟ لم يبقِ إلا الصبيان تُخيفنا بهم أيها الغازي!

الغازي: ذلك الشبلُ من ذاك الأسد، فلا تظنَّ أن شيخانَ أسلم رأسه، ولم يعلم أنَّ خلفه من هو أشدَّ منه، فارتقب كما ترتقب، ولعمري أنَّ هناك ما يُخفيه شيخان وتجهله، لكن شامان يخافه في نفسه ويحسب حسابه.

صاح الوَبَاصُ بشداد: خُد هذا الأرعن من أمامي وارمه بزنتانته، وامنع عنه وعن صحبه الطعام.

شداد: سمعاً وطاعةً يا مولاي. وأمسك برأس الغازي: هيا فمُ أيها اللعين.

انصرف شداد وهو يقودُ الغازي أمامه بغلظةٍ شديدة، وأجبرهُ أن يُخضعَ رأسه وهو يمشي، حتى يُخفِ ابتساماته التي أغاظت ملكه، وأقلقت راحته وكأنتها سهامٌ جارحة، والتفت الوَبَاصُ إلى شامان وعيناه تتطايرُ شراراً، وطلبَ إليه أن يبوح بما في صدره، ويصدِّقه القولُ بمخاوفه التي يتوجَّس منها.

شامان: لا تغضب يا مولاي من قولي، ولسْتُ أخافُ شيئاً وأخفيه عنك وأنت تعلمُ أنني خادمك المصون. إنَّما عندي بعضُ الشكِّ من مكر شيخان، ولا بأس أن نأخذ الحيطَةَ والحذرَ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

الوَبَاص: وما الذي تخشاه؟ أما أعددنا كُلَّ شيء! هل بقي ما لم نحسب حسابه؟  
شامان: لقد قطعنا عيون الماء اليوم عن الجوازِل، وتركنا العيون التي تسقي مدينة  
الحرَجَف. ولو فرضنا أنَّ شِيحان قُتِل، فأغلبُ الظنِّ أنَّ الحرب ستنتشب بينهم؛ لكنَّ ذلك  
ليس أكيداً، أخافُ أن يتحالفوا ويجتمعوا.

الوَبَاص: ويحك يا شامان، وهل نحسبُ لهم حساباً! ما هُم إلا زُعاعٌ صغار. إنَّ  
دَحام قائدَ جيشنا قادرٌ على أن يقضي عليهم، دون حاجةٍ للزعزاع ولا لشيار وأوهد أو  
غيرهم. انتظر فقط حتى نقطع عنهم الماء جميعاً.

شامان: إنَّ تسليم شِيحان لنفسه وهو بذلك الذكاء ما يُقلقني، وما يجعلني أشكُ  
بكل حساباتنا يا مولاي، فاعفُ عن زلتي، إنَّما هو القلقُ من فرط الثقة.

الوَبَاص: لستَ عندي إلا بمقام والدي يا شامان، فلا تجعلني أرى فيكَ ضعفاً أبدياً  
ما حييت.

شامان: سأكون كما عهدتني يا مولاي.

وفي ممر القصر الطويل، التقت هند بالغازي يمرّ بجانيها مكبلاً، والحراس وشداد  
يجرّونه كما تُساق الشاة لذبحها، فرمقها الغازي بنظرة حاقدة أوجعتها، فتوقفت ثمَّ  
تسلّلت من على بُعدٍ خلفهم ولحقّتهم إلى مبنى السجن المجاور للقصر، فدخلوه ودخلت  
بعدهم، فتفاجأ الحراس وأحنوا رؤوسهم تحيةً لها، ونزلت السلالم خلفهم إلى أن وصلت  
قبو الزنازين، وتقدّمت بخطواتٍ قليلةٍ حتى تتمكن من رؤية وجه حبيها قصي. فتح  
الحُرّاس باب الزنزانة ثمَّ دفع شدّاد الغازي بقوةٍ بالغةٍ، فأسقطه أرضاً وسط الحجرة  
الصغيرة، فهرع إليه قصي وربيع على الفور، ودخل الحراس وأمسكوا قيود الغازي  
وربطوها بالسلسلة المعلقة بجدار السجن، ثمَّ خرجوا. صاح شدّاد بالحراس أن يمنعوا  
الطعام عنهم، فهض قصي بعد أن رفع والده عن الأرض، واشتعل غضبه مرارةً وقهراً،  
فشتم شدّاد وهو يحدّجه بعيونٍ محمّرةٍ كأسدٍ أسير، ثمَّ تفاجأ حين لمح هند واقفةً خلف



الباب وتختلس الأنظار والدموع تملأ مقلتها حُزناً وألمًا. تلاقت الأعينُ الحائرة وصمت قصي عن كلامه وأغلق جفنيه ذلًا وهدأت مفاصله، فأشاح بوجهه وعاد يجلس عند والده الغازي. حوّل شداد بصره خلفه وإذا هي الأميرة هند تقف جامدةً في مكانها، ونظراتها لا تتحوّل عن قصي. انحنى شداد تحيةً لأمرته كما انحنى الحراس جميعًا، وأطال خفض رأسه، ثم قال: مولاتي هند، ألك حاجةٌ هنا؟ مولاتي، أيتها الأميرة الجليلة. استفاقت هند من شرورها العائم، فعبست في وجه الحراس، وحملت نفسها وحبست دموعها بعد أن ألقّت نظرةً أخيرةً على قصي وهو ينفضُ الغبار عن صدر والده، ثم غادرت مبنى السجن مسرعةً حتى وصلت عُرفتها فاستقبلتها وصيفتها (سعدى) وأغلقت الباب خلفها. انكبّت هند على سريرها وأجهشت بالبكاء، وحاولت سعدى التي تعلم أسرارها أن تُواسيها وتُشاطرها أحزانها، فصاحت هند: سأقتل نفسي ولن أتزوج سري أبدًا.

وفي الزنزانة أيضًا جلس قصي وربيع يواسيان الغازي، ويدعوانه إلى الصبر والثبات، وأقسم قصي إن خرج سالمًا لينتقم من الوَبَاص ومن كل الأندال الذين تكالبوا على خيانتهم. نظر الغازي إلى ابنه بعينٍ دامعة، وتبسّم زيفًا وهو موقنٌ بقرارة نفسه أنّ الوَبَاص سيقتلهم ثلاثتهم، وأن النجاة لن تُكتب لهم إلا على يد شيحان فقط، فهو القادر على قهر الوَبَاص وردّ كيده في نحره.

تحدّث ربيع عن هند حبيبة قصي، التي وقفت أمامهم حزينَةً لرؤية محبوبها بالأغلال، فازداد قصي حرقَةً طغت على سوء حاله، بعد تبخّر الآمال والأمانِ أمامه، وزاده حرقَةً أنّ تراه عشيقته بتلك المهانة والذل، فأسرى به قليلًا كلامٌ ربيع عنها وتغرّله بجمالها، ووصفها وهي ترمقه بعيونها الساحرة فغاب عقلها وهام قلبها الأبيض كوجهها. خجل قصي من حديث ربيع عن هند، وهو ليس بحالٍ يسمح بأن يُحدّث قلبه أو يتحدّث

عن حُبه، أو عن الزواج الذي كان يمضي في سبيله، غير أنّ السجن والقيود لها طريقتها في فتح الحوارات التي تقبّع تحت أضلع الصدور.

ربيع: إنّي أحسدك يا قصي، فإن كُنْتَ بائسًا تعسًا؛ فقد وجدت قلبًا يرأفُ بحالك ويشعر بك، وأيّ قلبٍ قد ملكت!.

قصي ضاحكًا: وأيّ بؤسٍ تُبدّده المشاعريا ربيع، دعنا همومنا وانسى ابنة ذلك اللئيم.

ربيع: عجبًا كيف يُنبُتُ الشوكُ الأسودُ وردًا أبيض!

قصي: كفاك يا شاعرنا، أنت العاشق أم أنا؟

ربيع: نحنُ قومٌ إذا عشقنا عشنا. ألسنُ شاعر الحاء! الحبُّ والحربُ والحرّجف، فأنى لي الصمتُ والقيودُ تأسرنِي.

قصي: ألن تكفّ ونحن بهذا الموقف!

ربيع: المواقف لا تصنع الرجال، بل تُظهرهم، فاصبر يا ابن الغازي.

ومن بؤس السجن إلى مدينة الجوازل، التي اضطرب صباحها هذا اليوم، فقد اختفى الليث عن الأنظار فجأةً ولم يظهر حتى الآن، ولم يعرف أحدٌ مكانه. حتى زوجته ريم التي تركته وحيدًا مهمومًا في مجلس والده ليلة أمس. كان الجميعُ بمجلس المدينة حائرين والقلق يعترهم بشدّةٍ لاختفائه، حتى دخل عليهم أحد الجند وأخبرهم أنّ وفدًا من مدينة الحرّجف قد وصل مشارف الجوازل. تحضّر الرجال لاستقبال الوفد، فيما أمر جلد بعض الرجال متابعة البحث عن الليث، وأسرع زهير لنهلان يُخبره بقدوم الوفد فيستعدّ للقاءهم.

خرج همام وضرار وبعض وجهاء المدينة لاستقبال الوفد القادم إليهم، فلاقوهم وعلى رأس وفدهم كان سهيل بن عياش، فرحبوا بهم واستقبلوهم استقبالًا حسنًا،

ورجعوا بهم إلى المجلس. وقف سهيل بن عياش عند الباب، وقال: هل يتوجَّب علينا أن نخلع أسلحتنا قبل الدخول؟

ردَّ همام: بل تحملونها أينما تشاؤون، فأنتم هنا آمنون، حللتم أهلاً ووطنتم سهلاً، هلمَّ بنا إلى المجلس. مرحباً بكم.

جلس سهيل بن عياش والوفد الذي معه في صدر المجلس، وقد كان سهيل معروفاً عند أهل الجواز، فلطالما جاءهم لیتفادی الأسرى ويتحدَّث بشئون الحرب معهم. ولم يتحدَّث أهل الجواز بأي شأنٍ يخصّ قدوم الوفد، وقدموا لهم أفضل ضيافةٍ عندهم من طعامٍ وشراب، وانتظروا أن يتكلَّم سهيل بن عياش، الذي انتبه لعدم وجود الليث مع وجهاء الجواز، وتعبَّ من غيابه وهو السيّد بغياب شيحان، فنظر سهيل في الموجودين حتى اختار مالك من بينهم، فوجه نظره إليه ثمَّ تحدث.

سهيل: يا أبا ضرار، اعلموا أنّ شيحان الآن بالحفظ والصون عندنا. إلا أنّ لنا مهمةً هنا نقضيها إن أذنتم بذلك.

مالك: نحن في خدمتكم حتى تقضون ما جنّتم له، فاطلبوا ما سئتم.

سهيل: نريدُ أن ننظر في آبار المياه، ونتأكّد من عددها وسعتها.

مالك: لكم ما أردتم وفي أي وقتٍ تشاؤون.

طلب سهيل أن يتحركوا بساعتها لينظروا إلى الآبار، فخرجوا مع همام وضرار، حتى وصلوا مكانها، فالتقوا نهلان وسلّموا عليه، وقد عرفوه سابقاً حين عمل عندهم بالجرحف. أشار نهلان بيده إلى الآبار وعرض لهم أماكنها، ثمَّ مشى وتبعوه إلى أوّل بئرٍ طلب سهيل رؤيته، فوقفوا بجانبه ونظروا إليه. أخذ سهيل من نهلان عصاةً طويلةً معكوفةً من الأعلى لقياس عمق البئر، فاقترب منه وأنزلها به، وأخذ يُدوّر بها حتى يتبيّن حجمه، فأخرج العصاة وقاس طولها، فكان أكثر من خمسة عشر ذراعاً، فأدهشه طول البئر وعرضه. تقدّم نهلان بعدها إلى البئر الثاني، ففحصه سهيل وانتهى منه، وأبدا إعجابه به

أيضًا. وانتقلوا إلى البئر الثالث وفحصه سهيل وتأكد من قياسه، ونظر إلى عرضه فأعجب بذلك، وفي طريقهم إلى البئر الرابع، صاح زهير من بعيد وهو يهرول بجسده الضخم باتجاههم: يا قوم، يا قوم.. تفاجأ الجميع من اندفاع زهير والتفتوا إليه، وبدا القلق على سهيل والرجال الذين حضروا معه، واستغرب همام وضرار من اندفاع زهير هكذا، ووقفوا جميعًا بانتظاره حتى وصلهم وهو يلهث.

همام: ما بك يا زهير؟

زهير وهو يلتقط أنفاسه: مصيبة، مصيبة يا همام. لقد قطع الوياص عنّا الماء.

ضرار: ماذا؟؟ أنت متأكد؟ ومن أخبرك بذلك؟

زهير: الرعاة، لقد أخبروني أن الماء جفّ في الأودية.

همام: لقد فعلها اللعين إذن.

أضحى الصباح أشدّ اضطرابًا من ذي قبل، وظهر القلق على همام وضرار أمام سهيل، فنظر لهم وعرف أنّ الجوازل وقعت بأول ضربات الحرب مع الوياص، والخوف أن يكون الماء قد قُطع عن الحرجف أيضًا! طلب همام من زهير أن يسبقهم إلى مجلس المدينة ويخبر جلد ومالك بما حدث، ومرّوا بالآبار المتبقية جميعها وأنّهم مهمتهم ورجعوا مع وفدهم إلى المجلس، فجلس سهيل مع وجهاء الجوازل ولم يُناقشهم شيئًا غير شأن الآبار، وشكرهم على حُسن استقبالهم، ثم غادر مع وفده إلى مدينة الحرجف، بعد أن أوصلهم جلد وضرار إلى آخر مضارب الجوازل.

انتهت مهمة الآبار على خيرٍ وسلام، واجتمع كبار الجوازل في مجلس المدينة قلقين وأمامهم مُصيبتان: انقطاع الماء، واختفاء الليث والموقف الذي وضعهم فيه أمام وفد الحرجف، فاختفاؤه سيُثير الشكّ في نفوسهم، وقد يظنون أنّه غاب عن لقاءهم لعدم رغبته بالتحالف، وسيشكّون بأنّ الجوازل تُخفي صدعًا كبيرًا بين أبنائها.

بدأت الحرب وتبيّنت بوادرها، وتجاوز الجميع عن الخطوة التالية إذا تمّ التحالف مع الحرجف، فعندها سيقوم الوَبَاصُ بقطع الماء عنهم أيضًا. وأثناء حديثهم، دخل مهند بن جلد على عابس الوجه، فسألوه عمّا في جُعبته.

مهند: لن يسركم ما ستسمعون! لقد مرّ الليث على سائس الخيل ليلة أمس، وأخذ من عنده أربعة خيولٍ وغادر المدينة جنوبًا باتجاه العصوف، وأخبرني السائس أنه كان يلبس لباس الحرب، ومعه حُزمة أسلحة وعُدَد.

تفاجأ الجميع وصاح جلد بغضب: ماذا؟؟ ولماذا يذهب إلى العصوف ذلك الأهوج.

مهند: لم يتكلم السائسُ معه أبدًا، وهَدَّده الليث أن يُخبرنا بما فعل.

اشتدّ غضبُ جلد فنهض وزمجرَ كالمجنون، وانهار بكليلٍ من الشتائم على الليث، وطلب أن يُحضروا سائس الخيل ليقطع رأسه على غبائه الفاحش، إذ لم يُخبرهم بالأمر وهو يعلمُ أنّ الجميع يبحثُ عن الليث منذُ الصباح الباكر. زجر مالك جلد، وصاح به همام أن يعقل ويُمسك غضبه، فما هداً أبدًا، وانتفخت أوداجُه، وجفّ حلقُه وابيضَّ لسائهُ من شدّة قهره، فصاح: ما الذي يُخطّط له هذا الصبي الأرعن! ألا يعي ما نحنُ فيه من بلاءٍ ومصائب! اذهب يا مهند وأحضر لي سائس الخيل بالحال.

ظلّ مهند واقفًا مكانه أمام غضب والده العارم ولم يتحرّك، حتى تقدّم جلد إليه وأمسك قميصه بكلتا يديه، فرفعه عن أرضه ثم دفعه بقوة، ونهر به أن يذهب ولا يجعلهُ يعيدُ كلامه حتى لا يلحقه غضبه. انصاع مهند لأوامر والده، فخرج وترك الجميع في المجلس والصمتُ يُخيّم عليهم. ولما وصل سائس الخيل، طلب إليه أن يمشي معه إلى مجلس الجوازِل، فمشى السائسُ وفرائصُه ترتعدُ خوفًا من منظره وطريقة كلامه الواضحة، فما أمامه إلا العقاب. وعندما وصلا ساحة المجلس، كان جلد بانتظارهما والسيفُ بيده، فتوقّف سائسُ الخيل وجثا على ركبتيه راجيًا ومتوسلًا الرحمة، ومشى جلد صوبه يجرّ سيفه على الأرض، والشررُ يتطايرُ من عينيه.

صاح نهلان: انتظريا جلحد. مشى جلحد حازمًا أمره. ومغلقًا أذنيه عن سماع أي كلمة.

صاح نهلان مرةً أخرى بصوتٍ أعلى: توقّف يا جلحد. أنا أعلم أين ذهب الليث ولم أخبركم.

مشى جلحد خطواتٍ قليلةٍ، ثمّ توقف واستدار إلى نهلان، فنظر إليه بدهشةٍ وغضب، وصمت قليلاً ثمّ قال: هل تعي ما تقول يا نهلان؟

نهلان: إن كنت مُحاسِبًا، فأنا أولى بالحساب من هذا البائس، فما هو إلا خادمٌ انصاع إلى أوامر سيده. وما ذنبه إن كثُر الأسيادُ بعينه! فليس بصاحب رأيٍ ولا مشورةٍ. أما أنا فقد علمتُ قبل أن يذهب الليث لغايته.

جلحد: أكمل حديثك، أين ذهب الليث، وماذا يُريد من ذهابه؟

نهلان: لن أتحدّث هنا، ولن أتكلّم بكلمةٍ حتى تُخلي سبيل سائس الخيل.

قاطعه جلحد: تكلمّ وإلا قطعْتُ رأسك يا نهلان.

نهلان يهدوءٍ وثقة: ولن أتكلّم حتى تشرب ماءً وتسكُن، ونعود إلى مجلسنا فأخبركم بما أعلمه.

ضرار: اهدأ يا جلحد، فهلان على حقٍ بما يقول، فالسائسُ مغلوبٌ على أمره، وهو أولى بالحسابٍ منه.

تحامل جلحد على نفسه، فأغمد سيفه وترك السائسَ ينصرف من أمامه، ودخلوا المجلس جميعًا وأخذوا مقاعدهم، وشرب جلحد كأسَ ماءٍ وعيناه تحدّجُ نهلان. فلمّا رآه نهلان وقد هدأ، طلب منه أن يحتاط إذا أراد أن يتكلّم أمام الجميع، فما سيتكلّم به سرٌّ دفينٌ لا يعلمه أحد، فأخبره جلحد أن يتحدث والكلّ سيسمع كلامه.

نهلان: أيّها القوم، رُبما أكون قد أخطأتُ في إخفاء ما أعلمه، وأنتم هائمون في البحث عن الليث. لكنني ما أخفيتهُ إلا بعد أن قطعْتُ عهدًا لشيحان، ألا أبوح بشيءٍ

حتى تنقضي ثلاثٌ ليالٍ أوزورنا وفد الحرجف. وأرجو أن تسمعوا كلامي كاملاً، فليستُ هنا بينكم بموضع شك، وأنتم تعلمون أنني أهبُّ روعي فداءً لشيحان، فقد أنقذني وأهلي من غدر ضامر والوَبَاصُ.

عملتُ سنينَ طويلةً في مدينة العصوف، فاستعملي ضامر في بناء سور قصره، وكان الكثير من العاملين حينها يحفرون بساحة القصر، فاعتقدتُ أنهم يحفرون بابًا للزنازين أو آبارًا أو خزائن. ولم أتوقع أبدًا أن يكون سردابًا دفينًا، ولم يستعملي الوَبَاصُ للعمل معهم لانشغالي ببناء سور قصره الحصين. كُنتُ أعرف معظم العمال عنده، فقد كان يُجزلُ لهم العطاء، وجعل مسكنهم داخل حرم القصر، فلا يُغادروه أبدًا حتى يُهبوا عملهم، وكان المشرف عليهم الوزيرُ شامان بنفسه، وذلك ما أثار في نفسي الشك، فكُنتُ نادرًا ما أختلي ببعضهم فأحدثته، ولمستُ الخوف بكلامهم. ولما فرغتُ من سور القصر ورجعتُ إلى أعمالٍ أخرى في المدينة، لاحظتُ أنّ كلَّ من يعملُ في ذلك السرداب يختفي ولا يظهر له أثر، فراقبتُ العمال بحذرٍ شديدٍ دون أن يُلاحظ أحدٌ ذلك. واكتشفتُ أنّ جُند ضامر يأخذون العمال الذين يُهون أعمالهم، ويسوقونهم خارج المدينة، ويمنعونهم من التحدث والتعامل مع أحد، فيمنعونهم من دخول السوق، ويأخذونهم وهم يحملون متاعهم ويخرجون بهم في طريقٍ ليس معروف، ثم يرجعون بعد أكثر من ساعة دونهم.

وقد سألتُ التُّجار الذين أتقُ بهم جيّدًا، عن بعض العمال الذين غادروا بعد انتهاء عملهم، فلم يرجعوا إليّ بأي أخبارٍ عنهم، واكتشفتُ بعدها أنّ الجميع لم يعودوا لأهلهم أبدًا، فكان آخرُ علمٍ أقاربهم بهم أنهم يعملون في قصر ضامر. وقد تجرأتُ يومًا ولحققتُ بالجُند حينما أخذوا بعض العمال، فتتبعتُ أثرهم مُتخفيًا بين الأشجار، ولحققتُهم حتى وصلتُ إلى ذلك الوادي المظلم. نزل الجُنود عن خيولهم، ثم قتلوا العمال بدمٍ بارد، ودفنوهم في ذلك الوادي، وأخذوا أموالهم منهم وتقاسموها أمامي وأنا أنظر إليهم، بكى نهران عند رواية ذلك الحدث، وذُهل الجميعُ بما قاله، فغضبوا من خسة ضامر ونذالته،

كما استأثروا لعدم معرفتهم بتلك القصة سابقاً، وألمهم إخفاؤها طوال هذا الوقت، فهذه الأسرار تُكشف لأول مرة، ولم يُخبرهم شيحان عنها، فجزموا أن ذلك هو السر الذي أخفاه عنهم.

وحتى الآن لم يُفهم سببُ ذهاب الليث إلى العصوف، وبعد أن هدأ نهلان، طلب إليه جلد أن يُكمل حديثه، فقال: خشيتُ أن يأتي اليوم الذي يستعملي به ضامر، أو يستعمل أحدًا من أولادي في العمل بذلك السرداب، وقد علمتُ أن نهايته ستكون في ذلك الوادي البائس، الذي يعُجُ بعضا الطامحين والمساكين الذين تركوا أهلهم ليكسبوا رزقهم، فكان جزاءُ إحسانهم أن يموتوا جَوْرًا وغدرًا.

أخفيتُ ذلك الأمر في نفسي ولم أطلع على أحدٍ قط، ففارقني النوم أيامًا وليالي عصبية، حتى طلبني الغازي للعمل في مدينته وأذن له ضامر بذلك، ولما فرغتُ من العمل بالجرجف، رجعتُ إلى العصوف مُجبرًا؛ لأنِّي تركتُ زوجتي وبناتي هناك لأبعد الشك عني. خشيتُ أن أهرب بأهلي فيلحقني ضامر بجنده، أو يُلحقوا الأذى بأهلي، فرجعتُ أعمل في سور المدينة عند الوِباص آنذاك، بعد وفاة الملك ضامر. ولما فرغتُ من العمل، طلبني الوزير شامان وأخبرني أنه يُريدني في عملٍ آخر، ويتحتم علي أن أجمع أولادي معي في العمل، وأسكن في سكن العمال داخل حرم القصر، فأمرني أن أجهز نفسي وأرجع في اليوم اللاحق، وانصرفتُ من عنده هائمًا على وجهي، وعلمتُ لحظتها أنني هالكٌ لا محالة، وليس لي من مفرٍ ولا ملجأ، فمشيتُ في السوق إلى بيتي. وصدف ذلك اليوم أن دخل شيحان المدينة، فشاهدني وسلم علي، فسلمتُ عليه والخوفُ يقطر مني، فسألني عن حالتي المزرية والظاهرة من شحوبٍ وجهي، فطلبته أن يستأذن من الوِباص أن يستعملي عنده، وكننتُ قد رفضتُ سابقًا حين طلبَ أن أعمل لديه. استغرب شيحان تقلب رأبي والرغبة الملحة في العمل عنده، فأخبرته أن حياتي وحياء أهلي في خطر إن بقيتُ في مدينة العصوف.



شيحان الشهم، كان قادراً أن يطلبني من ضامر أو الوَبَاصُ وقتما يشاء، ولن يُرفض طلبه؛ لكنه سألني عن رغبتي بذلك، حتى لا أُكره على عملٍ لا أُحبه. فما كان مني إلا أن أثق به لئبيل أخلاقه وكرمه، وليس لي سبيلٌ غيره حينها، وأنا كالغريق أتعلقُ بقشّة، فاعترفتُ بخوفي له، وطمأنني ووعدني خيراً، فرجعتُ إلى بيتي أنظرُ إلى أولادي، وجلستُ خائفاً وما تكلمتُ بكلمة حتى فُرع الباب وكان أحدُ الحراس، فأمرني أن أمضي معه لقصر الملك. علمتُ أنّ شيحان قد طلبني من الوَبَاصُ، ففرحتُ بداخلي بنجاتي من شرّه وشرّ وزيره شامان. ولما وقفتُ بين يدي الوَبَاصُ، سألتُ عن أشغالي، فأجبتُه بثقةٍ دون أن أبدي قلقي، وأخبرتهُ أن الوزير شامان قد أوكّل إلي عملاً لأقوم به. فالتفت الوَبَاصُ إلى شامان وسأله عن ذلك العمل وعن موعد الانتهاء منه، فتغاضى شامان الماكر عن ذكر ذلك العمل، وقال إنّه ليس بالعمل المهم، ويمكن تأجيله أو تحويله لعاملٍ آخر.

فقال لي الوَبَاصُ: إذن فلتذهب يا نهلان مع شيحان، وتخدمه كما تخدمنا بإتقانٍ وأمانة. فقد طلب أحسن عمالنا، ولا أرى في العصوف أحسن منك. أجبته مدّعياً الطاعة العمياء: أمرٌ مولاي المبيجل. وردّ شيحان بدهاء: إن كنتم بحاجة، فلا بأس أن تُعطوني عاملاً غيره، فإني أحتاجه لمدةٍ طويلة.

الوَبَاصُ: كلا يا شيحان، عندنا ما يكفينا من العمال، فخذ نهلان فهو خيرُ العاملين. ولكن بماذا ستستعمله؟

شيحان بكل ثقة: أريدُ أن أحفر آباراً في مدينة الجوازل. ظهرت الصدمةُ على الوَبَاصُ ووزيره شامان من حاجة شيحان لحفر الآبار، وأخفيا كرههما لطلبه وعدم اطمئنانهما له، فقال الوَبَاصُ بدهاءٍ بالغ: وهل تستغني عن مياه ينابيعنا يا شيحان؟

فأجاب شيحان: الماء عندك فإن شئتَ قطعته عَنَّا، ولا غنىَ لنا عنه، إنما أريدُ أن أوقِرَ وقتَ جلبِ الماءِ إلى المدينةِ وعناءِ التعبِ في ذلك. كما أنَّ الحروبَ لا تنتهي معنا، فأصبحَ موضوعَ الماءِ يُؤزِقُنَا ويُزعِجُنَا كثيرًا.

الوَبَاصُ ضاحكًا: كم أنت ذكي يا شيحان، لطالما فاجأتني بأفكارك الفدَّة. فقلَّتْ ساعتها للوَبَاصِ: أرجو منك يا مولاي أن تسمح لي بسؤال شيحان عن العمل ومدته؟

الوَبَاصُ: بالطبع، قد يحتاجُ معاونين لك. شيحان: لا أدري كم المدة، فعندي غير الآبار بعض الأعمال قد احتاجه فيها. قال شامان: إن نهلان يسأل لأن أهله هُنا ويخشى أن يطول غيابه عنهم، كما أن أولاده يعاونوه في عمله.

شيحان: أها، فأذن أيها الملك أن يجلب أهله معه أيضًا. الوَبَاصُ: لك كل ما تطلب يا شيحان، ولو أردتَ عَمَلنا كلهم لأعطيناك إياهم. انصرفتُ من القصر لتجهيز نفسي وأهلي، فعُدتُ بحالةٍ غير التي دخلتُ عليهم قبلها، فجهزنا أمتعتنا وعُددي التي أستعملها، وانتظرنا في البيت حتى جاءنا شيحان فخرجنا معه. كان شيحان يمشي طوال الوقت أمامنا، تاركًا مسافةً بيننا وبينه، فلم أتمكن من شكره والكلام معه حتى قطعنا مسافةً كبيرةً، وتوقف شيحان، ثم توقفت بجانبه، فأخبرني ساعتها أن لي الحرية في أي طريقٍ أمضي، ولم يسألني عن سبب خوفي أبدًا. كُنْتُ ساعتها قادرًا على الرجوع بأهلي إلى بلادي دون خوف، ومُخَيَّرٌ بالذهاب مع شيحان والبقاء والعمل عنده، فأبيتُ إلا أن أُرَدَّ بعض الجميل والعرفان لكرمه وشهامته، فمضينا معه حتى وصلنا مدينتكم، وها نحنُ نعيشُ بينكم اليوم مُعززين مُكرِّمين.

مكثتُ في الجوازل قرابة شهرين، فلم يسألني شيحان عن السبب الذي دفعني للهروب معه من شر الوَبَاصِ، بل عاملني تلك المدة كضيفٍ عزيزٍ، وترك خيار رجوعي

لقومي مفتوحًا، فجلستُ معه وحده وأخبرته بما علمتُ عن السرداب، وعن ضامر والوَبَاصِ، وكيف يقتلون العمال، فغضب وثار مقهورًا، ثم أوصاني أن يبقى ذلك السرّ بيننا، فلا يُكشفُ أبدًا حتى لأهلي.

تابع شيخان موضوع السرداب باهتمامٍ بالغ، وكان يُراقبُ قصرَ الوَبَاصِ بحذرٍ عندما يذهب لزيارته، فينظرُ إلى مكان السرداب عند دخوله وخروجه، حتى علم مكان بابه داخل القصر، لقد جعله الوَبَاصُ الماكر يبدو كبيرَ ماءٍ صغيرٍ وجميلٍ في حديثه الغناء، وبالطبع قد ملأ قاعَ البئرِ بالقليلِ من الماء، وترك بوابةَ السردابِ أعلى من القعر بشكلٍ جانبي، كما زَيَّنَ جوانبه بالحيالِ الملونةِ المجدولةِ، التي أُعدتْ للهروبِ منه. طال الوقتُ حتى اكتشف شيخان أين ينتهي السرداب، فعرف مكانه بعد أن طاف مدينة العصوف من كل جهاتها، ورأى العمال وقد وصلوا بحفرهم إلى الغابةِ الجنوبية للمدينة، فأغلقوا البابَ بالأقفال من الخارج، وزرعوا على بابه شجرًا حتى تُخفي كاملَ معالمه.

طلب مني شيخان أن أعود إلى مدينة العصوف مع أهلي، وذلك بعد سنتين من العمل عنده، وكان يُريدُ بهذا أن يوصل للوَبَاصِ ما تمَّ عمله في الآبار، ويجعلني عينًا عنده. فكان بفراسته يعلم أن الوَبَاصِ يسعى ليضع عيونًا في مدينته، كما كان مُتأكدًا أنَّه يضع عيونًا في كل مدينةٍ من المدن. وبالفعل رجعتُ إلى العصوف، وسألني الوَبَاصِ وشامان عن مكوثي في مدينة الجوازِلِ بلهفةٍ كبيرة، وطلبوا أن أحدثهما بكلِّ ما أعرف عن الجوازِلِ والآبار، وعن شيخان وجيشه. وعن حروبه وأسراره. وأخبرتهما كالخادم الأمين بما طلب مني شيخان أن أقول دون خوفٍ أو تردُّدٍ: فكشفتُ عن مدينتكم بكلِّ شيءٍ أرادا معرفته، وأخبرتهما عن جيشكم وقوّته، وحربكم مع الحرجف واجتماعاتكم، وحدثتهما عن الآبار، فقلتُ لهما أنها ليست بالحجم الكبير، وموقعها بعيد وليس بالمهم، لكنها مفيدةٌ لمدينتكم. وقد فرح الوَبَاصِ وشامان بنباهتي واطمئننا لي، بعد أن اتهمتُ شيخان بالغرور والتسلُّطِ

والبُخل. فأوصياني أن أكون عيئهما في مدينة الجوازل حين أرجعُ إليها مرةً أُخرى، وأكرماني على ولائي وأجزلا لي العطاء.

كان شيحان كلما زار مدينة العصوف، مرّ علي بشكلٍ طبيعي كأنه يسألني عن الآبار وعن مشاكلها، وعن حاجته إلى حفر آبارٍ غيرها، فلم يشكّ أحدٌ بعلاقتنا أبدًا، وكُنْتُ أخبره بكل ما أعلمه وكل ما أسمعُه في القصر، أو أسمعُه في السوق من أحاديث الرجال. وجاء ذلك اليوم الذي طلبني أصهب بن عدي للعمل عنده في الحرجف، وصادف أنّ شيحان كان في زيارةٍ لمدينة العصوف ذلك اليوم، فأخبرته بما أوكل إلي من عملٍ. وقبل أن أذهب لأصهب بن عدي للعمل عنده، طلب مني شيحان أن أسرّله بموضوع الآبار، فأخبرتهُ أصهب بذلك وأن الويَاص على علمٍ بها، ورجعتُ إلى مدينتكم، وأخبرتُ شيحان بما فعلتُ وما علمتُ عند أهل الحرجف، وعن أصهب وسعد، واجتماعاتهم المتتابة وكثرة زيارتهم للويَاص. وأخبرتهُ عن كرههما للغازي، والذي بانَ من ردة فعل أصهب حينما أسررتُ له عن الآبار، ففرح بذلك وأعطاني مقدارًا كبيرًا من المال وطلب مني أن أكرم السرّ عن غيره. بقينا أنا وشيحان طوال تلك المدة كاتمين لما بيننا، فأصبحتُ أرسلُ الأخبار برسائلٍ مكتوبةٍ إلى الويَاص وأنا بينكم. وكُلّها من أمرٍ وتخطيطٍ شيحان. وجعل شيحان أحد الرعاة يُراقب مدينة الحرجف ويُسرّله بمواعيد خروج الغازي منها، فلما جاء الراعي وأخبره أن الغازي قد مضى في طريقه إلى الويَاص مع ابنه قصي وبعض الرجال، كتبتُ آخر رسالةٍ وأرسلتها إلى الويَاص، قبل أن يذهب شيحان إلى مدينة الحرجف.

قاطع جلد حديث نهلان، فسأله: وماذا كتبت بالرسالة؟ ومع من أرسلتها؟

نهلان: كُنْتُ دومًا أبعثُ الرسائل مع ابني عازار إلى شامان، أما عن فحوى آخر رسالة، فقد أمرني شيحان أن أكتبَ بها إلى الويَاص أن مدينة الجوازل الآن بصدد عقد معاهدةٍ وتحالف مع مدينة الحرجف، وسيذهب شيحان وقد عزم على إقناعهم بالتحالف معًا ضدّ الويَاص.

دُهِلَ الجَمِيعُ من عِلْمِ نَهْلانِ بَتَلِكِ الأُمُورِ كُلِّها، وإِخْفائِها عَنهم من شِيحان. فِهَلِ وثِقَ بِنَهْلانِ أَكْثَرِ مَنهم! وماذا لَم يُخْبِرِ أَحَدًا بِهذِهِ الأَسْرارِ؟ وهَلِ هِذا هُوَ السَّرَّ الَّذِي قالَ عَنه إِنَّه سَوفَ يَظْهَرُ بِوَقْتِه؟ هَلِ كانَتِ بِدورِ تَعْرِفِ هِذِهِ الأُمُورِ؟ فِما شَأْناها بِها! وماذا عَن اللِيتِ، هَلِ كانَ يُخْفِي شَيْئًا؟ وأَيْنَ ذَهَبَ الآنَ! هَلِ ذَهَبَ لِذَلِكَ السَرْدابِ؟

لَمَسَ نَهْلانِ الأَلَمَ وَالصَدْمَةَ عِنْدَ الجَمِيعِ وَدَهْشَتَهم بِما جَهِلُوا. فَقالَ لَهم: أوصاني شِيحان قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ أنْ أُخْبِرَكم بِكُلِّ هِذا بَعْدَ انقِضاءِ ثَلاثَةِ أَيامٍ من دَخولِهِ الحَرَجَفِ، وَطَلَبَ إِلَيَّ أنْ أَعْلِمَ اللِيتِ أوَّلًا. وَقد أوصاني أنْ أُبَيِّنَ تَصَرُّفَه هِذا كَما أُخْبِرُنِي: فَقد قَرَّرَ أنْ يَكشِفَ السَّرَّ لِلِيتِ أوَّلًا حَتى يَتَصَرَّفَ، وَليسَ انقِصاصًا من ثِقَتِه بِكم؛ بَلِ لِيُضَيِّحَ بِفِلْذَةِ كَبِدِه قَبْلَ أنْ يُضَيِّحَ بِغَيرِهِ إنْ حانَ وَقْتُ التَّضْحِيقَةِ، وَقد حانَ. قالَ شِيحانُ إِنَّكَ يا جَلِحدُ، وَأنتِ يا ضَرارُ، وَكَذَلِكَ أنتِ يا هَمامُ، لِنِ تَرَكوْا اللِيتِ يُضَيِّحَ بِنَفسِهِ قَبْلَكم أو قَبْلَ أبْنائِكم. فِهَذا ظَنَنَ بِكم. وَأما عَن تَأخِيرِ الخَبيرِ لِمدَةِ ثَلاثَةِ أَيامٍ؛ فَقد تَوَقَّعَ أنْ يَخْرُجَ من الحَرَجَفِ خِلالِها، فَإِنِ خَرَجَ فَلا دَاعٍ لِأنَّ أُخْبِرَكم أَنا بِكُلِّ هِذا، وَيرْجِعُ لَه الأَمْرُ في مَوعِدِ مُكَاشَفَتِكم بِهِ. وَالآنَ أَعْلَمُكم أنَ اللِيتِ ذَهَبَ وَحدَهُ فَجَرًّا إلى مَدِينَةِ العَصُوفِ، لِيَقْتَحِمَ قِصرَ الوَبَاصِ الحَصِينِ، وَيُخْرَجَ الغَازِي من سِجْنِهِ.

نَهَضَ جَلِحدُ من مَقْعَدِهِ وَنَهَضَ أبْناؤُهُ جَمِيعًا مَعَهُ، فَوَجَّهَ نَظْرَهُ إلى نَهْلانِ ثَمَّ إلى جَمِيعِ الحُضُورِ فَعَلِمُوا أَنَّهُ بَلَغَ حَدَّه في الأَسْتِمَاعِ، وَنَوَى في نَفسِهِ نِيَّةً لِنِ يَتِنِيهَ عَها أَحَدُ. وَكانَ جَلِحدُ قَدِ فَهَمَ مَقْصدِ شِيحانِ من وَراءِ ذَلِكَ كَلِّه، فَقد أَخْفَى هِذا السَّرَّ عَنهم حَتى لا يَتَنافَسُوا عَلى التَّضْحِيقَةِ بِأنفُسِهِم وَبِما يُسْتَجِبُ عَمَلُهُ ساعَةَ عِلْمِهِم بِهِ؟

قالَ جَلِحدُ: إنَّ شِيحانَ أَرسَلَ رِسالَةً إلى الوَبَاصِ، يَكشِفُ فِها عَن نَوايِأِها الِتي عَزَمَ عَلِها، قاصِدًا بِذَلِكَ أنْ يُلْقِيَ الرُّعبَ في مَدِينَةِ العَصُوفِ، فِيتَخَبِّطُونَ وَيخافُونَ أنْ تَجْتَمِعَ صُفُوفُنا مَعَ صُفُوفِ الحَرَجَفِ. وَقد عِلِمَ شِيحانُ قَبْلَ ذَلِكَ بِالفتَنِ النَّائِمَةِ بَينَ سادَةِ القَبائِلِ في مَدِينَةِ الحَرَجَفِ، فَاسْتغَلَّها أَحْسَنَ اسْتِغْلالٍ وَأفْلَحَ في مَقْصدِهِ، فَقد كَسَبَ

طرفَ الحرجف، بعد أن سَجَنَ الوَبَاصُ الغازي وولده قصبي وقتل رجاله. والحرجف الآن أمام خيارين لا ثالث لهما؛ فإما يقتلوا شيحان ويُسَلِّمُوا رأسه إلى الوَبَاصِ ويفتدوا الغازي، أو يشتروا كرامتهم فيأبُونَ إلا السيوفَ أن تُرْفَعَ بوجه الوَبَاصِ الذي غدرهم وأذَلَّ سيدهم وقتل رجالهم. لقد علمَ شيحان أن الوَبَاصِ الغدَّارَ سَيَسْجِنُهُ، أو يسجِنُ الغازي ليضمن أحدَ رؤوس التحالف، ولن يتوانى في مكره وغدره عن تفرقتنا والنيل مِنَّا بأبشع السُّبُلِ؛ ولذلك فقد جعل شيحان السرَّ يظهر الآن لتتصرَّف، فما دام الغازي بالسجن الآن، فأولى بنا أن نُخرجه حتى لا يجبُنَ أهل الحرجف ويرضخوا لجبروت الوَبَاصِ، وحتى لا يُلحقوا بشيحان الأذى. ولعمري هذا السرداب لن يُستخدم إلا مرَّةً واحدةً ثم يُطمَر، وما أثر شيحان أن يستخدمه لِيُنقِذَ نفسه، بل ليرأب الصدع بيننا وبين أهل الحرجف. التفت جلد لابنه مُهند وصاح: هَيَّا يا مُهند، أحضر لي ثلاثين فارسًا من كتيبة السُّكَّارِ بالحال، ولتكن أنت وإخوانك في مُقدِّمتهم، فلا أحسبُ الليث يدخلُ السرداب حتى تغيبَ الشمس، ويهجع جنْدُ العصوف.

مالك: أين يا جلد؟ تعقَل قليلاً.

همام: هل جُننت يا جلد! إنك ترمي بنفسك في مهَبِّ الردى.

جلد بحزم: بل أنا الردى الذي سيراهُ الوَبَاصُ بن ضامر الليلة. انتهى عندي الكلام وحن وقتُ الحُسام، واتي ماضٍ إلى ساعةٍ لا بُدَّ منها. سألقُ بالليث وأقتحمُ العصوف معه، فإن خرجنا بالغازي؛ مضيئنا إلى الحرجف. وإن لم نخرج؛ لنقتحمَنَ قصرَ الوَبَاصِ، ونُبَاغِثَهم على غفلةٍ حتى نصل الوَبَاصِ في وكره، فنموت جميعًا في سبيل ذلك، فلا مهناً دقيقةً في عيشه، ولا يَذُقُ طعم النوم أبداً، ويتقلَّبُ بعدها كغُصْنٍ أخضرٍ يانعٍ في نارٍ تَلظى. طلب همام وضرار من جلد أن يُرافقه بما عزم عليه، لكنه أبى وطلب منهما البقاء في المدينة، فأمامهما دورٌ كبيرٌ ليقوما به، وسيأتهم الخبرُ اليقين بما سيحصلُ معهم.

ضرار: وكيف سنعرف ما سيحدثُ معكم؟

جلحد: سيُخبركم عازار بن نهلان.

نهلان: ابني عازار؟!

جلحد: نعم ابنك، سيدهبُ معنا ويدخلُ مدينةَ العصفوف وحده كالعادة. مُدعياً أَنَّهُ يحملُ رسالةً إلى الوَبَاص. فاكتبوا له ما سئتمُ برسالةٍ رُبما يسألونهُ عنها، وأحضرهُ هُنَا حتى نجهز. ولا بأس عليه يا نهلان، فسيكونُ خارجَ أسوار المدينة. قبل أن يُشكَّ به، هذا إن شكوا أصلاً!

نهلان: أصبت يا جلحد، ونحن طوعُ أمرك. سأجلبُ عازار حالاً، وليس ابني عليّ بأعلى من الليث أو أبنائكم، ولو سئتمُ مني الذهابَ لندهبُ عن طيبِ نفسٍ وفخرٍ بخدمتكم. فانظروا ما تكتبون بالرسالة.

همام: أصيلٌ يا نهلان، ونعم الرجل أنت.

جهز ضرار وهمام رسالةً كتبها لهم نهلان بخطِّ يده وأمضى عليها، وأعطوها لابنه عازار ليحملها ويدخل بها مدينةَ العصفوف، ويُسلمها إن اضطرَّ إلى ذلك. وقد كتبوا فيها: (اعلم أُنمها الملك المبعجل، أن رجال الجوازل أصبحوا يشكّون بي هذه الأيام، فقد أُطيلُ عليك بالأخبار. أمّا وإن وصلك كتابي هذا، فاعلم أن الجوازل والجرجف قد تمَّ تحالفهم على ما ظهر أمامي، فقد زارنا وقد من الجرجف واجتمعوا مع أسياد الجوازل وخرجوا متحايين مُسلمين. خادمكم الأمين، نهلان).

خرج جلحد ومعه ثلاثون فارساً حاملين سيوفهم ودروعهم، ويلبسون عصاباتهم السوداء، فالموْتُ وسواده الليلة سيُخاطبُ سيوفهم ورماحهم، وستزهقُ الأرواحُ وتنوحُ النائنات، لتبدأ شلالاتُ الدماءِ وتهدُرُ بأصوات لفظ الأنفُس التي كُتبت عليها أن تتوقف. خرج جلحد بفرسان كتيبة السكاري، الكتيبة التي أسماها شيجان على أقوى وأعتى فُرسانه، ذلك الاسم القبيح أطلقَ قديمًا على السُكاري الذين اعتلوا البغال والحمير، واليوم هذا اللقب أصبح رمزًا يُطلق على الرجال الذين يركبون أصل الخيول، ويحملون

أكفانهم على رؤوسهم، ويلقون وجوههم بعصايات الموت الأحمر. فهم كالنهر الجارف، لا يعرف الرجوع ولا التقهقر، فينتشرون كما تنتشر خيوط الماء الرفيعة من جنبات الأنهار بحثاً عن آخذة تُرابٍ يستقرون وينتهون فيها. وما هو جلد يعتلي جواده ويطلق العنان له لئيسبق الريح، وهو يتحدث إلى نفسه: كم أكره غموضك يا شيحان، لن تكون أكرم مني يوماً، فإن قدمت ولداً فيها أنا أقدم ثلاثهم، فلا يموت ابنك وحيداً، بل نُكرمه ونموث معه. انتظري أيها الليث، انتظري أيها الأهوج فإني قادمٌ إلى حتفي قبل حتفك.

يومٌ مضطربٌ أيضاً أصبح على مدينة الحرجف، وما زال سادتها مجتمعين في قاعة القضاء بمجلس المدينة، ليعزموا أمرهم اليوم فيما يجب عليهم القيام به، ورغم أنهم أخذوا كفايتهم في التفكير؛ فإن أفكارهم كانت متناقضة ومُتضاربة. لم يكن زيد بن عياد في تلك الجلسة، بل كان في الطابق السفلي من المجلس، يتحدث مع أصهب وأولاده بعد أن استأذن من الجاسم أن يقوم بذلك. وظل الجميع يتبادلون أفكارهم حتى رجع إليهم زيد، وجلس في مكانه.

أوس: هاه يا زيد، طال غيابك فيماذا رجعت؟

زيد: هل توصلتم أنتم لقرار؟

الجاسم: أي قرار نصل إليه! أخذتنا الأفكارُ شرقاً وغرباً، ولم نبرح مكاننا.

العراف: تكلم أنت يا زيد، فقد اختلفت آراؤنا.

زيد: إنَّ عندي سؤالاً أودَّ إجابةً عليه. أنت يا شهاب، وأنت يا ثابت، هل أنتما على

يقينٍ بأن لؤي بن أصهب هو من نقل للوِياص خبر دخول شيحان إلى الحرجف!

نفي ثابت بن سلمان أن يكون مُتأكدًا من تلك المعلومة، ثمَّ نظر إلى شهاب وطلب رأيه، فأجاب شهاب مُتردداً: إذن من يكون؟ ألم يعترف لؤي بخيانتة أمام أهل الحرجف كلهم! لقد كان في مدينة العصوف قبل أن ندخلها، وشاهدتُ نظراته الفرحة بمقتل رجالنا على باب القصر، ولم يعترضه أحدٌ من جُند الوِياص مُطلقاً.



زيد: لقد أقسم لؤي أنّ الوَبَاصَ كان يعلمُ عن أمر شيحان قبل أن يُخبره، فهو يعترفُ بالخيانة؛ لكنه ينفي أن يكون أوّل من نقلَ الخبر إلى الوَبَاصِ.

أوس: وهل تُصدّق ذلك الكاذب اللئيم؟ ومن سيكون قد سبقه إلى الوَبَاصِ؟

زيد: نعم أُصدّقه، اعترفَ لؤي أنّ جُنْد الوَبَاصِ أوْشكوا أن يأسروه على باب القصر، لولا أنّ الوزير شامان صاح بهم وأمرهم أن يسمحوا له بالدخول.

نعمان: وماذا يعني هذا؟ من أين علِمَ الوَبَاصُ بأمر شيحان إذن؟

الجاسم: قطعاً له أعيُنٌ في مدينة الجوازِل.

ثابت: أيعقل أن الخبر تسرّب من مدينة الجوازِل إلى الوَبَاصِ، قبل أن ينقله لؤي بن

أصهب!

العراف: رُبما كان شيحان من أرسلَ إلى الوَبَاصِ بأنّه أتِ إلينا للتحالف.

زيد: أحسنتم، فربما أنّ شيحان من أرسل بطريقَةٍ غير مُباشرة إلى الوَبَاصِ، أو أنّ

عيناً للوَبَاصِ في مدينة الجوازِل، أو..

صمت زيد، فسأله أوس: أو ماذا يا زيد؟ ماذا يدورُ في رأسك؟

زيد: أو يكونُ بيننا خائنٌ لا نعرفه!.

أصيب الجميعُ بالذهول، من سيكون هذا الخائن الذي يتحدّث عنه زيد! أصهب

وولده الآن في السجن، وسعد بن يحيى ما هو إلا تابعٌ لأصهب. صاح الجميعُ بزيد أن

يُوزَن كلامه، ولا يُلقَى الحبرة والشكّ في صدورهم. وصمت زيد قليلاً ثم قال: أظنّ أنّ بيننا

خائنًا كبيرًا لم يُكشف بعد.

الجاسم بغضب: ماذا تقصدُ يا زيد؟ وما أدراك أنّ هناك خائناً بيننا غير أصهب أو

سعد!

زيد: هل تعتقدون أنّ الوَبَاصِ بمكره، ووزيره شامان بدهائه، يعتمدان على خائني

بمثل غياب أصهب أو سعد؟ إنّما كانا طُعماً رمَوْهما بوجوهنا، حتى يحميا الخائن الأكبر

ويحجبانه عن أنظارنا فلا يكشف. وهل حقًا تظنون أن الوياص يُزوّج ابنته هند من سري بن أصهب؟

العراف بابتسامةٍ ماكرة: تَبَّأ لك يا زيد، ما أفضع عقلك اللبيب. بمن تشكُّ إذن؟  
زيد: لا أدري من هو، لكني أعلم صفاته.

ثابت: وكيف هذا يا زيد؟

زيد وكأنه يتصوّر رجلاً بمُخيلته: إنّه أحدُ رجالنا الأوفياء والأخيار، كريمُ الخصال أمينٌ في معاملته، ذكيٌّ بحيث لا يؤخذُ عليه مأخذ، يكسبُ ودَّ الناسِ جميعًا ولا يخسرُ أحدهم، فليس له أعداء إلا وجهه الآخر الذي يُخفيه.

أوس: إنَّ هذه الصفاتُ تنطبقُ على الكثير منّا، فكيف سنعرفه؟

زيد: لن نعرفه الآن، سنكشِفُه الأيام حين يقع بسوء عمله. ولكن علينا الحذر، وحبّذا أنّها الجاسم أن تجعل التشديد في الحراسة يضمُّ الجميع، فلا يُغادرُ أيُّ شخصٍ المدينة إلا بالرجوع لك أنت وحدك، حتى نحن الحاضرين أمامك.

أذهل الجميع بكلام زيدٍ، ففعلًا لا يُمكن للوياص أن يربطَ نفسه بمُصاهرةٍ مع أصهب، فما جعله إلا إمعةً عنده، وليس الوياص من يجعل مُلكه مرهونًا بمثله. أطال الجميع في هذا الشأن ثمَّ قرّروا أن يتجاوزوه وهم الآن بخضّم شأنٍ أعظم وأمرّ، فرجعوا إلى سبب اجتماعهم وأصله.

أوس: ماذا علينا أن نفعل، فالوقتُ يُداهمنا.

الجاسم: لن نخرُج من مجلسنا هذا إلا وقد قرّرنا شيئًا نفعله.

نعمان: هل سننتظر سهيل حتى يرجع من مدينة الجواز؟

ثابت: وماذا عن الذين أرسلناهم إلى باقي المدن والقبائل، لا تقولوا إنكم ستنتظروهم

أيضًا؟

العراف: هل ستبقون هكذا تتخبّطون؟ إني كهلٌ على أن أُطبقَ جلساتكم الطويلة.

زيد: علينا أن نضمّ شيحان لجلستنا.

صاح الجميع بزيدٍ عجبًا إذ لم يتفقوا بينهم على شيءٍ بعد، فهض زيد ومشى بين الحاضرين وهم ينتظرونه أن يُدلي بدلوه المملوء بالمفاجآت الغريبة، والأفكار الجديدة، فقال: هل تتفقون معي الآن أننا أمام خيارين لا ثالثَ لهُما: أن نسلّم شيحان، أو نُقاتل الوَبَاصَ مُضحينَ بالغازي ومصيره في أيادي الوَبَاصِ بن ضامر.

الجاسم: ولم لا يكون هناك خيارٌ ثالث؟

زيد: هاته يا أبا قيس.

الجاسم: نرسل للوَبَاصِ نسالهُ عما يُريد، ونحتالُ عليه حتى يُطلق سراحَ الغازي.

زيد: وهل تظنُّ أن الوَبَاصَ أحقَّ حتى يثق بنا الآن! لقد قرّر أن يحتفظ بالغازي ولا أحسبه يُطلق سراحه أبدًا، حتى لو قتلنا شيحان أو سلّمناه له. أتظنُّ أنّها الجاسم أنّ الغازي إن خرج سالمًا سينسى ما فعله الوَبَاصُ به؟

الجاسم: لا أظنّ الغازي سيسكتُ عما فعله الوَبَاصُ أبدًا.

زيد: وماذا سيفعل؟ هل سيُحارب الوَبَاصَ إن خرج!

الجاسم: بالطبع، سيُعلنُ الحرب على الوَبَاصِ، وسنقاتله جميعًا.

زيد: وحدنا أم الجوازِلُ معنا؟

تردّد الجاسم واحتار: وحدنا إن لم يقفوا معنا.

زيد: وماذا سيفعل جيش الجوازِلِ إن قُتل شيحان من الوَبَاصِ، أو قتلناه نحن؟

العراف: سوف يُقاتلوننا ويثأرون لزعيمهم شيحان. إننا بين المطرقة والسندان يا قوم، إنّه خيارٌ صعب.

أوس: إذن هي الحربُ في كلتا الحالتين.

صمت زيد وهو ما يزال واقفًا بين الجميع في وسط قاعة القضاء، ثمّ قال: نعم إنها الحرب يا سادة، لكن مع من؟ وكيف، ومتى؟ هنا السؤال، ويجب أن نُقرر ذلك بحكمةٍ

بالغة. لكن اعلّموا الآن، أن الوَباص ينتظرُ أخبارًا من مدينتنا، سواءً من أصهب أم من الخائن الذي لا ندري من هو، وبالتأكيد فإنَّ له عينًا في مدينة الجوازل أيضًا. يُخبره عما وصلت إليه الأمور. فلا أرى فائدةً بانتظار من أرسلناهم إلى المدن والقبائل ينظرون فهم، فقد سبقنا الوَباص بولائهم منذ عقود. وأمّا أن ننتظر سهيل بن عياش بما يرجع، فلن يُفيدنا بشيء، فما سيرجعُ به إن كانت الأبارُ موجودة أم لا، ولا أظنَّ شيحان كذَّبَ بما قال وقد عقد نيّته على قتال الوَباص. أمّا عن الوَباص، فإنَّ أعلنا الحرب ضده مع شيحان، فلن يَقتلُ الغازي؛ بل سيُبقيه رهنًا على الحرب إن قُلبت موازينها ضده، ويكسبه ورقةً مُفاوضةً يُفاوض بها إذا لُزم بذلك.

الجاسم: وماذا ترى يا زيد؟

زيد: أنتم ماذا ترون؟ هل تُريدون قتال الوَباص الآن؟ أم نبيع شيحان له، ونخسر جيش الجوازل؟ وأنا على يقينٍ أنّ الوَباص لن يتركُ الغازي يخرجُ حيًّا في الأحوال كلها. نحنُ بحاجة ماسّة إلى شيحان في الأحوال كلها.

ترك زيد الجميع في متاهةٍ مُظلمة، بعد أن أعطاهم ملخصًا وافيًا لكل الخيارات المتاحة أمامهم. وجعل قرارهم بأيديهم، وعلم الجاسم أن فرصته للقاء أخيه الغازي حيًّا أصبحت شبه معدومة. فتحسّر بداخله بألمٍ بالغ ضرب وجدانه وأزرى به، غير أنّ احتمال أن يُبقي الوَباص على الغازي ورقةً مُفاوضة، أعطاهُ بصيصَ أملٍ في نجاته. نظر الجميع إلى الجاسم مُنتظرين رأيه في كلام زيد، وقد اقتنعوا به جُملةً وتفصيلًا، فطلبوا الصلحَ مع شيحان، والوقوف مع جيش الجوازل ضد الوَباص، إلا العراف: فقد عدَّ زيارة سهيل بن عياش للجوازل ورؤية الأبار ذات أهميةٍ بالغةٍ في الحرب التي أُوقِدَت نازها، وتحتاجُ إلى إعادة النظر في الوقوف مع الجوازل. وبقي الجاسمُ يعتصرُ آلامه وحيرته، ويشردُّ في الغازي تارةً، وفي شيحان القابع في زنزانته تارةً أُخرى، ثم التفت إلى زيد الداهية الذي لخصَّ له الأفكار، بعبارةٍ قليلةٍ مدروسةٍ بعنايةٍ ودهاءٍ شديد، ثم قال: لقد أُوجِزَت

فأبلغت يا زيد، ولا أرى إلا الوَبَاصَ عدوًّا لنا هذه اللحظة. لقد قاتلنا الجوازِلَ عُمرًا، فما لمسنا فيهم خِسَّةً ولا نذالَّةً كما بَانَ لنا في الوَبَاصِ الذي واليناه وأطعناه دهرًا. ولم يطعننا شيحان بظهرنا قط، بل كان رجلًا في حربيه، وكريمًا مع أسرانا وجرحانا وهم بين قبضته.

الجاسم بحزم: آن لقيد شيحان أن ينكسر ويجلس حُرًّا بيننا. أحضره وفكوا وثاقه.

نعمان: أتريدُ أن تُطلق سراحه؟ هل سندعه يُغادر الحرجف؟

الجاسم: سيكون حُرًّا بيننا ونُكلمه كالأحرار وما يليقُ به مقامه المرموق الذي جعلنا نثق به، ولن ندعه يخرجُ من هنا حتى نستقرَّ معه على عهدٍ قاطع، فإن ارتأيتُم بقاءه، طلبنا منه ذلك بحجَّةِ حمايته من الفتنةِ خارج المجلس.

العراف: والماءُ يا قوم، ماذا ستفعلون بشأنه؟

زيد: سيُجيبُ على ذلك شيحان، ويؤكِّده سهيل عند عودته.

نعمان: وماذا سنقولُ له أيها الجاسم؟ هل نعتزُّ بضعفنا وحاجتنا إليه؟

زيد: لسنا ضعافًا يا نعمان. أما عن حاجتنا إليه، فقد علم عنها قبل أن يأتينا. لن نقولُ أمامه إلا الصدق وعليه أن يصدِّقنا، فنحنُ في كَفَّةٍ واحدةٍ بالكاد نُعادل الوَبَاصَ دون حُلْفائه.

صدر الأمر بإحضار شيحان إلى المجلس حُرًّا كريمًا، وذهب زيد ونعمان إلى الحراس وأمرهم أن يُجَهِّزوا له غُرْفَةً فاخرةً ليُقيمَ بها، كما طلبوا من الخدم تحضير أطيب الفاكهة وأعذب الشراب ويُقدِّموا له. ونزل أوس بنفسه إلى شيحان ففكَّ قيده وأخرجه من الزنزانة والدهشةُ تعلو وجهه، ومشى بجانبه إلى أن وصلا قاعة القضاء، فشهد الرجال ينتظرونه وعيونهم جميعهم عليه وينظرون ليديه ورجليه. وقف شيحان قليلاً ولم يجد الكرسي الذي كان يجلسُ عليه في مكانه المعهود، فنادى عليه الجاسم وطلب منه أن يجلس أينما يشاء فاختر زاويةً تُقابلهم وجلس فيها، واطمأنَّ الجاسم عن جراحه وعلم أنَّها بخير.

صمت الجاسم قليلاً ثم قال: لست أسيرنا بعد الآن يا شيحان. إنّما نجلس معك  
لننظر في كلامك ونواياك.

شيحان: وما جدّ عندكم؟ وأين الغازي؟ هل أمركم بشيء أم ماذا؟

الجاسم: الغازي في سجن الوِباص، هو وابنه قصي وربيعة بن مالك، وقد قتل جند  
العصوف رجالنا الذين كانوا معهم.

شيحان بنقّة عمياء: توقّعتُ ذلك.

أوس: ماذا توقّعت؟ هل علمتَ عن نيّة الوِباص بما أقدم عليه؟

شيحان: توقّعتُ أن يحتاط الوِباص على أحد رأسينا أنا والغازي. هل أتحدث أمام

الجميع أيها الجاسم؟

زيد: تحدّث فكلُّنا هنا ثقة. كيف توقّعت ذلك؟

شيحان: أنا من أرسل إلى الوِباص ليعلم عن غايتي في التحالف معكم.

العراف بدهشة: أيها الثعلب، لقد توقّعتُ ذلك.

الجاسم بغضب: ولماذا فعلت هذا يا شيحان، قد حسبتناك صادقاً لا تكذب.

شيحان: وما يمنعني عن الكذب وقد حللتم القيد عني! أنا كما حسبت أيها الجاسم،

إنّما أحرثُ عنكم هذا الأمر عامداً حتى ينتهي الشكّ فيكم ويستقر رأيكم. أما وإن وصلتم

إلى أن تُخلوا سبيلي، فقد أوليتموني ثقّتكم، ولستُ أخونُ عهداً ولا أغدر بمن يثقُ بي.

ثابت: كيف تمدّ لنا يد الصلح وتلقني بسيدنا في الهلكة!

نعمان: ولماذا أرسلت إلى الوِباص، وكيف فعلت هذا؟

شيحان: أرسلتُ إلى الوِباص عن طريق نهلان الذي حسبهُ عيناً له في الجواز، ولماذا

أرسلتُ له وكيف فعلتُ هذا؟ سأخبركم: ألم يكن الوِباص يسعى لتنجية الغازي عن

السيادة وأنتم لا تعلمون؟ وهل كنتم ستقتنعون بخيانتها ومكره دون أن يُسجن الغازي؟

ولو كنتُ عندكم تحت رحمة الغازي وهو هنا، فماذا تظنون أنه سيفعل بي قبل أن يكتشف وتكتشفون خسة وغدر الوَبَاصِ؟

صمت شيحان تاركًا الجميع تائهين باستفساراته، وأظهر حيلته الذكيّة، فكشف غدر الوَبَاصِ لهم، وضمّنَ ألا يكون الغازي طليقًا، فيخطئ مرةً أخرى بحقه، فيسجنه أو يقتله أو يسلمه إلى الوَبَاصِ. وعلم الجميع أن شيحان لم يجد وسيلةً للوقوف بوجه الوَبَاصِ وكشف القناع عن وجهه إلا بما أقدم عليه، فكان صمتهم إذعانًا بأنه على حق، وإشارةً لقبولهم التحالف معه ضد الوَبَاصِ، الشيطان الأكبر.

الجاسم (بانفعال): لكنّ حُطَّتْك يا شيحان أودت بأن يقع الغازي تحت رحمة الوَبَاصِ، وراح ضحيّتها بعضُ رجالنا.

شيحان: ألم يذهب منا رجالٌ كثر ضحيّة خنوعنا للوَبَاصِ! ألم نخسر أبناءنا وتجارتنا وعُمرنا ونحنُ نتحاربُ فيما بيننا! ماذا استفدنا نحن، وماذا استفاد الوَبَاصِ من مُصابنا! لقد كُنْتُ أمتنكم أكثر من كُلِّ ما وُجِدَ على الأرض، لكني الآن أرى أنكم مثلنا، نُقاتلُ بلا هدفٍ ولا نتيجةٍ محسومةٍ، ولن تنتهي حربنا أبدًا حتى نهلك وننتشردم ونُصبحُ قُطاعَ طرق، بينما تزدادُ هيبةُ الوَبَاصِ وسطوته يومًا بعد يوم، ويزدادُ أتباعه قوّةً وعددًا.

كان كلام شيحان واضحًا صريحًا، فما أخفى مشاعره وخُططه، وبدأ معهم بصديق القول والنّيّة. وبعدها تبادل معهم المواقف القديمة والجروح العميقة، فاستعرضوا حرويم التي خاضوها، وكشف لهم شيحان عن عيوبهم التي عرفها، وكشفوا له عن نقاط ضعفه، وأخبروه بكل ما وصل إليهم من أخبار عن الوَبَاصِ، وعن أصهب وأبنائه وسجنهم، وخبروه عن سهيل بن عياش، أنه ذهب للأبار مع وفدٍ ليتحرى صدقه، ويتمخّصوا أهل الجوازل ورجالها ويتبيّنوا نواياهم، وأنهم أرسلوا أعينًا لجميع المدن والقبائل لينظروا في أخبارها. أسرّ شيحان بشكّه القاطع بأنّ خائناً أعتى وأقوى من أصهب يخونهم مع العصوف، فالوَبَاصِ لا يُمكن أن ينوي الخلاص من الغازي ويُجَلِّ

أصهب مكانه، فما هو إلا فتنةٌ زرعتها بينهم، والوبّاص يبيحثُ عن الأصلح في نظره، وذلك الأصلح لن يكون إلا داهيةً مُطيعًا له طاعةً عمياء. وأيد زيد شكوك شيحان ووعده أن يكشف ذلك الخائن بأسرع وقت. وأخبره أنهم منعوا أن يغادر أحدًا المدينة إلا بإذن الجاسم.

وبعد المكاشفة الصادقة بين شيحان وسادة الحرجف، نظر زيدٌ إلى الجاسم وغمزه، ففهم معنى تلك الإشارة، فنهض ومشى باتجاه شيحان بفخرٍ واعتزاز، ونهض شيحان أمامه، فمدّ الجاسم ذراعيه وحضنه، ثم انفصل عنه وقال: أعهذك على الوفاء، وأعهذك إلا أخونك أو أخونك أهلك ما حييت، وأنت على الرحب والسعة بيننا ضيفًا عزيزًا وأخًا كريمًا.

دمعت أعينُ الرجال حُزنًا على ما فعلوه بأنفسهم وقومهم، وفرحًا بما وصلوا إليه من صلحٍ بعد سنين الحرب الطويلة، وامتزجت مشاعرهم بين الأمل والخوف بعد أن توخّدت نواياهم لحرب العصفوف. وقام أوس بمصافحة شيحان، ثم ضمّه إلى صدره بشدة دون أن يتكلّم، وعيناه قد اغرورقتا بالدموع، وبعدها توالى أسياد الحرجف على مُصافحة شيحان واحدًا واحدًا، إلا العراف، فقد بقي في مكانه، فذهب إليه شيحان، ثم سلّم عليه العراف بطرف يده فقط بسلامٍ باردٍ ظهرًا أمام الجميع. وبعد إتمام الصلح وأخذ الموثيق والعهود، خيّر الجاسم شيحان بين الذهاب إلى مدينته وأهله وبين البقاء معهم، فأصرّ أن يبقى عندهم وطلب من الجاسم أن يُرسل رسولًا إلى الجوازِل ليُطلعهم على ما جدّ بينهم. واختار الجاسم ابنه قيس، وأمره أن يخرج إلى الجوازِل في الحال ليُبشّرهم بالصلح، ويُخبرهم أنّ شيحان مُعزّزٌ مُكرّم في الحرجف، ويطلبُ منهم كتم التحالف حتى يجتمعوا مع شيحان. فانطلق قيس من فورهِ وأخذ معه بعض الرجال إلى مدينة الجوازِل.



زيد مازحًا: هاه يا شيحان، لماذا تُصبرُ على البقاء بيننا! هل بقي عندك شيءٌ تُخفيه  
عنا؟

شيحان: ما ظل في القلبِ إلا الإخلاص والوفاء لكم. إلا أنني سأنتظرُ الغازي.

جحظت أعينُ الموجودين، وصاح الجاسم: الغازي، وكيف له أن يأتي؟

صمت شيحان قليلاً، ثم قال: إن كُنْتُ سببًا في أسر الغازي، فقد أوكلتُ ابني الليث  
أن يُنقذه من أسره، أو يهلك قبله وهو يُحاولُ إنقاذه.

صاح نعمان: وكيف هذا؟ لا أحد يقدر على اقتحام أسوار العصوف أو قصر

الوَبَاصُ!

شيحان: لن يقتحمها الليث، بل سيدخلها خفيةً، وهو الآن ينتظرُ الوقتَ المناسب  
لذلك.

زيد (بدهشةٍ كبيرة): وكيف سيدخلها؟

كشَف شيحان سرَّ السرداب، وسرَّ نهْلان الذي اكتشفه، وما كان يفعلُ ضامر  
والوَبَاصُ بعمّالهم. فزاد حقد الحاضرين على الوَبَاصُ وخسّته هو ووالده، ووزيره شامان،  
وأثاردهشتهم علمُ شيحان بذلك السرداب طوال تلك السنين. فأخبرهم أنه أخفى هذا  
السر حتى تمضي ثلاثُ أيامٍ وها قد مضت، وسيقوم الليث بما أوكل إليه الليلة، فقد علم  
مكان باب السرداب خارج مدينة العصوف. عجبَ الجميع وأعجبوا بما سمعوا وبتضحية  
شيحان بولده ليُنقذ الغازي من سجنه، وتمنّوا أن يُفلح الليث في مقصده ومُخاطرته  
الجسيمة، رغم شكّهم بنجاحها، فلمس شيحان ذلك بأنفسهم، وهز رأسه نافيًا أن يفشل  
ابنُه الليثُ بانتزاع الغازي من بين برائن الوَبَاصُ، ودعا بنفسه ألا يخسر ولده وقرّة عينه،  
فيثور ويحصدُ جُند الوَبَاصُ واحدًا واحدًا.

شيحان: بعد هذه الليلة، وأيًا كانت النتائج، سيُصبِحُ الوَبَاصُ خائفًا، وسيطوفُ على  
كُلّ يتابع المياها فيقطعها، وسيعلم أن عرشه بدأ يهتزُّ تحت قدميه، وأنّ التحالف بيننا قد

تم، وسيعلم أن ابني الليث لن يسعى لإنقاذ الغازي إلا لأننا أخلصنا في نوايانا وعقدنا العزم على الإطاحة به.

زيد: أتمنى أن يُفلح الليث فيما عزم عليه، وإنها لضربة قاضية لو نجح.

العراف: ألن تُخبرنا عن الماء الآن يا شيحان؟

نظر شيحان إلى العراف كمن يكظم غيظه، وقال: رُبما لن يكون لنا الوقت للكلام عنه يا ياقوت، فربما يُجنّ الوَباص ويبدأُ حربه علينا غدًا. دعونا ننظر بما سيكشفُ عنه النهار القادم، وعلى ضوءه سوف نعرف من أين نبدأ.

زيد: وهل قومك مُجهزون لغدر الوَباص؟

شيحان: بالطبع سيكونون كذلك، فقد علموا أيُّ مرحلة أصبحنا فيها.

نعمان: وماذا عنا نحن اليوم؟ ألن نخطط لشيء! ألم نتدارس أمر الحرب؟

شيحان: بلى سنفعل، سنحسب حساب الجيوش ونعددهم. ونرسم خطة في حال تم إنقاذ الغازي أم لا، وسنضع الخُطط لحساب جيش الوَباص إن خرج به علينا، أو حاربناه على أسوار مدينته العصوف.

دخل الخدم حاملين أطباقًا من الفاكهة، ووزّعوها أمام الموجودين ثم انصرفوا، وتابع شيحان حديثه: إن لم يُفلح الليث بما يسعى إليه! فسيقضُ مضجع الوَباص ويستشري الخوف في مفاصله، وعلينا أن نتجهز لردة فعله، فسيقطع الماء عنكم بلا شك، وسيثورُ ثورة ما ثارها قط، وسيجمعُ كل أتباعه حوله، ولن يُوقرُ جهدًا للقضاء علينا جميعًا. علينا أن نُفكر ونحسب حساباتنا جيدًا، لكل الاحتمالات التي سيلجأ إليها، فلن يتوانى عن ضربنا ببعضنا وسيمكر أشد المكر ليفتن بيننا ويُفرقنا، ويجب أن يكون همنا واحدًا لا يقبلُ التجزئة، ألا وهو الإطاحة بالوَباص وبكل أذنابه، وجعل منطقة رأس الخيل أرضًا للخير كما يجب أن تكون.

ترك شيحان الحديث لأسياد الجوازل لِيُعَقَّبُوا على كلامه، وتناول تُفَاحَةً وبدأ بقضمها، فكان تعقيهم على كلامه أن الوَبَاصُ لن يتمكن أبداً من زعزعة الثقة بينهم، ولن يجد أمامه إلا صَفًّا واحداً دون أية شقوق. وإن كان ماكرًا فقد انتهى مكره، وإن كان قوياً فليُرهِم قوته، وهو لم يُجَرِّب أن يُقاتل بجيشه معهم قط، فهو يجهل الكثير عنهم، وسيُفاجأ بما لا يتوقَّعه. والمهم الآن ترتيب الأمور للحرب والإعداد لها ولتجهيزاتها.

قال زيد: إن كانت الماء ما يعتمدُ عليه الوَبَاصُ، فسندُظَرُّ أن نهجمَ على مدينته المنيعه، وأسواره الحصينة. ولن يتحرك بجيشه أبداً تجاهنا، فنحن من سيضطُرُّ إلى التعجّل بالحرب وليس هو.

شيحان وهو يبلغ ما في حلقه: سيخرُج الوَبَاصُ من جحره رغماً عنه، وسيكون هو أكثرُ عِجالَةً منا للحرب و...

حاول شيحان أن يُتابع حديثه ولم يستطع، وكأنَّ لُقمةً غصَّت في حلقه، فبدأ يُحشِرُجُ مُحاولاً الكلام، وأخذت أنفاسُهُ تخرُجُ بصعوبة، واتسعت حدقتا عينيه وازرقَّ لون وجهه، فألقى التُّفَاحَةَ التي كان يأكلها من يده، فهرع أوسُّ له بكأسِ ماءٍ، فدفعه شيحان بيده وأبعده عنه بغضبٍ شديد، ثم نهض من مقعده ووضع يدهُ على بطنه، وأخذَ ينظُرُ إلى الجميع، وصاح: إنَّه سُمُّ يا أهل الحرجف، لقد سمَّمتموني.. وسقط في أرضه.

ألقى الجميع بما في أيديهم وما أمامهم من فاكهة، وكان ثابت ونعمان قد أكلا منها أيضاً فخافا أعظمَ خوف، وركض الباقون إلى شيحان، وقد بدأ الزبدُ يخرُجُ من فمه، فصعق الجاسم ورفع رأس شيحان وضُمَّهُ إليه، وصرخ صرخةً عاليةً: من أين السُّمُّ؟ من الخائن؟ شيحان. شيحان. بُوسًا لنا.

خرج شهاب لإحضار الطبيب سوار على الفور، وأغلقت أبواب المجلس، وجمع الخدم والحراس الذين كانوا داخل المجلس كلهم وتم سجنهم، ولم يظهر إلا على شيحان علامات التسمم، رغم أن ثابت ونعمان تناولا بعض الفاكهة.

رجع شهاب راكضاً لاهتاً فاقتحم المجلس مع سوار، ودخلا على شيحان وهو مُمددٌ على الأرض، فرفعه سوار وأسنده وجعل الجاسم يُمسكه، بعد أن عاين أنفاسه، وبدأ ينزغ عنه ملبسه، وطلب ماءً باردًا في الحال، ثم أخرج من حقيبته زيتًا وملحًا على عجلٍ فوضعهما في وعاءٍ وخلطهما مع القليل من الماء، ثم بدأ بلطم شيحان على وجهه علّه يستفيق، وأمسك أوس بشيحان وأخذ يهز رأسه حتى فتحت عيناه قليلًا، وعلى الفور أسقى سوار كل ما في الوعاء ووضعه في فم شيحان. أمر سوار أوس والجاسم ألا يدعا شيحان يغيب عن الوعي، فعليه أن يُخرج ما في معدته، فظلّا يحاولان ذلك للحظاتٍ مرتّ ببطءٍ شديد حتى استفرغ شيحان. وجاء الماء البارد فصبّه سوار عليه حتى يُبطئ من سريان الدم بعروقه، ويؤخر وصول السم إلى قلبه. أعاد سوار إسقاء شيحان الزيت والملح حتى استفرغ أكثر من مرة، ثم أمسك بالتفاحة التي كان يتناولها، فشم رائحتها، وعرف نوع السم الذي فيها، وقد كان سمًا قاتلاً وفتاكًا، فالتفت سوار إلى الجاسم وطلب منه أن ينقلوا شيحان إلى غرفته حتى يتابعه فيها، مُتمنيًا أن يكون السم قد خرج منه. فحملوه ووضعه بغرفته، ودعوا الآلهة أن تُنجيه من سمّه وتُنجمهم من كربهم.

## الفصل السادس

### العاصفة

كانت ربحانة في مجلسها لا تتوقفُ عن البكاء أبداً، فيها قد مضى ابها الليث إلى درب الهلاك الذي لا رجعة منه، ولم يُخَفَّفَ عنها كلام مالك شيئاً، إذ أخبرها بأنَّ شيحان بخير، وأنَّ السَّلْمَ بينهم وبين الحرجف سيتمُّ قريباً، وأنَّ الليث فارسٌ كوالده لن يعودَ إلا سالماً مُعافى، فظنَّ قلبها مُشْتَعِلاً أكثر مما اشتعل سابقاً، ولم تُفْلِحِ النساء في مواساتها أبداً، وكُنَّ في شدَّةِ بؤسهنَّ أيضاً يُعَانِينَ ما تعانیه. وريم أيضاً هامت على وجهها لا تتكلم ولا تسمعُ لها إلا أنفاسٌ مُتَقَطَّعةٌ مُنفردة، فقد مضى والدها جليحد وإخوانها الثلاثة أيضاً للحاق بزوجها الليث، وظلَّ المجلس كما هو عليه حتى صاحت بدور صياحاً مُفْرَعاً، فذهلت شروق وباقي النساء من صياحها المفاجئ، فقد كانت قبل لحظاتٍ قليلة نواسي ربحانة وريم وتدعوهنَّ للصبر والثبات.

حاولت شروق أن تفهم سببَ بُكاءِ أمها الغريب، فما فهمت شيئاً غير حسراتها على شيحان، ولم تستطع النساء إسكاتهما عن الصُّراخ والنحيب الشديد الذي أقلقهنَّ جميعاً، وطال صُراخها كثيراً وكانَّ مسأاً أصابها، فدخل همام ومالك مجلس النساء ولم يقدرا على إسكاتهما أيضاً، ولم يجدا حلاً إلا أن يُحضرا لها عَشْتار، العرافة التي منع شيحان دخولها إلى بيته أبداً، غير أنَّ هذه الحالة كانت استثنائيةً فطلبها على الفور. وبالفعل وصلت عَشْتار بلباسها الغريب، ودخلت على مجلس النساء، وأشعلت البخورَ

وأخذت تُتمتم بكلامٍ غير مفهوم، وكأنها تتكلم بلُغةٍ غير عربية، ثم طلبت من جميع النساء مغادرة الغرفة وقد زادت حالةُ بدور العصبية عند مشاهدتها لها.

مرت دقائق حتى توقّف الصُراخُ، فنادت عَشْتار على النساء وأمرتهنَّ أن يحملن بدور إلى عُرفتها وهي تغطّ في نومٍ عميق. قلقت شروق على أمها وسألت عَشْتار عما أصابها، فطمأنتها أنها بخير وتحتاجُ إلى الراحة والنوم، وأعطتها بعض البخور، وطلبت منها أن تُشعله كُلَّ يومٍ عند رأسها. فتحت بدور عينها والتفتت إلى النساء حولها ورمقتهنَّ بنظرةٍ مُخيفةٍ ألقتهنَّ، وتمتمت ببعض الكلام ثم غطّت في النوم، فانصرفت عَشْتار من مجلسهن ووقفت مع همام عند عتبة بيت شيحان. وسألها عن بدور وحالتها، فأجابته أنها ليست خائفة عليها، بل على شيحان!. فسأل همام عن شيحان وما داعي الخوف عليه؟! فأجابت عَشْتار بأن مكروهاً قد وقع له، وأن بدور شاهدهته مُلقى على الأرض بين أسياذ مدينة الحرجف. خارت قوى همام الجسدية والعقلية أمام ما سمعه، فأعطى عَشْتار مالا وأغلق الباب خلفها دون أن يشكرها، ثم رجع وجلس شاحب الوجه ولم يتكلم بشيء في مجلس الرجال، فسأله الحاضرون عن بدور، فأخبرهم أنها بخير وعلى ما يُرام، وعجب الحاضرون جميعاً من وجهه العابس، ومن قُدرة عَشْتار على تهدئة بدور وإسكاتها بعد أن وصل عويلها إلى أبعد حدٍ يُمكن سماعه.

قال زهير: حريٌّ بنا ألا يعلم شيحان أنّ عَشْتار دخلت بيته.

ضرار (صارحاً): لا تُخبره أنت بذلك يا زُهير، فقط أطبق فمك عن الكلام إن

شاهدته.

زهير: أنا أعلم لماذا يكره شيحان عَشْتار. لقد تنبأت أن يموت مغدوراً وبعيداً عن

أهله.

همام (بغضب): اصمت يا زهير، لا أريدُ التحدّث بهذا الموضوع أبداً.

مالك: ما بك يا همام؟ هل ذكرت عَشْتار ما يُغضبُك؟ أنت لست على طبيعتك، تحدّث.

همام: تلك المرأة تُهرطق، هل تُصدّقون أكاذيبها؟ لقد قالت مرّةً أنّ شيحان سيموت وحيدًا وتأكله الضواري.

مالك: فماذا قالت اليوم؟

همام: سألتها عن بدور، فقالت أنّ المشكلة ليست فيها، بل بشيحان! وهي تقول أنّ بدور شاهدهته مُلقَى على الأرض بين أسياذ الحرجف.

ضرار: ما أقبحها من امرأة، لا يلامُ شيحان بكرها ومقتها، أولم يُطمئننا سهيل بن عياش عنه!

مالك: إن بدور تحلم وتخاف وهيأ لها الكثير من الأفكار السوداء في مدينة الحرجف، وقد استغلّت عَشْتار ذلك لتنفث سمومها وشعوذتها في أنفسنا.

نفي الجميعُ كلامَ عَشْتار كرهاً فيها وبما قالت، وقد تسرّب إليهم الشكُّ في قولها فأخفوه في أنفسهم، وأيُّ قلبي أمرٌ من أن توسوس أنفسهم بغدر أسياذ الحرجف بشيحان وقد تراكمت عليهم المصائب!.

نهلان: أيها السادة، هل لي أن أسألكم عن الرسالة التي أرسلناها مع ابي عازار. لقد ذكرتم أنكم تحالفتم مع الحرجف بها، فلم تكشفتم عن ذلك؟

ضحك ضرار: وما فائدة ذلك الخبر إن كان الوَبَاصُ سيعلم عنه الليلة قطعاً! فلن يدخل الليث ذلك السرداب إلا ليُنقذ الغازي، وماذا سيفهم الوَبَاصُ من ذلك إلا تضحيتنا من أجل التحالف! فإن أفلح الليث بمقصده فإن الغازي سيخرجُ ناقماً على الوَبَاصُ، وراغباً في التحالف معنا أكثر من شيحان، وإن لم يفلح الليث ولا أمل ذلك، فسيعلم الوَبَاصُ أنّ الخيانة بلغت، وأنّ أسراره مكشوفة وسردابه مقبور، فلا يأمن من عنده حتى يضمن عداوتنا نحن والحرجف.

أدرك نهلان أنّ الرسالة احتوت على معلوماتٍ صحيحةٍ لحماية لابنه عازار ليس إلاً، وأنّ أمر التحالف المكتوب داخل الرسالة، هو تحليلٌ واضحٌ لما سيُسفرُ عنه اقتحام الليث لأسوار قصر الوَباص. وأيُّ مُصيبَةٍ سيقعُ بها الوَباص، حين يعلمُ أنّ السنين التي طالت في حفر ذلك السرداب والحرص على جعله سرّاً، باءت بالفشل، فلن تحملَ عندهُ إلا معنى واحداً وهو الخيانة، وبمن سيشكُّ الوَباص ساعتها! قطعاً لن يشكُّ إلا بأقرب الناس إليه وأوفاهم عنده.

سأل مالك: قُل لي يا نهلان، هل يُمكن دخول السرداب والخروج منه بسهولة؟  
 نهلان: لستُ متأكداً من ذلك، لكنّ الليث أخذَ معه كُل ما قد يحتاجُه ويُعينُه على دخول السرداب والخروج منه.

مالك: لستُ أخشى باب السرداب الذي يوجد خارج المدينة، بل أفكرُ كيفَ له أن يخرجَ من الطرف الذي يوجد داخل القصر، ألم نُخبرنا أنّ البئرَ لا يخلو من الماء؟!  
 نهلان: بلى، لكنّ فُوهة السرداب ستكونُ أعلى من الماء، وإلا فكيفَ سهرِبُ الوَباص وأهلُه عن طريقه!

ضرار: وهل يستطيعُ الليث أن يخرجَ من فُتحة السرداب لأعلى البئرِ دون أن يلاحظه أحد؟

نهلان: هذه ترجعُ لمهارة الليث وقوّته، وأعتقدُ أنّ الليث قادرٌ عليها.  
 بقي الرجالُ يتبادلون التوقُّعات والنتائج المترتبة عليها، حتى أمرَ ضرار الحُرّاس أن يُنادوا برجال الجوازِل ليجتمعوا في مجلس المدينة. وخرج الجميع من بيت شيحان واجتمعوا برجال الجوازِل وقادة كتائب وفرق الجيش، وتولّى ضرار إدارة المجلس بغياب الليث وغياب جلد، فتحدّثَ عن قطع الوَباص للماء وطلب الاقتصاد به ما أمكن، ثمّ شرحَ للجميع ما آلت إليه الأحداث، وأعلن عن دخول مرحلة الحرب، فأمرَ بالتجهّز لأي ردّ فعلٍ من الوَباص، ونشرِ الأعين لترقبَ الطرُق ومدينة العصفوف، ومنعَ دخول وخروج أحدٍ



من المدينة إلا بإذن مجلس الحرب. خرجت بعضُ السرايا لترتقب الطُّرُقَاتِ تحسُّبًا لأيِّ طارئٍ يطرأ عليهم، ومضت ساعاتٌ ورجالُ الجوازِلِ يعملون على نقلِ مواشيهم لمناطق آمنة، وشرعوا يجهزون أنفسهم وأهلهم للحرب، فقاموا بتحضير المُونِ والسلاح وتوزيعها، وتأمين مداخل المدينة كلها؛ لتوسطها المدن المحيطة بها، والتي لا يؤتمنُ جانبها أبدًا.

ومن الحال الذي اعتمر بدور ونساء الجوازِلِ، فقد ازداد قلقُ آرام عمّة سوار وابنتها وداد حين تأخَّرَ سوار بالرجوع إلى البيت، فما علمتا عن سبب ذهابه مع شهاب بالسرعة الملحة التي خرجا فيها. وعبئًا كانت تُحاولُ آرام أن تُبدد مخاوفها على شيحان، وأن تُوقفَ خفقان قلبها المتسارع رغم قناعتها بأنّه في أحسن حالٍ كما أخبرها سوار، فخرجت من بيتها برفقة ابنتها بعد أن نفذَ صبرها، وتوجهت لأحد الباعة في السوق فسألته عن سوار، فأجابها بأنه توجه إلى مجلس الحرجف مُسرعًا مع شهاب بن أوس. هامت آرام بما سمعت، وعلمت أنّ مكروهاً وقع لشيحان، فمشت بخطواتٍ مُتثاقلة وابتنها تمشي بجانبها وتسندُها، ونظرت إلى مجلس الحرجف وهمّت أن تدخله لولا أنّ وداد منعها بقوةٍ وعصرت يدها، فلا تفضحُهما وتفضحُ سوار زوجها، ودعتها للتعقل وظلّت تتوسل إليهما حتى رجعتا إلى بيتهما، فأجهشت آرام بالبكاء ووداد تُحاولُ كتم صياحها وتبكي معها، فهدأت، وظلّ وجهُها شاحبًا، وعيناها جاحظتان كمن طرقت الموتُ قلبه.

وفي مجلس الحرجف كان سوار يضعُ قُمَاشًا باردًا على جسد شيحان، ويضعُ في فمه عسلًا مخلوطًا بأعشابٍ طبيّة عرفها لعلاج السموم، وبينما هو على هذه الحال، دخل زيد والجاسمُ والقلقُ يقطُرُ منهما، فسألوه عن حال شيحان وتعهّدًا أن يُغنياهُ ما عاشَ من حياته إن نجا من السمّ الذي نزل به.

سوار: لستُ أقومُ إلا بواجبي يا سادة، أملُ أن يكون قد بلعَ القليلَ من السمّ في

معدته.

الجاسم: وهل عرفتَ هذا السمّ قبلاً؟

سوار: لقد عرفتُ هذا السمَّ من رائحته، لكني لم أعالج أحدًا منه قبل اليوم. وأنا أجزمُ بأنَّ هذا السمُّ لم يُصنع بهذه المدينة، وليس لعطارٍ فيها أن يعرفه.

زيد باستغراب: وكيف تأكدت من هذا؟

سوار: هذا السمَّ لا يعرفه إلا الملوك والأمراء، فهو سريعُ المفعول وقاتلٌ فوري، يستعمله أصحابه إن أرادوا اغتيالًا أو انتحارًا سريعًا، ولا يصنعه العطارون بل يصنعه الأطباء، وليس هناك من يعرفُ هذا السمَّ في هذه المنطقة غيري! وتحضيرُ هذا السمِّ يحتاجُ أيامًا طويلةً وأماكنَ مُخصَّصة لجمعه حتى يُصبح بهذا التركيز القوي.

تفاجأ زيد والجاسم من نوع ذلك السمِّ الذي وُضع داخل طبق الفاكهة المقدم لشيحان، وأوصيا سوار أن يتابع رعاية شيحان باهتمامٍ بالغٍ، وأمره ألا يُخبرَ أحدًا عمَّا قاله لهما، وعمَّا حصل أمامه أبدًا، ثمَّ خرجا من الغرفة وهما ينظران إلى وجه شيحان وعيناه مغلقتان. كان زيد صامتًا وهو يمشي مع الجاسم باتجاه قاعة القضاء، شارداً وهائماً، يُفكِّر بالشخص الذي تمكَّن من إحضار ذلك السمِّ بهذه الأيام القليلة وشيحان لم يمضِ أربعة أيامٍ في المدينة، والجاسمُ كان يتمرِّقُ من داخله ويدعو ألا يموتَ شيحان غدراً، فقد تصافت قلوبهما وتوحدَ همُّهما. تلك طامةٌ كبرى وقعوا فيها جميعاً، وقد قام أوس بتعذيب الخدم والحراس حتى يعترفوا عن الخائن بينهم، فما اعترفوا بشيء، وأنكروا جميعاً أن يكونَ أيُّ منهم أقدمَ على هذا الفعل. ولما رجع الجاسم وزيد إلى مقعدهما والشحوبُ يُغطِّي وجههما، أعلموا الحاضرين أنَّ شيحان على الحال التي كان عليها، مُعلقٌ بين الحياة والموت.

أوس (غاضباً): سأقتل الخائن بيدي العاريتين، سأقتلُ كلبَ الوَباص اللعين.

الجاسم: ألم تشكَّ بأي شخصٍ من الخدم والحراس يا أوس؟

أوس (باستغراب): لم يعترف أحدهم أبدًا، ولن أكفَّ عن تعذيبهم حتى يعترفَ

أحدهم، لقد تركتهم مُعلقين بالسلاسل، وسأرجعُ لهم بعد قليلٍ لأرى من فيهم الخائن.

الجاسم: لا تُحَمِّلَهُمْ فوق طاقتهِم يا أوس فليسوا جميعهم خائنين، ولا نعلمُ من الخائن فيهم!

أوس: لن يعترفوا أبداً، إلا إن علموا أنهم جميعاً ميتون.

ثابت بغضبٍ عارٍ: من يكون ذلك الخائن؟ هل هو سعدُ بن يحيى؟ أو أحد أبناء قبيلة أصهب؟

نعمان: لماذا منعت أوس عن التحقيق مع أصهب وولديه أيها الجاسم؟ لعلهما يعترفان بشيءٍ عن سعد بن يحيى!

الجاسم: ليس الآن. يجبُ علينا أن نعرفَ من وضع السمِّ أولاً من الخدم أو من الحرس، فماذا لولم يكن أصهب، أو سعد من تآمر مع الخائن الذي دسَّ السم، فسيضحكون علينا ويسخرون منا لأننا لا نأمنُ عمالنا ورجالنا.

العراف: أصبَتَ أيها الجاسم، فسيفرُجُ أصهب في سجنه حين يعلم أن شيحان شرب السمِّ وهو حرٌّ بيننا.

ظلَّ زيدٌ صامتاً وهو يستمعُ إلى الجميع بتمعنٍ ودقَّة، فسأله أوس عن صمته المهم، وبماذا يشورُ علمه لفعله، واقترح عليه أن يذهب إلى أصهب بنفسه لعله يسحبُ منه الكلام، فيعلمُ عن شيءٍ من حديثه معه، لكن زيدا أبدى عدم قناعته بذلك، وظلَّ صامتاً ينظرُ إلى الجميع نظراتٍ غريبةٍ لم تُعجب أحداً منهم حتى تكلم بهدوءٍ غريب: قد علمنا أن هُناك خائناً غيرَ أصهب في المدينة لا نعرفُه. أيُمكنُ أن يكونَ هذا الخائنُ بيننا؟! صُدِّم الجميع من سؤال زيد القاسي، ولم يتوقَّع أحداً أن تخرُجَ هذه الكلمة منه. هل بلغت الظنونُ به أن يشكَّ بواحدٍ منهم! لا يُمكنُ أن تُقبل تلك الإهانة منه أبداً، وهو الذي يحسبُ حساب الكلمة ألف مرَّة قبل أن يُطلقها.

صاح ثابت: ارجع عن كلامك واعتنرياً زيد، فقد جرحتنا بكلامك، وليس هذا وقتُ الطعنِ بوفائنا ونزاهتنا.

نعمان بغضب: لا يجوزُ لك أن تشكَّ بأحدنا وقد بلغنا ما نحن فيه. أنا لا أقبلُ هذا التخوين أبداً.

أوس: إنهما يقولان الصواب يا زيد. فاعتذر الآن وإلا حاسبناك حساباً عسيراً.

الجاسم: يا زيد، إنَّ خطأ اللبيب بعشر أمثال غيره، وما أحسبُك إلا لبيباً.

العراف (مهدوء): كيف وصلتَ إلى هذا الشكِّ يا زيد؟

لم تُغيّر دودُ أفعال الموجودين من نظرات زيدِ اللاهبة، فبدا مُصبراً على شكِّه ومُترمناً برأيه، وشابههُ بعضُ الخوفِ من كشف أفكاره، وكأنَّه مُتأكدٌ من حدسه وإنما يفتقرُ إلى الدليل الذي يكشف ما يدور بعقله. لم يعتذر زيد عن كلامه، وتأخَّر كثيراً في رده، حتى نهض ثابت ثم تبعه نعمان، وطلبوا من الجاسم أن يُجبر زيدا على الاعتذار، أو يخرجوا من المجلس الذي أُعدمت فيه الثقة.

الجاسم: أرى أنَّ عليك أن تعتذر عن قولك يا زيد. ولا أريدُ اعتذاراً عن كراهة منك،

بل عن قناعة.

زيد: إنَّ الثقة كالسهم يا أبا قيس، فإن خرجت فلن ترجع. لستُ بمُعتذرٍ أبداً، وأغلبُ

حدسي أنَّ الخائن بيننا.

الجاسم (صارخاً): إذن ما هي حُجَّتُك؟ أبدوها وإلا حاسبناك. أنتَ تعرفُ عقاب من

يطعنُ بشرفِ غيره!

زيد: أعلمُ ما هي العاقبةُ يا أبا قيس. سأمتنعُ عن دخول مجالس الرجال، وأعتذرُ

أمام مجلس الحرجف للجميع.

الجاسم: فاعتذرو ولا تُكلِّف نفسك عناء المهانة يا زيد، لستُ براحمك إن لم تعتذر،

ولا أريدُ أن تفقد مكانتك بيننا.

الآن وقع زيدٌ في كلامه، فإمّا يكشفُ الحِجَّةَ ويضعُ الدليلَ على ما جاء به فتبرأَ ساحتهُ، أو يعتذرُ وينتظرُ يُقبِلُ اعتذاره أم لا! ولم تنفع نصائحُ الجاسمِ وأوس له أن تحثَّهُ على الاعتذار، فكان كمن أخذته العزّةُ بالإثم.

زيد: عليّ أن أكتشفَ الحِجَّةَ بنفسِي أمّها الجاسم، ولن يُعَادِرَ أحَدُنَا حتّى يُفصل بيننا، أنا أو الخائن.

ثابت: أترضى بهذا أمّها الجاسم، فأنا لا أقبلُ اعتذارَ زيدٍ أبداً.

نعمان: ولا نقبلُهُ جميعاً.

الجاسم (بغضب): زِدْ يا زيد.

زيد: حسناً أمّها السادة، قُلْ لي يا شهاب، هل فتشْتُمُ كُلَّ بقعةٍ في المجلس بحثاً عن

السُّمِّ؟

شهاب: بلى، وقد بحثنا في جميعِ العُرفِ وأغراضِ الخُرّاسِ والخدم، فلم نجد شيئاً.

زيد: إذن، أينَ غُلبَةُ السُّمِّ أو الوعاء الذي حُمِلت به؟

الجاسم: ولماذا تفترضُ وجودَها أصلاً! زُبَما كان السُّمُّ بمنديلٍ، أو زُبَما رُمي وعاءُهُ

قبل أن ندخُلَ المجلس.

ثابت: نعم، فما يجعلُكَ تجزُمُ بهذا؟

صمت زيد وكانت مُغامرةٌ خطيرةٌ منه أن يُلقِي بالشكِّ في أمنِ الناسِ في الحرجف

وأشرفهم، ولعلّه أخطأ بتقديره للأمر، أو لعلَّ غروره خالطَ ذكاءه فألقى نفسه في طريقِ

مُظلمٍ ومُغلقٍ ليس منه رجعة. وظنَّ الجميعَ أنّ زيداً يُحاولُ عبثاً أن يبيحثَ عن خُيوطِ

مُهترئةٍ ليُبرَزَ غلطُهُ الفادح.

زيد: لن يكونَ السُّمُّ في منديلٍ أبداً أمّها الجاسم، وأنت تعرفُ هذا. ألم يُخبرُكَ

الطبيبُ عن صفاتِ السُّمِّ؟ هل تظنُّ ذلك النوعَ يوضعُ في منديلٍ!

الجاسم (بانتهاء مُستدرك): نعم صحيح، ولكن؛ زُيما زُمي وعأؤهُ قبل أن تُنفَذ الواقعة.

أوس: هل يُمكن أن يكون الطيبُ هو من سمّم شيحان؟ فإنّه جاء صباحاً وعالجه، ونحنُ لم نُفتّش حقيبتَه أبداً.

دُهِشَ الجميع من قوّة سؤال أوس، وبدت عليهم الحيرة البالغة، فقد اقتنعوا أنّ الخائن الوحيد، إن صدقَ زيدٌ في حدسه لن يكونَ إلا الطيب، فهَمَّ أوسٌ وشهاب في الذهاب إليه وتفتيش حقيبتَه، ووافق الجاسمُ على ذلك بعد أن بلغت به الظنونُ ما بلغت. فاستوقفهما زيدٌ وهم ماضون في طريقهم.

أوس (بنقطة): ما بك يا زيد؟ لقد عرفناه، إنّه الطيب ولا أحد سواه. هو فقط من يدخلُ المجلسَ دون تفتيش.

الجاسم: أحسنُهُ كذلك، ولا أحد غيره يُغادرُ المدينة بعُدُرِ كَعُدْرَه، فلطالما خرَجَ بحثاً عن الأعشاب والعلاجات، ولم نُراقبه يوماً أو نُشكَّ به لحظةً واحدةً. ألم تقل يا زيدٌ إنّ الخائن سيكونُ أحدَ رجالنا الأخيار، أمينٌ في مُعاملتَه، وذكيٌ بحيث لا يؤخذُ عليه مأخذ، يكسبُ ودَّ الناسِ جميعاً ولا يخسرُ أحدهم. وليس لهُ أعداءٌ. أرى أنّ هذه الصفات اجتمعت في سوارِكُلّها مع ما ذكرتُ لكم من خُريته في الحركة.

زيد: الطيب ليس الخائن، بل أحدنا.

الجاسم: ومن هو إذن يا زيد؟ ماذا أصابك؟ ألن تعقل؟!

طلب زيد من الجاسم التريث قليلاً وعدم العجلة، ثم طلب من أوس وشهاب أن يرجعا إلى مقاعدهما، فرجعا على مضضٍ وقد تأكّد داخلهما أنّ الخائن هو سوار. ولم يحتمل أوس عادة زيد في الصمت القاتل، فصاح به أن يتكلم.

زيد: كيف للطيب أن يعلم أنّنا سنُقدّمُ فاكهةً إلى شيحان؟ وكيف سيضع السمّ في

طبق الفاكهة؟

الجاسم: زُبماً أعطى السّمَ قبلَ اليومِ لأحدِ الخدمِ والذي تَأَمَّرَ معه، فوضعَ السّمَ اليومَ في طبقِ الفاكهةِ.

زيد: وهل ينتظرُ حتى نُقدِّمَ الفاكهةَ إلى شيحان؟ لماذا لم يُسمِّمه قبلَ اليومِ؟ لو أنهم سمّموه ليلاً وهربوا لكان خيراً لهم.

ثابت: سمّموه اليومَ لأننا تحالفنا مع شيحان، وفككنا قيده وأعطيناَهُ حرّيته.

زيد: أحسنتَ يا ثابت، هي تلك.

أوس: ما هي؟ لم أفهم.

العراف: إنها واضحةٌ وبيّنةٌ أيها السادة. سُمِّمَ شيحان بعد أن تحالفنا معه، وإلا فلم لم يُسمِّم قبلَ الآن؟!

زيد: إنّ الخائنَ ذكّيّ بحيث لا يسمحُ لأحدٍ بمشاركته خيانتَه، ولا نجدُ عليه دليلاً واحداً، وهو من وضعَ السّمَ في طبقِ شيحانِ اليومِ بعد أن عرفَ أننا عزمنا على المصالحة، وهو أحدُ الجالسين هُنا حتّمًا.

أوس: ومن هو يا زيد؟ تكلم أو اغلق فمك.

الجاسم: من هو يا زيد؟ لقد بدأتُ أشكُّ في نفسي.

زيد: لن نعرفَ حتى نُفتِّشُ جميعنا.

ثابت: ماذا؟ هل جُننتَ؟

نعمان: هل تُريد أن تُفتِّشنا يا زيد؟ أبلغ بك الحدَّ أن تُفتِّشَ جيوبنا!

الجاسم: إنّ ذلك تمادياً كبيراً، ولن نغفرَ لك زلتك هذه.

زيد: إنّ كُنْتُ مُخطئاً فلكم رأسي، فاقطعوها أو اطردوني من الحرجف.

أصبحت الأنفاسُ حارّةً والنظراتُ هائمةً بين الموجودين، ولم يعد هُناك مجالٌ

للتراجع، فعلى زيد أن يُثبِتَ أن أحدهم يملكُ وعاءَ السّمِ، وعليهم أن يُبرِّتوا أنفسهم من

ذلك فقد وصلوا لمرحلة كسر العظم بينهم. رفض ثابت ونعمان ذلك الأمر وغضبا غضبًا شديدًا، وهما أن يُغادرا المجلس دون أن يعترضهما أحد.

صاح العراف: أين تذهبان؟ إنكما تُثيران الشكوك حولكما بذها بكمما. أنا أول من سيُفتش فتعال يا زيد وفتشني.

ثابت: ولم تفتشنا يا زيد؟ دع أوس أو الجاسم نفسه من يقوم بهذا.

قام الجاسم غاضبًا، وأمر الجميع أن يجلسوا مكانهم حتى يُفتشوا، ثم فكّ حزامه ورمى سيفه وخلع عباءته، وطلب من زيد أن يتقدم لفتيشه أولاً، فمض زيد وتقدم منه وفتش جيوب قميصه وعباءته ونخلها فلم يجد شيئاً. ثم مد يده على أكتاف الجاسم وشرع يتحسسهُ بدقة ثم استدار ونفى أن يكون معه شيء، وطلب منه أن يُفتشه هو، فرفض الجاسم غاضباً ثم مضى إلى العراف وبدأ بتفتيشه، ولم يجد معه إلا أعواداً وأحجاراً غريبةً، فتركها معه ونفى أن يكون معه شيئاً مريباً. توجهت الأنظار بين الجميع، فمضى الجاسم إلى أوس وتقدم منه والألم يعتصرهما من هول الموقف وغرابته، فلم يتخيلاً أن يوضعا بموقف كهذا أبداً، ففتشه الجاسم ولم يجد معه شيئاً، فاعتذر منه وأعطاه حزامه. ثم تقدم من شهاب ففتشه أيضاً وكانت جيوبه خالية.

نهض ثابت ونعمان معاً من مقاعدهما استعداداً لدورهما في التفتيش، فتقدم الجاسم منهما بخطوات خفيفة، وإذ نعمان يبتعد عن الجميع بحركة مفاجئة! فرجع بسرعة إلى الخلف ثم سحب سيفه من غمده، وبدأ يتراجع ببطء صوب باب المجلس. ذهل الجميع وتفاجأوا من موقف نعمان، وفجع ثابت من هول الموقف فتراجع حتى وقف بجانب الجاسم.

صاح الجميع: نعمان، نعمان. ما بك يا نعمان؟ ماذا تفعل؟

نعمان (شاهراً سيفه والخوف ظاهر عليه): لا تقربوا مني.



زيد (بحسرة): إِنَّهُ أَنْتَ أَهْمُهَا الْخَائِنُ. لَقَدْ ذَهَبْتَ إِلَى الْخَدْمِ بِنَفْسِكَ لِتَأْمُرَهُمْ أَنْ يُجَهِّزُوا الطَّعَامَ لِشَيْحَانِ.

الجاسم: أَلَيْ سَيْفِكَ يَا نِعْمَانَ وَلَا تَهَوَّرَ.

تقدّم الجاسم وأوس وباقي الرجال همدوءً باتجاه نعمان، فكان قد وصل باب المجلس، فحاول أن يفتحه ويهرب لكنه كان مقفلاً، فشدّ يده بانفعالٍ وغضب، ولم يتمكن من فتح الباب، فوضع يده في جيبه وأخرج منها قارورةً صغيرةً جعلها في يده، وتسمر مكانه والسيفُ يرجفُ بيده الأخرى، ونظر الجميعُ إلى السّم الذي كان يُخبئُه.

نعمان بغضبٍ ممزوجٍ بالخوفِ والجُنون: أَيْنَ الْمِفْتَاحُ؟ مِنْ أَخْذِهِ؟

أخرج زيد المفتاح من جيبه، وقال همدوءً: إِنَّهُ مَعِي، لَمْ أَكُنْ لِأَتْرِكَ أَحَدًا يَغَادِرُ الْمَجْلِسَ. اهْدَأْ وَدَعْنَا نَتَكَلَّمُ.

نعمان: لَمْ يُعِدْ لِلْكَلامِ وَقْتُ وَلَا مَكَانًا، فَاعْطِنِي الْمِفْتَاحَ أَهْمُهَا الْخَيْبِثُ. لِيَتَنِي وَضَعْتُ السّمَ فِي طَبَقِكَ فَقَتَلْتُكَ أَنْتَ.

الجاسم: لِمَاذَا يَا نِعْمَانَ؟ أَنْتَ! لِمَاذَا فَعَلْتَ هَذَا؟

أوس: أَهْمُهَا الْخَائِنُ، بِمَاذَا بَعْتَنَا؟

ثابت: أَنَا لَا أَصَدِّقُ مَا أَرَى، لِيَتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ.

استلّ أوس سيفه، وطلب من نعمان أن يُلقِي سلاحه ويستسلم، ووعدّه زيد أن يرأفوا به إن أطاعَ ورجع عن خيانتِه، لكنه بعد أن سقط القناعُ عن وجهه، لم يرضَ بتلك المساومة الفاشلة، ففتح قارورة السّم التي بيده ونظر إليها كمن ينظرُ إلى قبره، فهوهُ جميعاً أن يشرب منها، ووعدّه الجاسم أن يسامحه ويخلي سبيله إكراماً لأهله وللعشرة التي بينهم. كان الجميع مصدومين غير مُدركين لما يحدث بينهم، فرغم حقدهم على نعمان وخيانتِه وعدم قناعتهم بذلك داخلياً، إلا أنهم لم يُحبّوا أن تكون نهايته بتلك الصورة القاهرة.

نعمان: لا تُقاس الخيانة بالنوايا؛ إنّما بالنتائج. لستُ أنا الخائن بل أنتم. الغازي لم يفهم معنى الزعامة أبداً ولم يصلح لها يوماً، وأنتم، كنتم بالأمس تتفاخرون بقرّيه من الوباص، ملككم الذي أصبح اليوم عدوكم. وشيخان،، أفنيتم عمركم في محاولة قتله! ومن قتله الآن أصبح خائناً عندكم! وماذا يريد شيخان إن قُضي على الوباص؟! هل سيحمي أرض رأس الخيل من أطماع الروم كما يحميها الوباص؟! وأنت يا زيد، لم تقنع بسيادة الغازي يوماً! ولم أتوقع أن تقف في صفه أبداً، وكم عجبتُ من وفائك لآل ورنه، فكُنْتَ حجر العثرة في طريقي.

زيد: هي القلوبُ والعقولُ والزمانُ يا نعمان. ليست قناعتي بالغازي تُبرّرُ خيانتِي، ولكلِّ مقامٍ مقال. أما سقط القناع عن الوباص وكُشفت حسّته!  
شرب نعمان السمّ وبلعه كله، فقلّب أنظاره للجميع ثم قال: تبّأ لكم جميعاً، تبّأ لك يا زيد، لو لم تكن موجوداً!!

ترنّج نعمان حتى هوى على الأرض. وشرعَ الرجال يقترّبون منه ببطءٍ شديد، والجاسمُ يُنادي صارخاً على الطبيب، ونعمان يتعصّر ويتلوّى من مفعول السمّ الذي لم يعتقد أبداً أنّه سيكونُ من نصيبه، وظهرت علاماتُ الاختناق وفقدان الوعي عليه والزيدُ يخرجُ من فمه. جاء سوار واقترّب من الرجال وهم يُحيطون نعمان. وينظرون إليه وهو يُصارعُ الموت ولا يتحرّكون، فأدهشَ من موقفهم حتى رأى قارورة السمّ بجانبه، فاقترّب منه وقد سكنَ جسده وحفظت عيناه، وتفحصَ أنفاسه ودقات قلبه فوجدها مُنقطعة. مات نعمان في قاعة القضاء واقترّب العراف منه ليرمقه بعينه الواحدة، ومرّت دقائق والجميع جامدون مكانهم، شاردون بمنظره المفجع أمامهم، كيف كان قبل ساعةٍ وكيف هو الآن! فظلّوا على ما هم عليه حتى بدأ سوار بالبكاء وهو يضعُ رأسه على صدر نعمان، وتصاعدَ صوتُ بكائه وانهمرت دموعه على خده، فثارت الشُكوك في أنفسهم ونظروا إليه

نظرةً دهشةً لبُكائه الغريب، وشعروا أنّ له علاقةً خفيّةً مع نُعمان لا يعلمون عنها، فتقلّبت الأنظارُ بينهم باستغراب.

أوس: لماذا تبكيه يا سوار؟

الجاسم: ألك علاقةٌ به! تحدّث وكُفّ عن البُكاء.

نهض سوار على قدميه ووقف بينهم، ووجّه نظره إلى الجاسم وقال: ليس لي شأنٌ بما قام به نعمان عندكم، لكن تصاريّف الدهر غريبة وليست مفهومة.

الجاسم: وفيما بُكؤك إذن؟

سوار (ضحاحًا من غرابية موقفه): إنني أعالجُ شيحان بإخلاصٍ، رغمَ أنّه يتّم زوجتي ورمّل عمّتي، وها أنا أرى نُعمان وقد رُمي أرضًا والخيانةُ تطوفه. أمّا والله لقد تحسّن عليّ وعلى زوجتي وعمّتي، ولولاه لهلكنا في العراء، فلستُ بمُنكرٍ فضله مهما كان موقفه.

زالت الشكوكُ التي حامت بمخيلات الواقفين على جُثّة نعمان من موقف سوار، فقد علموا أنّه كان صاحبُ يدٍ بيضاء على الكثير من المحتاجين والمساكين، فبكوا بكاءً شديدًا، وجثا زبّدُ قُرب جسده وأجهش بالبُكاء، فخاطبه حيث لا يتفحّ الكلام، وعاتبه على فعله وخيانتته، ووضع مفتاح المجلس بيده وطلب منه أن يهرب واعدًا إياه أن يُعاونه في هربه. دخل زيد في نوبة جنونٍ كبيرة فقد قتل أعزّ أصدقائه وأحبابه، وعلم الجميع غصّته المؤلمة لأنّه هو من كشف الخائن، فرفعوه عن جُثّة نعمان ورجعوا جميعًا إلى مقاعدهم حزنين مكلومين غير قادرين على الكلام. وصرخ زيد بصوتٍ مخنوق: لعمري أنّ الحربَ أهونُ بلاءً من هذا الموقف.

أيّ بلاءٍ أشدُّ مما وقعوا به! وأيُّ مُصيبةٍ نزلت بهم، شيحان الذي أرسلوا إلى أهله يُبشرونهم بالمصالحة يُصارغُ الموت، بعد أن أكل السمّ؛ السمّ الذي قتل صاحبه وصاحبيهم نعمان، الذي عاش معهم طوال حياته أخًا عزيزًا، له ما لهم وعليه ما عليهم. ماذا سيقولون لأهل الجوازِل إن مات سيدهم؟ وماذا سيقولون لأبناء نعمان وأهله

وقبيلته؟ وماذا سيفعلون إن مات شيحان وهو في عهدتهم؟ وكيف سيُحاربون عدوهم الذي قلب القلوب وبتَّ السموم بينهم؟!

كان ثابت أكثر المتأثرين من الموقف، فلم يشك قط بأن أحد الحاضرين في مجلسهم خاننًا، حينما أطلق زيد اتهامه القاسي، فنظر إلى زيد الهائم على وجهه، وكأنه نادماً على كشف القناع عن وجه نعمان، والجاسم ضاع في تفكيره وفي جملة نعمان الأخيرة التي وجهها إلى زيد، لولا أنك لستَ موجودًا يا زيدًا! لو أن زيدا انقلب على الغازي واستغل الفتنة القائمة، وركب الرياح العاصفة التي عنت بمدينة الحرجف مع دخول شيحان، فماذا سيحدث؟. تحدثوا جميعًا عدا زيدا الذي بقي واجمًا شاحبًا، وتساءلوا فيما بينهم عن نوايا نعمان غير سيادة الحرجف؟ وماذا كان سيفعل بعد قتل شيحان؟ أسئلة حائرة طافت القاعة وغزت العقول والمشاعر، وهم يتباحثون الوضع الذي أصبحوا فيه وتخبطوا في أمرهم، وسوار ما زال واقفًا في القاعة دون أن يلتفتوا إليه، وكأنه واحد منهم. ثابت: أنا لستُ بمُدرِكٍ لما تتحدثون به، لما لا نُنبي موضوع نعمان أولًا.

العراف: ذلك خائنٌ ولقى جزاءه بيده، وقد كان أقربَ لأنفسنا منّا جميعًا، فاشكروا زيدا على فضح أمره.

شهاب: وماذا عن نعمان؟ أين نذهبُ به؟ وماذا عن الخدم؟ هل هم أرباءٌ من هذه

الخيانة؟

الجاسم: حسنًا يا قوم، انتهى وقتُ النحيب والألم، نحنُ الآن بموقفٍ لا يحتملُ الصمت والسكون، ولقد حسبتُ حسابًا لنشر خبر مُصالحتنا مع شيحان سابقًا، والآن بتُّ أحسبُ حساب نشر خبر تسميمه، وخبر موت نعمان. وإنني لا أرى أمامنا إلا أن نُكاشفَ أهل الحرجف عامةً، وقبيلة نعمان خاصةً، وأن نُرسلَ لأهل شيحان ونُخبرهم بما كان.

تتحنج سوار ليلفت الانتباه إليه: ماذا أفعل يا سيدي الجاسم؟

استدرك الجميع أن سوار كان معهم في كل كلامهم، وصرخ أوس فيه: اذهب لشيحان واطمننْ عليه.

مشى سوار بخطواتٍ مُتردِّدة، ثم استدار وقال: هل لي أن أتكلّم يا سيدي الجاسم، فقد سمعتُ حديثكم كلّهُ.

الجاسم باستغراب: ماذا تُريدُ يا سوار؟

سوار: لستُ بصاحبِ مكانةٍ بينكم، لكن اسمحوا لي أن أشارككم رأيي.

تفاجأ الجميع من جُرأة سوار وتدخله بشؤون المدينة بهذا الوقت العصيب، فنظر الجاسم بمن حوله، وأمعن في شحوب زيد وقد غاص في صمته، ثم قرر أن يستمع إلى سوار الذي سمع كلامهم وهم عنه غافلون، فأمره أن يجلس معهم، فأخذ مقعده بينهم والجميع متعجبون من موافقة الجاسم على ذلك، فبدا لهم أنه وصل إلى أسوأ حالاته وفقدان عقله.

أوس بغضب: هل ستدع هذا الغريب يتحدّث بيننا يا أبا قيس!

الجاسم بتردّد: وما الضيرُ في ذلك يا أوس؟ إنه أحد أبناء الحرجف وله مكانة بيننا، فدعوه يُطلعنا عمّا يجولُ بخاطره.

سوار: لستُ بأقلّ منكم حُبًّا للحرجف يا سادة، فإن ارتأيتم ألا أتكلّم امتنعت، وإن طلبتم رأيي فلا أبخلُ به عليكم.

العراف: دعه يتحدّث يا أوس، قد علم ما وصلنا إليه من حال، ولو أنه أراد شرًّا لكتّمه، أو فضّح أمرنا دون علمنا.

أوس (بعدم اقتناع): حسنًا يا سوار، أرنا ما في جُعبتِك.

سوار: أشكّرُ ثقتكم يا سادة. قد لمسْتُ الحيرة فيكم وأعتقدُ أنّ عندي تصوّرًا للحالة الراهنة. لن أدخل بالتفاصيل الآن، وسألخصُ كلامي. أقترحُ عليكم أن تُرسلوا رسولًا على عجلٍ إلى مدينة الجوازل، يطلبُ منهم وفدًا للقدوم هنا بناءً على طلب شيحان

نفسه. فإن عاشَ ونأملَ ذلك؛ فيكون قد فهم الخيانة التي حصلت، فيُخبرهم هو بنفسه عنه، أما إن مات؛ شرحتم لهم ما حصل فيُدركون الأمر. وعن مدينة الحرَجف، فانشروا خبر تسمم شِيحان ووفاة نعمان مسمومًا، فهو تحصيل حاصل وسيُعلم عنه بالتأكيد، فإن سئِلتم عن مصدر السم فأخفوا ما قام به نعمان ولا تلوثوا سمعته، إكرامًا لأهله وقبيلته، فلا تخسروهم من صفوفكم، فيكذبوكم ويُحاربوكم ويكيدوا ضدكم مع الكائدين.

قاطع الجاسم سوار: ومن سنهم بقتل نعمان!

سوار بثقة: الخائن الذي عاونه. فهذا السم قام بوضعه نعمان كما ذكرتم، لكن الذي قدّم الطبق إلى شِيحان إن لم يكن قد شارك بوضع السم، فقد عرفَ الطبق الذي كان فيه. ألم تقولوا أنّ الأطباق لم تكن كلها مسمومة؟.

عجب الجميع من كلام سوار، ونبأته في تحليلاته الذكيّة، ففاجأهم جميعًا إذ غفلوا عن أمر تقديم الأطباق، وقد أكل نعمان وزيد من أطباقٍ مختلفة لم تكن مسمومة! فكيف عرف الخدم أنّ طبق شِيحان هو الطبق المسموم؟!

بعد الكلام الذي ذكره سوار، اشتدّ الجميع وشرعوا بالتخطيط والتنفيذ بإحكام لتسوية الأمور، فذهب أوس غاضبًا ومتوعدًا ليُحقّق مع الخدم الذين قدّموا الفاكهة، وغادر سوار القاعة ليطمئن على شِيحان، فتشاور الجاسم مع البقية عن رأيهم بسوار كشخصٍ يوثقُ به، وعن رأيهم باقتراحاته الوافية التي قدّمها لهم، واجتمع رأيهم على منح ثقتهم لسوار والاستفادة من ذكائه ودهائه في جميع أحوالهم الحالية، كما قرروا أن يكشفوا له عن عمق المسألة التي هم فيها، فيُخبروه عن كل الأحداث التي جرّت، والتي تجري الآن مع الليث في مدينة العصوف، والصلح الذي تمّ مع الجوازل وقام به سيدهم شِيحان. واستبعد الجاسم أن يكون لنعمان شريكٌ في خيانتته من عليّة القوم أو من أبناء

قبيلته، فلو أنهم علموا بذلك لحاسبوه وفضحوه لخيانته، أو جلسوا بمجالسهم التي جمعهم كما كان يفعل نعمان بكلّ ثقة.

رجع سوار يصرخُ في الجاسم ومن عنده، فلبّسَهم أنّ شيحان استفاق من غيبوبته، فهرعوا جميعاً لغُرفته فرحين، ووقفوا أمامه وهو يفتحُ عينيه ويتأملهم بدهشة، وقدم له سوار كوباً من الماء والعسل المخلوط ببعض الأعشاب، وطلب منه أن يشربه. تردّد شيحان قليلاً وهو ينظرُ إلى الواقفين حوله، حتّى قرأ في عيونهم الألم والخجل من موقفهم، فأمسك بالكأس وشربه، وما أن انتهى حتى سأله سوار عن حالته، فأجاب بأنّ معدته تؤلمه، وحاول أن يهض فلم يستطع. غضب شيحان في داخله من طعم الخيانة المرّ الذي ذاقه، والألم الذي يعصُرُ معدته، فتذكّر في نفسه كلام عشتار العرافة حينما تنبأت بأنّه سيموتُ مغدوراً وبعيداً عن أهله، ثمّ أبعد الوسواس من تفكيره، وصورة عشتار القبيحة من ذهنه، ورفع جسده متناقلاً حتى استندَ على ظهره. وسوار يحثّه ألاّ يتعب نفسه.

أعربَ الجاسم عن فرحه بنجاة شيحان وتمنياته بالشفاء العاجل له، واعتذر عن الخيانة والغدر الذي ذاقه، وشرح له كلّ ما حدث، فذهل شيحان بشدّة من كشف الخائن الأكبر نعمان، ومن قتله لنفسه بالسمّ الذي أخفاه ليغدُرْ غدره. وشعر شيحان بداخله بقليلٍ من الحزن وقد تذكّر أنّ نعمان هو من سترَ محبوبته آرام، بعدما ضاقت بها الأحوال. طلب الجاسمُ من شيحان أن يُرسلوا إلى الجوازِل فيأتي منهم وقدّ للاطمئنان عليه، فرفض ذلك وأخبرهم أنّه على ما يُرام، فلمّا أصروا عليه رفض بشدّة وغضب منهم، وطلبهم أن ينتظروا قدوم الليث لهم، فلا يعمدوا الثقة بنجاحه في مسعاه ورجوعه بالغازي سالمًا. ترك الجميعُ شيحان ليرتاح، وأوصاه سوار أن يتناول من خلطته التي صنعها لعلاجهِ بالقدرِ الذي يستطيع حتى يتعافى، ثمّ رجعوا جميعاً لمجالسهم فرحين

بتحسن حالته، وذهب شهاب عند والده أوس ليُبشّره بسلامته ويعاونه في تحقيقاته مع الخدم والحراس.

عزفَ الحاضرون عن إرسال أحدٍ إلى الجوازِل كما قرّروا سابقًا، وظلّوا يُفكرون بخيانة نعمان وبمن سيُلصقون التُّهمة إن أبعدها عنه! وماذا سيقولون عن التحالف مع الجوازِل والتعاهد مع شيحان على محاربة الوِثّاص جنبًا إلى جنب! اقترح ثابت أن تُلصق حادثة الخيانة بأصهب وولديه، حتى قاطع الجلسة أوس وشهاب ومعهما أحد الخدم، فدخلوا وألقياه في وسط القاعة وهو يبكي ويتوسّل، فاعترفَ أمامهم بأنّ نعمان وعده بالمال حتى يُقدّم ذلك الطبق أمام شيحان، ولم يكن يعلم أنّ فيه سُمًّا، فلطمه أوس وهو يستنكرُ كلامه، فكيف يأخذ أموالًا طائلةً على واجبه؟!

اعترف الخادم أخيرًا أنّه ساعد نعمان بمراقبة المطبخ أثناء وضعه للسّم، وأنّه الوحيد الذي شاركه بذلك الجرم المشين. التفت الجميع إلى الجاسم ليُعطي أمره وقراره في الخادم، حتى قام عليه زيد فطعنه بسيفه من ظهره، وأسقطه يتلفظ أنفاسه، ورجع إلى مقعده فجلس كمن لم يفعل شيئًا، والجميعُ مدهوشٌ من فعلته.

الجاسم (بغضب): لماذا فعلت هذا؟

زيد (بتقّة): هذا جزاؤه وقد لقيه.

الجاسم (بحيرة): وماذا سنقولُ لأهل الحرجف؟ وكيف سنُثبِتُ لهم ما نريدُ إقناعهم

به!

زيد (حازمًا): ليس هناك وقتٌ للبلبلّة أيها الجاسم. نحنُ أسياد الحرجف الآن وقرارنا هو الذي سيمضي، ولن نسمح لأحدٍ بالتدخّل بما نُقرّر أو يشكك فينا. لن يُصدّق أهل الحرجف بأنّ نعمان خائن، وقتل نفسه بيده، لذا سنقولُ أنّ الخادمَ وضعَ السّم في إناءٍ ماءٍ ليُسَمِّ شيحان. فشرّب منه هو ونعمان، ولما كشفنا أمره حاول الهرب فطعنه أوس بظهره. ولن يُفكر أحدٌ بمن قتله ولماذا قُتل! فخبّر تسميم شيحان ومقتل نعمان سيصدم



الجميع كما صُدمنّا، وهذه أحسنُ رواية. سوف ندّعي أنّ أحد الحراس أخبرنا أنّه على علم بأنّ هذا الخادم يملكُ أموالاً. وقد جاء بها من مدينة العصوف قبل مدّة، وسنلصقُ خيانتَهُ بالوَبَاصُ مُباشرةً، ونحافظ على قبيلة نعمان بأن نخفي فضيحته وخيانتته. ولنلصقُ التهمة بـرقبة أصهب كما يطلبُ ثابت، فلن ينتجُ عن ذلك إلا فتنةً وقتالاً بين قبيلة أصهب وقبيلة نعمان. اذهب يا أوس وأفرج عن جميع الخدم والحراس. وحدّثهم أن يتحدثوا بشيءٍ سمعوه أو شاهدوه، وأحضّر لنا أصهب وولديه هنا، أريدُهم أن يُشاهدوا نعمان وهو غارقٌ في خيانتته على أرض المجلس.

وافق الجاسم على كلّ ما تحدّث به زيد، الذي استفاق من صدمته واستعاد عزيمته، لكنه لم يُحبّد أن يُري أصهب ما حصل مع نعمان فيشمتُ بهم. ومضى كلامُ زيد ونُفذ كل ما طلب، وشاهد أصهب وولده نعمان ميتاً في سمّه، وفهموا خيانة الوَبَاصُ للحرّجف عامّةً ولهُم بشكلٍ خاص، ثمّ رجعوا لزنزانتهم، وقد فعل زيد ذلك؛ لأنّه ارتأى أن يستبدل مكر الوَبَاصُ بمكرٍ أشدّ منه. وانتشر خبرتسمّ شيحان غدرًا في المدينة، ودُفن نعمان كما يُدفنُ كرامُ القوم، وناحت النائحُ عليه، وازداد الغضبُ في مدينة الحرّجف على الوَبَاصُ الغادر. فصّح الجاسم بصوتٍ عالٍ أنّ شيحان اليوم أصبح حليفهم، وابنه الليث يُضحي بنفسه لإنتقاذ الغازي من أسره، وطلب من الجميع الدعاء لشيحان بالشفاء، ولليث بالنجاة حتى يُقاتلا في صفوفهم ضد الوَبَاصُ الغادر. ورجع سوار لعتمته آرام وأخبرها بكل ما كان، فبكت فرحًا بسلامة شيحان، غير أنّها أحست بالقلق عند سؤالها عن أثر السمّ في جسده، فقد ظهر لها أنّ سوار يخشى مفعوله وقوّته التي قد تؤدي به إلى الهلاك.

وكما كانت المدن مُلتهبة، حملت الطُرقُ اللهبُ أيضًا بين طياتها، فقد انطلق قيسُ وابنا عمّه باتجاه مدينة الجوازل مبشّرين بالصلح الذي تمّ بينهم، بينما غادرها سهيل بن عياش مع وفد الحرّجف إلى مدينتهم، وكان فرسان كتيبة السكارى بعصباتهم السوداء

التي ترفرف فوق رؤوسهم، يضربون الأرضَ بحوافر خيلهم للحاق بالليث ولاقتحام قصر الوَبَاص.

لم تعجُ الطرقُ فقط بمن نَذروا حياتهم للشرف والأمانة وحماية مُدُنهم وأهلهم؛ فحوت في تعرّجاتها الخائنين والطامعين في رضا الوَبَاص، الملك الجبار الذي جمع حوله من هم على شاكلته، فانتشروا في الخفاء وتأمروا بدهاء، وأعلنوا ولاءهم المطلق للوَبَاص، فأرسلوا رسلهم ليضعوا أنفسهم وجيوشهم رهن إشارته، واستعدادهم التام والمطلق لإبادة جيش الجوازل وجيش الحرجف ولو اجتمعوا معاً.

وفي قصر الوَبَاص، بالكاد كانت هند تحبس دموعها وهي ترثي حالها وتدعو ألا تقوم الحرب أبداً لعلَّ عشيقها قصي ينجو من سجنه، في حين كان والدها الوَبَاص مع شامان يُراجعان الخُطط بعد قطع الماء عن الجوازل، وتوقعاً أن يُتمَّ نعمان ما وعدهم به فيقضي على شيحان، وتشتعل الفتنة في مدينة الحرجف أثر ذلك، ومن ثمَّ تقومُ الحرب بينهم وبين الجوازل الذين سيسعون للانتقام لقتل زعيمهم بخسّةٍ ونذالة.

ومع الغروب دخل سوار على شيحان يطمئنّ عليه فوجد حرارته مرتفعة وأنفاسه متقطّعة، فصاح حتى حضر الجميع عنده بسرعة، فشحبت وجوههم لرؤيته بتلك الحالة وكأنّه يحتضر. وحضّر سوار الماء وخلع ملابس شيحان وبلّل جسده بالماء البارد، ونقّط في حلقه شراباً مخلوطاً بالأعشاب والعسل، وظلّ سوار عند رأسه يُعالجه فيما رجع الباقون إلى قاعة القضاء يتضرّعون أن ينجو شيحان ويتعافى. وبعد لحظات دخل سهيل بن عياش مجلس الحرجف وقد رجع من مدينة الجوازل، فاجتمع مع الموجودين ودُهل من الأحداث الرهيبة التي حصلت بغيايه، وأدرك سبب اختفاء الليث عن لقائه وقد مضى للعصوف لينقذ الغازي، ثم أخبر الجميع بأنّ الوَبَاص قطع الماء عن الجوازل وهو يُعائين أبارها.

صرخت بدور في منامها وبدأت ترتجف وترتعدُ وتُتمتمُ بكلامٍ غير مفهومٍ ولا مسموعٍ، فلم تسمع النساء منها إلا كلمة شيحان، شيحان، وهي تلفظها كأنما ترى كابوساً أو كأن جاثوماً<sup>(١)</sup> أطبقَ على صدرها. أمسكت شروق بأكتاف بدور فهزتها وأبقظتها، فقامت وهي خائفة مرعوبة فبكت وصاحت بصوتٍ عالٍ والنساء يُحاولن تهدئتها. ومع حلول الظلام، وصل قيس وابنا عمه إلى المدينة فلاقاهم ضرار بلهفةٍ بالغةٍ وسرورٍ كبيرٍ، وقد تبخّرت خُرُعبلات عَشْتار من عقله حينما شاهد قيسُ بن الجاسم قادمًا إلهم بنفسه، ووجهه الباسمُ المشرقُ يُبشِّرُ بالخير في زيارته. تمَّ استقبال قيس في بيت الضيافة المجاور لبيت شيحان وبشّرههم بالتحالف والصلح، فقاموا جميعًا من مجالسهم وتصافحوا معه ومع ابني عمه، وتعاهدوا على ما تعاهد عليه شيحان والجاسم من الوفاء والأخوة. وصرخت بدور وهي تقتحمُ المجلس وابنتها شروق خلفها تحاول أن تمنعها وتُخرجها، ونظرت بدور إلى قيس وعرفت أنه ابن الجاسم من الشبه بينهما، فسألته بغوفٍ عن شيحان، وغضب همام من تصرف زوجته وابنته وطلب منهنّ المغادرة فرفضت بدور حتى تعلم ما حدث مع أخيهما. كان قيس ينظرُ إلى بدور وشروق فأشاح نظره خجلًا وأخبرهنّ أن شيحان على خير ما يُرام، مُعزِّزٌ مُكرِّمٌ بين أحواله وأهله. هدأت بدور وحضنت شروق وبكَيْنٍ فرحًا، وغادرتا المجلس بعد أن اعتذرتا إلى ضيوفهم ورحبنا بهم، وألقيت التراحيب والاعتذارات لقيس، فردّها بطيب الكلام، وصورة شروق وهي تبتسم بوجهه لا تغادر مخيلته.

فارق عازار بن نهلان جلد وكتيبة السكارى قبل وصولهم مضارب مدينة الوَبَاصُ، فمضى هو لأبواب المدينة يدخلها كما اعتاد دون حسيبٍ ولا رقيب، وتسأل جلد ومن معه بين الوديان والأشجار بخفةٍ تحت ستار الليل حتى وصلوا إلى مكان السرداب، تقدّم جلد مُلثمًا لباب السرداب فوجده مُوصدًا فعلم أنّ الليث لم يقتحمه بعد، والتفت

(١) الجاثوم: الكابوس.

مييناً ويساراً وقلّب نظره حوله، ثمّ تقدّم قليلاً أمام الأشجار، وانتظر حتى خرج الليثُ من ورائه. أمسك الليث جلوده وسحبه بين الأشجار وأخذ سيفه منه وأزال اللثام عن وجهه دون أن يُقاومه، فنظر إليه ودّهش من قدومه هُناك.

الليث: ماذا تفعلُ هنا؟ لماذا جئتُ؟

أخذ جلود سيفه من الليث، وقال: جئتُ لما جئتُ إليه.

الليث: أخبركم نهلان باكراً بالأمر، قد أمرته أن يؤخّر ذلك عنكم.

جلجد: لن أسامحك أنت ولا شيحان بعد أن ننتهي من أمرنا. أظننتُ أنّ عظمي وهن

أُهما الفقى المغرور.

الليث: ارجع يا عمّاه ولا تُجادلني.

جلجد بغضب: اصمت وإلا قتلتك. لو لم ألحق بك هُنا لدخلتُ بوابة العصوف

الرئيسية.

الليث غاضباً: وماذا ستفعل وحدك، ستموتُ قبل أن تصلها.

جلجد ساخراً: ههه، لقد أحضرتُ معي من يعيشون الموت أكثر منك، فلا تتحمّس

كثيراً.

الليث حائراً: من أحضرتَ معك؟

أخرج جلود سيفه من غمده، فسحبه وأغلقه مرتان، وأعاد ذلك مرّةً أُخرى ثمّ

انتظر قليلاً، وما هي إلا لحظات حتى خرجَ أبناؤه وفرسانه من بين الأشجار ومن تحتها ومن

فوقها كالعفاريت، فوقفوا أمامه كسربِ الطير وسيوفهم كالمناقير معكوفةً أمامهم. لطم

الليثُ على وجهه من هذه المفاجأة، فأمسك به جلود من قميصه وشدّه بيده، وطلب ألاّ

يُعانده فيما عزم عليه، فالقيادة لا تعني التهور، والشجاعة لا تعني عدم الحاجة، ولم

يستطع الليث أن يثني جلوده عن قراره لاقتحام السرداب وإنقاذ الغازي، وعلم بدخول

عازار إلى مدينة العصوف، فجلسوا جميعاً في أرضهم وأخذوا يرتقبون الغابة خشيةً أن يُكشفوا، وانتظروا حتى تنام مدينة العصوف.

أعدّ الليث وجلحد الخُطّة للاقتحام والخروج، وجعلوا إخراج الغازي من سجنه والهروب به أولى الأولويات، فإن لم يتمكنوا من إنقاذ قصي أوريبيع بن مالك فلا بأس، وإن أمسك أحدهم فلا نُصرة له، وأوصى الليث وجلحد فرسانهم أن يتركوهم، ولا يُحاولوا مساعدتهم أو مساعدة أحدهم أبداً حتى ينفذ أحدهم بالغازي ويهرب به إلى مدينة الحرجف. وشدّد جلحد على أبنائه ألا يتململوا في مهمّتهم، حتى لو تكالب جُند الوَبَاص عليه أمامهم، فالهدف واضحٌ ولا رجعةً عن تحقيقه مهما بلغت الخسائر. ولما حان الوقت المناسب، رُبطت الخيل في الغابة وجعلوا عندها أحد الخُراس، واستعمل الليث وجلحد العُدَد لكسر الأقفال، ففتحوا باب السرداب ودخلوه وأشعلا ناراً لإنارته. كان السردابُ كبيراً عالياً، بطول سبعة أذرع وعرض سبعة أذرع، يتسع لدخول الخيل معهم لو أرادوا، وقد احتوت جوانبه على سُرجٍ كثيرةٍ لإضاءةه. فمشى جلحد والليث في السرداب مسافةً طويلةً حتى وصلا نهايته.

كانت الجهة الأخرى للسرداب فوهةً كبيرةً دون بوابةٍ ولا أقفال، فحرك جلحد بالنار التي معه ليستكشفه، فوجد فوهة البئر تعلوه بمقدار ستّة أذرع، وقطرها من الأعلى كقطر أي بئرٍ كما وصفه لهم نهلان. حوّل جلحد بالشعلة التي معه للأسفل فوجد الماء أدنى منه بقليل، فغرس رمحه بالماء ودهش حين ضرب رأس رمحه قعر البئر، فقد كان ضحلاً ويستطيع الرجل الوقوف فيه.

بقي الليث أسفل البئر يُراقب ويتسمّع إلى الأصوات في الخارج، بينما رجع جلحد إلى الفرسان وأشعل السُرج وأضاء السرداب كاملاً، ثم دخل جميع الفرسان وأغلقوا الباب الخارجي، وبقي عنده فرسان يحرسانه ويُراقبانه. ولما وصلوا إلى الليث، وقفوا جميعاً دون أن يتكلموا وأطفأوا المشاعل التي معهم حتى لا يظهر أي ضوءٍ في البئر. كانت خُطّة الليث

أن يرمي حبلاً مربوطاً بخطافٍ فيتسلقه، لكن مع وجود جلد وفرسانه تغيّرت الخُطة، فقام الفرسان بترتيب أنفسهم كالحرم، وجعلوا من أنفسهم سُلماً يرتقي عليهم الليث وجلد، فصعدا إلى حافة البئر وأخرجا رأسهما، ونظرا حولهما بحذرٍ وصمت، فشاهدا مبنى السجن وشاهدا قصر الويَاص الكبير والمهيّب، وبينهما مبنى كبير يظهرُ أنه للحُرّاس والخدم، وكانت الحركة شبه معدومة فلا يظهرُ أحدٌ يجول في ساحة القصر، والحُرّاس على أبوابه وأسواره.

قطع الليث بخنجره الحبال الملونة التي زينت البئر، والتي جهّزها الويَاص ليستخدمها حال نزوله للسرّادب، فكانت حبلاً سميكةً وفيها الكثيرُ من العُقد المتينة، فسقطت الحبال لقاع البئر، ونزل الليث وجلد بواسطتها ليُجرّياها، وبعدها بدأ التجهيزُ للهجوم المباغت. صعد الليث أولاً ثُمَّ خرج من البئر وزحف على بطنه حتى وصل زاوية مبنى السجن، ثُمَّ تبعه جلد وأولاده الثلاثة، وخرج الفرسان جميعاً من البئر واحداً تلو الآخر، فظلّ نصفهم خلف البئر يخبئون بين الأشجار حاملين أقواسهم وسهامهم بأيادهم، والباقيون كانوا عند الليث وجلد على أهبة الاستعداد. نظر الليث إلى بوابة مبنى السجن فتفاجأ حين شاهد امرأةً تقتربُ منه ومعها سلّة طعام، ولما أقبلت إلى الحُرّاس انحنوا أمامها وفتحوا لها البوابة ثُمَّ دخلت. اعتقد الليث وجلد أنّ ذلك المبنى ليس مبنى السجن، فتحرّكا إلى الزاوية الأخرى للمبنى ليستكشفا أنه وجد حارسين يقفان بزوايته، فتسلّلا خفيةً حتى تمكّنا من الانقضاض عليهما، فقتلا أحدهما وأمسكا بالآخر وأغلقا على فمه حتى لا يصرخ، وسحباه هو والحارس المقتول حتى رجعا إلى موقعهما السابق.

همس الليث بأذن الحارس بصوتٍ خافت: أحسن في تصرّفك حتى لا أغرس هذا الخنجر في نحرِك. ثُمَّ رفع يده عن فم الحارس وقد هزّ رأسه خوفاً.

جلد: ما هذا المبنى؟

تحدّث الحارس بخوفٍ شديدٍ وهو يُتأتى: السجن، إنّه مبنى السجن.

الليث: ولكني رأيتُ امرأةً تدخُله!

الحارس: إنّه الأميرة هند بنت الوَبَاص، فليس غيرها من يدخله من النساء.

جلحد: ولماذا تدخل مبنى السجن.

الحارس بخوف: لا أدري، سمعتُ أنّها مُتيمّةٌ بحبّ قصي بن الغازي وقد زارته في

سجنه من قبل.

إنّها فرصةٌ كبيرةٌ سانحةٌ أمام الليث وجلحد ليستغلّاها، ابنة الوَبَاص داخل مبنى

السجن، ولن يستطيع أحدٌ الاقتراب منهم لو كانت أسيرةً بين أيديهم، والغازي ومن معه

في سجنه في المبنى نفسه. ضرب الليث الحارس على رأسه فأسقطه بعد أن سأله عن

زنزانة الغازي، ثم خلع عنه لباسه ولبسه هو، وبعدها عين هو وجلحد ساحة القصر،

ثمّ مشى مُعتمراً فُلنسةَ الحارس ومُتنگراً بزّيّه، وجلحد يمشي ذليلاً أمامه ويديه خلف

ظهره، كأنّه أحد المساجين المقيدّين. كانت خطواتهما ثابتة دون تردّد، فاقتريا من الحُرّاس

الثلاثة على باب مبنى السجن، فدفع الليث جلحد للأمام وكأنّه يضربه، وصاح بالحُرّاس

أن يفتحوا البوابة، ففتحوها دون أن يرتابوا منهما، وما أن وصلوهم وأصبحوا تحت

البوابة، حتى أطلق جلحد يديه، وغرس خنجريّن بصدري الحارسين وقتل الليثُ الحارس

الثالث بطرفة عين، فأدخلاه بسرعةٍ خلف الباب، ووقف الليثُ مكانهم يُراقب الساحة

وكانّه حارس، ثمّ أشار إلى الفرسان أن يدخلوا المبنى بسرعة، فدخلوا جميعاً وظلّ هو

واقفاً على البوابة. ارتدى ثلاثة فرسان ومنهم مهند ملابس الحراس المقتولين عند المدخل

وتنكروا بها، ووقفوا ثلاثهم على البوابة بينما تحرك الليث ليقود مهمّة إنقاذ الغازي،

فدخل المبني الكبير وكانّه أحد جُنْد الوَبَاص، وجلحد معه يقوم بدور السجن. فوصلا إلى

بوابةٍ عندها أربعة حُرّاس، فأعادوا الحيلة نفسها وقتلوهم قبل أن يسحبوا سيوفهم.

فتح الحراس زنزانة الغازي لهند، فدخلت ومعها سلّة طعامٍ وضعتها أمام الغازي، ثمّ نظرت إلى قصي برفقٍ وتبسّمت والحزن يعتصرها، ولم تكد تنطق بحرفٍ حتى سُمعت أصواتٌ غريبة في هجو السجن. تأهّب الحراس الواقفون على بوابة الزنزانة وتقدّم بعضهم شاهرين سيوفهم لأوّل السّلام لينظّروا في سبب الأصوات ثم لحق بهم الباقون، فلقمهم جلد والليث ومجموعة من الفرسان فقاتلوهم وقتلوهم جميعاً. خرجت بعضُ الأصوات خارج المبنى وتنبّه بعضُ الجُنْد إليها، فمضوا إلى مبنى السجن، وكلما دخلوه يَفْتَحُ لهم مهند البوابة ليدخلوا، فما إن تخطّو أرجلهم داخل المبنى حتى يقتلوهم بصمت، ثمّ يرموهم عند مدخل البوابة.

وفي زنزانة الغازي سمع الجميعُ صوت القتال وأصوات الموت، فذهلوا وخافت هند وأدارت وجهها لباب الزنزانة، فسقط أحدُ الحُرّاس في الممرّ أمامها والدماء تتناثرُ منه. رجعت هند بأقدامها إلى الخلف من شدّة هلعها، دون أن تدري أنّها أصبحت بجانب قُصي، وليس بينها وبينه إلا مسافةً قليلةً. حتى أنّ ثوبها المطرّز لامس قدمه وكتفه. لم تدُم الدهشةُ والهلعُ طويلاً حتى دخل جلد والليث الزنزانة، وسيوفهما تقطُرُ دماً، فدخلها ونظرا إلى الغازي مربوطاً بقبده ذليلاً مكسوراً، ودخل خلفهما أحد أبناء جلد ومعه مفاتيح القيود وقد أخذها من الحراس. أمسك جلد بالمفاتيح وفكّ قيد الغازي وقيد ربيع، ثمّ تحرك لقصي وفكّ قيده أيضاً وأعطاهم سيوفاً ليحملوها. كان الغازي يحارب جلد طوال حياته، وها هو الآن يقتحمُ أسوار الويّاص ليفكّ أسرهم ويُخرجهم من ظلام السجون وظلم الويّاص، وهندُ تقفُ بينهم مشدوهةً خائفةً وبداخلها مشاعر الرضا لتحرير قصي، وبداخلها أيضاً بعضُ الألم لفراقه.

جلد: هيا أيها الغازي، هيا أيها الرجال، ليس لدينا الكثيرُ من الوقت لنخرج من

هنا.

الغازي (بلدّة الحرّية): هيا يا رجال، حان الوقتُ لنرفع سيوفنا.



جلحد: ليث، أمسك ابنة الوَبَاصُ ولا تدعها تصرخ.

أمسك الليث بيدِ هند فحاولت أن تصيح فأطبقَ يدهُ على فمها وأسكتها. فسأله قصي بغضب عما يُريدُهُ بها، فأخبرهُ جلحد أنها ضمانٌ لخروجهم سالمين من العصفوف، فأبى قُصي أن يُضخِّي بحبيبته لخروجهم وأشهر سيفه بوجه الليث وطلب منه أن يتركها. عمّ الزنزانة صمّت قاتلٌ واشتعل الليث وجلحد غضبًا، وأزاحت هند يد الليث من على فمها وقالت: حُذني معك يا قصي فلن أبقى في العصفوف بعد اليوم. أرخى الليث يده وتقدّمت هند عند قصي وأخضت سيفه، ثم قالت: لقد جاؤوا لإنقاذك فيها قبل أن يقرع الحراس الطبول. أخذ قصي منديل هند وربطه على فمها برفق. وأمسك ذراعها وساقها أمامه كالأسيرة.

خرج الجميع من الزنزانة، ووصلوا باب السجن حيث ينتظرهم مهند بن جلحد، فكشف لهم الطريق وتأكّد من خلوها. ركض جلحد والليث بالغازي وربيع صوب البئر، وتبعهم قصي وهند وباقي الفرسان. صاح جنّد الوَبَاصُ وقرعوا الطُبولَ واستنفروا الجنودَ جميعًا، فتراشقوهم بالسهم وهجموا عليهم من مُختلف مواقعهم في ساحة القصر. فأفظع جلحد والليث ومهند فيهم حتى وصلوا البئر بشقِّ الأنفس، فلقبهم باقي الفرسان وأقواسهم جاهزة بأيديهم، فردّوا الكثير من جنّد الوَبَاصُ عنهم، ثم وقفوا أمام البئر وحموهم وتلقّوا العديد من السهام وماتوا وهم يُدافعون عنهم. أنزل الليث وجلحد الرجال على الحبال، الغازي ثم ربيع ثم هند ثم قصي، وبعدها نادى الليث باقي الفرسان أن يقفزوا بالبئر، فقفزوا جميعًا وظلّ جلحد ومعه أحد أبنائه ينتظرون مهند وقد أصيب بكتفه، وتباطأت خطواته، فرجع الليث بسرعةٍ ومعه الفرسان يُطلقون السهام على من يلحقُ به من جنّد الوَبَاصُ، وأمسك الليثُ مهندًا أخيرًا وألقاه في البئر، ثم قفز جلحد وابنه وقفز خلفهم الليث. ركضَ الجميعُ في السردابِ وظلّ جلحد والليث آخريهم، يحملان السهامَ وعبوئُهُما للخلف تحسُّبًا لِلحَاقِ جنّد الوَبَاصُ بهم. ووصل الجميعُ إلى باب

السرداب وكان الفرسان الموجودين هناك قد جهّزوا الخيل لهم فاعتلّوها، وحملوا مهنّد على حصانٍ وكذلك حملوا هند على حصانٍ آخر أمسك قصبي بلجامه. وشدّ قبضتهُ عليه حتى لا يفلتَ منه. تردّدت أصواتُ جُنْد الوبّاص في السرداب، فأمرَ جلدُ الفرسان أن يُغلقوا بابه، فغرسوا سُيوفهم في الثُّراب، ثُمَّ أغلقوه واستندوا عليه بكلّ قوّتهم، وصاحوا بجلحد والليث أن يتركوهم ومهريوا. وعلى الفور انطلقَ الليثُ وجلحد بالغازي ومن معه، وأطلقوا العنانَ لخيْلهم فهربوا، تاركين خلفهم سبعةَ فرسانٍ أشداء، كانت مهمّتهم ألاّ يجتازَ جُنْد الوبّاص بابَ السرداب إلّا على جُثّتهم.

اجتاز الليثُ الطُّرقَ الوعرة بين الأشجار، وظلّ يركضُ بحصانه حتى وصلَ أوّل الطريق خارجَ مدينة العصفوف، والمؤدّي إلى مدينةِ الحرجف، وكان جلد وولدها يركضون آخرَ المجموعةِ وأوسطها ويتناوبون على الدوران حولها حتى لا يُباغتهم أحدٌ من جنود الوبّاص، وظلّوا على خيلهم حتى قطعوا مسافةً طويلةً واقتربوا من شجرة المجنون، فكشفت الطريقُ خلفهم، ولم يروا شُعلةً أو زوالاً يلحقُ بهم، فعرفوا أنّ الفرسان السبعة صمدوا كثيرًا. استقتل الفرسان السبعة رغم فتح باب السرداب، فقتلوا من جُنْد الوبّاص الكثير، وجعلوا جُثّتهم عائقًا لمن يُريدُ اجتياز السرداب والخروج منه، فصرعوا أكثر من خمسين جُنديًا، حتى غزتهم السهامُ والرماحُ وتمكّنت منهم، فأسقطتهم أرضًا فوق الجُثث المتراكمة التي قطعوها وأزهقوا أرواحها.

انتهت المهمةُ بنجاحٍ باهرٍ رغم خسارة مدينة الجوازل خمسةً وعشرين فارسًا من أشجع فرسان كتيبة السُّكاري، الكتيبة التي يُزلزلُ صوتها الأرض حين تمشي، وحين تُستلّ سيوفها للقتال. واحترارَ الغازي من اقتحام أسوار العصفوف، وزادت دهشته حينما قفز في البئر واجتازوا السرداب الطويل، فكيف علموا به! وأكثر ما أجمه عن الكلام كان الموقف الذي لم يتوقّعه أبدًا! أن يمشي بجانب جلد وابن شيحان وهما يحميانه وحريصان على حياته.

اقترَبَ قصي من حصانِ هند فأزالَ المنديلَ عن فمها، ونظرَ إليها نظرةً عطفٍ بعدما كانت هي من تنظرُ إليه كذلك، وبَدَلَ كلاهما نظره للأعلى فشهدا شجرةَ المجنون. ابتسم جلود وهو ينظرُ لهما وللشجرة، فقد وصلوا إلى الجبل الذي ترَبَّعت فوقه، فرمقَ المنديلَ الأحمرَ المعلقَ بالشجرةِ بنظرةٍ حائرةٍ ساخرةٍ، فقد علمَ أنَّ الحُبَّ له اعتبارُهُ ومواقفه، وأنَّ الحُبَّ والجنونَ لا يفترقان أبدًا، فهو من أدخلَ هندَ الزنزانةَ، وهو من جعلها تترُكُ والدها من أجلِ قُصي، وها هو عشقها يجعلها تمشي لأجله سعيدةً بعيدةً عن قصرها، كما فرح جلود بوجودها معهم، لتأخيرِ ردةِ فعلِ الوَبَاصِ خوفًا عليها. وأزالتَ ابتسامه جلود اللحظاتِ المحرجة التي شعر بها الغازي من تصرّف ابنه قصي، فشكره على تضحيته وإنقاذهم من ظُلمِ الوَبَاصِ وخيانتته، وثمنَ تعقله واحترامه الكبير لهم بعدم إخراجهم في ذلك الموقف، وأسَرَ الليث غضبه وكتمه على قصي وترك لجلود الردَّ احترامًا وتقديرًا.

قال جلود: أيها الغازي، أنتم لستمُ مدينين لنا بمعروفٍ، ولا أنتمُ أسرى بيننا، ما أنتمُ إلا أسيادٌ كما كنتم وكما ستظلون. وليس في مقامنا هذا من نيةٍ إلا أن نُوصلكم إلى دياركم آمنين. وقد رأينا أن نأخذ ابنة الوَبَاصِ خشيةً غدره ومُباغتته لمدينتنا، ونحنُ وأنتمُ لسنا بنديٍّ له لو اجتمعنا. هذا كان رأيُنَا، والآن لكم ما تُريدون.

سرعان ما تبدلتَ ابتسامه جلود وتحولت إلى كُشرةٍ عابسةٍ، بعد أن نظر لابنه مهند وهو ممددٌ على حصانه جريحًا، فنكز حصانه بقوةٍ وصاح في الجميع أن يُسرِعوا، فانطلقت الخيلُ وسطَ الظلام، وتابعوا مسيرهم على عجلٍ، وجميعهم متلهّفون بشدةٍ لوصول مدينة الحرجف حاملين البشائرَ لها، حيثُ سيرى جلود والليث شيحان بعد الخوف والقلق العارم عليه، وسوف يرفعان رأسهما، ويرفعان رأس زعيمهم فخرًا بما أقدموا عليه وما أنجزوه. لم يكن الغازي يعلمُ ما وصلت إليه الأمور في مدينة الحرجف، وظلَّ يخشى على شيحان من الخيانة التي تترصُّ به، فقد علم من كلام الوَبَاصِ أنَّ

هناك خائناً غير أصهب يمشي بين أسيااد الحرجف دون وجلٍ ولا سُبهة، واعتقد الغازي في سرّه أن ذلك الخائن هو زيد بن عياد، فلطالما رأى الخبائثة والحقد في عينيه، ولم يعلم أنّ كلّ المواقف الفاصلة واللحظات الحازمة والحرجة التي عصفت بمدينة الحرجف، كان بطلها زيد بدهائه ووفائه، فكان سنداً للجاسم في كلّ مفصل، وتمكّن من كشف الألغاز وحلّها. وجلحد والليث أيضاً، لم يكونا يعلمان عن أمر الصلح والمعاهدة بين شيحان والجاسم، فأخر علمهما كان لقاء سهيل بن عياش ووفد الحرجف. ولم يعلم الجميع أن شيحان الآن محمومٌ ومسمومٌ من خيانة الوباص، وأنّ الجاسم وأسياد الحرجف كشفوا خائناً، لم يسبق لأحدٍ أن شكّ بكرمه وشهامته ورجولته.

كانت كارثةٌ وفاجعةٌ كُبرى للوباص بن ضامر، لم يرى مثلاً أبداً قبل الليلة، فمهمةٌ كتيبة السكارى بقيادة جلحد والليث، عبارةٌ عن مُغامرةٍ كبيرةٍ لا يجرؤ عليها إلا من مات قلبه. فقد أُخْرِقت أسوارُه، وفُضحت أسرارُه، وهزّت الكتيبة عرشه، وزلزلوا الأرض تحت أقدامه، وخطفوا أحبّ بناته وأعلى ما يملكه في حياته، وقلبوا راحته ومزاجه إلى كُتلةٍ من الخوف والجنون والغضب. أعلنت حالة الاستنفار في مدينة العصوف، وخرج الجنودُ كلّهم يجوبون المدينة من داخلها وخارجها للتأكد من عدم تبقي أحدٍ من كتيبة السكارى، ولإغلاق باب السرداب وحراسته، وكان هدفهم أيضاً البحث عن أيّ شخصٍ يُشبهه به، والوصول لأيّ خيطٍ يكشف لهم الخائن الذي فضح سر السرداب. كذلك خرجت كتائب جيش الوباص بقيادة دحام لتقصي أثر الهارين، وكانت أوامر دحام أن يرجع الأميرة هند لقصره دون المخاطرة بسلامتها أبداً. عرف الوباص أنّ كتيبة السكارى سيأخذون ابنته هند لمدينة الجواز، أو يأخذونها مع الغازي إلى مدينة الحرجف، فقد تبين جلياً أمامه أنّ شيحان والغازي قد اتحدا معاً ضده؛ ولذلك لم يعد يأمنُ أحداً من القبائل وأتباعه، وأصبح يشكُّ بأقرب الناس إليه، فمن يعلم عن أمر السرداب إلا وزيره شامان، وكبار الحراس وقائد الجيش، والقتلى الذين حفروه!.

جُنَّ جُنُونُ الوَبَاصِ، وحقَدَ على شَدَادِ كَبِيرِ الحِرَاسِ وِغَضِبَ عليه غَضِبًا عَنيفًا، بسبب تلك المصيبة، وبسبب السماح لابنته هند بدخول مبنى السجن وعدم إخباره بدخولها سابقًا. وقرَّرَ الوَبَاصُ أن يَقتُلَ شَدَادَ حال رجوعه من مهمته، فأمر حارسه الشخصي أن يتجهز لذلك، فطلب شامان من الوَبَاصِ أن يهدأ ولا يثور، وطمأنه بأن ابنته لن تُمسَّ بسوءٍ أبدًا. فليس من عادات القبائل أبدًا أن يؤذوا أسراهم، وأخبره أن الكتيبة التي أنقذت الغازي، لم يأخذوها إلا ليضمنوا هروبهم ونجاتهم، وسيُرجعونها بأنفسهم حال وصولهم لمبتغاهم.

صاح الوَبَاصُ: أحمقُ أنت يا شامان. هل تظنُّ الغازي ينسى ما فعلتُ به، ويُرجعُ إليّ ابنتي!

شامان (بغضبٍ مكتومٍ): هذه أول مرة تشتمني يا مولاي.  
الوَبَاصُ (غاضبًا): أشتمك وأقتلك لو مسَّ ابنتي هند ضُرً.  
شامان (بدهشة): أنا في خدمتك يا مولاي.

الوَبَاصُ: يجبُ أن أقتلكم كُلَّكم على غباكم وتقصيركم، من فضح أمر السرداب؟ وكيف يتجرؤون على دخول ساحة قصري؟ ويأخذون ابنتي أيضًا! تبتًا لكم جميعًا، لن أرحمكم ولن أصفح عنكم. أنا الملكُ الوَبَاصُ ويحصلُ لي هذا! سأقتل شداد لأجعل منه عبرةً تعتبرون بها.

شامان: اهدأ يا مولاي ودعنا ننتظر قليلًا، فلا يملكك الغضب..

الوَبَاصُ (بتملل): الغضب، أيُّ غضب، سأحرقُ الجوازِلَ والحرجف بمن فهم، سأعلقهم من أرجلهم وأقتلع قلوبهم من صدورهم، ولن أترك فيهم كبيرًا ولا صغيرًا ولا رجلًا ولا امرأةً.

شامان: أرجو يا مولاي ألا تثورَ أمام أتباعك وجُنُديك ولا تغضب، فلا تجعل هذا الموقف يُخسرنَا أكثر من هذا، ولا تجعل رجالك يخافونك ويخافون أعداءك فربما يفرُّ

بعضهم، اجعلهم كما هم دومًا بيدلون الغالي والنفيس لرضاك. وأتمنى يا مولاي ألا تُعاقب شدادا وتقتله، فالوقت الآن أحوج ما يكون ليلتف رجالك حولك بثقةٍ وولاءٍ مُطلق.

أفنع شامان الويَاص بعد جُهدٍ طويلٍ وجعله يُفكرُ بالحرب القادمة وقد خسَرَ رهانه على ضرب الجوازِل بالجرجف وقذف الفتنة بينهم، ولا يدري إن قتلَ نعمانُ شيحانَ أم فشل في ذلك أيضًا وقد تأكَّد له أن أصهب فشل بمسعاها.

الويَاص: من تُراه يا شامان كشف سرَّ السرداب؟ أيعقلُ أنّها هند! أنا لم أخبر أحدًا من أهلي عنه.

شامان: كلا يا مولاي، لم تذهب هند إلى الزنزانة إلا لتُطعمَ المساجين، وأنى لها أن تعلم بهجوم كتيبة السكارى المفاجئ.

الويَاص: أكادُ أجن، فمن يكون إذن؟ هل هو دحام، أم شداد؟ أم أحد الحراس الذين راقبوا إنجازَه! ألم تقتلوا كلَّ العُمال الذين عملوا على تجهيزه؟

شامان بحيرةٍ شديدةٍ: إنّه لأمرٌ غريبٌ جدًّا، لقد قتلنا جميع العمال فعلاً. اترك لي أمرَ التحقيق في الخيانة التي حصلت يا مولاي، وسأكشفه في أقرب وقت، علينا الآن أن نُفكر بما يجبُ فعله.

الويَاص: تكلم أنت فلم أعدُ أُطيعُ التفكير.

شامان: لا يا مولاي، يجبُ أن نُفكر كثيرًا الآن، فنحنُ أمام حربٍ ضروسٍ تستدعي منا التعقُّل والحكمة. يجبُ أن نعلمَ بدايةً ما حصل بالجرجف مع شيحان، وما سيقوم به أهل الجرجف والجوازِل وما يُخطِّطون له، وعلينا أن نعلم أين سيأخذون الأميرة هند. سننتظرُ حتى يرجع دحام وشداد ونجتمعُ معهم ونرى ما يرجعون به من أخبار.

الويَاص: تبًّا لك أيها الغازي، كان عليّ أن أقتلك.

شامان: لن ينفعنا الآن الندم على ما فات، علينا الاستعداد لما هو قادمٌ يا مولاي.

بعد ساعتين وأكثر، رجع دحام قائد الجيش، وشداد كبير الحراس إلى القصر، فدخلوا ووجوههم سوداء شاحبة، وأخبروا الوَبَاصُ بما عملوا وعرفوا، فأغلقوا السرداب بإحكامٍ ووضعوا الحراس عليه كما أوصوا به، وأحصوا عدد المقتولين؛ فكانوا تسعينَ رجلاً، وحوالي أربعينَ جريحاً من الجند والحراس، بينما كان عدد المقتولين من كتيبة السكارى خمسةً وعشرين رجلاً فقط. وعرفوا أنّ الهاربين يتجهون إلى مدينة الحرجف كما قصّوا آثارَ خيلهم، غير أنّ هناك آثارَ حوافرِ حصانٍ خرج من العصوف إلى الجوازل، وذلك بعد المعركة التي صارت، ويظهرُ من آثاره أنّ راكبَهُ كان مُسرِعاً، وقد اشتبهوا بعازار بن نهلان؛ لأنّه كان في المدينة وقد سلّم رسالةً إلى الحراس على باب القصر. استشاطَ الوَبَاصُ غيظاً من الأخبار التي سمعها، فعجبَ كلّ العجب بأن يقدر ثلاثون رجلاً من جيش الجوازل، على أن يقتلوا ويجرحوا هذا العدد من جنده، ثمّ طلب من دحام أن يقرأ له الرسالة التي أرسلها نهلان مع ابنه. وكما كانت الرسالة التي كتبها نهلان قرأها دحام، وفيها: (اعلم أيّها الملك المبجل، أنّ رجال الجوازل أصبحوا يشكّون بي هذه الأيام، فقد أُطيلُ عليك بالأخبار. أمّا وإن وصلتُ كتابي هذا فاعلم أنّ الجوازل والحرجف قد تمّ تحالفهم على ما ظهر أمامي، فقد زارنا وقدّ من الحرجف واجتمعوا مع أسياد الجوازل وخرجوا مُتَحايين مُسلمين.. خادمكم الأمين - نهلان).

الوَبَاصُ: إذن فقد تحالفوا!

دحام: لا غنى عن الحرب يا مولاي.

شامان: أظنُّ أنّي كشفتُ الخائن يا مولاي، إنّه نهلان!.

الوَبَاصُ بدهشة: ماذا؟ أتقصدُ أنّه كان يعلمُ عن السرداب!

شامان: قطعاً كان يعرف مُذ بدأنا حفر السرداب، وأخفى ذلك خشيةً أن يلحق به ما لحق بمن عملوا قبله، وقد طلبتهُ ليعمل في السرداب قبل أن ننتهي منه، فطلبه شيخان فجأةً وأخذاه وأهله معه.

الوَبَاصُ: وكيف استنتجت ذلك يا شامان؟

شامان: إنَّ هذه أقصرُ رسالةٍ يبعثُ بها نهلان إلينا، وهي ليست كما عهدنا قبلها، وموعدها غريبٌ إذ جاء بها ابنه عازارُ بمنصف الليل، وما كُنَّا نستقبلُهُ إلا نهارًا. وهذه الرسالةُ القصيرةُ والموجزةُ تتحدّث عن أمرٍ عرفناه قبل أن نقرأها. أجزُمُ أنّ عازارُ جاء وسلّم الرسالة ليتأكّد من سيرِ مهمّة إنقاذ الغازي فقط، فلمّا انتهت خرج من المدينة يحملُ الخبرَ مُسرّعًا للجوازل، وأثارُ خيله تدلُّ على ذلك كما ذكر دحام. وتلك يا مولاي كانت خُطةً شيحان التي حبكها بإتقان، فقد أرسل نهلان رسالةً لنا وفيها أنّه ذهب ليتحالف مع الغازي، في الوقت الذي خرج فيه الغازي إلينا، فقمنا بحبسه خشيةً أن يتمّ التحالف، وعرف شيحان ذلك، وعلم أنّنا سنسجنُ الغازي أو نسجنُهُ إن سلّمه أهل الحرجف لنا. وما هو ولدُهُ يُخرُجُ عدوهم اللدود الغازي من ظلام سجوننا، قبل أن يفتدي سادة الحرجف شيحان به. لقد سبقنا ذلك الماكر بتفكيره بخطواتٍ عديدة، ويجب علينا الحدز من القادم، ولنأمل أن يُفلح نِعمان بمهمته.

علم الوَبَاصُ أنّ قوّته ليست كما حسبها دومًا، وأنّ جيشه المهيب الذي يتفاخرُ به، يقفُ أمام مقاتلين شرسين لا يُشقُّ لهمُ غبار، وليست إلا الحيلةُ والدهاءُ إلا أفتك سلاحٍ عندهُ ضدهم، ففرزَ أن يقطع الماء عن الحرجف كما قطعها عن الجوازل، ويُرسِل إلى كُلِّ أتباعه من أسياد المدن والقبائل ليُحاربَ بهم الحرجف وشيحان، وكان على يقينٍ أنّ ابنته لن تُمسَّ بأذى عند الحرجف، فهم وإن طحنت الحربُ عظامهم لا يقتلون النساء ولا يسبوهنَّ أبدًا. وشامان الداهية الذي كشف خُطط شيحان وعرف قوّته وحنكته، لم يُدهش من نجاحه فيما حقّقه لهذه اللحظة، لكنّ عليه أن يُعيد حساباته في كلِّ الجوانب، ليتمكّن من القضاء عليه أولًا، حتى يحمي مملكة العصوف ويبقى ملكها على كُرسية دون خوفٍ أو قلق. وتمّ اجتماعُ الوَبَاصُ في قصره تلك الليلة، فانتهوا إلى أن يترتثوا حتى يحضر حلفاؤهم، ويُتظر بمهمّة نِعمان إن نجحت أم لا، وما هي نتائجها التي ستعلّق



على مهمته! ولم يكونوا يعلمون أن نعمان دُفِنَ في يومه بعد أن كُشِفَ الستار عن وجهه. فرجعَ كُلُّ منهم إلى فراشه الدافئ المريح، ولم يُغْمَضَ لَهُم جفنٌ أبداً. وصل عازار قبل طلوع الفجر إلى مدينة الجوازل، فدخلها كالبرق حتى وصل بيت شيحان فنادى بصوتٍ عالٍ إلى أن خرج جميعُ من في البيت رجالاً ونساءً، وخرج قيس من بيت الضيافة أيضاً.

صاح عازار بأنفاسه المتقطعة: بُشراكم يا أهل الجوازل، بُشراكم. بدور: لك البُشرى فتحدّث.

عازار: أنقذ رجالكم الغازي من سجن العصوف، وخرجوا بهم إلى الحرجف أخدين معهم هند بنت الوَبَاصُ أسيرةً. صاح الرجال فرحاً وسروراً بنجاح المهمة واقتحام أسوار الوَبَاصُ، والنجاة من جيشه وجبروته وتحطيم عزائمهم، وهنأوا أنفسهم بنيل غايتهم ومرادهم، ثم هنأوا قيس على نجاة عمه الغازي من قبضة الوَبَاصُ.

سألت بدور بقلبي بالغ: من قُتِلَ من رجالنا؟

عازار: قُتِلَ أكثر الرجال؛ لكنهم لم يمسكوا بالليث ولا يجلحد.

فَرِحَت النساء بما سمعن عن الليث وجلحد، ووعدت بدور عازار بأن تُعطيه ما يستحقّه على تلك الأخبار المفرحة، ثم سألت بدور: وكيف أخذوا ابنة الوَبَاصُ أسيرةً معهم؟

عازار: ذلك ما لا أفهمه، فهم لم يدخلوا قصر الوَبَاصُ، إنما غزوا على مبني السجن، وأغلبُ الظنّ أنّ ابنة الوَبَاصُ كانت في ساحة القصر، فأخذوها رهينةً حتى ينفذوا. أسعدَ الجميعُ بالأخبار المفجعة عن الوَبَاصُ، وبنجاة الغازي وسلامته على أيديهم، وحننوا على موتاهم الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل أنبل الغايات، فكانت تعزيّتهم موتهم المشرف لأهلهم، والقاسية على قلوب أعدائهم. أمرَ ضرار جيش الجوازل أن يتحصّر

ويتأهب لردّ فعل الوَباص وأوصاهم ألا يغفلوا عن مراقبة جيشه، فقد دخلوا مرحلة الحرب ولا تراجع عنها مُطلقًا، وسيموت بعد اليوم الكثير من الرجال.

طلعت خيوط الشمس وصاح أوس في الموجودين بقاعة القضاء وأيقظهم من نومهم بعد أن شاهد شيحان يدخل عليهم وصحته بخير، وتفاجأ الجميع وفرحوا لرؤيته سالمًا، وقد باتوا ليلتهم المؤرّقة في مجلسهم يأملون أن تتحسن صحته وينجو من السمّ الذي دخل معدته، فوقفوا واستقبلوه وهنأوه بالسلامة وطلبوا منه أن يستريح. رفض شيحان أن يجلس، وطلب من الجميع أن يخرجوا معه لاستقبال الغازي على أبواب الحرجف، ثمّ نظر للعراف نظرةً غريبةً وأكد على ذهابه معهم. مشى شيحان أمامهم إلى باب المجلس واحترار الجميع من إصراره، وتعجّبوا من طريقة كلامه مع العراف الذي صمت وشحب وجهه كمن أوشك أن يسقط على رأسه. تحرك الجميع ووقفوا بجانب شيحان، ثمّ جهّزوا الخيل والجُند ليخرجوا معه لمضارب مدينة الحرجف، ولم يكونوا قانعين بأنفسهم من نجاة الليث ونيل مُرادَه بإنقاذ الغازي، لكنهم مضوا معه حتى لا يُظهروا شكّهم وعدم قناعتهم بقوة ابنه وعزيمته.

في الطريق إلى بوابة الحرجف، أخبر شيحان الرجال أنّ الغازي سيرجع مع واحدٍ من اثنين، إمّا جلد وإمّا الليث، فاستنكروا عدم إخبارهم بأمر جلد، فأجابهم أنّه تعمّد تأخير الخبر عنه، ورغم ذلك فلن يتأخر عن اللحاق بابنه حال علمه، فسوف يقتحم السرداب معه أو يموت دون تحقيق المهمة، فالغازي قادمٌ لا محالة. وقف شيحان عند مضارب الحرجف، وترجّل عن حصانه ثمّ دنا من شجرةٍ عاليةٍ اختارها من بين الأشجار، فنظر في الأرض من حوله، والعراف يحدّجه بعينه الواحدة ويُراقبُ حركته، وعيونُ الجميع تتمخّصُ نظراته الحائرة وهو ينظرُ إلى شيحان وقد جلس عند جذع الشجرة فطلب إليهم أن يزلوا هناك، فزلوا عن خيلهم وجلسوا بجانبه، ونزل العراف عن حصانه

وساعده الحراس حتى أخذ مجلسه بينهم. نظر شيحان للعراف كمن يحملُ أُمًّا في صدره  
وينتظرُ لحظةَ خُروجه، ثم يبدلُ نظراته إلى الطريق القادم من جهة العصوف.

اختار شيحان الموقع الذي قُتل فيه حنظلة بن عمران، قبل ستة عقودٍ ماضية،  
والذي قُتل فيه بيدي كلِّ من صخر والد شيحان والريبعة والد جلود، وقد عجبَ  
الجميعُ من سبب اختياره لهذا الموقع خصيصًا، فظنّوا أنّه أرادَ أن يلقى الغازي هناك،  
ويتصالحا بالمكان الذي فرّق بينهم للعقود المنصرمة. إلا العراف، فكان حائرًا وليس على  
عادته، وكأنّه ينتظرُ عقابًا وحسابًا عسيرًا.

حضر رجلٌ من أهل الحرجف إلى الشجرة يبحثُ عن الجاسم، فلما رآه أخبره أنّ  
الماء قُطع عنهم، فعرف الجميعُ أنّ الوَبَاصُ قد اهتزّ عرشه، والمهمة قد تمّت ولكن  
النتيجة مجهولة! ومكثَ الجميعُ أكثر من ساعتين وهم ينتظرون أيّ خبرٍ، حتى لوحَ بعضُ  
الجنود براياتهم، وصاحوا لأسياد الحرجف أن يلتفتوا لهم، فلما شاهدوهم عرفوا أنّ  
لحظة انتظارهم تحققت والفرحُ قادمٌ صوبهم، فقد كان الجندُ يرفعون الرايات البيضاء  
ويقفزون فرحًا كالمنتصرين بحرهم. نهض الجميعُ وأخذوا يمشون صوبَ القادمين  
ليُلاقوهم، وظلّ شيحان مكانه والابتسامةُ تعلو وجهه المرهق، فانتبهوا له ثم عادوا  
لينتظروا معه. ومرّت دقائقٌ ثقيلةٌ حتى ظهرت الخيلُ وهي تعفرُ الأرضَ بحوافرها، وعليها  
أحد عشر راكبًا، فقام شيحانُ من أرضه ووقفَ في منتصف الطريق حتى وقفت جميعُ  
الخيالِ أمامه. أزاح جلود والليث اللثام عن وجوههم، فتبسّم شيحان والدموعُ بعينه  
توشكُ أن تهمزَ فخرًا وفرحًا، ونزل الغازي وربيع بن مالك عن جواديهما، فلقبهما الجاسمُ  
وأهل الحرجف وعانقوهم بحرارة، وكذلك فعل جلود والليث مع شيحان، لكنهما لم  
يرتاحا لمنظره وصحته المتدهورة، فكتما قلوبهما وما سألا عن سبب تغيّر لونه وشحوب  
وجهه.

أخذ سوارٌ مهند بن جلود إلى بيت ضيافة الغازي على عجلٍ ليعالج جراحه، بينما أنهى الغازي سلامه مع أهله، ثم توجه إلى شيحان ونظر إليه نظرة العطشان والعريان، ولم يُعجبه شكله وضعف صحته، فلما وصله فتح ذراعيه وحضنه، وأجهش بالبكاء ثم أصر على أن يُقبّل رأسه، فردّ شيحان القبلة له أيضًا، ثم احتضنا مرةً أخرى، فصاح الرجال ملء حناجرهم مُرحبين بالصّلح وفرحين بنجاة الغازي، ومهلّين لفروسية الليث وجلحد. ثم التفتوا لقصي فسلموا جميعهم عليه، وعجبوا لوجود ابنة الوَباص معه حتى علموا عن قصتها. ودُقّت الطبول وهلّل الجنود والموجودون، فخرّج أهل الحرجف كلّهم عن بكرة أبيهم رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، لاستقبال سيدهم الغازي، وخرجت معهم آرام وابنتها وداد. فلما اجتمعوا جميعًا أمام شيحان والغازي، صاح الغازي بأعلى صوته للجميع، أنه لن يردّ جميل شيحان مهما فعل، مُتمنيًا أن يُعوضوا جميعًا عن كلّ الأيام السوداء التي تحاربوا فيها.

كُلّ الدموع التي انهمرت كانت ظاهرةً للعلن، إلا دموعُ آرام؛ فقد بلّلت وشاحها الأحمرُ الذي غطّى وجهها وهي تنظرُ إلى شيحان المسموم، وهو يقفُ أمامَ عينها بين الجميع سالمًا مُعافي، وهم يهلّلون باسمه فرحًا وفخرًا بوقوفه معهم. سرحت آرامُ وهي تُشيعُ عينها برؤية عشيقها، لقد كبرت يا شيحان لكنك بقيت كما أنت، تحملُ النظرات نفسها و الابتسامة الدافئة ذاتها.

## الفصل السابع

### السُّرُّ الدِّفِينُ

انتهى الصراع الذي استمرّ ستة عقود بين الحرجف والجوازل، وفرّق الجاسم الجموع بناءً على طلب شيحان، فبقي سادة الحرجف والليث وجلحد عند تلك الشجرة التي اختارها شيحان، فتبادلوا الأحاديث وعلم الغازي كل الأخبار التي أخفيت عنه، فسمعها هو وابنه قصبي وربيع بن مالك وكأتهما طلاسَم تُفَكُّ تَبَاعًا حتى استدركوها وأشربوها في أنفسهم ثمّ عقلوها. لم يتوقع الغازي أبدًا أنّ نعمان هو الخائن المخفي الذي أشار إليه الوَبَاصُ، وأنّ زيد بن عياد هو الرجل الوفيّ الذي ساند أخاه الجاسم، وخاف جلحد والليث كثيرًا على شيحان من أثر السمّ حتى طمأنهما على حالته.

شكر الغازي شيحان مرّةً أخرى على عظيم موقفه، وربّت على كتف الليث بحرارة، وحيّا جلحد بن ربيعة على رجولتهما وبسالتهما ومن كان معهما، ثمّ أوكل شأن الحرب إلى شيحان جملةً وتفصيلاً، وجعل نفسه ذراعًا له يفعل بها ما يشاء، وكذلك أيضًا فعل الجاسم وباقي الرجال بكلّ ثقةٍ ومحبة. فأصبح شيحان في مجلسهم هو الزعيم الوحيد لمدينتي الحرجف والجوازل، وأصبح هو صاحب الرأي الأول والأخير فيما ينوي عليه، ولن يجد منهم إلا السمع والطاعة والتضحية. ففرح جلحد بمآل الأمور، وتمنّى الليث لو كانت عمتهُ بدور حاضرةً، فتنظر إلى أخيها كيف يجلسُ بين أسياد الحرجف وهم يعقدون عليه الآمال، ويرونه الزعيم المطلق في حاضرهم ومستقبلهم، والمخلّص لهم من طغيان الوَبَاصُ وجوره، والملك القادم إلى المنطقة.

بدأت الأسئلة تُغيّر مجرى الجلسة، فانتقل الكلام من نقل الأخبار وانسراح الصدور، والعزاء لمن ماتوا ودخلوا القبور، إلى الحرب والتجهيز لها وحساب الجيوش الموائية والمعادية، والأطراف التي لا يُعرفُ موقفها بشكلٍ مُعلن. كان النقاش أشبه بالفوضى، ومصيرُ الحرب أقرب للبلوى، فأصبحوا أمام أكبر مُعضلة تُورّقهم: الماء، فمن أين لهم الماء والوَبَاص قد قطعها عنهم! وأبارُ الجوازل بالكاد تكفي أهلها أشهرًا معدودة! نظرَ الجميعُ لشيخان عند ذلك السؤال، وطلبوا منه توضيحَ خطّته لتفادي تلك المشكلة، وصمتوا جميعًا إزاء صمته وقد غاص في نظره يتأمل في العراف الذي يصرّفُ الأُنظار حوله ويُبعتها عنه.

شيخان: أَلن تسألني عن الماء أيها العراف!

جحظت عينُ العراف وصمت قليلاً ثم قال: سألتك أكثر من مرّة عنه فلم تُجِبني.

شيخان: ولم لا تسألني عنه الآن؟

غضب العراف: ويحك أيها الخبيث، قد علمتُ أنّك تُخفي سرّك اللعين، فتكلم.

صمت شيخان والعراف، فصاح زيد: ما هو سرُّ الماء الذي تُخفيانه عنّا؟ أَلن تتكلّم!

شيخان وما زال يحدّجُ العراف بنظراته الحادة: إن الماء موجود، لكنني أريدُ من

ياقوت أن يتكلّم بما عنده أوّلاً.

وقع الصدامُ بين شيخان والعراف أخيراً، ويبدو أنّه وصل إلى مرحلة النهاية، فتفاجأ

الجميعُ من سؤال شيخان للعراف خصّيصاً عن الماء، وقد قلبت الموازين بينهما، فأصبح

الذي يخشى السؤال هو العراف، بعد أن كان لحوحاً عليه.

الجاسم: ماذا عندك أيها العراف؟ تحدّث.

العراف: سُحَقًا لكم، هل وليتُم شيخان أمركم وخنعتُم له.

شيخان: لماذا أخفيت هذا السرياً ياقوت؟

العراف: أيها المخادع، ولم لم تكشف عنه أنت؟

شِيحان: وكيف أَكشِفُ عنه وأنا عدوكم منذ عقود! لم أخفيته أنت عن أهل مدينتك؟

الغازي: ما هو هذا السر؟ تكلم أيها العراف.

أوس: إن لم تتكلم أجبرتك على الكلام يا ياقوت، فتحدّث بنفسك خيرٌ لك.

العراف: لن أتحدّث إليكم بشيء أبداً، ها هو شِيحان عندكم، فليُطلعكم على ما يشاء.

نهض العراف من مجلسه وقدماه بالكاد تحملاه، وكان يُريدُ مغادرة المكان دون أن يتكلم. فنهض شِيحان وتحرك إليه وأمسكه وأجلسه مكانه غصباً، ثم أمسك بوجهه وسط ذهول الجميع من تصرفه، وشدّ يده على وجهه، ونظر في عينه الواحدة وهو يحاول التملّص منه، حتى وقع بصُرُ العراف خلف الشجرة التي كانوا عندها. نظر شِيحان لذلك الموقع وتفحصه ملياً، ثم نزع يده عن العراف بشدّة، وتقدّم إلى المكان الذي حطّ بصره عليه، فجمع بعض الأحجار ورتّبها فوقه، ثم عاد وجلس مكانه بكل هدوء.

شِيحان: كُنْتُ أنتظرُ هذه اللحظة دهرًا، وها قد آن أوّأها.

الجاسم: أن أوأن ماذا؟

شِيحان: السرّ الدفين في هذا المكان، هو سببُ حُروبنا وسببُ شراراتها، ولم أكن أعرف الموقع تمامًا حتى نظر إليه العراف بعينه القبيحة. ولذلك حاولت يا ياقوت قتلي حينما كُنْتُ صغيرًا هنا في الحرجف، وتمنّيت أن تُقتلُ أختي بدور أيضًا، وفرحتُ أعظم فرحةٍ حينما خرجنا من هذه المدينة، فودّعنا بابتسامتك الكريهة. لقد احترتُ بصحّة هذا السرّ سنينَ طويلةً مُنذُ أخبرتني به أختي بدور، والآن لم يعد سرًّا ولا حكرًا على أحد، وقد أيقنتُ أنه صحيحٌ منذُ سألتني عنه أوّل ما جلستُ معك، وزاد يقيني كلّما زاد إلحاحك، وانتهى الشكُّ عندي حينما وصلنا هذا المكان صباحًا، ورأيتك تنظرُ إلى تلك الشجرة فاخرتُ أن نجلس عندها، حتى سقطت عينك القبيحة الآن على السرّ الدفين.

العراف (بصوتٍ حاقِدٍ ضعيفٍ): إنَّك لن تُخْرَجَ لنا إلا اللعنة والموت.

شيحان: يتوجَّب علينا أن نحفرَ حتى نتأكَّد مما سيخرُجُ لنا، اطلب من الحُرَّاس أن يحفروا بذلك المكان يا أبا قيس.

أمر الجاسم الحراس أن يُحضروا الفؤوس والمعاول بسرعة، ثم التفتَ إلى شيحان وسأله: وهل هُناك ماءٌ في هذا المكان؟!

شيحان: أظنُّ أنَّ ما فيه يروي أرضَ منطقة رأس الخيل كلَّها.  
العراف: تَبَّأ لكم، سوف تحفرون قبوركم بأيديكم.

جَنَّ جنون العراف وهاج وأطالَ لسانه على شيحان وعلى الجميع، فكان كالثُعْبَان حين ينفثُ سمومه، وأصبح يتكلَّم بكلامٍ غيرِ مفهوم، واشتدت حركته وتقلُّبه، وكأنَّه يجلسُ على جمرٍ يحرقُه، فحار الجميعُ من سلوكه وكلامه، وشيحان ينظرُ إليه بابتسامةٍ واثقةٍ قاهرة. قام أوس فأمسك بالعراف وألجمه في مكانه، وربط يديه أمامه بمنديله، فظهر وجهه القبيح، ثم ربط فمه بمنديلٍ آخر وأخرسه عن الكلام. استقبل الجاسم الحراس بعد أن رجعوا بعُدِّ الحفر، ووقف عندهم ثم أراح الأحجار التي رتَّها شيحان وأمرهم أن يحفروا مكانها. بدأ الحراس عملهم فضربت الفؤوس الأرض، والعراف ينتفضُ جسده عند كلِّ ضربةٍ، وكأنَّها تنزلُ في صدره ونحره.

الجاسم: إن كان تحتُ هذه البُقعة ماءٌ فلما أخفاها عنَّا العراف؟ وأنا لك معرفةٌ ذلك يا شيحان!

زيد: تكلم يا شيحان، فقد صعقتنا بهذا السرِّ.

استند شيحان إلى الشجرة، وأخذَ ينظرُ إلى مكان الحفرِ وإلى القائمينَ عليه، ونظرَ إلى العراف وهو يعترضُ الآلةَ وأوجاعه، ورأى الحيرةَ والدهشةَ تملو وجوه الحاضرين؛ فلم يُصدِّقوا أن يخرُجَ الماءُ من أرضهم التي يجلسون فوقها وقد عانوا دهرًا وهم يردون الماءَ من الوديان البعيدة.



شيحان: اختلفت الروايات حول مكان الماء هذا، فقد قالوا إنَّ أحدَ أجدادكم ملكٌ من الفراسة ما جعله يعلم بوجوده هنا، ربما من لون الجبال أو من رائحة التربة، أو من النبات الذي ينبت فيها، وذكروا أنَّ عالمًا أو كاهنًا مرَّ بهذا المكان، وأخبر أهله أن هذه المنطقة تختزنُ تحتها الماء الكثير. والقولُ الأغربُ أخبرني به جدي مطلق، فقد ذكر لي أنَّ من سلفه من شرب ماءً هنا، لكنهم طمروا مكانه وأخفوه قبل رحيلهم، وقد رحلوا عنه لأنهم ذاقوا الويلَّ والعذابَ جزاءً استخراجِه، فما استخراجُه حتى حلت عليهم الحروب والغزو وقُتل أكثرهم، ولذلك عدّوا هذا المكان ملعونًا، والماءُ يجرُّ البلاءَ والدماءُ على من يستخرجه، تمامًا كما يعتقدُ العراف ياقوت.

الجاسم: لذلك كان يقول لنا العراف إننا سنحفزُ قبورنا بأيدينا، لقد عرف بأمر الماء ولم يُخبرنا به، سُحِقًا لك أيها العجوز الخرف، سوف نموت إن لم نجد ماءً هنا، فالحرب واقعةٌ لا محالة. وكيف عرفتَ مكان الماء يا شيحان!

شيحان: إنَّ أوَّل من حفروا بهذا المكان سرًّا، هم والدي صخر، والربيعة والد جلد، وحنظلة بن عمران، ورجلان من أبناء الحرجف. وقد اتَّفَقوا جميعًا أن يجعلوا أمرهم سرًّا بينهم، حتى لا ينتقل خبر بئر الماء إلى ضامر والدي الوَبَاصُ، الذي كان يسعى أيامها لِيَتَزَعَمَ القبائل كلها. ولما حفروا تلك الليلة ووصلوا إلى الماء، ولمستهُ أيديهم وذاقوا عذوبة طعمه، وتأكدوا من وجوده بعمقٍ كبير، انقلبت نيّة حنظلة فقرّر أن يُبشّر ضامر بوجود الماء، ليكون أقرب الناس إليه حين يترع على سيادة منطقة رأس الخيل، فيعلو شأنه بغلوشان ضامر، وأمام تبدل نيّته؛ نشب الخلاف بينهم فتقاتلوا وقُتل حنظلة والرجلان الآخران بسيوف والدي صخر والربيعة. لم أكن مولودًا آنذاك وكانت بدور في السادسة من عمرها، تنام مع أمي الرباب في بيت جدي ورنه، فهرع لهما والدي وهربوا من بيت جدي ورنه. ولما وصلوا هنا، شاهدت بدور آثار البئر والجُثث على الأرض والربيعة

ينتظرهم، فهرب والدي بأمي وبدور إلى الجواز، وترك الربيعة ليُخفي مكان البئر، ويُلقِي بالجُثث عند مدخل مدينة الحرجف.

أخبرتني بدور أنها شاهدت العراف حينما هربوا تلك الليلة، وقد عرفته حينما رجعت مع أمي إلى مدينة الحرجف بعد مقتل والدي. وقد سمعت بدور حديث الربيعة مع والدي وحدهما، بعد أن لحق بهم إلى الجواز ودخل بيتنا تلك الليلة، فعلمت أنه طمر البئر، وحمل الجُثث إلى مدخل المدينة، وقد رآه العراف وهو يحملها. ودارت الحروب بيننا طوال تلك السنين، ولم يكشف العراف سببها أبدًا، وظلّت بدور تستيقظ كل ليلة على كوابيس وأحلام مزعجة حول هذا المكان، وما أخبرتني به وبكرهها له وخوفها منه إلا حينما خرجنا من الحرجف مطرودين، فأشارت هنا بأصبعها وهي ترتجف، وأخبرتني عنه لتستريح من حمل سرّها الثقيل، ولطالما شاهدت في هواجسها وعاشت في أحلامها مشاعر الخوف والصور المرعبة لتلك الليلة السوداء الحالكة، فظلّ منظرُ الدماء عاليًا في عقلها وما نستته أبدًا.

انتهى حديثُ شيحان، وكانت تلك القصة صادمةً للجميع، فذلك هو السرّ الذي تحدّث عنه لأهل الجواز قبل أن يسلم نفسه للحرجف، والذي أرقّ الليث وجلحد وجميع أهله كبارًا وصغارًا. كان وقع السرّ الدفين كبيرًا على الجميع إلا العراف، فظلّ يمزّ برأسه يمينًا ويسارًا كمن أصابه الصرع، وبدأ على جلحد الألم بسبب كتم ذلك الأمر عنه وهو أقرب الناس إلى شيحان.

شيحان: أرى سخطك عليّ يا جلحد إذ لم أخبرك بأمر البئر، وقد أخفى والدانا ذلك عن الجميع لسبب يعلمانه، فلم يعلم أحدٌ بأمره إلا بدور وعن طريق الصدفة. إنّه حملٌ ثقيلٌ حتى تحمله معي كلّ تلك السنين يا جلحد، ليس انتقاصًا من قدرتك أو رجاحة عقلك؛ لكنك إن حملته علقّت بخيارين لا ثالث لهما، وكلاهما مرٌّ، فإمّا نقاتل الحرجف قتالًا يهينا أو يُهيمهم، أو نصالحهم ونُخرج الماء معًا. فأيهما كُنت ستختار لو عرفت بشأن

الماء! هل ستُخبر أهل الجوازل أنّ علينا أن نُصالح! أم تُخفي عنهم ما تعرف!.. لَكُنْتُ عددتُ نفسك خائناً أمامهم لورسمتُ بعقلك حروباً لا يعلمون أسبابها ونواياها، وذلك ما أخبرني عن زعامة الجوازل. هذا الحملُ ثقيلٌ جداً وجعلني أعيشُ صراعاً مع نفسي، فحملتهُ وحدي ورضيتُ بوزره وألمه يوماً بعد يوم، أما وقد أصبحنا في خندقٍ واحدٍ، فقد حانت ساعتهُ، واستحقَّ أن يكون سببَ وحدتنا ومصالحتنا بعد أن كان السببُ الخفي في تفرقتنا طوال هذه السنين. سنخرجُ الماء من هُنا ولن نخشى تحكّم الوَبَاصُ بمنطقة رأس الخيل بعد اليوم، وسأكمل ما لم يتمكن والدي صخر من تحقيقه.

نظر جلدك إلى شيحان وأوماً برأسه رضاً وقناعةً بعد أن سمعَ صراحتَهُ ووضوحه في الكلام، وأدرك أن هذا الوزر لا يكمنُ في حملة، بل بالصبر والإعداد لساعته وحينه، حين تجتمعُ القلوب والنوايا الصادقة مع العزيمة والهدف الأسمى، ولا يشكُّ أحدٌ بالمرء والخيانة من الطرف الآخر وتُعدمُ الأنايَةَ بينهم.

الغازي: لقد ظلمتُك يا شيحان، وظلمتُ أهلي وأهلك، فأخرتُ هذه الساعة التي تتصافى بها القلوب ويجمعُ فيها الكرامُ بالكرام، وتتحدُّ ضدَّ الخائن والغادر اللئيم. فامض يا شيحان بأيِّ أمرٍ فلن نكون إلا سيوفاً بيدك.

زيد: ألا إنك قد صبرت وتحمّلت يا شيحان، وكُنْتَ أنتَ الأهلُ لهذا الصلح، ورُجِلَ المواقف العظام، فهينياً لنا أن تكون بجانبنا، ولعلنا نُعوّضُ ما فاتنا من قتالٍ وآلامٍ.

ظَلَّتِ الفؤوس تضربُ الأرض وتحفرُها، والجميعُ ينتظرون بفارغِ الصبر والعطش لأن يرتووا من الماء العذب الذي سيخرجُ لهم من باطنِ الأرض، فلما تأخروا بالحفر ونزلوا إلى عمقٍ كبيرٍ، بدأ الشكُّ يستحوذُ على بعضهم، وتراخت الفؤوس بيد حاملها وقد ضربتهم الشمسُ بلهبها الحار. قام شيحان من مجلسه، ومشى باتجاه الحفرة الكبيرة التي أُنجِزَت ووقف عليها، وتوالى الرجال خلفه ووقفوا بجانبه لينظروا فيما تمّ حفره.

وصل الحفّارون إلى صخرة كبيرة فضربوها بقوة وتتابعوا في ضربها فما انكسرت ولا تزعزعت، فأعيوا واستياسوا منها ونالهم التعب واليأس كما نال بعض الناظرين إليهم. ربط شيحان نفسه بالحبل، ونزل إلى الحفرة العميقة رغم طلب الجميع منه أن يُريح نفسه، ولما وصل إلى الحفّارين، أخذ فأساً ثم خلع سنّه الحديدي عن خشبته، فأمسك به وثبتت منقاره في وسط الصخرة بكتنا يديه، ثم طلب من الحفّارين أن يطرقوها بالمهذات، فظلّوا يطرقونها وهو يُمسكُ بها حتى تصدّعت الصخرة، فواصلوا الطرّق حتى انشقت. تراجع شيحان وطلب منهم أن يُخرجوا الصخرة، فربطوا جزءاً منها ومثّعوه بالحبال، وجعلوا البغال تسحبها حتى خرجت، فربطوا الجزء الآخر وظلّوا يسحبونه حتى رفعوه من مكانه، واذ بالماء ينساب أمامهم، فصاحوا جميعاً فرحاً. انهمر الماء بين قدمي شيحان، وانهمرت الدموع فرحاً لرؤيته، لقد صدّقهم شيحان وفجّر الماء أمامهم وخرج بغزارة، فأوقفوا الحفر وخرجوا من قعر الحفرة، ثم شربوا من الماء وأثقلت جفونهم كأنما ثملوا، فرقصوا وهلّلوا كالمجانين والسكران. وقف الغازي أمام الجميع فحيّا شيحان وشكره، وأمر أن يُطلق اسمه على البئر، تقديرًا له ولصنيعه الكبير وفقراً بعمله؛ فرفض شيحان ذلك وأصرّ أن يُسمّى بئر الحرجف، ويكون ماؤه وخبره لجميع أهل المنطقة ولا يكون حكرًا لأحد، لكن اسم شيحان هو ما كان يُردّده كلُّ من ذكره.

انتشر خبر البئر في مدينة الحرجف، ففرح الناس وتوافدوا يشربون ويسقون منه، وتبدّدت مخاوفهم من قطع الوياص الماء عنهم. ورجع الغازي إلى بيته للقاء أهله، وليخلع عنه ثيابه البالية التي مُزّفت وتلوّنت في سجن العصفوف، ورجع الجميع إلى مجلس الحرجف والعراف مربوطٌ بمنديله معهم. وبينما كان شيحان يمشي مع باقي الرجال، لمح بطرف عينه امرأة غطّت وجهها بمنديلٍ أحمر، تقف على جانب الطريق وتنظر إليه بإمعانٍ، وبجانها فتاةٌ حسناء. صرف شيحان نظره عنهما، ثم أعاد بصره إليهما، كانت تلك الفتاة بخُصلة شعرها المنسابة على خدها كالهلال، وكأنّها أرام في ريعان شبابها، لكنها

ليست هي؛ بل ابنتها وداد، والتي بجانها هي حتمًا آرام. فنظر شيحان إليها وحارَ بصرُهُ فيها وهي تنظرُ إليه بلهفةٍ بالغةٍ وكأنَّما تُسَلِّمُ عليه بعينها، ورفرفَ القلبانِ ورَقَزَقَا كطائرَينِ على عُصَينَينِ مُتَقَابِلَينِ فوق جدولِ المحبة. كان هذا اللقاء هو الأولُ لشيحانِ بِأَرامٍ، بعد سنينَ طوالٍ لم تَغِبْ صُورُهَا عنه أبدًا، فمضى أمامها بطريقه وقلْبُهُ المَفْطُورُ يَعْتَصِرُ خَجَلًا وَأَمًّا، وتذكَّرَ هيامَه وشجونَه في شبابه، حينما صعدَ الجبلَ وَعَلَّقَ المَندِيلَ الأَحْمَرُ فوق شَجَرَتِه، شجرةَ المَجْنونِ، وسَلَّطَ بصره على مدينةِ الحِرجفِ وهو يطيرُ حبيبته آرام بكبده المَفْطُورِ، وفي جوفه غَصَّةٌ مُغْلَقَةٌ بخيبة الأمل. ظلَّ شيحان هائمًا في ضبابِ الشوقِ وَغُيُومِ الهِجرانِ، حتى وجدَ نفسَهُ بِمَجلسِ الحِرجفِ جالسًا بين الرجالِ، فاستفاق من غفلته وهم يتحدَّثون.

غادر أبناء جلد مدينة الحِرجفِ بعد أن اطمأنَّوا على جراح مَهْندٍ، فانطلقوا إلى مدينة الجوازِلِ يحملون لهم البشائر والأخبار الطيبة، بتصافي القلوب وانتهاء مُشكلةِ الماءِ التي أرقَّتْهم. لم يُعَدُّ أهل الحِرجفِ والجوازِلِ بِحاجةٍ إلى آبارِ العُصُوفِ وبنابيعها، ولم يبق أمام الجميع إلا التخطيط للحرب ضد الوَبَاصِ، فكانوا بالمجلس يتبادلون الأفكارِ والوسائلِ في سبيلِ دحره بثقةٍ بالغةٍ، بعد أن شُجِدَتْ هَمَمُهُم واستهَمَّتْ غاياتُهُم، فكانوا يتكلمون بلسانِ الجمعِ ولم يَكُنْ نقاشُهُم إلا ابتداءً، فانظروا حتى انضَمَّ الغازي وربع بن مالك وقصي لهم.

زيد: كُتِرَ كلامنا يا قوم ولم نضع حجرًا واحدًا في مكانه الصحيح، فهل رَتَبْنَا أولوياتنا.

الجاسم: أولى أولوياتنا الآن مُراقبة جيش الوَبَاصِ إذا تحرَّك.

سهيل بن عياش: وهل سيُبادر للقتال وابنته هند عندنا! وماذا ستفعلون بها؟

قصي: سأزوجها، دعوا عنكم أمرها.

سهيل (غاضباً): إِنَّ شَأْنَهَا لَا يَخْصُكَ وَحْدَكَ يَا قِصِي، بَلْ هُوَ شَأْنُنَا جَمِيعًا. فَمَاذَا سَتَفْعَلُ إِنْ جَاءَتْنَا الْوَفُودُ تَطَلُّبُ إِرْجَاعِهَا إِلَى الْوَالِدِهَا! فَلَسْنَا مِنْ يَأْسُرُنَا أَوْ ضِعَافًا وَنَسْتَغْلِبُهُمْ فِي حُرُوبِنَا.

قصي: لقد هجرت هند العصفوف إلى غير رجعةٍ بملء إرادتها.

تصاعدت الحدة بين قصي وسهيل بن عياش وعم التوتّر الجلسة، وضحك زيد بصوتٍ عالٍ وقال: عندي الحلّ لهذه المعضلة، اجعلوا هند تكتب رسالةً إلى والدها وتُخبره فيها أنّها هربت مع قصي لتتزوج به.

الغازي: ولماذا تُرسلُ إليه؟ هل يستحقُّ ذلك النذلُ أن يطمئنَّ على ابنته؟!

زيد: إنّها برسالتها ستكشفُ استنثارها بنا على والدها، وليس أصعبُ من ذلك عليه، ولن يستغلَّ نخوة القبائلِ وتأجيجهم علينا بأننا نسي النساء، فلن يجرؤ على كشف سرّها وحُبّها والرسالة بين يديه، وسيخشى أن تفضحه إن أرسل إلينا من يطلبُ إرجاعها من أسياد القبائل.

حزم زيد أمر هند وقطعه عن الجميع واقتنعوا به، وأوصي قصي بأن يُنهي شأن الرسالة على الفور، وهنّأه الجميع وباركوا له وللغازي بتحقيق غايتهم التي ذهبوا إليها من أجلها فنالوها رغماً عنه، فبعد أن خابت آمالهم من الغدر الذي ذاقوه، عادوا بأجمل الهدايا وأغلاها. التفت الجميع إلى العراف، وكان كالحملِ الوديعِ يجلسُ في آخر المجلس، ولا يُحرّك ساكنًا وكأنّه نائمٌ أو ميّت، فتشاوروا في جزائه واستقرّ رأيهم على أن يتركوه يرجع إلى بيته، فعفوا عنه وعن قبيلته فعلة وظنونه وخرافاتة السقيمة، فقام الخدمُ بحمله ليُخرجه من المجلس، ولم يُكلّف نفسه عناء النظرِ إلى أحدٍ، فخرج بصمتٍ غير معهود وقد عرف وعرفوا جميعاً أن ذلك آخر عهده بمجالس الرجال. تناول الجميع شأن قبيلة أصهب وسعد بن يحيى، ولم يلمسوا فيهم الحماسَ للحربِ ولا الرضا عنها، واختلفت الآراء

بجزاء أصهب وولديه، ولم يصلوا إلى رأيٍ صارمٍ بهم، حتى طلب زيد أن يُطلقوا سراحهم ويعفوا عنهم.

الجاسم: أنعمو عنهم؟ لا يستحقُّون إلا السيف يا زيد.

ربيع بن مالك: لقد كشفوا أمرَ نعمان، فهل تضمنون ألا يُوجَّجوا قومه وقومهم علينا!

زيد: أنا أكفلهم، أنا أعرفُ أصهبَ جيِّداً، وهو لا يحملُ الآنَ عداوةً لأحدٍ بقدرِ ما يحملُها للوَبَاصِ، فقد خسِرَ كُلُّ ما يملكُ من مكانةٍ لأجله، واكتشفَ أنه ما كان إلا خادماً عنده، اتركوا أمره لي.

دُهِشَ الجميعُ من طلبِ زيد الذي توسَّم الخبير في رأيه، وتوقَّع أن يُحسِّنَ أصهبُ أفعاله حتى يمحو ما بدرَ منه من سوءٍ وخسَّةٍ، وأيدَ سهيل بن عياش رأيه في حاجتهم لأكبر عدد من المقاتلين ضد العصوف، فنزل زيد والغازي وسهيل إلى زناينة أصهب، فدخلوها وجلسوا يتحدثون معه، وظلَّت عزته تُجبرُه على حملِ الخسَّة فلم يتحدث معهم إلا بأنفةٍ وحقدٍ، حتى أنهى زيد الكلام وقطعه بأن أعلنَ العفو عنه وعن ولديه، دون أيِّ مُقابل أو شروط، وعلى كفالتة الشخصية أمام أسياذ الحرجف، وثقته بأنَّه سيختارُ طريق الصواب ويكونُ عند حُسنِ ظنِّه به، فنادى الحُرَّاس ودخلوا بأفضلِ الثياب، فوضعاها أمام أصهب وولديه وطلبَ منهم أن يلبسوها، ويخرجوا أحراراً إلى بيوتهم وأهلهم، كما أخبره أن عدوه وعدوهم هو الوَبَاصِ، الذي اشتغلَ على تفرقتهم وضعضعتهم، وهذه فُرصتهم ليردوا كيدهُ في نحره فيقع في شرِّ أعماله.

خرج أصهب وولده من الزناينة خاضعين رؤوسهم، ويجزرون بأقدامهم الخجل والانكسار، فربتَ زيد على كتفِ أصهب، ثم ساروا جميعاً حتى وصلوا قاعة القضاء، فلما دخلوا عليهم صمت جميعُ من في القاعة، فتوقَّف أصهب ونظر بالموجودين وظلَّ صامتاً لا يدري ما يفعل وما يتكلَّم، حتى دفعه زيد من الخلف برفقٍ حتى يتابع خطواته،

فسلم أصحاب بصوتٍ خافتٍ على الموجودين، وصاح زيدٌ بأنّه يكفله ويتحملُ أفعاله مهما كانت، وخرجَ به من المجلس واستوقفه وأخبره أنّه مُرحبٌ به في هذا المجلس وقتما شاء، وانصرف أصحاب وابنه سري ولؤي، ولم يلتفتا خلفهما ورجع زيد إلى مجلسه واثقاً بما قام به.

ثابت: لقد وضعتَ نفسك بموقفٍ حرجٍ يا زيد، ولا أحسبُ أنّ مثل أصحاب يُثمرُ معه المعروف.

زيد: صبراً فلا تتعجلوا، والأيامُ ستكشفُ ما في النفوس.

سوار: ربما لا يُقدّرُ أصحاب عفوناً عنه، ولكن قد تُقدّرُ قبيلته صنيعنا وتحترمه.

الغازي: لعله خيرٌ أيها القوم، فلا أحسبه ينوي الضر لنا.

وصل أصحاب إلى بيته وجلس بين أهله ولم يُبين مشاعره فحبسها وكتمها بين ضلوعه، وعادته قلةٌ من قومه يسألون عن حاله، وأخبروه بحال المدينة فوقَ في نفسه ما لا يُطبق من الانكسار وهو يتذكرُ دعوة زيد له أن يربأ بنفسه، فيرجع عن مواقفه ويقوم بما يستوجب من الرجال فعله. وفي قاعة القضاء قرأ قصي رسالة هند إلى والدها الويأص أمام الجميع، فقبلوا بها وبعثوا رسولاً يحملها له، كما أكلوا شهاب بن أوس بحفر قنابة تسوقُ الماء من مدينة الحرجف إلى مدينة الجوازل، واتفقوا أن يحافظوا على سر البئر وإخفائه عن العصوف وعن أعدائهم. انفض المجلس على لقاء في اليوم اللاحق، ومضى شيحان وجلحد والليث مع الغازي إلى بيت الضيافة ليرتاحوا به. ورجع سوار إلى بيته يحملُ الفرح والسرور بمكانته بين الرجال وقد أصبح يجلسُ بينهم كواحدٍ منهم، ولم يعد الطبيب الذي يُعالج أوجاعهم؛ بل الحكيم الذي يُقدّم آراءه وأفكاره الفذة والتي تُؤخذُ بعين الاعتبار. ولما دخل البيت وجد عمته أرام تنتظرة، واحمرت خدودها خجلاً حين أخبرته بأن شيحان نظر إليها وعرفها.



أخبر سوار عمته آرام وزوجته وداد بكل ما علم، وذكر قصة هند وكيف تركت قصرها ومُلِكها ونعيمها من أجل عشقها وهيامها، وقد رفض قصي أن يأخذها معه حتى أصبرت عليه. فمازحه أهل الحرجف ولقبوه المجنون وقد أزال مندبل هند حينما وصلا شجرة المجنون، فنظرا للمندبل الأحمر مُعلِّقًا بها وكأنَّ سحره حلَّ عليهما وباركهما.

تغيّر لون آرام بعد ذكر شجرة المجنون والمندبل الأحمر، وتذكّر سوار الأسئلة التي حملها لشيخان أول ما تحدّث معه وأعطاه رسالة عمته، فاستنتج أنّ المجنون ما هو إلا شيخان، وأن المندبل ليس إلا مندبل عمته آرام، عمته التي نزل الحُزن بعينها مكان لهفتها وغبظتها وهي تستمع للأخبار. فانقلبَ حالها وأملها إلى حُزنٍ وألمٍ بأن يظلَّ ذلك المندبل وسماً للعذاب ووشماً في البعد والفرق. قامت آرام من مجلسها وحملت نفسها لغرفتها، وسوار يُنادي عليها أن ترجع فلم يقصد بكلامه شيئاً، لكنها حملت الحُزن ودخلت غرفتها. لم تفهم وداد سبب تغيّر مشاعر أمها وحالتها، ولم يتمكن سوار من إخفاء الحقيقة عنها، فأخبرها بأن أبطال قصة شجرة المجنون، هما شيخان وآرام. صُغقت وداد من ذلك الخبر فلم تكن تعتقد أنّ أمها صاحبة المندبل، لقد علمت أن عشق أمها قديمٌ وعميقٌ ولا يوجد مثله عشق، لكنها لم تتصوّر أن يكون بمثل هذا الجنون والشجن، فحزنت على أمها أشدَّ حُزنٍ وشأها بعضُ الحسد أنّها لم ترى حُباً بهذا الحجم.

طلع الصباحُ في مدينة الحرجف باسمًا مُشرقًا، فغردت الطيورُ ألحانًا جديدةً وهي تطوفُ فوقَ جداول المياه التي انفجرت على أبواب المدينة، وانتشرَ أهلُ الحرجف يردون الماء لهم ولمواشيهم ومزارعهم، فخرجوا لأبواب المدينة أفواجًا وهم يُهلّلون وكأَنهم في طقسٍ من أعيادهم السعيدة. ونظّم الجندُ جريان الماء، ووزّعوه بشكلٍ مائلٍ وحُطوطٍ جانبيةٍ كي لا تُعيقَ الطُرقات ولا يتزاحمَ عليها الناس، فانسابت الجداول حتى استقرت في وادٍ عميقٍ، تحوّل عُقب جفافه إلى بُركةٍ ماءٍ صافيةٍ تكبُرُ شيئًا فشيئًا. ومع هذا الصباح المشرق، سمعت آرام طرقًا خفيًا على الباب، فقامت لتتظر من الطارق وأغلبُ ظنّها أن أحدًا

مريضاً يحتاجُ سوار، ولما وصلت الباب وفتحته، شاهدت رجلاً لم تعرف ملامحه وأشعةُ الشمسِ تضربُ وجهها، فغطتُ جبينها وهو يقترب منها حتى وقف أمامها وحجب الشمس عنها، فأمعنت النظر، ثم تراخت يدها التي غطت بها على عينيها، وكادت أن تسقط من صدمتها، فالطارقُ هو شيحان. تفاجأت آرام وتلعثمت، وتلكأت شفاتها همهمةً بالكلام ثم أطبقت، فقالت بصوتٍ خافتٍ مُترددٍ: أنت!.

ابتسم شيحان وقال: أسعدتِ صباحاً يا عُصْنِ البان.

جمدت آرام عن الكلام كعُصْبٍ غَضِيٍّ يُحْرِكُهُ الهوَاءُ العليل، وظَلَّت واقفةً مكانها ولم تتكلم أبداً، وتلفتت حولها وفي الطريق أمام بيتها، وخشيت أن يُفْصَحَ أمرها مع شيحان، وينتشرُ خبرُ عشقهما القديم. ساد الصمتُ واشتعلت ثورةُ الأنفاس المكتومة، وتسارعت دقات قلبها وهي تنظر لعشيقتها المجنون فارتاح جفناها واتسعت عيناها، وهدأت وجنتها وحرارثُها بين الابتسامة والملامة.

شيحان: لن تُعَوِّضَكِ الكلماتُ عَمَّا فات يا آرام، ولن تُواسي مشاعري وأنا أرى بعينيك نظرات العتب، وفي عيني نار الشوق والشقاء. لقد يسسَ قلبي عطشاً فأشرق وجهي المحبوس وأنا أقرأ رسالاتك، ووددتُ خلَعَ الحديد من معصمي وأهدد ذلك الجدار، فأخرجُ نافضاً غبار السنين التي مضت، وأحطم الحواجز والعراقيل بيننا وأهبك ما تبقى من عمري.

أعلمُ يا آرام ما عانيتِ وشاطرتُكِ المعاناةُ كُلَّ يومٍ، ساعةً بساعةً ولحظةً بلحظةً، هذا مسازننا كُتِبَ علينا أن نحمل الأثين ونتوجع طوال السنين، وليست مهيئَةً تلك الأيام ونحن نُعاني حرارةً الاشتياق والفراق بطعمه المرُّ الذي لا يُطاق. سأبقي على منديك الأحمر، وأمضي بكِ إلى بيتك الجديد وعمرك السعيد المديد، فما أحلى اللقاء بعد الفراق، وما أجمل الفرح بعد الحزن والشقاء، ولن تكونَ ذكرانا بعد اليوم إلا هناء، ولن يُفْرَقنا إلا الموت.

أرام (بصوتٍ حنون): اعذرني يا شيحان على ردة فعلِي، فلا زلتُ مصدومةً لوجودك أمامي. ظننتُ أنّ هذه اللحظة لن تأتي أبدًا، وأتمنى أن أموتَ قبل أن تنتهي.

شيحان: لا تقولي هذا يا أرام، روجي فدالك.

أرام وقد دمعت عينها: لقد تأخرتُ كثيرًا ولم أطق الانتظار. تتبعتُ أخبارك كُلَّها، وتمنيتُ كُلَّ يومٍ أن تنتهي الحربَ لعلنا نلتقي، وها قد جئتَ اليومَ وأمامك حربٌ أعتى من سابقاتها، وكأنتك جئتَ تُودّعني وداعك الأخير، فلو أنك بقيتَ كما كنتَ لكان خيرًا لي من حملِ المزيدِ من الآلامِ والأوجاع. لا أدري كيف حملَ قلبك العشقَ والحُبَّ مع ولعك بالحرب! فمتى ستنتهي لشأنك وتنتظرَ لنفسك ولمن أحبوك!

شيحان: لقد عقدتُ العزمَ ألا أخرجَ للحربِ إلا بعد أن أتزوجك، فلا تنبشي أوجاعَ الماضي، واتركينا نعيشُ ما تبقى من عمرنا دون كدرٍ ولا خوفٍ، ولكِ عليَّ عهدٌ ألا يعبسَ وجهُك ما حييتُ.

التقى شيحان بأرام أخيرًا ووقف بباب بيتها ساعةً كاملةً، ثم ودّعها وانطلقَ إلى بيت ضيافة الغازي، وظلّت ترقبه حتى غاب عن عينها، فرجعت لمقعدها تُعدُّ ساعات اللقاء الثاني الذي سيجمعهما. ولم يخلُ هذا اليوم من التهاب المشاعر وأحاديث الغرام، فكما كان صباحُ شيحانَ عطريًا هادئًا، كان صباحُ قصي بن الغازي مع محبوبته هند، فمن أسيرٍ عندها إلى ضيفَةٍ عنده، أصبحا كلاهما أسيرين في فضاءِ الحبِّ وقيودِ الهوى. وكذلك كان قلبُ قيسُ بن الجاسم في مدينة الجوازل، يرقصُ طربًا بين أضلعه وقد شغفه حُبُّ شُروق ابنة همام واستقرت بداخله لهفة لقاءها.

وصل مهند بن جلد لداره ولأهله، واستقبل مع أخويه في مدينة الجوازل استقبال الشُّجعان البواسل، وأذاعوا خبرَ البئر الذي أخفاه شيحان عنهم دهرًا، وطلبوا من ضرار أن يتحركَ لمدينة الحرجف بناءً على طلب شيحان، فمضى لذلك على الفور ومعه قيس بن الجاسم ليُتابع شأن حفر قناة الماء مع شهاب بن أوس. ورجع الرسلُ إلى مدينة

الحرّجف، وقد تبيّنوا نوايا القبائل وتوجّهاتهم في الحرب الطاحنة، فكانت كما توقّعها زيد بن عباد، جميعهم تكالبوا واتّفقوا مع الوبّاص على مدينتي الحرّجف والجوازل. وخرج الغازي من بيته مع سادة الحرّجف ليقدمّ واجب العزاء لأهل نعمان، فاستقبلوه فرحين بنجاته من سجون العصفوف ووعدوه أن يكونوا عند حُسن ظنّه بهم في الحرب القادمة وأن يكونوا رهن إشارته كما عهدهم. وكان شيحان ببيت الضيافة فانتهى مع جلد والليث من فكّ طلاسم الألغاز التي أخفاها عن الجوازل، وأخبرهما أنّه سيترّوج بأرام ويأخذها معه إلى بيته.

أضحت الحربُ حقّاً وواجباً للجميع وعلمهم، فلا تهاؤسَ إلا بصوتٍ مسموعٍ وقلبٍ موجوعٍ، فلا هدفَ أعلى أو أكبر من القضاء على الوبّاص، ودحرِ كلِّ الموالين له والقضاء عليهم. لم تُكن كفة الحرّجف مع الجوازل توازي كفة الوبّاص وحده من حيث السلاح والجُند، حتى يتحالفُ معه باقي القبائل والزعماء؛ لكن شيحان ورجاله يُشكّلون جيشاً بفرّوسيتهم وذكائهم، وقُدّرتهم العسكرية في القتال والتخطيط، وشحذ الهمم ورفع الرايات. والأولى بالوبّاص ووزيره شامان أن يُعيدا حساباتهما ألف مرّة قبل أن يُبادرا شيئاً، فليست الحربُ عندهما كما هي عند أندادهم؛ فحين أمضيا حياتهما يُراقبان الحروب رغداً بالقصور العالية، ويدرسان نتائجها مع توقّعاتهما، كان شيحان يُنفذُ حُططه بسيفه وذراعه وعقله على الأراضي القاحلة وفي الوديان السحيقة، ليلاً قارساً أم نهاراً لاهباً، وشتان بين جيشٍ حاربٍ وحاربٍ، وبين جيشٍ لم يفهم معنى الرعب والهروب من المعارك..

ومع هذه الصباحات العطرية وفيض المشاعر الصادقة النقيّة، طلّع الصباحُ كنيّياً عابساً في مدينة العصفوف، عكسَ ما كان في مدينتي الحرّجف والجوازل، واختلّت موازين الأحاسيس والهواجس في قلب الوبّاص وعقله وهو يقرأ رسالة ابنته هند: ( اعلم يا والدي أنني خرجت من قصرِك بمحض إرادتي ولسْتُ عائدةً إليك، فلا تُكلّف نفسك وتحرجها

فترسل في طلبه). وبعد أن قرأ الوَبَاصُ رسالة ابنته، ذُهلَ من هول النتائج التي بدأت تتكشفُ أمامه، فأخذ يهرُ ويُزجرُ في أرجاء قصره كالمجنون، ولم يسلم أحدٌ من حدّة لسانه وتعنيفه، حتى بنأته والمقربون إليه أصبحوا يخشونَ دخولَ مجلسه. ومع كلِّ محاولات شامان اليائسة في إزالة الغضب العارم الذي اكتنفَ الوَبَاصُ، وصلَ الزعزاعُ وشيار وأوهد إلى أبواب مدينة العصوف بعد الظهر، وحينها طلب شامان من الوَبَاصُ بصيغةٍ أشبه بالأمر أن يهدأ، فقد حضرَ عنده أحلافه وليس من الحكمة أن يروه غاضبًا مُعكّر المزاج ولا يستطيع السيطرةَ على أعصابه. كظم الوَبَاصُ غضبه في صدره المحترق، وعرفَ أنه أمام مصائبٍ أكبر يجبُ عليه أن يُديرها، وأنَّ عليه أن يُحافظَ على هيئته وجبروته أمام كلِّ من يقفون معه.

أمر الوَبَاصُ شامان أن يستقبلَ أسياد القبائل وجمع عنده دحام وشداد، وكان يزفرُ من صدره الغضبات وهما ينظران إليه خوفًا، حتى نادى الحاجبُ بوصولِ الوزير شامان ومعه ضيوف الملك. نهض الوَبَاصُ ودحام وشداد، فاستقبلوا الزعزاع وشيار وأوهد خير استقبال، وكان معهما وفودٌ من مدنهم، منهم الفزاعُ بن حمزة أخو الزعزاع، وعاذلُ بن شيار، ونمر بن أوهد. استقبل الوَبَاصُ زعماء القبائل بترحابٍ كبيرٍ، وتصنّعَ بأنّه على خيرٍ ما يُرام وفي أحسن حالٍ، وتكبرَ أمامهم بسطوته وجبروته وقوته، فجاملوه ومدحوه وتغنّوا في عظيمِ سُلطانه وهيئته. وبدأ شامان جمعهم تلكَ بالمزاح والكلام المنمّق المعسول، فقام يفخرُ بالزعزاع، فوصفه بالزعيم الفذّ والشجاع، كما امتدحَ أخيه الفزاع الفارس المقدام، وأثنى على عاذلٍ ونمر القائدين العظيمين لجيوشهما، ولم يتركْ عنه حسنَ الدُعاةِ والسُخرية، فقام بالضحك مع شيار وأوهد اللذين كُبرا وقارباهُ عمراً. كان الفزاعُ مُهابًا ذا جسدٍ ضخم يُقارب بقوته وعمره لشيحان، وبصغرهما عاذلٌ ونمر بالعمر قليلاً، وفي الواقع كانا هما بالأساس من يحكمان في قبيلتهما، لكن لبقاء والديهما على قيد الحياة، فقد كانت مشورتها وأرائهما لزامًا وتؤخذُ بالعين الجلييلة.

أما الزعزاعُ بن حمزة فكان أكبر من شيحان سنًّا ويُقاربُ عمره عمرَ الغازي، وكان الأقوى من بين جميع أحلاف الوَبَّاصِ والأجدد للحرب تحت إمرته، فهو الوحيدُ الذي دخل غِمار الحرب أكثر من مرةٍ ضد شيحان وضدَّ الغازي، فهو بذلك أعلمُ الجميع بتفاصيل الحربِ والجيوشِ المقابلة لهم، وأخوه الفزاعُ أقوى المحاربين الذين لا يُشَقُّ لهم غُبار، ولذلك جعلَ الوَبَّاصُ وشامان في نفسهما الزعزاعَ قائدًا لحلف العصوف في الحرب القادمة، وعليه تمت الوصاءةُ له بأن يُرَكِّزَ في تخطيطه للحرب معه، ويميل لتبني وجهات نظره وخططه، بعد مُراجعتها طبعًا معهما.

أظهر الزعزاع دهشته من هروب الغازي وخطف الأميرة هند، واقترح إرسال الوجهاء لافتدائها، فاسودَّ وجه الوَبَّاصِ من ذلك، وبادر شامان وارتجل بشرح الموقف بصورةٍ مُلفقةٍ، فادعى أنَّ العصوف وقعت ضحيةً مؤامرةٍ كبيرةٍ مُخرِبة، وأخبرهم أنَّ قصي بن الغازي تمكَّن من استغلال طيبة الأميرة هند وسذاجتها، فاحتال عليها ورسَمَ أمامها صورة الفارس الشهم حتى وقعت في حُبه، ولما ألقوا بالسجن، حزنت هند على قصي فخططت معه لهروبهِ، وكشفت له سرَّ سردابٍ مخفٍ كما كشفتهُ للرجف، والذين بدورهم اتفقوا مع شيحان وأعدوا حُطَّةً محكمةً ودخلوا أسوار القصر، واستعانوا بسُلطة الأميرة، فجعلوها تفتح للغازي أبواب السجن وتصرف الحراس عنهم حتى هربت معهم.

استنكرَ شامان فعلَ الأميرة هند المشين كما وصفه، وكذلك أيدهُ الوَبَّاصُ وقد نالت تلك الرواية أعجابه فأشفت بعض غليله، وخرج بها بأقل الأضرار التي تنال من مكانته ومزنته المرموقة، وأخفت حجم التهاون في الحراسة وضعف الجند في حماية السجن والقصر، ولم تكشف قوَّة وبسالة جنود الجوازِل المنقطعة بتفوقهم على أضعاف عددهم واقتحامهم حصن العصوف المتين الذي لم يسبق لأحدٍ أن تجرأ للوصول إليه، وأعلن الوَبَّاصُ تبرأه من ابنته ومن فعلتها المسيئة، وعدم رغبته برؤيتها أبدًا، فترجع

الزعرار عن فكرة إرسال الوجهاء للرجوع بها وفق أعراف القبائل وقد تبرأ والدها منها، ولم يعلم بأنها هي من تبرأت منه وهجرته، وأن الرواية التي سمعها الجميع ليست صحيحة. انتهى الحديث عن المصيبة التي وقعت بها مدينة العصور بأسلوب شامان الماكر، وتجاوز الجميع تفاصيل الحادثة وشرعوا يتحدثون عن ترتيبات الحرب والإعداد لها.

الزعرار: وكيف ستكون الحرب بيننا وبينهم؟ هل نبادرهم جومنا عليهم ونحذرهم في عقر دارهم! فلا أظنهم يهجمون علينا ولا طاقة لهم بنا! لقد حلت نهايتهم المفجعة.

الوَبَاصُ: إنِّي بشوقٍ لإبادتهم الليلة قبل الغد.

شامان: لقد قطعنا الماء عن مدينتي الجوازل والجرجف، ولا أحسبُ أبارشيجان تكفيهم أكثر من شهرين. وستكون كل حساباتهم في الحرب منوطاً بحساباتهم لكمية الماء التي عندهم. فإن ظننتم أن شوقنا لقتالهم كبير، فأعتقد أن شوقهم وحاجتهم لبدء القتال أكبر.

شيار (ضاحكاً): وهل ننتظرهم ليبدووا الحرب! أعطنا الأمريا مولاي الوَبَاصُ، وسنضع رأسي شيجان والغازي بين يديك في غضون أيام معدودة.

أوهده: لو اجتمع شيجان مع الغازي بجيشهما فلن يتمكننا من الصمود أمامنا أبداً، وأرى أن نباغهم بأقرب فرصة.

شامان: لا نريد العجلة، وليس لنا أن نغتر بقوتنا وأعدادنا، ومن يكسب الحرب هو من يحسن دراستها والتخطيط لها، وخصمنا الآن سيطلق جميع قوته في وجوهنا، ولن يتركوا أي وسيلة أو خدعة حتى يمكروا بنا. أرى ألا نتعجل، بل نصبر ونمكن أنفسنا حتى ننظر في أحوال أعدائنا.

الوَبَاصُ: أصبت يا شامان، النتائج مضمونة فلا داعي لأن تعظم خسائرنا من فرط

حماسنا.

الزعزاع: أفلا أطلعنا على أعداد الجيوشِ يا دحام؟

كان الفرقُ في العددِ والعُدَّةِ بين أطرافِ الحربِ كبيرًا جدًّا، والأرقامُ والتفاصيل بحوزةِ دحام أدقُّ مما هي عند شيحان والغازي، فلم يتوانَ الوَباصُ وشامان في دراسةِ كُلِّ القبائل والمدن وأعداد جيوشها منذُ زمن ضامر، فسَخَّروا الأعيُنَ والعقولَ لجمعِ كُلِّ التفاصيل الكبيرة والصغيرة في منطقة رأس الخيل تحسُّبًا لمثل هذا الموقف وهذه الحرب. فكان بحوزةِ شامان والوَباصِ كُتَيْبَاتٌ وسجَلَاتٌ، حُفِظَ فيها أعداد الجيوشِ وأسماء القادة والفرسان البارزين، وأنواع السلاحِ والعُدَّةِ، ليس ذلك فقط: فحتى التَّجَارُؤُ نُقِيتْ أموالهم ومعاملاتهم في تلك السجلاتِ السريَّةِ. أعطى دحام الأرقامَ الخاصةَ التقريبيةَ للجيوشِ، فكانت كما يلي: يبلغُ عددُ جندِ العصوفِ ستين ألفًا وقائدهم دحام، وجيشُ القلباء بقيادة الفزاع يبلغُ عدد جنده أربعين ألفًا، وقبيلة شيار فيها أحد عشر ألفًا وقائدهم عاذل، وقبيلة أوهد يبلغُ عدد جيشها تسعة آلاف وقائدهم نمر، والمجموع الكلي لجيوش الوَباصِ وأحلافه هو مائةٌ وعشرون ألفًا، يُقابلهم خمسون ألفًا مجموعُ جيشِ الحرجف وجيشِ الجوازل، وبذلك يحوزُ الوَباصُ بالجيوشِ التابعة لإمرته عددًا أكبر من ضعف أعدائه.

أعجبَ الجميعُ وفخروا بجيوشهم وأعدادهم نظيرَ أعدائهم، وأعلن الزعزاع وشيار وأوهد أنهم على أهبة الاستعداد لأن يشحنوا سيوفهم بساعتهم، مُتحمسين للقتالِ ومُتعتشين للحربِ والغرورُ يعصفُ بهم اعتزازًا وعظمةً. فتفاخروا بفُرساتهم وقوتهم، وكان الزعزاعُ أكثرهم فخرًا وتباهيًا، فتكَبَّرَ ونفخَ ريشه زهواً كالطاووس وهو يُحدثهم عن حُرُوبه ضد الغازي وضد شيحان مع أخيه الفزاع، وبطولاتهمما وصولاتهمما الغادرة، ثم تغتَى بداهته وحنكته في الحروب، وأنه لم يخسر بيومٍ أي معركةٍ أمامهما. ولاحظ شيار وأوهد وأبناؤهما إعجاب الزعزاع بنفسه وتماديه بذلك، فما استطاعوا أن يُجاروه مديحًا لأنفسهم كما يفعل، واكتفوا بإطلاقهم الوعود بالتفاني بالقتالِ وبذل الغالي والنفيس في



الحرب، والقضاء على كلِّ أعداء ملكهم الوَبَاصُ المَبَجَّل، وحماية عرشه الأمين وحصنه الحصين، كما حمى منطقة رأس الخيل من أطماع الروم على مرِّ السنين.

تعددت الاقتراحات وقُطعت الوعود والعُهود، وظلُّوا جميعاً يرسمون الخُطط وهم يحسبون أن الماء سينفد من عند أعدائهم، وسينقلبون على بعضهم البعض حين يبلغ العطشُ منهم مبلغه، ولم يقطع الوَبَاصُ وشامان الأملَ بنعمان لإتمام مهمته السريّة في قتل شيحان، ودبَّ التفرقة والفتن في الحرجف ومع الجوازل. ومع كل التخطيطات والتحليلات التي طُرحت أمام الوَبَاصُ بخصوص أسلوب الحرب والفن بإدارة المعارك، التي ستنتجُ كما زعموا وأيقنوا، خلصَ الوَبَاصُ إلى التَّأهّب والاستعداد، والاكتفاء بالتحضير والإعداد نزولاً عند رأي شامان، حتى يتبيّن ما يُصارُ إليه في الحرجف والجوازل. انتهى اجتماع الوَبَاصُ بأتباعه مع غيابِ الشمس، لحظة وصول ضرار ومعه قيس بن الجاسم إلى مدينة الحرجف، فاستقبلهم الغازي وشيخان وباقي الرجال. وبكت العيونُ فرحاً وشوقاً، وكان لقاءً فياضاً بالمشاعر والأحضان. أعلَمَ ضرار الجميع بأنَّ الأمورَ مُستقرّة في مدينة الجوازل، وطمأنهم بأنَّ همام الآن مع باقي الرجال، قائمون بالتجهيز والإعداد للجيش، ويحرسون أطراف المدينة من كل الجهات. كما أنّ مصنع الأسلحة يعملُ ليلاً ونهاراً.

انتهت الأحاديث والأخبار. فوقف الجاسم وأعلن عن بدء جلسة التحضير للحرب، ونظر لأخيه الغازي ليبدأ الكلام، فصمت الجميع حتى قام الغازي من مجلسه العالي، وتحرك إلى شيخان ووقف عنده.

الغازي: أيها القوم، نحن الآن في مرحلة الحرب، ورغم أنّه لم تأتينا أية أخبار عن تحرك جيش الوَبَاصُ أو غيره من أتباعه، إلا أننا لن ننام آمينين حتى نرسمَ خُططاً لجميع الاحتمالات، والحربُ القادمة أشدّ وقعاً من كل ما حاربتم بها، فاجمعوا رأيكم على خير التدبير، فلسنا نعلمُ أيُّ مدينةٍ سيغزوها الوَبَاصُ أولاً، نحنُ أم الجوازل. وأوّل من سيبتدأ

الحوار ومن يترأسه هو شيحان، الذي جمعنا على قلب رجلٍ واحدٍ، فله الرأي كُلهِ وعلينا التنفيذُ لما يأمر، وما نحنُ أمامك يا شيحان إلا لمشورتك، فخذ مكانك على ذلك المقعد، وأعطنا رأيك لا عدمناك.

قام شيحان ووقف بجانب الغازي وقال: يجبُ عليّ أن أوضحَ أمرًا لكم، أنا لستُ بسيدٍ عليكم، وما نحنُ إلا حُلفاء لكم، أنت سيد مدينتك أيها الغازي، وذلك مقعدك ولن يجلس عليه أحدٌ غيرك، فارجع إلى مكانك.

الجاسم مُعقبًا: إنَّ أمرَك ماضٍ فينا كما قال الغازي، فامسك زمامَ الحربِ ولا تلن، ونحنُ طوعك في كلِّ ما ارتأيت.

شيحان: كلا يا أبا قيس، أنا سيدٌ قومي كفيلاً بمدينتي ورجالي، كما الغازي سيدكم وكفيلاً بكم أنتم، وهذا أولى أن يوضَّحَ هنا، وليس كلامي هذا للتفرقة، إنّما لوضع الأمور في نصابها.

جلحد: ارجع أيها الغازي إلى مقعدك، فهذا هو القولُ الفصل.

زيد: دُمت ناصحَ العقلِ يا شيحان. هيا أيها الغازي ارجع إلى مقعدك لتتابعَ جلستنا. لم يجد الغازي بُدًّا إلا أن يرجع لمقعده أمام اصرار شيحان وتأييد الرجال لرأيه، وقد كان رأي شيحان في محله، فقد حسب حسابَ التقلبات، والكلام الذي ربما يُوجِّح الناسَ لو أصبحَ هو سيدَ الحرب، بعد أن كان عدوَّ الحرجف لسنواتٍ طويلة. ولم يرضَ شيحان للغازي أن تقلَّ هيئته بين قومه، بل أراد أن ترتفعَ ويتحمَّلَ بها عبئًا هو أولى به من غيره، حتى من شيحان نفسه، فقد رزَّ الغازي والجاسم وجميع أسياد الحرجف حُسنَ رأيه وصدقَ نواياه، وهذا كانت أولى الأولويات في تحديد زعيم الحرب بين الجوازل والحرجف، فهم الآن مُتفقين كحلفين لا يفترقان، والتخطيطُ منوطٌ بالجميع، والقرارات ستصدرُ باسم الحلف، وبقرار مجلس الحرب الموحد بينهم. وعلى هذا الأساس تمَّ توزيع المهام على الرجال وتحديد مسؤولياتهم، فكان جلحد هو القائد الأعلى لجيش الجوازل، ويُقابله أوس

في قيادة جيش الحرجف، وعليهما التنسيق لتوحيد الصفوف بين الجيشين وتدريبهما للعمل سوياً حسب الخُطط المرسومة، وهما المسؤولان عن توزيع قيادات الجيشين وتحديد القادة.

ووكَّل ضرار والجاسم بإدارة الجُند وتنظيم سيرِ الحربِ، فلا يُنقِذُ أمرُ دونَ الرجوعِ لهما حتى لا تتضارب الأوامر وتتشتت المسؤوليات. وتمَّ تنصيب سهيل بن عياش من مدينة الحرجف، وهمام بن سليمان من مدينة الجوازل، لإدارة المدينتين أثناء الحرب، وعليهما التنسيق بينهما في شأن إدارة الأزمات، وما ينتج عنها من التنقلات بين أهل المدينتين حال الحاجة لذلك؛ فإن اجتاحت جيشُ الوَبَاصِ أحد المدينتين، أُلزمت المدينة الأخرى باستقبال أهالي المدينة المنكوبة، وتأمين مساكنهم ومأكلهم وحاجاتهم حتى يرجعوا أو يُنظرَ في نهاية الحرب. هذا وقد ضمَّ مجلسُ الحربِ عدا عن الأسماء التي ذُكرت كلاً من: زيد بن عياد، وثابت بن سليمان، وربيع بن مالك، والطبيب سوار، والليث بن شيحان، ومالك بن مطلق، ومهند بن جليحد، وهبلان، ويكون القرارُ النهائي بإمضاء شيحان والغازي.

تطرقَ الجميعُ لتعداد الجيوش والأسلحة بأهميّةٍ بالغَةِ وقلقٍ كبيرٍ، فكان تقديرُ الأرقام عن جيش الوَبَاصِ وجيوش أحلافه مهوِّلاً بالنسبة لهم، رغمَ أنَّه كان غيرَ دقيقٍ وبفارقٍ كبيرٍ عن توقّعاتهم، فقد افترضوا أنَّ عدد نُظرائهم من جيش الوَبَاصِ والباقون الذين يحاربون معه لا يتجاوزونُ مائة ألف مقاتل، وهذا يعني أنَّهم يبلغون ضعف عددهم البالغ خمسين ألف مقاتل؛ أربعةً وعشرون ألفاً من الجوازل، وستةً وعشرون ألفاً من الحرجف. وتمَّ استثناء قبيلة أصهب بن عدي وقبيلة سعد بن يحيى، لمواقفهما المهمة في شأن الحرب، فخسروا بذلك أكثر من ألفي مُقاتلٍ من حسيبهم؛ لكن زيد بن عياد وعدهم أن يجعلهم ينضمّون لصفوفهم، وأن يجعلهم على رأس جيش الحرجف، وكذلك تمّنوا جميعاً والأملُ قليلٌ بأعيئهم. دعا شيحان إلى الاستفادة من كل الرجال

والشباب وتسخيرهم للانضمام للحرب؛ فالحربُ هذه طاحنةٌ وماحقةٌ، إن لم يُفْزَمها الحرجف والجوازل سْتُحْرَقُ بيوتهم فوق رؤوس قاطنِها، وسيُشردون في المغار والكهوف، وسيعيشون في أعالي الجبال، ويختبئون في الوديان السحيقة، وسهْرُبُ ضعافُ النفوس من أوّل صولات الحرب واشتعالها. ولا غنى عن تجيش كُلِّ من يستطيع حمل السلاح بيده، راعياً كان أم تاجرًا أو مزارعًا، فالعددُ الذي سيواجهونه ليس بسهلٍ أبدًا، بل يُفْزَعُ من لا يُفْزَعُ من الرجال.

بعد طول الشرح والإسهاب عن درجة الخطورة لهذه الحرب، وصل جميعُ من في المجلس إلى موعدها، وأين موضعها، ومن سيدأ إطلاق سهامها! وتردّدوا جميعًا واختلفوا في ذلك الأمر الخطير، وتباينوا في مواعيدها وتمايروا في مكان وقوعها، وكثرت التحليلات والمقترحات.

شيحان: لن نُحدّد موعدًا ولا موقعًا اليوم، ولا بالغد أيضًا، ورُبما لأشهرَ عديدة. سنصبرُ حتى تنقشع الغيومُ عن أعيننا.

الغازي: وماذا إن هجموا علينا؟

شيحان: إن حركوا جيشًا فقد حدّدوا هُم المكان والزمان، وعلينا حينها أن نكون في أهبة الاستعداد للقاءهم.

الجاسم: أترأهم يُطيلون في ذلك يا شيحان!

شيحان: أغلبُ الظنِّ إن لم يكن يقينًا أنّهم سينتظرون كثيرًا، وهُنا يجبُ أن نستغلَّ الوقت في الأعداد والتمكين.

جلحد: ولماذا تحسبهم سيتأخرون في حرهم يا أبا ليث؟

زيد: سأجيبُ أنا عن ذلك. الوياص الآن يحسبُ أنّ الماء لن يكفيننا لأكثرَ من شهرين، ولا يدري أننا انهمينا من تلك المعضلة العصبية، وهو بذلك ينتظرُ منا أن نأكلَ بعضنا خوفًا وعطشًا، أو نتقاسم الماء الشحيح الذي اختزّته شيحان في آبار الجوازل. وبما أنّنا بفصل

الصيف اللاهب ولا غيومَ في الأفق: فسينتظر الوَبَاصُ أن تنضبَ الآبار، فلا نجدُ أماننا حلًّا إلا أن نخرُجَ لتحطيم حصنه المتين. طلبًا للماء ووضعٍ حدٍ لعطشنا الذي سَهَلَكنا ويقتُلنا. .

سوار مُعقَّبًا: ناهيكم أيها السادة أن الوَبَاصُ لا يدري عن أمرِ نعمان، فهو حتمًا ينتظرُ منه القضاء على شيحان، وليس ببعيدٍ أنه يرسمُ في عقله صورةَ الفتنة والصراع في الحرجف بين أهلها، وامتدادها إلى الجوازِل مع الحرجف.

شيحان: أصبْتُما كلاكما في تحليلاتكما، وسأُضيفُ لكم أن الوَبَاصُ أيضًا سيُفكرُ بالحرب مطولًا ليس لإنهائها، بل لضمان سلامته ونجاته منها، فقد نالَ الشكَّ منه وبلغَ فيه، فلا أحسُّبه يثقُ بكل من حوله كما كان سابقًا، خصوصًا بعد اقتحام سور قصره الحصين وقتل حُرَّاسه، ولا تنسوا أن وزيره شامان داهيةٌ ومُحنكٌ، فسيدرسان الحربَ أكثر مما ندرسها نحن، وهما ليسا على عُدْجَالَةٍ فيما كما تحسبون، سيجعلان أتباعهما يبدؤون الحرب نيابةً عنهم.

دعا زيد لعدم الانتقاص من دهاء الوَبَاصُ وبصيرته وقد تربّع على عرشه عُمرًا طويلًا، وتحدّث عن الموقف الذي سمعه عنه قبل أن يملك العصفوف وبعدها، فقال: حينما كان الوَبَاصُ شابًا عاقبه والده ضامر مرّةً ومنعه من مغادرة القصر، وعيّن حارسين لتلك المهمة هما دحام ومنياع، وشدّد عليهما ألا يتهاونا بما طُلبَ منهما، فتهان مناع مع الوَبَاصُ أثناء حراسته وعضّ طرفه عنه، بينما كان دحام عنيفًا وحادًا معه في دوره. والغريب أن الوَبَاصُ عندما تُوجَّ ملكًا جعلَ دحام قائد الجيش وقربه منه، وعزل مناع من منصبه بحجة تقصيره فيما طُلبَ منه! إنَّ الوَبَاصُ لا يعرف المشاعر عند المخاطر، ولطالما اجتهد بجمع كلِّ من هم على شاكلته قربه، فوحدهم على أهدافه وزرعها فهم بشدّته وعزمته، وكلُّ من حوله سيفدونه بأرواحهم ولن يرضوا عنه بديلاً.

انتهى موضوعُ تحديد المكان والزمان اللّازمين لرفع الأُسنة والرماح وتحركُ الجيوش، وكان أمام مجلس الحرب الوقت الكافي للنظر في ترتيباتهم وخطّطهم. فأمضوا ليلتهم يحسبون حساباتهم ويوزعون مهامهم ومسؤولياتهم. فرسموا الخطط والمواقع على خرائطهم، وأكثر ما أقلقهم هو حصنُ العصوف المتين، ذو الأسوارِ العالية والجدران الثابتة، فرسمه شيحان بدقّةٍ بالغةٍ وقد حفظه عن ظهرِ قلبٍ، وذلك من جلساته الطوال مع نهلان الذي أمضى عُمره في بنائه، فأخبرهم عن مخارجه ومدخله ومواقع قوّته وضعفه، لكنهم لم يجدوا حُطّةً لافتحامه، فظلّوا عائمين في بحرِ العصوف لا يدرون كيف سيضربونها بأمواجهم المتلاطمة. هو الهدوءُ قبلَ العاصفةِ إذًا، بل العواصف المتوقعة نزولها بمنطقة رأس الخيل قاطبةً، فالحدز والمكر والتخطيطُ هي سنّامُ هذه الحرب الطاحنة التي تدقُّ على الأبواب. وأصبحت الأطرافُ واضحةً جليّةً: فإن لم تكن مع الويّاص في هذه الحرب فأنت حتمًا ضده، أو تخلى عن دبرتك وأهلك، وانجُ بنفسك وارحل عنهم، وتبرأ من حربهم ولا تقف معهم. وهذا ما كان مُتوقّعًا أن يحصلُ مع أصهب بن عدي وسعد بن يحيى، بيدَ أنّ آمال الويّاص وشامان كانت أكبر من ذلك، فهما على أملٍ كبيرٍ بتشتت أبناء الحرجف خوفًا من الحرب، أو خيانةً فيهم أو تمرّدًا يعصفُ بهم، والأيامُ القادمة ستكون حبلى بالأخبار وكشف الأسرار.

تسارعت الأحداثُ داخل منطقة رأس الخيل، وانقضت سبعةُ أيامٍ طوالٍ مُنذُ بدءِ مجالس الحرب، فكان أسياذُ الحرب يجتمعون والخططُ تُرسم، والحركةُ على الطُرقات وقوافلُ التُّجّاراتت شبه معدومة، ولم يعد الرُعاة ينتشرون في المراعي كما كانوا سابقًا. وأنفدَ في تلك الأيام العديد من الأعمال في مُختلف البقاع، فقد عززَ الويّاص جيشه قرب أبار العصوف، وعزف قادته على قادة جيوش أتباعه للتنسيق والعمل بينهم، وفضلاً عن ذلك فقد أهلك العمّال والجنود في رفع أسوارِ حصنه، وأجهدهم في ردمِ السرداب الذي

كُشِفَ سُرُّهُ. هذا وقد أنهى قيس بن الجاسم وشهاب بن أوس ما أُوصِيََا به، فأتموا حفرَ قناةٍ ماءٍ مُتَعَرِّجَةٍ، تَمَوَّجَت كالأفعى من بئرِ الحرجفِ إلى أقربِ وادٍ لمدينةِ الجوازِل. خَرَجَ أَهْلُ الجوازِلِ يَستَقْبِلُونَ المَاءَ يَوْمَ وِصُولِهِ، فَوَصَلَهُمْ شَحيحًا كالخِيطِ الرَفيعِ، وما لَبِثَ أنْ ازدادَ جَريَانُهُ في اليَوْمِ الذي تَلاه، وكان ذلك الموقِفُ موقِفًا عَظِيمًا، ومُناسِبَةً سارَةً عَمَّتْ بِهَا الفرحَةُ أَهْلَ الجوازِلِ جَميعِهِمْ، فأصَبَحُوا يَخرِجُونَ ليشربوا وَيَسقُوا من قنَاةِ المَاءِ التي وَصَلَتْهُم، وعلى رأسِهِم بدورِ التي كَتمت سِرَّ مَنبَعِهِ سَنينَ طَويلَةً في جوفِهَا، وارتشفت منه ودموعها تَسُخُّ ما تَسُخُّ على خَدَّيْهَا فامتزجت مع المَاءِ في يَدَيِهَا، وما شَعرت بملوحةِ دموعِهَا من فرطِ احساسِهَا وسعادَتِهَا بَعْدَ وِصُولِهِ ما تَشْرِبُهُ، وشروقِ ابنتِهَا تَمسِحُ عَنها الدموعَ بِطرفِ مَنديلِهَا، حتى حَضَرَهُنَّ قيس بن الجاسم وشهاب، وكانا يُشرفان على تَمَامِ عَمَلِهَا، فَسَلَّمَ قيس عليهنَّ وهنَّاهُنَّ بما شَرِبْنَ، ومنَحَ فَضَلَ حَفْرِ بئرِ المَاءِ لِشِيحانِ وَلِبَدورِ، وثَمَّنَ صَبْرَهُمَا وَعنائِهُمَا على حَمَلِ ذلك الهمِّ، ثمَّ غادَرَهُنَّ مُتَمَنِّيًا أَلَّا نَغيبَ دموعَ الفِرحِ عَن أَعْيُنِهِنَّ بَعْدَ ذاك اليَوْمِ.

وبين هذا وذاك، نَقَلت الأَعْيُنُ الأَخْبَارَ بَعْدَ تَجَسُّسِهَا، ولم يَصِلْ لِلوَبَاصِ وشامانِ ما يَهُمُّهُمَا بسببِ تَرَبُّصِ وَتَمَرُّكِ جنودِ الجوازِلِ والحرجفِ في مَواقِعِهِمْ، وَقَطْعِهِم الطُرُقَ على كُلِّ مُتَسَلِّلٍ وَخائِنٍ، فارتاب الوَبَاصُ من عَدمِ بَلوغِهِ أخبَارًا عَن مَقْتَلِ شِيحانِ، وَعَدمِ حَدوثِ أي فِتنةٍ نَتيجَةً لَذلك، ولم يَصِلْهُ أَيُّ عَلمٍ بِبئرِ الحرجفِ أَبَدًا، فَقَدَ ظَلَ البئْرُ سَرًّا دَفيئًا على الوَبَاصِ وَأَتباعِهِ، يَحيكون الخُطَطَ دُونَ عَبتارِ لِه. وأدركَ شِيحانِ من كَلامِ الأَعْيُنِ أنَّ الأَعْدادِ التي افترَضوها لَجيوشِ أَعْدائِهِ أَكثَرُ مما افترَضوه سَابقًا، وَذلك لَأَنَّ جِيشَ الزَعزاعِ كانَ أَكبَرَ مما هو مُتَوَقَّعٌ عَندَهُمْ، إذ لم يَخسرَ رِجالًا كَثيرًا في حَروبِهِ كما خسرَ هو والغازي بِحَروبيهِم الطَويلَةِ، وَقَدِ واضَبَ الزَعزاعُ وَعَمَدَ إلى تَكييرِ مَدينَتِهِ القَلبَاءِ وَتوسِعَتِهَا، فَجَعَلِهَا مَحطًّا أَنظارِ المَرْتحلينَ الذينَ أَرهَقَتَهُم الحَروبُ وَصِولاتُهَا، وَكَثُرَ رِجالُهُ وَكَثُرَ جِيشُهُ، بَينما كانت مَدينَتُنا الحرجفِ والجوازِلِ تَجمَعانِ مَوتاهِمَ من مَيادينِ القِتالِ.

والتقى شيحان مع آرام في بيتها بوجود سوار ووداد اللذين فرحا بزيارته أعظم فرحة، وقد علما بطلبه الزواج من آرام، فتحدّثوا عن الحرب وعن الأوضاع المحيطة بمدينتي الحرجف والجوازل. لم يُطل شيحان في مكوثه وتكلم مع آرام مُفردين بشأتهما وكان حديثه مُوجزًا، فأمرها بحزم أن تستعدّ للزواج والرحيل معه، وطلب أن تأخذ ابنتها ووداد وسوار معها، فكان القبولُ جوابها في صمتها وابتسامتها التي سرعان ما بدأت تتضاءل، وتبدّلت إلى حيرةٍ ظاهرةٍ على وجهها، قلّقا من رفض ابنتها وزوجها الرحيل معها.

بعد الأسبوع الحافل الذي مضى، اختلى الجاسم بشيخان عامدًا في بيت ضيافة الغازي، وكان يظهرُ عليه التردّد في الكلام، فطلب منه شيخان أن يتحدّث بما عنده.

الجاسم خجلًا: أنت تعلم يا شيخان أنّنا الآن على وفاقٍ واتفاقٍ، وقد غدونا أهلًا وسندًا لبعضنا البعض، وأقصدُ بذلك جميعَ أهلي وأهلك. ورغم أنّنا في خصمٍ حربٍ شعواءٍ لا نعلمُ لها قرار، إلا أنّنا نطلبُ مُصاهرتكم ونرغبُ بتقوية الأواصرِ بيننا، وقد وُكِّتُ أن أطلب أحدى بناتك لشهاب بن أوس، كما أطلبُ شروق ابنة أختك بدور زوجةٍ لابني قيس، وإن وجدت أنّ هذا الأمر ليس في أوانه، فاتركه حتى تنجلي الحربُ عنّا وعنكم، أما وإن أيدتنا برأيك، فإنّ خير البرّ عاجله، ولك القراؤ يا أبا الليث.

صمت شيخان بابتسامته الودية، وظهرت عليه الدهشة والقناعة بالأمر والسعادة فيه، ثمّ نظر الجاسم بحيرةً، وشابهه بعضُ الخجل، وقال: نعم الرجلان شهابٌ وقيس، ونعم الأهل والنسب أنتم. بلّغ شهاب أنّ له إحدى بناتي، أما قيس فليصبر، فإني لا أُجيبُ حتى أسأل أهلها عن رأيهم ولا أكرههم عليه. وما يُدهشني فجعلني ابتسم أمها الجاسم، هو أني أردتُ لقاءك لأطلب الإذن منك في الزواج، فوجدتُك تسبّني.

الجاسم (باستغراب): الزواج، لمن؟ وممن؟

شيخان واثقًا: لي أنا يا أبا قيس، أريد الزواج بأرام بنت آزاد عمّة سوار، وابنة الرجل الذي علمني وأحسن لي، وهي عشقي وأجمل ما في حياتي حتى رحلتُ عن الحرجف وعنها



مُفَارِقًا، فَبَاعَدتْ بَيْنِنَا الحَرُوبُ وَصَرُوفُ الدَّهْرِ، وَلَمْ يُغَادِرني حُيَّهَا يَوْمًا وَاحِدًا، بَل زَادَ مَرَارَةً وَأَمَّا أَرْزَى بِي، وَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ بَرِي بَعَهدي الَّذِي عَاهَدتُهَا بِهِ وَأَخْبَرتُهَا بِمَا نَوَيْتَ، وَطَلِبْتُ مِنْهَا أَنْ تَأْخِذَ ابْنَتَهَا وَسَوَارِينَ رَغِبُوا، فَأَذِنَ لِي بِذَلِكَ.

الجاسم (مصدومًا وضاحكًا): وَيحك يا شيحان، جَبَّارٌ وَمُجَحَّفٌ فِي السَّيْفِ، وَشَاعِرٌ مُرَهَفٌ فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ! أَتَرَكَ دَخَلتَ الحَرْجَفَ وَأَصْلَحتَنَا حَتَّى تَجِدَ غَرَامَكَ!

شيحان: حَسْبُكَ أَمِهَا الجاسم، إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَاعَتَهُ، فَلِلْعَقْلِ وَالسَّيْفِ مَا لِهَما، وَلِلْقَلْبِ أَمالٌ دائِمًا يَنْشِدُهَا، وَليسَ الصِّلْحُ مِنْ أَجْلِ غَرَامِي، إِنما هِيَ الأَقْدارُ تَجْمَعُ ثُمَّ تُفَرِّقُ، وَتُفَرِّقُ ثُمَّ تَجْمَعُ، وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ يَوْمًا أَنْ يُعَالَجَنِي سَوارِ حَفِيدُ أَزادَ وَأنا حَبِيسٌ عِنْدَكُم.

الجاسم: صَدَقْتَ يا شيحان، لَكِن أَصَدِّقُني القَوْلَ، هَلْ عاونَكَ سَوارِ فِي شَأْنِكَ دُونَ عِلْمِنَا؟

صَمِتَ شَيحانٌ ثُمَّ نَظَرَ لِلجاسمِ بِعَمقٍ، وَقَالَ: بلى قَدْ أَعانِي عَلى الخَيْرِ لَكُم، فِلا تَلْمِزُهُ أُمَّها الجاسمَ وَاكْتُمُ هَذا الأَمْرَ، وَلَمْ أَعْلَمُ عَنهُ إِلا بَعْدَ دَخولِي الحَرْجَفَ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَسابَاتِي أَبدًا، فَهُوَ جَلٌّ نَزِيهٌ مِنْ صُلْبِ جِدِّ نَزِيهِ، لا يَعرِفُ التَّلَوْنَ ولا الكَذِبَ، وَلولَوا قِصَّةُ عَشقِي مَعَ عَمَتِهِ لَاعترَفْتُ لَكُم جَميعًا بِما كانَ بَيْنِنَا حينَ تَمَّتِ المِصالِحَةُ.

بارَكَ الجاسمُ لِشَيحانِ بِزَواجِهِ، وَأَعْطاهُ الإِذْنَ أَنْ يَفْعَلَ ما يَشاءُ وَيَأْخُذُ مِنْ يَشاءَ مِنَ الحَرْجَفِ، وَأَبقى عَلى سَرَ العِلاقَةِ بَيْنَهُ وَبِينَ سَوارِطِي الكَتْمانِ، ثُمَّ خَرَجَ مَعًا إِلى بَيتِ الغَازِي، لِيُرْقُوا إِليه الأَخْبارَ المِفرحَةَ، وَلِيُبارِكَ لِشَهابٍ وَهُيئَتُهُ بِمِصاهِرَةِ شَيحانِ، وَتَزَوجَهُ مِنْ بَناتِهِ الحِسانِ، وَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ يَكْتَمَلَ فَرحُهُ بِأَفْراحِهِم.

أَسعَدَ الرِجالُ فِي بَيتِ الغَازِي بِما بُشِّروا بِهِ، وَضَحِكَ ضِرارٌ وَجَلحدٌ عَلى شَيحانِ وَوصِفاهُ بِالكَهْلِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الزَواجِ، فَردَّ عَلَيها بِأَنَّ عِزائِمَهُ قَويَّةٌ وَليسَتِ مِثْلِهِما، لا يَقوِيانَ عَلى الحِركَةِ وَكَثيرًا التَّدَمُّرَ وَالشُّكوى، فَضَحِكوا جَميعًا، وَلَمْ تَقِفِ البِشائِرُ هُنَاكَ

فحسب، فوقف الغازي مُعلنًا زواجِ ابنه قصبي من هند بنت الوَباص، وقد كان يخشى أن يطري ذلك الأمر في هذه الأوقات العصيبة، فبُعَاتِبُهُ قومه في تسرُّعِهِ إبان الحربِ النازلةِ عليهم.

رفض شيحان أن يأخذَ مهرًا لابنته من أوس أو من الحرجف، فقد أعطاهم ابنته عطاءَ الكُرماء والإخوة، وتعهَّد أمام الجميع أن يكونَ مهرُ شروق بنتُ همام من حُرِّ ماله، إن تمَّ الزواجُ وقبلَ أهلها. وأمام اصرار شيحان ورفضه القاطع لقبول أي مهرٍ يُساقُ معه للجوازِل، قابله الجاسم وأوس بكرمٍ على قدر كرمه، فأرسلًا جهازًا ثمينًا لأرام من بيِّ الحليِّ وناعمِ الأقمشة، وحمله الليث لبيتها وألقى عليها السلام، وقَدَّم لها مهرها الغالي، وأوصاها بالاستعداد للرحيل.

وبينما آرام تُرتب أغراضها وتجهِّز نفسها للرحيل إلى مُستقبلها الذي لطالما شكَّت في قدومه، فُرعت الطبول في الحرجف ونُودي في المدينة والأرجاء لحضورِ زواجِ قصبي بن الغازي، فدُبحت الإبلُ وأولت الولائم، وتَسابَقَ الفُرسانُ على خيولهم كعاداتهم في أعراسهم، حتى إذا غابت الشمس، نظمَ الشُعراء أبياتهم، وتغنَّوا في قصائدهم، ولعبَ الرجال بسيوفهم وتفنَّوا في إطلاقِ رماحهم، فكانت ليلةً سعيدةً وصلَ لهيبُ النيرانِ فيما إلى أعالي السماء، والجميعُ فرحين سُعداء. وقد استقبل الغازي المهنئين، فبارك له مُعظم أهل الحرجف، وغاب فهم العراف ياقوت، الذي اندثر في بيته وتقوقع على نفسه، وغاب أيضًا أصهب بن عدي وسعدُ بن يحيى والكثيرُ من قبيلتهما عن الفرح العامر.

في صبيحة اليوم التالي، شدَّت الرحالُ صوبَ مدينة الجوازِل، فخرج شيحان في ركبٍ بينهم الليث وضرار وجلحد، وأخذوا معهم الجمال المحمَّلة بجهازِ آرام ومتاعها، وركبت آرام وابنتها وداد هودجًا ذا قُبَّةٍ مُزَيَّنةٍ بأبهى الألوان ساقه سوار أمامهِنَّ، وانضم لذلك الركبِ مجموعةٌ من فرسان الحرجف لحمايته، وكان على رأسهم الجاسم وابنه قيس، وأوس مع ابنه شهاب. وكانت نيَّة سوار ووداد حضور عرسِ شيحان مع آرام، ومن

ثمَّ الرجوع مع أهل الحرجف حال انتهاء ضيافتهم في مدينة الجوازل، وأخذهم ابنة شيحان زوجةً لشهاب بن أوس.

وعلى الطريق الهادئ ساروا جميعاً مغمورين بالسعادة، وعينُ فرسانِ الحرجف تسبقهم وتستكشف لهم الطريق، وشيحان يدورُ حول الناقة التي تحملُ آرام، كدورانِ الأرضِ حولَ نفسها، حتى إذا وصلوا شجرة المجنون تعالت الأصوات والضحكات والسُخريات، فانهلوا جميعاً يُعلَقونَ على المنديلِ الأحمر. أخرجت آرام طرفَ رأسها من الهودج ونظرت إلى منديلها الأحمر، فاحمرَ وجهها أمام ابنتها وداد التي وضعت رأسها بجانبها، لتتنظرَ إلى المنديلِ الذي داعبت حركته مشاعرَ العاشقين عُمومًا، والعاشقين قيسٌ وشهابٌ خصوصًا في هذه الرحلة. استذكرت آرام رجوعها من مدينة الجوازل حزينةً، عُقبَ وصولها في يوم زفاف شيحان، وهي تحملُ معها وداد وسوار طفلين يتيمين، فبكت فرحًا على بُكائها الحزين الذي رافقها عندما مرّت بهذا المكان، وها هي تنظرُ للمنديلِ ومن علَّقه يطوفُ حولها، ومعها اليتامى اللذان كُبرا وتزوَّجا ويُرافقانها في قافلةٍ يحرسها أسياد الجوازل والحرجف وأشجعُ الفرسان.

وبقدر ما كان يتمتّع به شيحان من القُدرة على إخفاء المشاعرِ والكتمان، فقد وقع رُدُّ فعله جليًّا على تعابير وجهه، فتلوَّنَ تلوَّنَ ألسنة النيران، فاصفرَ واحمرَّ وازرقَّ حتى قارب على السواد، وهو يتجنَّبُ النظرَ إلى المنديلِ الأحمر، وينظرُ بعينٍ خجلةٍ إلى حبيبته آرام، وهي تذرفُ الدمعَ الممزوج بسوادِ كُحلِّها على خدها الأبيض. كانت تلك التعابير المرسومة على وجه شيحان، ونظراته التي عصفت بها الحياءُ والحنان، كفيلاً بأن تجعل جليد يقطعُ ضحكاته الصارخة، وترتخي يداؤه عن لجامِ حصانه، فتباطأ في خطواته وتأخَّرَ عن الركب؛ لقد عرفَ أنّ المجنون هو شيحان!! وكيف لا يكشفُهُ وهو أقربُ إليه من نفسه!! وجمدَ جليده في مكانه شاردًا في شيحان الذي لاحظَ بطءَ حركته فرجع إليه.

شيحان: ما بك يا جليد! فيمَ تباطؤك!

جلحد (بصوتٍ خافتٍ): أيتها المجنون!! إنه أنت. أنت المجنون الذي علّق ذلك المنديل.

شيحان (مُدّعياً الجِدّ): ألا إنك أنت المجنونُ ولستُ أنا. ما بك أيها الأحمق! ماذا أصابك!.

نظر جلحد إلى الهودج الذي يحملُ آرام يامعان. ثم استرقَ نظرةً خاطفةً على شيحان. وقال بمكرٍ غير معهود: أظنني عرفتُ صاحبة المنديل الأحمر، فما أنت فاعلٌ لو أنني شتمتها بصوتٍ عالٍ يسمعه الجميع!

شيحان (غاضباً): ويحك يا جلحد. لو شتمتها قبل حديثك هذا لما فعلتُ لك شيئاً. أما الآن فإن شتمتها قطعُتُ رأسك. ابلع لسانك ولا تنطقُ حرفاً أيها اللعين. هيا تحركِ ولا تُؤخرنا.

نكزَ جلحد حصانه بعقبه ولحق بشيحان الذي سبقه. فضحك وسخر منه ووعدهُ ألا يبوَحَ بسرّه لأحد، وهمس له بلقب المجنون. فنظرَ شيحان لجلحد نظرةً غاضبةً أسكتته، وجعلته يُغيّر مكانه بعيداً عنه. وفي طريقهم كانوا ينظرون لقناة الماء التي حفروها من الحرجف للجوازل. فكانوا إذا عطشوا نزلوا فشربوا من مائها العذب. ثمّ يمضون في سيرهم حتى وصلوا مضارب مدينة الجوازل، فخرج جميعُ رجالها لاستقبال شيحان، فأخذوا يرقصون ويُطبلون وهتفونَ باسمه، ويُحيّونه ويُباركون الصلحَ مع الحرجف، ورحبوا بأبناء الحرجف الذين قديموا معه خير ترحيبٍ واستقبلوهم أعظمَ استقبال. فنحروا الجِمالَ حتى سالت دماها بغزارة، وتعالّت الأصواتُ فخراً بجلحد والليث، الفارسين الشجاعين اللذين اقتحما أسوار الوياص وحصنه المتين.

كان الاستقبالُ مهيباً تقشعرُ له الأبدان. وقد حضرتهُ بدور من بين جميع النساء وحدها، فاستقبلت أباها شيحان قبل جميع الرجال، وأمسكت بكتفيه وتفحّصته لتتأكد من صحته وعافيته، فلما اطمأن قلبها عليه، بكت فرحاً وهي تتحسّس وجهه

بأناملها. انحنى شيحان لبدور وقَبَّلَ رأسها، وأوعزَ لها هامسًا أن تستقبلَ زوجته آرام وتزِيلها عن هودجها، فباركت له ومسحت دموعها. وسلّمت على الجاسم وأوس ورجال الحرجف. وساقَت الناقاة بدل سوار. حتى أناختها عند بيت ضيافة شيحان المخصّص للنساء. ونزلت آرام وابنتها وداد من على ظهر الناقاة. فسَلّمت بدور على آرام ببشاشةٍ وسرورٍ كبيرٍ، وقد اختلف شكلها عما عهدتها في صغرها. ثمّ سلّمت على ابنتها وداد ولم تُكُن تعرفها. فدخلن جميعًا لبيت ضيافة النساء، وأمرت بدور الخدم أن يحملوا جهاز آرام إلى الداخل.

نزلَ وفد الحرجف في بيت ضيافة شيحان، فلما ارتاحوا وجلس معهم وجيء الجواز، أعلن ضرار عن زواج شيحان وأمر بنشر الخبر والاستعداد لعُرسه في اليوم اللاحق، فبارك الجميع لسيدهم وهنّئوه فرحين بما عزمَ عليه، واستعلموا عن زوجته فأخبرهم عنها بكلِّ فخرٍ واعتزاز. ولم يُنكر حُبّه وغرامه القديم لها.

لم يسأل شيحان همام عن طلب الزواج من شروق، فأوكلَ ذلك لأخته بدور التي تُولي مصلحةً ابنتها الأوليّة على كُلِّ شيء، ولكي لا يقع زوجها همام في الحرج. وعاد شيحان أخيرًا لبيته. فاستقبلته بناته الثلاثة بحرارةٍ وارتمينَ بحُضنه باكياتٍ. فسَلّمَ عليهنّ واطمأنَّ عليهنّ واحدةً واحدةً، حتى وقفت أمامه زوجته ربحانة. وقد كان خبيرُ زواجه قد وصلها، فسَلّمَ عليها وحضنها وهي تبكي دون كلام، فمسحَ دموعها عن وجهها ونظرَ بعينها وقال: أفرحُ أم حزنٌ هذه الدموعُ يا ربحانة!

ربحانة بصوتها المتقطع: بل سعادةٌ ورضا يا زوجي العزيز.

شيحان: إذن فلن أوصيكِ بأرام ما حييت.

ربحانة: ويحك يا أبا ليث، أولاً تعرفُ زوجتك! سأضعُها في عينيّ ولو أغفلت أنت عنها، وستعيشُ زوجتكُ مُعززةً مُكرّمةً بيننا. وكم حثّثُك على الزواج فامتنت، ولن أكون لزوجتك الآنَ إلا كما عهدت.

شيحان: نعمَ الزوجة يا ربحانة، هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرٌ أَيْضًا، قَدْ أُعْطِيتُ شَهَابَ بِنِ أَوْسٍ وَهُوَ مِنْ خَيْرَةِ الشَّبَابِ، إِحْدَى بِنَاتِكَ فَانظُرِي فِيهِنَّ، وَجَهِّزِي مِنْ آخِرْتَيْنِ لَتَرْجِعَ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى الْحَرْجَفِ.

ابْتَسَمَتْ رِبْحَانَةُ بِهَذَا الْخَبَرِ الَّذِي أَسْعَدَهَا، فَقَالَتْ: صَبَاحًا سَيَكُونُ الْجَوَابُ عِنْدَكَ يَا زَوْجِي الْعَزِيزِ.

نَامَ الْجَمِيعُ فَأَصْبَحُوا وَالْأَفْرَاحُ حَلِيفَتِهِمْ، كَيْفَ لَا وَقَدْ أَنْقَذَ الْغَازِي مِنْ سَجُونِ الْعَصُوفِ، وَانْتَهتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْجَوَازِلِ وَالْحَرْجَفِ بِتَحَالُفٍ وَتَصَاهُرٍ وَمَحَبَّةٍ، فَكَانَتْ الْأَفْرَاحُ فِي قُلُوبِهِمْ أَعْظَمَ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ مِنَ الْحَرْبِ مَعَ الْوَبِائِصِ وَأَتْبَاعِهِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ اسْتَخْرَجُوا الْمَاءَ مِنْ مَدِينَةِ الْحَرْجَفِ، الْمَاءَ الَّذِي سَيُحَرِّرُهُمْ مِنَ الْخَضُوعِ لِلْوَبِائِصِ وَمَدِينَةِ الْعَصُوفِ. فَقَبِلَتْ شُرُوقُ بَقِيصٍ وَبُورِكَ لِهَمَا فِي الْعَلَنِ، وَجُهِّزَتْ لِرَحِيلِهَا مَعَ زَوْجِهَا، كَمَا جُهِّزَتْ ابْنَةُ شَيْحَانَ الْوَسْطَى سَلْمَى لِلزَّوْجِ بِشَهَابِ بِنِ أَوْسٍ، وَبُورِكَ لِهَمَا أَيْضًا. وَقَدْ أَعْلَنَ شَيْحَانَ زَوَاجَ ابْنَتِهِ الْكُبْرَى رُبَى مِنْ مَهْنَدٍ، بَعْدَ أَنْ أَخْبَرْتَهُ رِبْحَانَةُ بِأَنَّ جَلْحَدَ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَطْلُبَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ آخِرُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ الْحَرْبُ، فَتَفَاجَأَ جَلْحَدٌ وَفَرَحَ أَشَدَّ فَرَحَةً، فَبَارَكُوا لَهُ وَلَوْلَدِهِ الْبِكْرَ كَمَا بَارَكُوا لِلْجَمِيعِ، وَعَمَّتِ الْأَفْرَاحُ الْمَدِينَةَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَطَرِبَ أَهْلُ الْجَوَازِلِ وَضَيْفُوهُمْ وَهُمْ يَتَغَنُّونَ بِأَهَازِجِهِمْ الْجَمِيلَةَ، وَيَرْقِصُونَ حَتَّى تَعْبُوا، فَكَانَ يَوْمًا سَعِيدًا أَمْضُوهُ فِي عُرْسٍ جَمَعَ شَيْحَانَ وَصَهْرَهُ مَهْنَدَ بِنِ جَلْحَدٍ فِي اللَّيْلَةِ نَفْسَهَا، وَوَصَلَ صَوْتُ شِدْوِهِ إِلَى أْبَعْدِ مَدَى.

## الفصل الثامن

### وادي الربيع

مع الصباح العليل المنعش الذي طافَ مدينةَ الجوازِل، وحامَ فوقَ بيوتها بريحِ الصَّبَا اللطيفة، شدَّ الجاسم وأوسَ الرجالَ مع ابنيهما وزوجاتهما شروقَ وسلمى، ومعهم فرسانَ الحرجف، وودَّعوا شِيحانَ وأهلَ الجوازِل إلى لقاءِ قريب، وبقيت وداد مع زوجها سوار عند أمها نُزولاً عند رغبِها، فصبَّحت عليها في بيتها الجديد، وكان وجهُها قد احمرَّ خجلاً، فما جلستا لحظاتٍ قليلةٍ حتى زارهُنَّ بضعةُ نساءٍ من أهلِ شِيحانَ وبينهنَّ ربحانة، فأحسنَت الكلامَ معها وباركت لها ووعدتها ألا تلتقى منها إلا ما يسُرُّها دونَ ضغينةٍ أو كيدٍ، فارتاحت آرامَ وفرحت من لقاءِ ضُرَّتِها ربحانة، ووعدتها بمثلِ المعاملة، ثم ودعتها وخرجت لتزور ابنتها رُبي زوجة مهند لتُبارك لها أيضاً.

يبدو أنَّ النسماتِ العليلَةَ التي نزلت على مدينةَ الجوازِل صباحاً، التي حملَ الجاسمُ مثلها إلى مدينةَ الحرجف ليُطربها بها، لم تُكُنْ إلا زمهريراً أصيحَ على الوَبَاصِ بن ضامر في قصره الحصين بين حاشيته الكبيرة، فعمَّ البؤسُ جميعَ مَنْ عنده في القصر من تجهُم وجهه ومزاجه العابس. كيف لا وقد تسمع له خبيرُ النيرانِ المشتعلة في مدينةَ الجوازِل، وأصواتُ الأفرح التي ضربَ صداها الجبالُ العالية، وتسَلَّلَ في الوديانِ السحيقة. وبهذا أيقن الوَبَاصُ وشامان أنَّ نعمان لم يُفلح في مُبتغاه، فما كانت تلكَ الأفرحُ بنظرهم إلا فرحةَ الجوازِل برُجوعِ شِيحانَ لهم سالمًا.

كان الزعزاع وشيار وأوهد في العصوف لترتيب جيوشهم، ومزاج ملكهم الوياص يتغير بين فينة وأخرى، فامتزجت مشاعره بين الغرور والخوف، فتغيرت نظرة شامان له بتغير تعامله معه وقد أصبح أشد حذرًا ولم يعد يثقُ بأحدٍ مثلما كان من قبل، فأوصى دحام بأن يشدَّ على جُنده، وأن يحسنَ معاملتهم ويكرمهم. فلا يخافون ولا يدبُّ الفرعُ فيهم. كما أوصى شداد أن ينشرَ الأخبارَ المسرة، ويظهرَ ثقةَ الوياص المنقطعة بجيشه وبأحلافه، وأمله الكبير بنتائج الحرب، فيعممَ الهداةَ والرخاءَ في القصرِ وبين الحراس وأمام وجهاء المدينة. وشامان داهيةُ العصوفِ ومنطقةُ رأس الخيلِ كلها بدأ يحيكُ بعقله الخُططَ المبنيةَ على الاحتمالات والتوقعاتِ المجدولة برأسه، لكنه لم يُعطِ كُلَّ ما في جُعبته للوياص، فقد يُغيِّرُ حساباته ويقلِّبُها وفق الأحداث والمستجدات الطارئة في الحرب.

وأقيمت الأفراح والليالي الملاح بمدينة الحرجف بزواج قيس وشهاب، وتمتَّى الجميع أن يكون ذلك دوام حالهم، فخافوا في أنفسهم أن تنقلبَ أفراحهم لأتراج، والحربُ تدقُّ على الأبواب. وقد حاول أصهب أن يرحلَ عن الحرجف، فجمع متاعه وجهزَ ركابَهُ، ولما علمَ مجلسُ الحربِ بذلك زاره زيدٌ في بيته، ومنعه من مُغادرة المدينة أبدًا، وأخبره أن المنع ليس لشخصه بل على الجميع، خوفًا من تسرُّب خبرِ بئر الحرجف ونقل المياه إلى الجوازل، فريضخُ أصهبُ لأوامر زيد الذي تمتَّى عليه أن يُشاركَ في الحربِ ضدَّ الوياص الخائن الغادر.

التفتَ شيحان إلى تجنيد الرعاة والتجار والفلاحين، وتسليحهم وتدريبهم لحماية المدينة أولدخول غمار الحرب، فوزع تلك المهمة بين همام الذي يختارُ الرجال والشباب من المدينة، ويرسلهم إلى جلد فَيُدْرِبُهُم ويختارُ منهم حسب قوتهم، فمن كانوا أشداء جندهم في الجيش، ومن كانوا ضعافًا أعادهم إلى همام ليؤزَعهم في المدينة بناءً على الحاجة لهم وأهميَّة أعمالهم. واستحدث ضرار قانونًا جديدًا، فجعلَ جميع المواشي والدواب موسومةً حتى يُعرفَ أصحابها، فجمعها كلها مع بعضها، ونقلها إلى مضارب



الجوازِلُ الأَقْرَبُ إلى الحَرْجَفِ، والأَقْرَبُ إلى قَنَاةِ المَاءِ الوَاصِلَةُ إلى الجوازِلِ، وَقَلَّ بِذَلِكَ عِدَدُ العَامِلِينَ عَلَى رَعِيهَا وَحِرَاسَتِهَا، كَمَا خَفَّفَ مِنَ القَلْقِ الَّذِي يَكْتَنِفُ أَصْحَابَهَا. دَامَتِ التَّحْضِيرَاتُ لِلْحَرْبِ مُدَّةً أُسْبُوعِينَ، تَخَلَّهْمَا اجْتِمَاعَاتُ فِي مَجَالِسِ الحَرْبِ المُتَضَادَّةِ، فِي مَدِينَةِ العَصُوفِ الحَصِينَةِ، وَفِي مَدِينَتِي الحَرْجَفِ وَالجوازِلِ. وَعَلَى ضَوْءِ اجْتِمَاعِ مَجْلِسِ الحَرْبِ الأَخِيرِ الَّذِي تَمَّ فِي مَدِينَةِ الحَرْجَفِ، تَقَرَّرَ تحريك جيشها إلى مدينة الجوازِلِ، كونهَا المِنطَقَةُ المَلْتَهَبَةُ الَّتِي يُتَوَقَّعُ أَنْ تَدور رَحَى الحَرْبِ الطَّاحِنَةُ حَوْلَهَا، فَبَدَأَ جَيْشُ الحَرْجَفِ يَتَحَرَّكُ عَلَى دُفْعَاتٍ مُتتَالِيَةٍ، حَامِلِينَ مَعَهُمُ سِلَاحَهُمْ وَعُدَدَهُمْ، وَأَخَذِينَ مَعَهُمَ مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالنَّوْمِ، وَأَلْحَقَ الطَّيِّبُ سَوَارِ الجَيْشِ، لِرِعَايَةِ الجَرْحِيِّ وَتَدْرِيبِ الرِّجَالِ عَلَى القِيَامِ بِذَلِكَ، فَالتَقَى بِزَوْجَتِهِ وَدَادَ وَعَمَتِهِ أَرَامَ، وَبَيَدُوا أَنَّ مَصِيرَهُنَّ أَلَّا يَفْتَرِقْنَ هَذِهِ الفَتْرَةَ.

وَعَلَى الجِهَةِ المُقَابِلَةِ، بَدَأَتْ بَعْضُ الخِلاَفَاتِ وَالمِنَازَعَاتِ تَظْهَرُ عَلَى حَلْفِ العَصُوفِ أَثْنَاءِ جُلُوسَاتِهِمْ، فَكَانَ الزَّعزَاعُ يَسْتَهِينُ بِقُوَّةِ شِيَارِ وَأُوهدِ، بَلْ تَعَدَّى غُرُورُهُ أَنْ يَحْفَلَ جَيْشُ الوَبَاصِ نَفْسَهُ، فَحَسَبَ نَفْسَهُ القَائِدَ الأَعْلَى لِمَجْلِسِ الحَرْبِ. وَكَانَ دَحَامُ يُسَايِرُهُ بِنَاءً عَلَى تَوْصِيَّاتِ الوَبَاصِ وَشَامَانَ. وَنَتِيجَةً لَذَلِكَ أَصْبَحَ الزَّعزَاعُ القَائِدَ وَالمَخْطَطُ فِي الاجْتِمَاعَاتِ، وَصَاحِبَ أَعْلَى سُلْطَةٍ فِي الحَرْبِ، مِمَّا انْعَكَسَ عَلَى شِيَارِ وَأُوهدِ وَابْنَيْهِمَا بِالكِرَاهَةِ وَالحَقْدِ. وَلَمَّا جَلَسَ شَامَانَ مَعَ الوَبَاصِ أَبَدَا غَضَبَهُ وَكِرْهَهُ لِلزَّعزَاعِ وَثَارَ بِشِدَّةٍ مِنْ أَعْمَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ.

شَامَانَ: عَلَيْكَ أَنْ تَوَيْحَ الزَّعزَاعِ يَا مَوْلَايَ حَتَّى يَعْلَمَ مَكَانَتَهُ، فَلَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ فَيَلْقَى حَسَابًا عَسِيرًا.

الوَبَاصُ: لَيْسَ الآنَ يَا شَامَانَ. اصْبِرْ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ الحَرْبُ.

شَامَانَ: أَيُظَنَّ ذَلِكَ المُتَغَطَّرِسَ أَنَّنَا بِحَاجَتِهِ؟! إِنَّ جَيْشَ العَصُوفِ وَحَدَهُ قَادِرٌ عَلَى إِبَادَةِ الحَرْجَفِ وَالجوازِلِ.

الوَبَاص: لقد انقضى شهرٌ مُدّ قطعنا الماء عن الجوازِل والحرَجف، وبقي أماننا شهرٌ واحدٌ لنفاد الماء من آبارِ شيجان، ولن أخسر أحد أتباعي هذا الوقت، فليفعل الزعزاعُ ما يشاء ما دامَ قادراً ومُتحمِّساً لقتالهم، ونحنُ بحاجة فعلاً، فلا ندري إن تخلى عنّا أين سيكونُ موقفه!

شامان: أتحسبُ الزعزاعُ يقفُ بصفِّ شيجان والغازي!

الوَبَاص: ولمَ لا؟ الزعزاعُ لا يعرفُ إلا مصلحته ولا يعرفُ ولاءً ولا وفاءً، فإن خسرناه سيقفُ ضدنا، وشيجان والغازي الآن في حاجة ماسة لأن يختل توازننا، فاترك عنك غضبك وكرهك له، ودعه يندفع ويقودُ جيشه أولاً للحرب، فإن بدأ القتال وخسر رجالاً من جيشه، فلن يرجع عن حربِه ضد شيجان أبداً، وبعدها سيُحفِّزُه الغضبُ والانتقامُ أكثر من الولاء والوفاء.

انضمَّ جيشُ الحرَجف كاملاً إلى جيشِ الجوازِل تحت قيادة أوس وجلحد، فأعادا ترتيبهما لعدّة أقسام ووزَّعوهم في كتائبٍ مُتناسقة، ودربوهم على العديد من المناورات والخُطط، وتركوا كتيبة السكارى حُرّةً للتنفيذ السريع وفق تغييرات سير المعارك وحسب مُجريات الحرب.

وانقضى الشهرُ الذي انتظره الوَبَاص ومجلس حربِه لانتهاء الماء في آبار الجوازِل، فاستعدوا لهجومِ شيجان والغازي على حصن العصوف بجيشهما لاهتين عطشاً كما توقعوا، فدَجَّجوا الجُنْدُ بالسلح، وخيَّم جيشُ الزعزاعِ أمام أسوار المدينة وعلى جانبيه جيشي شيار وأوهد، وأبى الزعزاعُ أن يُشارك جيشُ الوَبَاص كاملاً بالحرب من شدّة فخره بنفسه، فأخذ جزءاً منه تحت إمرته. وظلَّ مجلس الحربِ بالنعقادِ دائمٌ بانتظار ساعة الحزم والحسم، فكانت الأخبارُ تدخُلُ عليهم ساعةً بساعةٍ ولا شيء يجدُّ عليهم، ودامت الأحوال على تلك الحال أسبوعاً حتى اجتمع الوَبَاص مع قادته.

صاح الوَبَاص (ضجراً): لم لا يتحركون يا شامان؟ ألم ينته عندهم الماء!

شامان: كيفَ لنا أن نُقدِّر استهلاكهم للمياه يا مولاي! إنها أيامٌ معدودات، وقد يهجمون علينا بينَ عشيةٍ أو ضُحاها.

عاذل بن شيار: زُما قَتَرُوا على أنفسهم الماءَ فكفاهم أيامًا أُخر!

دحام: أخشى يا مولاي أنَّ الماءَ عندهم أكثر مما حسبنا حسابه!

الوَبَاصُ: وكيف هذا؟ وأتى لهم الماء؟

دحام: أخبرتنا العيونُ أنَّ كلا الجيشين اجتمعا على مداخل الجوازل، وأكّدوا لنا أن خيلهم لا يظهرُ عليها التعب وفي أتمّ الاستعداد! ثمَّ أنَّ تدريباتهم القاسية وحركتهم الدؤوبة، تُؤكّد عدم حاجتهم إلى الماء أو التقدير!

الوَبَاصُ: ما رأيك بهذا الكلام يا شامان؟

شامان: غيرُ معقولٍ أبدًا، لعَلَّهم يُظهرون ذلك حتى نهجمُ نحن عليهم! إنها مكيدةٌ يُدبّرونها.

أوهد: نعم، إنهم يفرّون من مصيرهم الذي يترصدُ بهم، ولئِن فرّوا فنحنُ لهم لاحقون.

الزعزاع: إنهم لا يفرّون ولا يعرفون الفرار، كما أنهم لن يهجموا علينا، بل ينتظروننا نحنُ لنكون أول من يبدأ.

نمرين أوهد: لا تُعلي من شأنهم أيها الزعزاع، إنما نصبرُ عليهم على مضضٍ منّا. أم تُراك تراجعتَ عن بسالتك!

شامان ساخرًا: قُل لنا إذن عن شجاعتهم وقوتهم يا زعزاع! وأخبرنا لماذا لن يهجموا علينا؟

انقلب مزاجُ الزعزاع وصاحَ غاضبًا: وما يُدريك أنت عنهم يا نمر؟ وأنت أيضًا يا شامان! لا أرى منكم سوى الكلام، وإني لأخشى عليك أيها الملك من وزيرك شامان، ومن تحليلاته الخاطئة وظنونته الحمقاء.

شامان: احذر أيها الزعزاع، والزم حدودك في الكلام. فلا تغترب بنفسك أنك قاتلتهم ولقيتهم في الميادين! فكلّ خُطوةٍ خطوتها كانت بأمرٍ منّا، وما انصعّت إلا بما أملينا عليك. نهض الفرزاع غاضبًا: لسنا أتباعًا ولا مأمورين عندكم يا شامان، فالزم حدودك أنت.

نظر الزعزاعُ إلى الويَّاص والغضبُ يشتعلُ بعينيه: هل يُرضيك هذا الكلامُ أيها الملك؟ مُروزيك أن يعتذرَ عما قال، فلا يكونُ جزاءً ولائنا مذمةً وانتقاصًا. الويَّاص (غاضبًا): كفاكم جدالًا وخصامًا، أمامكم حربٌ تستوجبُ التكاتفَ بدل التخالف.

الزعزاع: لن نكونَ إلا عند حسن ظنِّك أيها الملك، لكن يجب وضعُ الأمورِ في نصابها.. شامان: وما نصابها أيها الزعزاع؟ فسّر لنا ما نجهله. الويَّاص بغلظةٍ وامتعاضٍ واضحٍ: ألم تكتفيا بعد! الزعزاع: لم أقصد إساءةً في كلامي يا مولاي، فاسمح لي أن أنهى جدالي مع وزيرك. اسمع يا شامان، إن كُنْتَ نسيتَ من هو شيحان فأودُّ تذكيرك به؛ إنه داهيةٌ ماکزوليس أبله فلا يحتاطُ على ما يكفيه من الماء! ولماذا برأيك اختار التوقيت الذي بدأ به؟ أتظنُّه اختارهُ عبثًا دون عنايةٍ ودقّةٍ وهو مُقبلٌ على تحالفٍ مع الحرجف لقتال الملك الويَّاص!! وكيف لهم أن يتفقوا معه ويُحاربوا بصفه، لو أنّه لم يؤمّنهم بالماء التي تكفيهم جميعًا؟! أظنُّ بل أجزم أنّ الماء يكفيهم حتى يحلّ موسمُ الشتاء، فإن نقص ما عندهم أمطرت، فامتلات أبارهم وفاضت، وأصبحو بعد ذلك لا يخشونَ حربًا ولا يحسبونَ وقتًا. هل وعيتَ ذلك يا شامان؟ أم ستظلُّ على خُطتكَ التي رسمتها دونَ درايةٍ؟

اختفت معالمُ الثقة من على وجهِ شامان فاسودَّ وشحب، وطُمَسَ غضبُهُ فأبدلَ دهشةً مكانه، فتذكّرَ خيانة نهلان لهم وخشي أن يكونَ كلُّ ما ألقاه على مسامعهم كذبًا، فحار شامان وكانَ خُططَه كُلُّها ذهبت سَهْلًا.

الوَبَاصُ: قُلْ لِي إِنَّ الزَّعْزَاعَ مُخْطِئٌ بِتَحْلِيلَاتِهِ يَا شَامَانَ.  
شَامَانَ: لا لا، لا يمكن أن يكون صادقاً فيما يقول، هي أيامٌ فقط يا مولاي، وسوف  
يهجمون علينا لاهئين.

الزَّعْزَاعُ: إذن لماذا اختلف لوثك؟ ألا تَك ما حسبتَ هذا الحساب؟  
شَامَانَ (صَارِحًا): ومن أين لهم الماء؟ نحنُ نعلمُ ما تحتويهُ آبار الجوازِل، وما تأخِبرُهُم  
إلا حيلةً حبكها شيحانٌ لنهجم عليه.

الزَّعْزَاعُ: لقد دبرَ شيحانُ أمرَ الماءِ ولا أدري من أين! لكنّه يملُكُه بالتأكيد.  
شيار: لقد حسبنا أنّ خيلهم ستملكُ عطشًا، وها هو دحامٌ يُخبرنا أنّها تركضُ دونَ  
تعَبٍ أو كلل!

الزَّعْزَاعُ: وفيما جلوسنا هنا! وما يمنعنا عنهم؟ أم سننتظرُ حتى الشتاء! هذا لا يُعقل.  
الزَّعْزَاعُ: أعطنا الأمرَ للهجومِ أيها الملك، وستنامُ قريِرَ العينِ في ظرفِ أسبوعٍ واحدٍ لا  
أكثر.

أوهـد: نعم أيها الملك، لقد مللنا ونحنُ ننتظرُ دونَ طائلةٍ، حتى أنّ الجنودَ باتوا  
يحسبونَ انتظارنا خوفًا.

شَامَانَ: كلا، لن تُهاجمَ شيحانُ حتى يأتينا هو بجيشه، وسننتظرهم حتى يموتوا  
عطشًا.

صمت الوَبَاصُ وهو يُفكرُ بالكلامِ الذي أُلقيَ على مسامعه، ورغمَ عطشه الشديدِ  
للهجومِ والقتالِ، إلا أنّه لم يرغب بإعلانِ شارةِ الحربِ، ثقةً بوزيره شَامَانَ، وبُغضًا لطمع  
الزَّعْزَاعِ في سيادةِ الموقفِ.

الوَبَاصُ: كم تتوقعُ أن يصمدوا حتى ينفدَ عندهم الماءُ يا شَامَانَ!  
شَامَانَ: لن يكفهم الماءُ أكثرَ من أسبوعٍ واحدٍ، وسوف ترون ذلك جميعًا.

الوَبَاص: سننتظرهم عشرة أيام، فإن ظلّوا كما هم؛ فللزعزاع أن يُقرَّر متى يحين الهجوم عليهم.

بعد ستة أيام مُضنية على الساهرين، بدأ جيشُ شيحان والغازي يتحرّكان باتجاه العصوف، وكانت تلك الخطة هي المرحلة الأولى من الحرب كما أعدّوها وقرّروها، فنزلوا بالجيش بوادي الربيع، وهو وادٍ عريض وكبير يقع بالقرب من مدينة العصوف، وقد سُمّي بذلك الاسم؛ لأنّه يزدان بالأزهار والعُشب الكثيف الذي يكسو أرضه موسم الربيع، فاعتادت القوافل أن تبيت به وترتاح في سفرها وترحالها، لقربه من ينابيع العصوف، كما اعتاد الرعاة رعي مواشهم من خيراتهم بأمان وسلام.

طلعت خيوطُ الفجر من فوق الجبال على شيحان وجيشه في وادي الربيع، وطارت العيون لتُنذر الوَبَاص بما رأت، فدخلوا على الوَبَاص في قصره وعنده أعضاء مجلس الحرب، فأخبروهم بكل ما شاهدوا.

ابتسم شامان والسعادة المفرطة تظهر على وجهه: ها قد تحركوا كما توقعت، خيرًا لنا أننا لم نخضع لرأي الزعزاع ونبادر في الهجوم عليهم. الزعزاع وهو يكبت غيظه: وما كان سيختلف عندنا لو أننا هجمنا! لكننا فعلنا بهم ما سنفعل الآن.

الوَبَاص (صارحًا): كفاكم همزًا وقذفًا، أخبرني أيها الجندي ماذا رأيت بالتفصيل. الجندي: أمرك يا مولاي، لقد نزل شيحان والغازي بوادي الربيع وأغلب جيشهما راجلين، وذلك بعد منتصف الليل فلم نعاينهم جيدًا، فانتظرنا في مكاننا حتى طلع الصباح فتمحصناهم بدقة. إنهم عشرون ألف مقاتل على أكثر احتمال، وعدد الخيل معهم قليل جدًا لا يتجاوز أربعمئة رأسٍ يظهر عليها التعب والهزل. ويبدو أنهم سيرتاحون بوادي الربيع، فقد بنوا خيامهم الكبيرة وجهزوها وتمركزوا بمواقعهم.

دحام: هل بقي منكم أحدٌ هناك يرقبونهم أيها الجندي؟

الجندي: كلا يا سيدي، فقد انتشر جنودهم ليطوّقوا المنطقة ويحرسوها.  
غادر الجنود مجلس الوَبَاصِ، وظنّ الجميع أنّ شيحان والغازي لم يُعُودا يحتملان  
قلّة الماء، وقد ظهر ذلك على خيلهم القليلة والهزيلة. ونزلهم بوادي الربيع، ليُحاولوا  
الوصولَ إلى ينابيع العصوف ويُقاتلوا قُربها. كما اعتقدوا أنّ شيحان والغازي قد قسّما  
جيشهما، فجعلنا أكثر من نصفهم لحماية مُدنهم. بعد أن علموا أنّه لا مفرّاً أبداً من عقاب  
الوَبَاصِ ومهما فعلوا.

صاح شيار: هذه هي الفرصة السانحة لنُباغتهمُ بذلك الوادي فنقضي عليهم  
جميعاً. أعطنا الأمر يا مولاي.

شامان: كلا أيها الملك، بقي يومٌ واحدٌ أو يومان ويهجمون علينا، فدعنا ننتظرهم  
حتى يأتونا مُرهقين لا يقوون على حمل السلاح، وتكون خيلهم مُترنحةً تحت راكبها،  
فينتحرونَ على أسوارنا.

الزعزاع: علينا أن نُباغتهم أيها الملك، ولا نسمحُ لهم بوصولِ ينابيع المياه، وجيشنا  
الآن في أهبة الاستعداد.

شامان: لا تستعجل يا مولاي، فلا ندري ما يمكنُ لنا شيحان، فلننتظر حتى نتيبّن كلَّ  
الظروف. ألم تُحدّرنا أنت من مكره أيها الزعزاع! فلماذا تتعجّل للقتال الآن؟

الزعزاع: لقد كان كلامك صحيحاً حول الماء، فلماذا استكنت أنت يا شامان؟ وماذا  
لو مكثوا أكثر من يومٍ هناك؟ فلن يهجموا علينا إلا حين يستجمعون كامل قوتهم، وقد  
يلحقُ بهم بقية جيشهم فيقاتلوننا قتالاً عنيفاً! أرى أنّ نتحرك الآن فنقتلهم، ونلحقُ بمن  
خلفهم فنقضي عليهم جميعاً.

شامان: أطلبُ أن نتمهلَ يا مولاي، فلا نستعجلُ ونندم.

دحام: أَظَنَّ شِيحَانُ اسْتَنْفَدَ كَامِلَ نِبَاهَتِهِ وَطَاقَتِهِ يَا مَوْلَايَ، وَأَنَا أَضْمُّ رَأْيِي إِلَى الزَعَزَاعِ، فَلِنَنْطَلِقَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَجْعَ رَجَالَهُ، وَنَحْصِدَ رُؤُوسَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْعَمُوا بِالرَّاحَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفَكِّرُوا بِالْوَصُولِ إِلَى يَنَابِعِنَا.

ظَلَّ الْوَبَاصُ صَامِتًا يَتَأَمَّلُ مِنْ حَوْلِهِ، وَيُفَكِّرُ بِالْمَرْحَلَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا، وَكَانَ هُوَ صَاحِبُ الْقَرَارِ وَالْكَلِمَةِ الْفَصْلِ، وَالْأَعْيُنُ جَمِيعًا تَرْقُبُهُ لِيَحْسَمَ رَأْيَهُ. وَكَبِيرُ الصَّمْتِ بَقِيَامِهِ مِنْ مَقْعَدِهِ، فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِ الْجَيْشِ لِلْقَضَاءِ عَلَى شِيحَانِ، وَأَمَرَ الْحَاجِبَ أَنْ يَقْرَعَ طُبُولَ الْحَرْبِ، فَسَعَدَ الزَعَزَاعُ وَصَاحَ بِمَنْ فِي الْمَجْلِسِ، أَنْ هَيَّا انْطَلِقُوا إِلَى حَرْبِكُمْ الَّتِي تَنْتَظِرُونَ، وَاشْتَعَلَ الْمَجْلِسُ حَمَاسًا وَصِيحَاتٍ عَارِمَةٍ، كَمَا حَسَمُوا أَمْرَ الْحَرْبِ وَهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَبَقِيَ شَامَانٌ جَالِسًا غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِهَا، لَكِنَّ الْقَرَارَ قَدْ صَدَرَ وَانْتَهَى أَمْرُ النِقَاشِ، فَلَنْ يَرْجِعَ الْوَبَاصُ عَنْ كَلِمَتِهِ أَمَامَ مَجْلِسِ الْحَرْبِ.

قُرِعَتِ الطُّبُولُ وَبَدَأَ جَيْشُ الْعَصُوفِ يُنْظَمُ انْطِلَاقَتِهِ، وَكَانَ عَدَدُ الْمُقَاتِلِينَ فِيهِ ثَمَانِينَ أَلْفًا، أَرْبَعِينَ أَلْفًا كَامِلُ جَيْشِ الزَعَزَاعِ، وَعِشْرِينَ أَلْفًا هُمَا جَيْشَا شِيَارِ وَأَوْهَدِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عِشْرِينَ أَلْفًا فَقَطْ مِنْ جَيْشِ الْوَبَاصِ. وَقَدْ اقْتَرَحَ الزَعَزَاعُ أَنَّ عَلَى الْوَبَاصِ أَلَّا يُرْسَلَ أَحَدًا مِنْ جَيْشِهِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ بِشِدَّةٍ؛ لِيَجْعَلَ رِجَالَ جَيْشِهِ يَعْتَادُونَ الْحَرْبَ وَيَمَيِّزُونَ بَيْنَ أَعْدَائِهِمْ وَأَحْلَافِهِمْ، وَانْطَلَقَ الزَعَزَاعُ وَضَرِبَتْ خَطَوَاتُ الْجَيْشِ تَحْتَ قِيَادَتِهِ الْأَرْضَ وَهَزَّتْهَا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى السَّفْحِ الْمَشْرِفِ عَلَى وَادِي الرَّبِيعِ وَقَتِ الظُّهَيْرِ، فَتَقَدَّمَ الزَعَزَاعُ مَعَ أَخِيهِ الْفَزَاعِ لِيَنْظُرَا إِلَى عَدُوِّهِمْ، فَلَمَّا انْكَشَفَ جَيْشُ شِيحَانِ وَالْغَازِيِ أَمَامَهُمَا، ضَحِكَ سُخْرِيَةً وَغُرُورًا لَتَوَازِيَعَاتِهِ الرِّكِيكَةِ وَحَرَكَتِهِ الْمُبْعَثَرَةِ، فَطَلَبَ الزَعَزَاعُ مِنْ بَعْضِ السَّرَايَا أَنْ تَسْتَكْشِفَ الْمَحِيطَ بِالْوَادِي، وَقَامَ بِتَنْظِيمِ الْكُتَائِبِ وَالْجُنْدِ حَسَبَ طَبِيعَةِ الْأَرْضِ وَمِيلَاتِهَا، فَوَزَّعَ مَوَاقِعَهُمْ وَأَنْزَلَهُمْ بِبِدَايَةِ الْوَادِي الْعَرِيضِ رُوبِدًا رُوبِدًا، حَتَّى تَرَءَى الْجَيْشَانَ وَتَقَابِلَا، وَرَجَعَتِ السَّرَايَا بَعْدَ سَاعَةٍ طَافَتْ بِهَا الْمَنْطِقَةَ، فَأَعْلَمُوا الزَعَزَاعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا يَلْفُتُ انْتِبَاهَهُمْ، وَآكَدُوا أَنَّ الَّذِي أَمَامَهُمْ هُوَ جَيْشُ عَدُوِّهِمْ وَحَسَبَ. فَقَامَ الزَعَزَاعُ بِتَجْهِيزِ



النبالين وحاملي السهام والرماح، فجعلهم أعلى من غيرهم بطرفي الوادي، كما رَتَبَ القادة حسب حُطَّتِهِ، فجعلَ دحام في جهةٍ، ونمرين وأهد وعاذل بن شيار، في جهةٍ أُخرى، وأوعزَ إليهم أدوارهم فمضوا إليها، وتصَدَّرَ الزعزاع مع أخيه الفزاع مُقَدِّمَةَ الجيش.

وفي الجهة المقابلة، أعاد جلود وأوس ترتيب الصفوف والكتائب، فتشكَّكوا متقابلين وفي وسطهم أربعمائة من الفرسان يركبون على الخيل الهزيلة والمتعبة. فوقفوا صَفًّا واحدًا تَوَسَّطَ الكتائبَ وتقدَّمها، ومن خلفه بقية الجيش بقيادة شيحان والغازي، فانقسما قسمين وتحركا حركةً بطيئةً هادئةً بها بعضُ التخبُّطِ، ثمَ تمركز كلُّ قسمٍ منهما في أعالي السفوح، تحسُّبًا لهجوم الزعزاع عليهم من الأعلى أو الالتفاف عليهم، ولتكتيف الضرب على وسط الوادي الذي سيشهد التحام الجيشين.

انتظَمَ الجيشان أخيرًا واستعدا لبدء المعركة وقت العصر. فبقي أمامهما ساعاتٍ حتى الغياب، وكانت تلك الساعاتُ من وجهة نظر الزعزاع، كفيلاً بانتهاء المعركة وفوزه الساحق كما ادَّعى وحقَّقَ جيشه، فتقدَّم على حصانه وقابل جنوده، وطلب منهم ألا يخافوا ولا يجبنوا؛ فالغلبةُ لهم والانكسارُ لعدوِّهم، ثمَ استدار وتقدَّم إلى الأمام ومعه الفزاع وبعضُ الفرسان، إلى أن اقترب من جيش شيحان والغازي.

صاح الزعزاع: اليوم يا شيحان، اليوم أيها الغازي، اليوم يا أهل الحرجف والجوازل ستُدحرون وتؤلَّون الأدبار. وكم لقيناكم بساحاتِ الوغى، وكم كلَّتْ سُيوفُنا من قتل رجالكم وأبنائكم، فلا تظنُّون أنكم باجتماعكم المكذوب أصبحتم شيئًا؛ إن أنتم إلا دوابُّ لطالما تقاتلت لأعلافها، فلما رأَت الذناب؛ ضمت رُؤوسها خوفًا ورهبةً. فهبَّا أخرجوا لنا فرسانكم للقتال ولا تهربوا، فلن يُغادر الليلة هذا الوادي أحدٌ منكم إلا وسلخناه سلخَ الشياه.

صاح جيشُ العصفوفِ عاليًا فهزّوا طرفي الوادي، وسحبوا سُيوفهم استعدادًا للقتال. وانتظروا الردَّ على كلام الزعزاع. فتقلّبت الأنظارُ في صُفوف جيش شيحان، مُمتعضينَ مما نُعتوا به من قبيحِ الكلام والوصف، لكن أحدًا لم يرد.

صاح الزعزاع: أَعقدت ألسنتكم عن الكلام عَطشًا أم خوفًا! هيا أيها اللاهثون، ألا تُريدون أن تشربوا الماء؟!

صاح الفزاع: اليومَ سنجعلُ وادي الربيع مقبرةَ الجوازل والحرجف. أنا الفزاع بنُ حمزة، فهل منكم مُبارز؟!

فهقه الزعزاعُ بصوته الجهور، فتبعته ضحكاتُ وسُخرياتُ الجيش الذي ترأسه، وقد كانَ كلامه لاذعًا؛ إذ تفاخرَ بقتال شيحان والغازي، واستهزأ بحلفهما الضعيف، وسخرَ من الصمت الذي نزلَ فيهم، والعطش الذي بلغَ بهم. وماطلَ شيحان في الردِّ حتى تقدّم على حصانه، فعمَّ الصمتُ.

شيحان (بصوتٍ عالٍ): نعم، لقد قاتلتنا أيها الفزاع؛ فما رأينا منك إلا الخسة والخداع. وحينما فنيَ الرجال وأعدِموا، ما وجدناهم إلا في أنفسنا فتقاتلنا فيما بيننا، وهذه عاداتُ الرجال. وقد جملنا أن نُقاتلكم فنقتلكم، لكنَّ عددكم برزَ لنا أن نلتقي، فسنقتلُ أضعافَ أعدادنا، وليس ذلك إلا عهدٌ علينا. نعم، نحنُ عطشى لاهثون، ولن يروينا إلا الدماء.

صمت شيحان ثم تابع: اليوم، اليوم وغدًا، وفي كلِّ لقاء، سوف يروى هذا الوادي بالدماء؛ دماءُ المتكبرين والأغبياء -مُشيرًا إلى الزعزاع بيده- وستقلُّبُ ضحكاتهم إلى بلاء، ولن يصدح صوتٌ فوق صوتِ العُظماء -مُشيرًا إلى جيشه بكلتا يديه- فهيها أيها الزعزاعُ أخرجُ فُرسانك للمنازلة.

كان وقعُ الكلامِ كبيرًا على جيش شيحان والغازي، فصاحوا بحماسةٍ زلزلت الوادي تحتَ أقدامهم، وقطعت الردَّ عندَ الزعزاع من كلام شيحان، ومن منظرِ الرجالِ حوله

وصيحاتهم العاتية. وغضبَ الزعزاع كثيرًا وخشي أن يدبَّ الرُعبُ في جيشه، فأخرجَ أخوه الفزاع للمنازلة، وخرج معه فارسان اثنان من أقوى فرسانه، ونظيرًا لهم خرجَ شيحان مع فارسين اثنين من كتيبة السكارى. كان الفزاع صلبًا في بُنيته، وماضيًا في ضربِ سيفه، ولم يخسر بحياته أي نزال، ولم يلتقي أبدًا وجهًا لوجه مع شيحان، فأصبحَ هذا موعدهما المرتقب، الذي شكَّ فيه جميعُ الرجال واختلقت توقعاتهم بنتائجه.

وكان مجلسُ حربِ الجوازل والحرشف قد منع أن يخرجَ جلد أو أوس بنفسهما في المنازلات، لدورهما المهم في قيادة الجيش؛ خوفًا من ضربةٍ أو طعنةٍ نافذةٍ تمنعهما من مواصلة الحرب، وقد طلبوا من شيحان ذلك؛ لكنه لم يقبل وجعل نفسه قائدًا لكتيبة السكارى، الكتيبة التي تعرفُ أين تضرب ومتى تضرب، حتى لو غاب عنها. وقد تعمّد شيحان ذلك أيضًا، حتى يضمن ترتيب الجيش حتى لو قُتل أو أُصيب، وليجعل كلَّ مَنْ خلفه قادهً مثله، فخرج مع المبارزين الأوائل الذين سيفتتحون الستارة الحمراء للحرب بسيوفهم، ويلقى الفزاعُ الذي أفزع الرجالَ بقوّته وبأسه.

مشى المنازلون صوبَ نظرائهم، فتقاتلَ فارسا كتيبة السكارى مع فارسي الزعزاع واحدًا بعد واحد، وقد طال نزالهم عن المعهود، وكانت الغلبةُ لفارسي كتيبة السكارى؛ وكلّما فاز منهما واحدٌ صاح الجنودُ فخرًا وسعادةً، ونزلت صيحاتهم بؤسًا وشؤمًا بجيش الوّبّاص، الذي عقدَ آماله على الفزاع ليقُتل شيحان، فيكسر شوكة جيشه. تقابلَ الفزاعُ وشيحان أخيرًا وحانت ساعةُ الفصلِ بينهما، ولم يحمل شيحان سيفين كعادته في قتاله، فكان كلاهما يحملُ درعًا وسيفًا، وظنَّ الجميعُ أنّ شيحان يخشى الفزاع ويحسبُ حسابه، مما أفرحَ الزعزاع وقيادة جيش الوّبّاص، فصاحوا ملءَ أفواههم باسم الفزاع، كما صاح جيشُ شيحان باسمه عاليًا، وهم يشعرون بالخوف عليه أن يُقتل.

وسحبَ الفزاع سيفَه الإصليّ<sup>(١)</sup> كما أسماه، وتقدّم لشيخان فحاوره وداوره حتى انقضَ عليه بسيفه، فضربَ أوّل ضرباته القويّة، فتفاداهما شيخان وابتعدَ عنها، حتى ضربَ ضربةً ثانيةً، فتلقّاهما شيخانُ بدرعه ثمّ دفعه به، فانفضّا وتباعدا. هجم الفزاعُ على شيخان فقفزَ عنه للخلفِ بسُرعةٍ خاطفةٍ حالت بينه وبين نصل سيف الفزاع. استمرّ القتالُ وشيخان يكتفي بحماية نفسه من الضربات، وذُهلَ الجميع من أسلوبه حيثُ بدأ عليه التعب. لقد هرمَ شيخان ولم يُعدّ قويًّا كسابق عهده، هكذا ظنّ الصامتون الذين يستمعون لصلصلة الإصليّ مع الصمصام.

طالت مُناورات شيخان وهُروبه من ضربات الفزاع القاسية، وسطَ صيحات جيش الوباص وقرع طبولهم، وارتابَ دحام وشكّ في أسلوب قتال شيخان، فرأى أنّه يتعمّد الإطالة والتأخير، فأرسلَ جنديًّا على عجلٍ للزعزاع لينتظنّ للأمر. نظرَ الزعزاعُ إلى شيخان بعينٍ غيرِ التي كان يراه بها، فلم يُكنْ شيخان لاهنًّا مُجهّدًا، وغيرَ قادرٍ على القتال، بل يتعمّد إطالة الوقت لشيءٍ يمكُرُ له. قلبَ الزعزاعُ بصره في جيش أعدائه، فرأى خلفه تحركاتٍ صامتةٍ عند الخيام لا تكادُ تظهر، فعلمَ أنّ هناك مكيدةً تُحاكُ ضدّهم، حينها تقدّم صوبَ ساحة القتال، ونادى على الفزاع، وصاح به أن يُوقفَ القتال فورًا. لم يفهم الفزاع ماذا يُريدُ أخوه منه، فظنّ أنّه يطلبه أن يحسمَ القتالَ ويُشجّعه. وعرفَ شيخان أن جيش العصوف قد استدرکوا وجودَ حُطّةٍ تُحيطُ بهم أخيرًا، فاختلف شكله وصرّ وجهه، وزوى ما بين عينيه وشدّ أسنانه، وتغيّرت طريقتُهُ في القتال فانقلبَ من المناورة والدفاع إلى الهجوم، وأهلك الفزاع بضرباته ولم يترك له مجالًا ليلتفت إلى صُراخٍ من خلفه. تراجع شيخان خطواتٍ قليلةً للخلف، ثمّ ألقى درعه، وأستلّ سيفَه الصمصامَ الثاني، فلوّحَ بسيفه كصقِرٍ أطلقَ جناحيه للريح، وبدأت صيحاتُ جيش الحرجف

(١) الإصليّ : الصقيل.

والجوازِل تصدَحُ في وادي الربيع، فوثب شيحان بكُلِّ عزمه وقوّته على الفزاع، وأردف بنصال سيفيه على درعه، فتراجَع بخطواته حتى ضربه شيحان بقدمه فاختلَ توازُنُه، وسقط نصفَ سقطَةٍ على قدمٍ واحدةٍ، مُستندًا على سيفه الذي غرسه بالتُّرابِ ومُحتميًا بدرعه الثقيل.

كانت اللحظةُ المواتيةُ لِيُنْهِي فيها شيحان على الفزاع، فما أن دنا منه حتى أُلْقِيَت السهَامُ حولهما، نظر شيحان وإذا بالزِعزاع ومجموعةٌ من الفُرسان يركُضون بخيلهم باتجاهه، فتراجع وحمل درعه ليحتمي به، والفزاع يتراجع صوب جيشه حتى وصلوه وأعطوه حصانه، وكذلك وصلَ جلود الفرسان إلى شيحان فاعتلى حصانه، ثم رجَع الطرفان بحذرٍ شديدٍ حتى عادوا إلى مواقعهم.

اجتمع الفزاع بدحام وعاذل ونمر، وعلم أنّ الزِعزاع قطع القتالَ لأنّه شمَّ رائحةً مكيدةً تحوُّفهم، فنظروا إلى جيش شيحان وهو يتحرك بسُرعةٍ من المنتصف إلى طرفي الوادي، وبخطوطٍ متقابلةٍ كأنها أفاعٍ عملاقة، وتركوا فراغًا كبيرًا في المنتصف، وجعلوا صفوفهم مُتباعدةً يتخلَّلها العديد من المنافذ الواسعة، ولم يبقَ في ساحة الوادي سوى الفُرسان الذين يركبون خيلهم. اقترح دحام أن يُخرجوا جيشهم من الوادي إلى السفحِ لإعادة تشكيل الصفوف؛ لكن الزِعزاع رفض رفضًا قاطعًا، وأصرَّ أن تبقى خُطّة هُجومهم كما رسموها، فأمر القادة أن يرجعوا إلى مواقعهم ويستعدوا لبدء المعركة.

هجم الفزاع بكتيبةٍ ضَمّت خمسةَ آلاف فارس، فيما انطلق صوبهم الفرسان الأربعمائة بخيلهم الهزيلة، وبأيادهم شُعبًا طويلةً غرسوها بالتُّرابِ كأنما يجرتون الأرضَ، فأناروا نفعًا كبيرًا ارتفع في السماء كغيمةٍ صفراء، وظلُّوا يركُضون حتى اقتربوا من الفزاع، فألقوا بشُعهم على كتيبته ثم استداروا بخيلهم وأخرجوا أقواسًا وسهائمًا، وانطلقوا إلى طرفي الوادي مُتسلِّين بين الغُبار. أصابت الشعابُ بعضَ فرسان الفزاع فأبطأتهم قليلًا، ولم يصلِ الباقيون حدَّ الغُبارِ حتى توالى عليهم السهَامُ ولم يعلموا من

أين جاءت! كان الرُماة من (كتيبة المهند) بقيادة مهند بن جليد، وقد خرجوا من مخابئهم في الخيام الكبيرة، وهجموا مُستغلين الغبار الكثيف الذي غطى على عيون الفزاع، فباغتوه وأمطروه بالسهم، وقتلوا العديد من فرسانه، ثم أخرجوا سيوفهم الماضية فتسامع صوتُ استلالها المفزع في وادي الربيع. وما أن انقشع الغبار وظهر ما تحته حتى وجد الفزاع نفسه أمام كتيبة خرساء، قوامها ستة آلاف فارسٍ مُلثمين ويحملون سيوفًا لامعة تعمي الأبصار.

التحمت الكتيبتان وتقارعت السيوفُ والرماح، وانتثرت الدماء وتبعثرت الأثلاء، وفزع الفزاعُ من الخيل التي انطلقت عليهم تعفرُ الأرضَ عفرًا، والفرسان الأشاوس الذين أثنوهم بالضربِ إثنانًا، فتراجع هاربًا بمن بقي معه إلى مواقع جيشه، ورجع مهند بكتيبته إلى موقعهم وتوسط الجيش الذي هتفَ إكبارًا لصنيعهم وبسالهم. وسيطر الغضبُ على الزعزاع وأعطى إشارته للهجوم الكامل دون أن يلتفت إلى قادته، وقرعت الطبولُ وصاح جيشُ العصوف وهجموا من كل الجهات، فكان جليد مُوكلاً بطرف الوادي الذي هجم منه نمر وعاذل، كما أوكَلَ أوس بالطرف الآخر الذي هجم منه دحام، وظلوا ثابتين في مواقعهم ولم يتحركوا، واكتفوا بتحضير السهم لاستقبالهم، وما أن اقتربوا منهم حتى أطلقت السهامُ عاليًا وملأت السماء، فحجبت أشعة الشمس من كثرتها، ونزلت كالبرق في قلوب أندادهم. سقطت الخيلُ وتباطأ قادة العصوف وتخبطوا في هجومهم، فلمَّا أعادوا تشكيل صفوفهم، ورجعوا إلى الهجوم بقوة أكبر، كانت السهامُ من نصيبهم مرةً أخرى، فظلوا بين هُجومٍ وتوقّفٍ حتى ألقى جيشُ الجوازل والحرشف أقواسهم، وحملوا سيوفهم ورماحهم استعدادًا للالتحام.

نادى جليد وأوس بأصواتهما العالية، فانتظمت كتائبهما وغرس رجالهم الجبارة الرماح في الأرض، وداسوا عليها بأقدامهم فثبّتوها كالأوتاد، وأمالوها لدحر الخيل الجامحة المتجهة إليهم. وأطلق شيحان صرخته العالية، وصدحت بعدها صيحاتُ

وأصواتٌ مرعبةٌ خرجت من خلف السفح تتبعها زوابعٌ عديدة، فبدأ أترؤها ولم تظهر بعد: وما كانت إلا من الكتائب العاصفة التي اختبأت، فحينما خرجت دقت التراب بحوافرِ خيلها انطلاقاً للهجوم.

وكما شحذ شيحانُ بلسانه الأسنّة، قطع سنانه الألسنة الناعقة، فحمل سيفيه وتقدّم كتيبة المهند مع الغازي، وأطلقوا العنان لخيولهم الهائجة، واتجهوا صوبَ الزعزاع في منتصف جيشه بوسط الوادي. واستمرّ القتال حتى ظهرت الكتائبُ العاصفة ووصلت سفح الجبل براياتها الملوّنة، فغاروا من بين المنافذ وهم ينسلون من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وراياتهم خفاقةٌ وهمايتهم مرفوعةٌ، وسيوفهم مسلولةٌ، فاخترقوا التلاحمات ونفذوا منها بخيلهم وسيوفهم، وظلّوا بوجهتهم صوبَ الزعزاع، فكانوا بتشكيلهم الذي شقوه واقتحموه كأسراب القطا حينما تجوب الصحاري، بينما كتيبةُ السكاري على سفح الجبل ترقبُ المعارك، وتنتظرُ دورها لتهاجمَ في المكان والزمان المحتَمين.

اخترق شيحانُ صُفوفَ العصوفِ، وحصد الرؤوسَ وكسّر السُيوفَ بسيفيه الصمصامين وحطّمها، وحطّم عزائم جيش العصوف. وصدت كتيبتا أوس وجلحد هُجومَ دحام وعاذل ونمر بقرّة مُنقطعة النظير، إذ غرسوا رماحهم في رقاب خيلهم وصُدورها حتى تناحرت عند أقدامهم، فحصدوا الرؤوس حتى تدرجت مع الجثث من السفوح المتقابلة لأسافل الوادي واستقرت بها، وتقدّموا إلى الأمام ليُتابعوا حصادهم، حتى قتل أوس نمر بن أوهد، فصاحوا بخبر مقتله وازدادوا تقدماً وإصراراً أمام تخبط جيش العصوف وخسائرهُ، فبدأ بعضُ جنودهم بالتقهقرِ وازدادوا بلاءً فوجّه عاذل جيشه وجيش نمر الذي قُتل إلى مُنتصف الوادي، وكذلك فعلَ دحام حين رأى تغيير موقعه، فرجع بجيشه لينضمّ إلى كتائب الزعزاع. لحق جلود أوس بجيوش العصوف حتى لا يتكالبوا على شيحان، وأعطيت الإشارةُ إلى كتيبة السكاري، فانقسمت قسمين: في كلّ قسم ألفٌ وخمسمائةٌ فارس، فهجموا كالريح العاتية من أطراف الوادي واجتازوا

كتيبتى جلحد وأوس ولحقوا بجيوش العصوف، فطعنوا طُهورَ الهارين ومضوا يضربون عن يمينهم وعن شمالهم، تاركين خلفهم خيلَ العصوفِ طليقةً، فاعتلى جُنْدُ جلحد وأوس صهواتها ولحقوا بهم، حتى اجتمعوا بجهةٍ واحدةٍ مع شيحان والغازي.

كان شيحانُ يبحثُ عن الفزاعِ والزِعزاعِ ليُقاتلَهُما؛ لكنه لم يتمكّن من الوصولِ إليهما، وقد وصلَ ضرارُ إلى الفزاعِ فتواجهها وتقاتلا، وشيحانُ ينظرُ إليهما من بعيد، فنكزَ حصانهُ بشدّة، وكشّرَ عن أنيابهِ القاطعة وانطلقَ صوبَهُما. اشتدَّ القتالُ بينَ ضرارِ والفزاعِ، وكانت قُوَّتُهُما مُتقاربةً، فصلصلت سُيوفُهُما وأصابا بعضَهُما بعضاً بالجراحِ، وكانت جراحُ ضرارِ أبلغَ، فتمالَى من الضرباتِ التي نفذتِ إليه، وتأرجحَ على حصانه فصدَّ الضرباتِ بصُعوبةٍ بالغةٍ، إلى أن سقطَ عن حصانه. لم يلحق شيحانُ بضرارِ، بل شاهدَ بعينه كيفَ ترَجَلَ الفزاعُ عن حصانه وغرسَ سيفه في بطنه ثم مضى، فاشتعلَ شيحانُ غضبًا وزمجرَ كالبركانِ الهادرِ. وجرفَ من أمامه وأزاحَهُم عن طريقه، وانتبه الليثُ وبعضُ الفرسانِ له فتبعوه فورًا.

وصلَ شيحانُ إلى ضرارِ فوثبَ عنده وحمله بينَ يديه، وهو مُضرجُ بالدماءِ، ولا يقوى على الكلامِ ويكتفي بنظراته الموجعة والمؤلمة. نسي شيحانُ الحربَ كُلَّها وسقطَ سيفاهُ من يديه، فضمَّ بينَ ذراعيه رقيقَ عُمره وابنِ عمِّه ضرارِ بن مالك، وحاول جنود العصوفِ الانقضاضَ عليه مُستغلين حالته المريرة؛ لكن الليثَ كان لهم بالمرصادِ، فخطفَ أرواحهم وقطعَ أطرافهم كالمجنون، والفرسانُ يُقاتلون معه، ويُطوّقونه هو وشيحانُ ويحمونهما من جنود العصوفِ. أمسك الليثُ بكتفِ شيحانِ وهزّه ليهضَّ من مُصابه؛ لكنه لم يتحركَ، فأخذ ضرارُ من بين يديه رغماً عنه، وأوكلَ لبعض الفرسانِ مهمّةَ إخراجهِ من ساحةِ المعركة.

حُمِلَ ضرارُ بعيداً وظلَّ شيحانُ يرقُبُهُ حتى اختفى عن ناظرِهِ، ثم نهضَ وحملَ سيفه وأغلظَ في مسكِهِما، وصعد على حصانه طالباً رأسَ الفزاعِ، فظلَّ يقتلُ كُلَّ من



يعترضُ طريقه، والليث ومن معه يتخطَّون الجُنْث والخيل المضطربة لِأحْاقِ به، وبالكاد يُجارونه أو يصلونَ إليه. شاهد جلد وزهير الحصان الذي حملَ ضرار يخرجُ من ساحة الحرب والدم يقطرُ منه، فاستشاطا غضبًا وألمًا، وقلَّب جلد بصره حتى رأى شيحان يستقتلُ للوصولَ إلى كتيبة الفزاع، فأوكل إلى القادة أدنى منه أن يأخذوا مكانه، وانطلقَ مع زهير ومجموعةٍ من الفرسان لدعم شيحان. فتعالت صيحاتُ الغضبِ العارمِ وداروا كالرعى يطحنونَ كلَّ ما يقع بينَ أيديهم، وانضموا إلى شيحان الهائج على جيش العصوف. أوشت الشمسُ على المغيب، فطلبَ دحام من الزعزاع أن يرجعوا بجيشهم إلى سفح الوادي، فالمعركةُ شرسةٌ والخسائرُ عندهم تعظُمُ شيئًا فشيئًا. ولم يجد الزعزاعُ عزَّةً في نفسه تمنعه عن ذلك؛ فأمرَ الجنود أن يراجعوا إلى سفح الوادي للنجاة من الموتِ المحتَمِّ، فتحرَّكت الراياتُ وبدأ جيشُ العصوف بالانسحاب تدريجيًّا، ولم يرحمهم جيشُ الجوازل والحرَّجف فكان يلحقُ بهم ويُقتلهم وهم يتقهقرون. وكذلك أعطى الفزاع كتيبته الأَمْرَ للرجوع؛ لكن شيحان اقتربَ منه وصاح عليه صيحةً هزَّت أركان الوادي، فالتفت إليه الفزاع ورأى الغضبَ بعينه ولم يخف منه، فاستدار وتقدَّم كتيبته لمواجهة ووقف بوجهه وهو يركضُ نحوه. لم ينتظر شيحان أن يكونَ حوله من يحميه، فما كان في عقله إلا هدفٌ واحدٌ عزمَ عليه، فما أن وصل للفزاع حتى ترجلا كلاهما عن حصانه، فتقدَّم شيحان ولم يُناور أبدًا وقد انتهت عنده المناورات، فما كانت إلا ضربةً واحدةً حتى قطع يد الفزاع وأسقط سيفه، تبعها بطعنةٍ في فخذه أناخته كالبعير، ثم غرس سيفه الصمصامين في صدره، ووضع قدمه على بطنه وأخرج سيفه وزأر فوق جُنْته.

قُتلَ الفزاع بن حمزة، قُتلَ الفزاع، أصواتُ تردَّدت وعمَّت وادي الربيع، وشيحان جائئٌ على جنَّته كأسدٍ اعتلى فريسته، وكتيبته التي هُبتت وفُزعت لم تسلم من سيوفِ جلد، والليث، وزهير، والفرسان الذين هجموا عليها، فنكَّلو وأنخنوا بهم ولم ينجُ منهم

إلا القليل، فانضموا لباقي جيشهم. ولما صعدَ الزعزاعُ بكاملِ جيشه إلى السفح مع نزول الظلام على الوادي، اشتعلت النيرانُ في صدره بِسَماعِ خبرِ موت أخيه، فَجَنَّ جُنُونَهُ وثارت هاجتُهُ المتلاطمة. وحاول الرجوعُ إلى ساحة القتال؛ لكن دحام وعاذل منعاه بسبب حالة جيشهم المبررة وخسائرهم الكبيرة، فقد خسروا ما يُقاربُ نصفَ جيشهم، واختلَّ توازنُهُ اختلالاً بائناً بفقدِ الفزاع ونمر، القادة الكبار لجيش العصوف.

انفصل الجيشان وتباعدا كُلُّ إلى جهته، فحمل شيحان الفزاع على حصانٍ ومشي به إلى مواقع الجرحى الذين يرعاهم سوار مع مُعاونيه، وكان من بينهم الغازي وشهاب بن أوس، فلم يلتفت لهما شيحان وظلَّ يمشي حتى وصل عند ضرار، فألقى الفزاع عند رأسه. كان ضرار لحظتها يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ الممزوجة بالدماء، فألقى نظرةً على الفزاع، تبعها نظرةٌ وداعٍ لشيحان ومن حوله من الرجال، ثم مات. مات ضرارين مالك، وصاح شيحان وهو يحملُهُ بين ذراعيه، واختلاجاتٌ متتابعةٌ تنقبضُ في صدره من أنفاسه العنيفة المتقطعة بالنحيب. ماتَ ضرار فبكى جليداً وزهير حتى ابتلت لحاهم، وبكى الباكونَ رغمَ انتصارهم الساحق، وخسائرهم القليلة التي لا تكادُ تُذكرُ مُقارنةً بخسائر أعدائهم.

ويَخَ الزعزاعُ فرسان كتيبة الفزاع وشتمهم لأثم تركوا شيحان يأخذُ جُنته، وأرسل إلى الوباص يطلبُ بقية جيش العصوف مُستغيثاً وطالباً للثأر من ليلتهم التي حسبَ أنها انتهت عند ذلك الحد، وأنَّ الحربَ ستُستأنفُ صباحاً، لكن هيات،، فأين المفر من دهاء شيحان وعزيمته! وأين النجاة من غضبه الذي غلّفهما واقترن بهما! فبعد أن تركَ مُدَّةً طويلةً يرثي ابن عمه ويبكي على صدره، تحولت الدموع في عينيه إلى جمرٍ مُشتعلٍ، فانفضض وطلب تجهيز الجيش للخطة التالية. ولم تُمر ساعةٌ واحدةٌ عن وقف القتال، حتى بدأت تحركات جيش الجوازل والجرجف، ووصل للزعزاع ودحام خبر ذلك والرؤية شبه معدومة، فلا يظهر إلا ظلالٌ وخيالٌ في الظلام، فتحاوروا وفكروا بالانسحاب؛ لكن

أنفةَ الزعزاع وسعيه للثأر أعمى بصيرته، فأصرَّ على القتال مهما بلغت الخسائر، وأعاد تنظيم جيش العصوف بشكلٍ أقربٍ لشكلِ المربّع.

تحركَ شيحان وقسمَ الجيش إلى أربعة أقسام؛ قسم في المقدمة يسيرُ بوسط الوادي وهو على رأسه، والقسمين الآخرين تحركًا على طرفي الوادي من الأعلى بقيادة جلد وأوس. أما القسم الرابع فقوامه ثمانية آلاف مقاتل بقيادة الجاسم، وقد تحركوا خلف جيش العصوف قبل الغروب وأثناء سير المعركة، وهم الآن يتمركزون بالمكان المحدد لهم. أخذ الجيشُ مواقعه وهدأت الحركةُ وأخفضت الأصواتُ حتى اختفت تمامًا، واحترأ الزعزاعُ ودحام وعاذل. ولم يدروا متى سيبدأ الهجوم! وأين سيكون! وذلك ما استغلَّهُ جيش الجوازل والحرّجف خيرَ استغلالٍ وخطّطوا له.

ألقي سهمٌ مُشتعلٌ في السماء إشارةً إلى بدء الهجوم، ثم أُلقيت بعدها السهامُ في أعلى السماء، وهبطت على جيشِ العصوفِ كحممِ البراكين المحترقة، فاخرقت أجسادهم واستقرت بظهورهم من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وحرار جيشُ العصوف وارتعب، ولم يعرفوا كيف يحتمون بدروعهم. أُطلقت السهام على فتراتٍ متفاوتةٍ ومتباعدةٍ، فجعلت الزعزاع بحيرةً أكبرَ من سابقاتها، واختلف دحام وعاذل معه في الخروج من المأزق الذي وقعوا به، فأشارا إليه بالانسحاب العاجل والكامل، فلم يستغرق الكثير من الوقت تحت وقع السهام حتى رضخَ لهما، وما أن سرّبَ أوامره بإدارة دفةَ الجيش والتحرك، حتى أعطى شيحان الأمرَ بالهجوم، فهجم من جهته كما هجم جلد وأوس من جهتين متقابلتين، وانطلق الجاسم بكتيبته من الجهة المقابلة فحاصروا جيش العصوف، وكان هجومهم مُباغتًا توالى به الطعنات والضربات، وكثر الموتُ والزفريات، وسالت الدماء بين الجثث والأشلاء، ودامت المعركة أكثر من ساعتين متواصلتين، كانت الغلبةُ الساحقةُ فيها لجيش شيحان والغازي.

لم يجد الزعزاع حلاً للنجاة إلا بالهجوم دُفعةً واحدةً بما تبقى معه من جيشه، فأسقطت راياتهم التي رُفعت بشقِّ الأنفس، وفرَّ الزعزاعُ هاربًا حاملاً مع جيشه الانكسارَ الواضح والشُعور الفاضح، فالتقى بباقي جيش الوَباص الذي خرج لنصرتهم، فأمرهم أن يُعسكروا قُربَ ينابيع العصفوف خشيةً أن ينطلق شيحان إليهما.

طلعت خُيوطُ الصباح وكشفت البلاء الذي خلَّفته الحرب، واشتعلَّ الوَباصُ غيظًا على غيظٍ، ولم يتمكَّن من التعبير عن قهره البالغ والنازف على وجنتيه، فلم يُصدِّق أنَّه خسر الحرب خسارةً فادحةً، والزعزاع بمجلسه ذليلٌ صاغر، والحزُن يعتمر قلبه على مقتل أخيه، كما خارت عزائمُ أُوهدُ على ابنه نمر، ففغرَ وصاحَ شتمًا للحرب ولشيحان. ورجعَ شداد لمدينة العصفوف بعد أن تأكَّد من انسحاب شيحان من وادي الربيع إلى مدينة الجوازل، فدخلَ مدينة العصفوف بوجهٍ أسودٍ شاحبٍ، كان كفيلاً بأن يُلقى الرُعبَ في كُلِّ من نظرَ إليه. فلما وصلَ عند ملكه الوَباص ووقفَ بينَ يديه، أمرهُ شامان أن يتكلمَ ويُبيِّن ما رأى.

شداد (بصوتٍ مرعوبٍ): إنها فاجعةٌ يا مولاي، لم نتمكَّن من دفنِ القتلى من كثيرهم، لقد غيَّمت السماء على وادي الربيع من كثرة الطيرِ فوقه، فخالطَ ظلالُ الغريانِ المعتمِ على الأرضِ احمرارَ الدماء، وقد وجدنا بعضَ موتانا مربوطين بأجمَةِ الخيل، والطيرُ تختطفُهم وتهشهم نهشًا، إنها كارثةٌ عظيمةٌ كالطاعون نزلت بجيشنا. وقد دبَّ الخوف والفرع في الرجال الذين كانوا معي من هول ما رأوه، فحملتُ نفسي وجنتكم تاركًا للغريان والضواري أن تتكفَّلَ بمن لم ندفنهم.

لم يُكِّن الوَباصُ ينتظرُ أن يأتيه شداد بهذا الحديث وهذا الفرع، فصاح به أن يستجمع رُجولته، ويستعدَّ لشحنِ الهمم بدل أن يُكسِرَ مجاديفَ الجنود. فأومأ شداد رأسه اعتذارًا وعذراءً، وفي جوفه خوفٌ باردٌ ما يزال يضرِبُ فرائصه ويسري بدمائه التي جفَّت مما رآه. وحاولَ أُوهد أن يمضي بالقلة المتبقية من جيشه ليبحثَ عن جُثة ابنه

نمر، واستمالَ الزعزاعَ لرأيه فيكرما موتاهما المقرَّبَيْنِ قبلَ أن تَفقأَ الطيورُ عينيهما، لكن الزعزاعَ استيأسَ من العثورِ على جُثَّةِ أخيه، فأعرضَ عن دعوةِ أوهد واستنكرَ أهمَّيتها. وانتهى دحام وقادة الجيشِ التابعينَ لحلفِ العصوفِ من طوفتهم، فعدّوا الجنودَ وعابنوا حالهم ووضعهم وكتبوا النتائجَ، حتى عرضوها بعد الغروبِ على جميعِ المجتمعينِ في القصر.

شامان (صارخًا بغضبٍ شديدٍ): خمسون ألفا من الرجال، وعشرون ألفا من الخيل خسرتها، لقد أخبرتكم ألا تتعجلوا، فتعجَّلت واستبسلتَ أمها الزعزاعُ حتى أغرقت وادي الربيعِ بدماءِ جيوشنا، كلُّ هذا من عنجهيتك وغرورك الذي أعمى بصيرتك. وأنتَ أيضًا يا دحام لقد شددتَ على يده وأزرتَه برأيه، فكلالكما مسؤولان عن هذه الخسائرِ الفظيعة.

الوَبَاصُ (صارخًا): وعدتني أن تمحقَ جيشهم عن بكرةِ أبيهم أمها الزعزاع، هل كانوا أكثرَ منكم عددًا وُعدَّةً؟ أين خبرتك وفراسُك في الحرب التي طحنتَ جيشنا طحْنًا! ما بك لم لا تتكلّم!

صاح الزعزاعُ بشامان: أنتَ المسبِّبُ الأكبرُ لما حلَّ بنا.

شامان: أتجرؤُ أمها الكاذب، لا تظنَّ أن حُزَنَكَ على أخيك يمنعنا عن تأنيبك.

الوَبَاصُ: كفاك أمها الزعزاع، فقد كان شامان الوحيدَ فينا من رفضَ انطلاقِ جيشنا للحرب.

نظر الزعزاعُ نظرةً غاضبةً إلى شامان، تبعها بأشدَّ منها إلى الوَبَاصِ، ثم قال: لا أمها الملك، لقد كانت كُلُّ حساباتِ وزيرك خاطئةً ومغلوبةً! فلم يأتينا جيشُ شيحان والغازي كما أخبرنا لاهثين، بل جاءوا وغرورهم وسواعدهم مرويةً، وخيلهم جامحةٌ في أوجِ قوتها وعطائها.

شامان واثقًا: ربما كانت حيلةً شيحان أن يُظهِرَ ضِعْفَهُ، فيخرُجَ علينا بكامل قوّته ويُسدّد طعنته القاضية.

الزِعزاع: كلا أُنْهَى الوَزيز القدير، فلماذا رجع شيحان بجيشه إلى الجوازل، ولم يلتفت إلى ينابيع العصوف لو كانوا عطشوا! أخبرني ما السبب؟ أخبرني لماذا؟

أطرق الوَباصُ رأسه وهو يُفكر بكلامِ الزِعزاع المقنع، ورافق قناعتَهُ المغلّفةً بالخوف صمّتُ شامان والانهيارُ الواضح عليه، وعدمُ قُدرته على الرد، فأغلظَ عليه الوَباصُ في القول، ولم يقتنع بتسويفه في انتهاء الماء في آبار الجوازل.

الوَباصُ: لعلّ شيحان لا يعبأ بالماء ونحنُ نحسبُه يلهتُ عطشًا!  
الزِعزاع: ذلك بعينه أيها الملك، وقد أمضى شيحان شهرين ونصف يبني خُططَه على أعتابِ توقُّعاتنا الخاطئة.

شامان: ومن أين له بالماء! وكيف له أن يكفيمهم؟  
الزِعزاع: لقد أخبرتكم سابقًا أنّ شيحان ماکرٌّ وداهيةٌ، ولن يُقيم صلحًا أو يبدأ حربًا دون أن يضمّن الماء. وقد غرتي شامان بتحليلاته، فنسيتُ ما كُنْتُ واثقًا منه، ووقعنا بالفخِّ وانكسرنا.

شامان: لا تُلقِي اللوم علي يا زِعزاع، فإن أخطأتُ أنا بالماء، فقد أخطأت أنت بالحرب. فأنت من حدّد وقتها ومكانها وعدد الجنود فيها. فانتصروا عليكم وهم بنصف عددكم أو أقل، ولم يخسروا من رجالهم الكثير.

أقرّ شامان بخطئه كما أقرّ الزِعزاع قبله بذلك، فاعترفوا بذكاء شيحان وشراسته، وبعدم خبرة جيش العصوف وجيشي شيار وأوهد بالقتال، واتفقوا جميعًا على الصبر والتأني في الحرب القادمة، وألا يتخبطوا في قراراتهم كما فعلوا، كما أجمعوا على ضرورة دفن القتلى مهما بلغ الجهد والشقاء، وذلك لأن الجنود لو علموا أنّ أرواحهم رخيصةٌ، فلن يُقاتلوا بإصرارٍ وإقدامٍ وسيطّون أنّ لا كرامةً في موتهم. إلى ذلك فقد انتهى

اجتماعُهم على نيةِ التخطيطِ للمرحلة اللاحقة، وتجهيز ما بقي من الجيشِ وشحنَ هممهم للقتالِ والثَّارِ من شِيحان.

وفي الجوازِلِ، دُفِنَ الموتى والألَمُ يَضْرِبُ قلبَ مالِك، بعد أن فقدَ ولده الغالي على روحه، فبكى كالزَّاملِ واليتامى والرجالِ يبكون معه، فعَلقت المِضاضة في صدورهم وعشعشت في قلوبهم لخسارتهم، وتلك حالُ الحروبِ؛ رغمَ الانتصارِ والغنِمةِ وسعادةِ أصحابها، إلا أن للحُزنِ والألمِ ما لهُ عند أهله اللذين فُجِعوا، وقد بلغَ عدد الخسائرِ في جيشِ الحرجفِ والجوازِلِ ثمانية آلافِ رجلٍ صَنديد، رثاهم الشُّعراءُ رثاءَ الكرامةِ والشرفِ. اكتفى مجلسُ الحربِ بمُراقبةِ المدينة والطُّرقاتِ، وتتبَّع تحركاتِ جيشِ العصوفِ، فارتاح المقاتلون من حرهم وظلَّ سوار يُعالجُ الجرحى ويؤاسيهم.

تناقَلت القبائلُ والمدنُ أخبارَ المعركةِ بين العصوفِ وشِيحان، ومَرَّت عشرةُ أيامٍ بعدها، ولم يُعد وادي الربيعِ يانعاً أمناً كما كان. فأطلقَ عليه أهلُ منطقةِ رأسِ الخيلِ اسماً جديداً، فأسموه بوادي الخريفِ والوادي الأبيض؛ وذلك لأنَّ الجُنثَ التي تُركت فيه ولم تُدفن، التهمتُا الضواري والطيور وتركت العِظامَ البيضاء تراكُم فيه.

كانت الأخبازُ عن جيشِ العصوفِ تصلُ يومياً إلى مجلسِ حربِ الجوازِلِ، فكان ثابتاً مكانه ولا يُحرِّكُ ساكناً، رغمَ تأهُبِ الجوازِلِ واستعدادها لصدِّ هجومه الذي توقَّعه ولم يتم. وعرفَ مجلسُ الحربِ أنَّ العصوفَ قد بدأت تُغيِّر من حُطَّطها، فلم يستعجلوا للثَّارِ والردِّ على ما حلَّ بهم. وعلى ضوء ذلك، وبعد تفكيرٍ عميقٍ وتحليلٍ دقيقٍ، اقترحَ زيد حُطَّةً ماركراً لزِعزعةِ حلفِ العصوفِ، عملوا على تنفيذها، فأرسلوا رسالةً إلى الوَبَاصِ بطريقةٍ ماركرةٍ مدروسة، فقد لُوحت السريَّةُ التي حملتها برايةٍ بيضاءَ لجيشِ العصوفِ. فخرجت سريَّةٌ مُقابلها واستلمت الرسالة، وهناك انتظرت سريَّةِ الجوازِلِ حتى حمل أحد الجنودِ الرسالةَ وانطلق بها لدحام على عجل، وبعد أن تأكَّدوا أنَّ حاملها وصل المدينة، أخبروا سريَّةِ العصوفِ بما تحتويه الرسالة، وأنها مُوجَّهَةٌ لأحلافِ الوَبَاصِ ويجبُ أن يعلموا

جميعاً ما فيها. تفاجأت سرية العصفوف واندھشوا بمضمون الرسالة وارتعبوا، ورجعوا إلى معسكرهم فنشروا ما سمعوا، وتسرب فحوى الرسالة بين الجنود كالنار في الهشيم، وذلك ما عمد إليه زيد بن عياد بخطته.

حمل دحام الرسالة دون علمه بما سمع جنود العصفوف، ودخل بها إلى الوباص وشامان، وكانا منفردين يتحادثان، فقطع حديثهما واستندا ليستمعا لما في جعبته. فتح دحام الرسالة وبدأ يقرأ بصوت عالٍ: اعلموا يا أتباع الوباص، أننا نطلب رأس ملككم الذي ساد على حساب فرقتنا، ونحن لا نريد بكم شرًا، ولا نريد معكم صلحًا، فلا تقفوا بوجه ما عزمنا وأقسمنا عليه، ولا ترغمونا على قتالكم فنقتلكم وقد شهدتم فعالنا. نحن نضعكم بين خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن تبقوا على ما أنتم عليه، فنمضي إلى دياركم ونحرق بيوتكم ونشرد أهلكم، فلا تجدوا إلا الحطام منازل لكم، أو ترجعوا إلى مساكنكم آمنين، وتتركوا عنكم الحرب وبلواها، ونحن نتعهد أن نغنيكم عن ينابيع العصفوف بينابيعنا الوافية والوافرة، ولا نقطعها عنكم أبدًا في السلم أو الحرب. ونمهلكم على هذا أسبوعين، لكم فيما أن ترسلوا من ينظر في الماء، فتتأكدون من صدق قولنا. فخذوا على رأسها ولا تكونوا كمن باع نومه بسهر، فما بسقت أغصان ذل إلا على بذر الطمع. والسلام على من أراد السلامة، والسيف لمن طلب الندامة.

اغتاظ الوباص وشعر بالقلق والرهبه من الرسالة، فأخذها من دحام وأعاد قراءتها بنفسه، وتغيرت كل المعادلات والحسابات في رأس شامان وهو يستمع لما فيها، فقد بدأت الحرب تأخذ مسلكًا جديدًا لم يتحضر له، وطلب الوباص من الحاجب ألا يدخل عليهم أحدًا أبدًا حتى يتدبروا أمر تلك المصيبة، فأغلق باب مجلس القصر الكبير، ورجع الوباص للرسالة مع شامان ودحام ليقفوا على ما تمخضته من سُموم قاتلة.

الوباص (غاضبًا): شيطان اللعين، يريد أن يفرق عني كل من حولي. هل إطلع أحد

على هذه الرسالة؟



دحام: كلا، قد فتحها أمامكم هنا.

الوَبَاصُ: هل صحيحٌ موضوع الماءِ يا شامان؟

شامان (مُتلعثًا): أعتقدُ ذلك يا مولاي، لعلَّ كلام الزعزاع صحيحٌ بأنَّ عندهم ما يكفهم من الماء؛ وإلا لما أعطوا مهلةً أسبوعين لمن يريدُ أن يتأكدَ بنفسه من وجود الينابيع، فلا أظنهم كاذبون في ذلك.

الوَبَاصُ: هذا ما لم نحسبَ حسابه مُطلقًا، وماذا لو عرفَ الزعزاعُ أو شيار أو أوهد بالرسالة؟ ما العمل الآن؟

دحام: لقد علمَ الجنودُ بوصولِ رسالةٍ من شيحان، فسينقلون خبرها إلى الزعزاع وغيره، فماذا سنقولُ عمَّا وجدنا فيها؟!

الوَبَاصُ: تبًا لك يا شيحان، كان عليّ القضاء عليك قبل أن يشتدَّ ساعدك.

دخل الحاجبُ على الوَبَاصِ مُسرعًا، وأخبره أنَّ الزعزاع وشيار وأوهد وعاذل في طريقهم إلى القصر، فطلبَ الوَبَاصُ منه أن يجلسهم في مجلس الحرب حتى يحضُرَ هو إليهم. وغادر الحاجبُ على الفور ونفدَ ما طُلبَ منه، فأخذهم إلى مجلس الحرب، وطلبَ لهم ما لذَّ وطاب من الطعام والشراب وتركهم ينتظرون. واستخلصَ شامان والوَبَاصُ ودحام بعد حوارٍ شديدٍ وجدلٍ طويلٍ، ألا يخبروهم بما تحتويه الرسالة، ويُعجّلوا في استئناف الحربِ قبل أن يبرّ شيحان بما في رسالته، فيهجمَ على القبائل والمدن التي تُوالي الوَبَاصُ. وقرروا أن يُزفوا الرسالةَ فيقولوا إنها تحتوي على طلبِ هُدنةٍ من شيحان، وأنه يعرضُ إرجاع هند إلى الوَبَاصِ مُقابلَ فتحِ عُيون الماء لهم، بدل أن تُستأنفَ الحربُ على أسوار العصوف، وتملك هند عطشًا. وحين انضموا إلى مجلس الحرب، وكان الزعزاعُ والباقون يغلون من نفاذِ صبرهم، فسألوا عن الرسالة التي قَدِمت من الجوازِل، فأخبرهم شامان بما اتفق مع الوَبَاصِ ودحام عليه. نظر الزعزاعُ بمن حوله مشدوهًا غير مُقتنعٍ بما سمعه، فأبدى حيرته وطلبَ أن ينظرَ بنفسه إلى الرسالة، فصاح به شامان تصنُّعًا ألا

يُشكِّ في كلامه أبدأ، وأمر دحام بثقة أن يجلب الرسالة التي زفوها، لكن الزعزاع اعتذر وعدل عن طلبه. وجلسوا جميعاً يتباحثون أمر الحرب والرد اللازم على الرسالة، وكانت اقتراحات شامان أن يُباغتوا جيش شيحان في عقر دارهم، فأوجس الزعزاع خيفةً من تحوّل رأيه، ورغبته المفاجئة في الحرب على عجلة، عكس ما كان يدعو إليه دوماً من الصبر والتأني.

انطلق قادة مجلس الحرب لحساب جاهزيتهم فيما لو تقرّر الهجوم المباغت على الجوازل، ورجع الوّاص إلى مجلسه مع دحام وشامان، وكانوا يتحدثون عن ضرورة الهجوم العاجل على الجوازل، لكي لا يُصيهم مكر شيحان الذي لا يُستهانُ به. وعندما رجّع كلّ قائدٍ إلى جيشه، استمعوا إلى كلام الجنود الذي تناقلوه بينهم على لسان السرية التي أحضرت الرسالة، وتفاجأ الزعزاع وشيار وأوهد مما سمعوه، فاجتمعوا في خيمة الزعزاع ومعهم عاذل، وبدت عليهم الحيرة ودبّ الشكّ في أنفسهم.

الزعزاع: قد شككتُ بما قاله شامان، والآن أنا على يقينٍ تامٍ أنّهم كذبوا علينا، وأنهم لم يُظهروا لنا الرسالة الحقيقية ولا فحواها، ولعلهم كتبوا غيرها حين طلبتُ رؤيتها. لم أقتنع أبداً بطلب شيحان لهُدنةٍ مؤقتةٍ، والرسالة التي سمعتموها من جنودكم هي الصداقة والصحيحة، فتلك لغة شيحان التي يتكلّم بها دوماً.

شيار: ولماذا يكذبون علينا؟

الزعزاع: لأنهم يخشون أن نخلع ولاءنا للوِياص، ونتخلّى عنه ونتركه وحيداً بين أنياب شيحان والغازي.

أوهد: لقد غدا ابني نمر جيفةً تناهشته الضواري، لن يهدأ لي جفنٌ حتى أثار وأقضي على شيحان.

الزعزاع (غاضباً): افطن أيها الرجل، فإنّ أبناء قبيلتك جميعهم في خطر، وأنت أيضاً يا أبا عاذل.

شيار: نعم، لقد هددَ شيحان أن يحرقَ بيوتنا إن بقينا مع الوَبَاصِ، وأمهلنا أسبوعين لنزُدَ عليه.

الزِعزاع: ولذلك غيّرَ شامان آراءه فتعجّلَ الحرب، أرادَ أن نُبَاغَتَ شيحان قبلَ أن ينقضِيَ الأسبوعان.

عاذل: إتهمَ يرموننا في النارِ ولا يعباونَ بأهلنا وأبنائنا.

أوهد: ما بكم! أتريدونَ أن تنقلبوا على الوَبَاصِ؟ أنا لن أنسى ثأري ما حييت وسأنتقم لآبني شرَّ انتقام.

الزِعزاع: لا تُكنَ أعمى يا أوهد، ولا تدعَ حُرُنُكَ على نمرُيسيكَ باقيَ أهلكَ وقبيلتك. نحنُ لن ننسى ما فعله شيحان بنا، ولن نُسامحه أبداً ما حيينا. لكن يجبُ أن نعترفَ أننا لسنا سوى سلاحِ بيدِ الوَبَاصِ، يرمينا متى فرغَ منه، تماماً كما فعلَ معَ الغازي، ولن أثقَ به بعدَ اليوم.

شيار: صدقتَ يا زِعزاع، فقد خسرتنا الكثيرَ من رجالنا. هل تظنونَ أنَّ شيحان يملكُ ينابيعَ ماءٍ حقاً؟

الزِعزاع: هذا ما سوف نكتشفُه.

عاذل (باستغراب): وكيفَ سنكتشفُ ذلكَ؟

طالَ الحوارُ بينَ الزِعزاعِ ومن معه، ونقموا على شامان والوَبَاصِ من خباياهم التي فضحت، وهم اللذين بذلوا الغالي والنفيسَ للوقوفِ معه، فخسروا أكثرَ مما خسروه من الرجال، ووقعَ عليهم اللومُ في نتائجِ حربهم أكثرَ ما وقعَ على قادته. ولم يكذبوا خبرَ وجودِ ينابيعِ الماءِ عندَ شيحان ومالوا إلى تصديقه، فأرسلوا ثلاثةَ كتائبٍ إلى ديارهم طلباً للخيالِ التي يحتاجونها لمتابعةِ حربهم، واختاروا مجموعةَ رجالٍ من كتيبةِ الزِعزاعِ التي ستنتجُه لمدينته القلباء، ونصّبوا عليها رجلاً موثوقاً من رجالِ الزِعزاعِ، فطلبوا منه أن يُفارقهم في طريقهم إلى الجوازِل. فيلتقي بشيحان ويتأكد من رسالته، ويُعينَ ينابيعَ الماءِ

بعينه، ثم يرجع إليهم دون أن يُخبر أحداً بما عمل وعلم. ثم تحركوا من فورهم إلى الويَاص، ليجتمعوا به قبل أن يصله خبر انتشار الرسالة بين الجنود، فدخلوا مجلسه مُدعين أنهم خلصوا من حساباتهم، وأنهم درسوا جاهزيتهم للحرب، فأخفوا ما سمعوا وما نواوا القيام به، واتفقوا أن يوكلوا أمرهم إلى الزعزاع ليرتجل في الكلام.

الزعزاع: لقد عايننا الجند والخيل يا مولاي، فأرسلنا من يجمع لنا الخيل ويجلبها هنا على عجلٍ. ولن نتمكن من الهجوم على الجوازل قبل عشرين يوماً.  
صاح الويَاص: عشرون يوماً! هذا كثيرٌ جداً.

شامان: ولماذا كل هذا الوقت أيتها الزعزاع؟ كم يستغرق جلب الخيل؟  
الزعزاع: ليس أقل من أسبوعين، فنحن بموسم حربٍ والتجار والرعاة لا يكادون يظهرون.

الويَاص: أسبوعان! لا، سأمنحكم عشرة أيامٍ فقط للهجوم على الجوازل.  
الزعزاع (مدعياً الدهشة): كيف تعدون هذه المدة قليلة؟ علينا أن ننتظر حتى تلتئم جراح رجالنا أيضاً. وعلينا أن نعيد كل حُططنا للهجوم حتى لا نقع بما وقعنا به من قبل. ألم تُشر علينا مراراً وتكراراً يا شامان ألا نتعجل! علينا أن ندرس المكان والزمان بدقةٍ بالغةٍ، أم تريدون أن نقع فيما لا يُحمد عقباه!

وقع شامان والويَاص بحيرةٍ بالغةٍ من أمرهم، ولم يجدا مخرجاً من الحفرة السحيقة التي أوقعهم بها زيد بن عياد، فقد أصابهم في الصميم، وضرهم على المفاصل، فظل شامان يلح ويحاول إقناع أتباعهم بضرورة الاستعجال في القتال، والزعزاع يُراوغ ويرفض بكل ثقةٍ.

الزعزاع: لم هذه العجلة المفاجئة يا شامان! فقد أقلقني بمبتغاك. أهنالك ما نجهله وتكتمه عنا؟

نظر شامان في الوَبَاصِ نظرةً يائِسَةً، ثُمَّ التفت إلى الزعزاعِ بِسرعةٍ وقال: لا لا، ماذا سنكُتُمكم! غيرَ أَننا نرى أَنَّ شِيحانَ يزدادُ قُوَّةً في كُلِّ يومٍ نترُكُه دونَ قتال، وذلك سببُ استعجالنا للحرب.

الزعزاعِ بخبث: ومتى استنتجتَ هذا يا شامان؟ هل تأكَّدتَ من وجودِ الماءِ عندهم؟  
صُعقَ شامان من السؤال، وشكَّ في مقصده فقال مُتلعثمًا: لقد انتهينا من أمرِ الماءِ وافترضنا وجودَه بعد حربِ وادي الربيع، ألا تذكُر!

الزعزاع: لا أدري! أَظنُّ أَنَّ هُنَاكَ ما جدَّ عندكم وتُخفوه عَنَّا، هل لي بقراءةِ رسالةِ شِيحان؟

شامان بثقةٍ مُتناهيةٍ: ويحك أمها الزعزاع، قد بلغ بك الشكُّ مُنتهاه، أخرج الرسالةَ يا دحام.

عمَّ الصمتُ الرهيبُ أركانَ المجلس، فتناولَ الزعزاعُ رسالةً من دحام، ففتحها وقرأها وهو ينظرُ إلى الجميع، فكان فحواها كما قال لهم شامان قبلاً. نظرَ الزعزاعُ إلى شامان والوَبَاصِ بِامعانٍ، وسألهم سؤالاً أزالَ ما بهم من ثقةٍ مُزَيَّفةٍ كالرسالةِ التي زَيَّفوها، فقال: هل هذه هي الرسالةِ التي وصلت إليكم من شِيحان؟ كيف تجرؤ؟ كانت تلكِ الإجابةُ التي ردَّ بها شامان بغضبٍ مُصطنع. ولم ييأسَ الزعزاعُ فأعادَ السؤالَ على الوَبَاصِ وطلبَ منه أن يُجيبَ بلسانه، فأجاب مُستنكراً شكَّ الزعزاعِ غيرَ المبرَّر، واستمرَّ بالكذبةِ ولم يتراجع عنها، لعلمه أَنَّ الرسالةَ لم يطلَّع عليها إلا هو ودحام وشامان. توتَّرت الأجوأءُ في المجلس، وطلبَ الزعزاعُ تأجيلَ اجتماعهم لليومِ اللاحق، فلم يُعارض الوَبَاصِ ولا شامان، بل تمنَّيا ذلك حتى يفهما سرُّ شكِّه الغريب، وقبلَ أن يهَمَّوا بالخروج دخل شداد عليهم عابِسَ الوجه، فعلمَ الزعزاعُ أَنَّهُ يحملُ خبرَ انتشارِ الرسالة، فتبسَّم ونظرَ إلى شيار وأوهد وعاذل، وغمزهم لانتظارِ كشفِ الأسرار. لم يستطع شداد الحديثَ أمامهم، فجلسَ بينهم وظلَّ صامتاً يتلفَّتُ في الموجودين، ففهموا أَنَّهُ يُريدُ الانفرادَ بالوَبَاصِ دونهم.

شامان: هل بقي عندكم شيءٌ يا سادة؟ ألم تنته من حديثنا؟  
ضحك الزعزاعُ بشدة: بقي الكثير، أظنُّ أنّ شداد يحملُ أخبارًا تستوجبُ منا  
جميعاً أن نقفَ عليها!

شامان: وكيف هذا؟ وما هي تلك الأخبار؟

الزعزاع بصوتٍ يرددُ: أخبرهم يا شداد! هل وصل الأمرُ إلى الجميع؟

دحام: أيُّ أمر؟ ما بك يا شداد؟

شداد (مُتخبطاً): إنهم يتحدثون عن رسالة شيعان التي أرسلها لكم، وقد عرف  
الجميعُ بشأنها.

شامان (مدهوشاً): وما شأنها؟ وماذا يقولون عنها؟

احتارَ شداد ولم يدِر عن الرسالة المزيفة والكذبة التي صاغها شامان وأكدها  
الوِياص بنفسه، فأخبرهم بما انتشرَ على لسان السريّة التي حملت الرسالة. وصدّم  
الوِياص ودحام، وحاولَ شامان عبثاً أن يكذب تلك الرواية، ويدّعي صدق قوله؛ لكنّ  
الزعزاعَ أخرجَ كاملَ غضبه ولم يستثنِ الوِياص منه، فطلب أن يتوقفاً عن الخداع الذي  
كُشف بنبرهٍ حادة. صمت شامان مدهوشاً من جرأة الزعزاع على الوِياص، الذي اعترفَ  
بفعلهم وتزييفهم للرسالة، وعزاً حيلتهم لعدم نشرِ الخوفِ والهلع في صفوفهم، ولم يقبل  
الزعزاعُ بذلك العذر والتبرير الكاذب، واصفاً إياه بأنه أقيح من ذنب الخيانة، فتحدّث مع  
الوِياص بلُغةٍ شديدةٍ وجرأةٍ غير مسبوقةٍ، ثم نهض من مجلسه وصاح: نرفضُ هذا التبرير  
الكاذب أيها الوِياص، وأنتَ تعلمُ تمام المعرفة ما معنى أن تُخفوا عنّا رسالة أعدائنا ونحنُ  
حُلفاء! ما هكذا تُوفى العهودُ! ونحنُ الآن في حلٍّ مما تعاهدنا عليه.

أدار الزعزاعُ ظهره، وانضمَّ له شيار وأوهد، وهموا بمُغادرة المجلس، وانهمرَ الوِياص  
من كلام الزعزاع ومن جرأته وموقفه، وخشي أن يرَدَّ عليه فيلقى كلاماً أكبر مما سمع،

وخافَ أن يتخلَّى عنه أتباعه فيبقى وحيداً أمام أعدائه، وبادرَ شامان لرأبِ الصدعِ الذي شقَّ بينهم، فأمسك بيد الزعزاعِ ليستوقفه، كما قام دحام وشداد باستمالةِ شيار وأوهد. شامان: مهلكم يا قوم، إن شيحان تعمد هذه الرسالة ليُفرقنا، فلا تجعلوه يُظفرُ ويشمتُ بنا، ولكم عندهُ نازٌ ودينٌ فلا تتركوه، فينفردُ بنا ويزدادُ الحملُ عليكم وعلينا، ونحنُ بخندقٍ واحدٍ وسنظلُّ على العهدِ دوماً وأبداً.

لم تُفلح محاولات شامان وتوسُّلاته ولا استجداءاتُ دحام وشداد أن تُثني الزعزاعَ عن موقفه الذي أصرَّ عليه. ولم يحتمل الوَبَاصُ الذي أثر الصمتَ وأطبقَ على لسانه طويلاً، كلُّ ذلك الاستعطاف للزعزاعِ ومن معه من حاشيته، فصاح عاقداً ناصيته: توقَّف يا شامان عن تسخيفِ نفسكِ أمامَ من كانوا لنا تبعاً، فإن لم يكونوا معنا: فهمُ ضدنا، ولسنا بحاجةٍ إلى أيِّ منهم.

ابتسم الزعزاعُ ابتسامةَ المصدوم، فنظرَ لشامان وقال: لا عجبُ أن الغازي سلّمَ شيحان زمامَ أمره وجيشه بإخلاق! لم يُفرقنا شيحان برسالته كما قلتَ، بل بينَ مواضعنا الحقيقية التي يجبُ أن ننزلَ بها. ثم استدار للوباص وقال: لقد قطعها أيها الوَبَاصُ قطعاً وافياً فتلقَى ما ينتظرك، وها نحنُ مُنتظرين.

شيار: لقد واليناك دهرًا أيها الوَبَاصُ، فلم نلقَ منك إلا مكرًا.

عاذل: انتهى الكلامُ وفاتَ الفوتُ يا رجال، هلمّوا بنا لنرجعَ لدياراننا.

نهض الوَبَاصُ من على عرشه غاضبًا فصاح بصوتٍ عالٍ: تبَّ لكم، هيا انصرفوا جميعاً أيها الرُعا، أتنظنون أنني أخافكم ولو اتحدتم جميعاً، أنا الوَبَاصُ بن ضامر، أنا من حميتكم وحميتُ منطقة رأس الخيل كلها من أطماع الروم، سأموثُ قبل أن يطاءَ روميُّ أرضي. سوف يمرحون بأرضكم ويسرحون فتضيعون وتتفرقون من بعدي في أقاصي البلاد، وستكونون دون هويةٍ كالصعاليك، وستؤخذُ خيراتكم وكرامتكم وستفتح

عليكم وعلى أولاد أولادكم أبواب الجحيم. هيا اخرجوا وانتظروا عقابكم فلن أرحمكم أبداً.

خازت عزائم شامان من كلام الويَاص، وعلم أنهم وقعوا في فخٍ مُحكمٍ مَتينٍ، وخرج الزعراعُ ومن معه من المجلس، ورجعَ شامان إلى مقعده كمن سقطَ من مكانٍ عالٍ بوادٍ سحيقٍ، فجلسَ يستمعُ لبعبعةِ الويَاص وجعجعتيه، ونظرَ إليه نظرةً نُفورٍ وكأتما رأى عرشه يهاوى أمامه. أيُّ مكرودهاءٍ أنفذته يا زيد؟! وأيُّ خسةٍ وغباءٍ أوقعتَ بها نفسك أيها الويَاص؟! جفَّ الكلامُ عندَ شامان ولم يعد يشعُرُ بمن حوله، فأصبحَ كالسقيم يتلوَّى من داخله ولا يطلبُ إلا الشفاء، والويَاص ما زالَ يُزجرُ ويُهَدِّدُ ويتوعَدُ كالمجنون الذي طارَ عقله وفقد بصره وبصيرته.

تبخَّرَ أمام الزعراع وشيار وأوهد خيارُ البقاءِ في العصفوف، فاجتمعوا مع قادة جيشهم واتفقوا على شدِّ الرحال عند طلوع النهار، ولم ينتظروا أن يرجعَ لهم خبرُ الماء الذي أرسلوا له، فهَدَّوا خيامهم الكبيرةَ وفَصَّلوا خيلهم الموسومة، وجمعوا عتادهم وجَهَّزوها للرحيل، وخطَّطوا أن يتحركوا كُتلةً واحدةً إلى منتصفِ الطريقِ بين العصفوفِ وبين الجوازِل، حتى ينظروا في أمرهم، ثم يُقرِّروا على ماذا يفترون.

أصبحَ الصباحُ فتحرَّكت الجيوشُ خلفَ قادتها، مُغادرينَ دونَ وداعٍ أو موعدٍ للقاء، تاركينَ الويَاص يرتكزُ على جيشه الذي خسَرَ منه قرابةَ عشرةِ آلافِ مُقاتِلٍ، والذي بدأ الخوفُ والرُعْبُ يستشري في رجاله، فظنَّوا أنَّ من غادروهم انصرفوا خوفاً من الحربِ ومن قوَّةِ أعدائهم، وما علموا أنَّ مكرَ الويَاص حاقَ بهم وأبعدهم عنه. غادرت الجيوشُ مضاربَ العصفوفِ وابتعدت، حتى لقيهم رسولُ الزعراعِ قادمًا من مدينةِ الجوازِل، وأخبرهم أنَّ الماءَ موجودٌ ويجري من الحرجفِ إلى الجوازِل سَيْلاً لا يُقطع، وأنَّ آبارَ الجوازِل مُمتلئةٌ وحُقولهم مرويةٌ. تأكَّدَ الزعراعُ وشيار وأوهد من صدقِ رسالةِ شيحان وصحَّةِ ما جاءَ فيها، وتجاوزوا عن قبولِ المعاهدةِ معه ومع الغازي؛ فوافقوا إلا أن أوهد



أبدى كراهته لها وظهرت نيّته في الغدر والانتقام، وتابعوا طريقهم حتى وصلوا مكاهم المنشود بعد الغياب، فأنزلوا متاعهم وأراحوا دوابهم، وبنوا خيامهم واستراحوا من سفرهم، فناموا ليلتهم بين أنياب العصفِ وبرائن الجوازل القاطعة.

ظَلَّتْ الْأَخْبَارُ تَصِلُ مَجْلِسَ حَرْبِ الْجَوَازِلِ أَوَّلَ بَأْوَلٍ، وَلَمْ يَتَوَقَّعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى أَثْرُ رِسَالَةِ زَيْدٍ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ الْكَبِيرَةِ، وَظَلُّوا يُتَابِعُونَ وَيَرْتَقِبُونَ تَحَرُّكَ الزَّعْزَاعِ وَمَنْ مَعَهُ، حَتَّى جَاءَهُمُ الزَّعْزَاعُ بِنَفْسِهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ مَعَ وَفْدٍ ضَمَّ شِيَارًا وَأَوْهَدًا، فَطَلَبُوا الْلِقَاءَ وَالِاتِّفَاقَ وَأَخَذُوا الْأَمَانَ مِنْ شَيْحَانٍ، وَدَخَلُوا الْجَوَازِلَ مَعَهُ وَمَعَ الْغَازِيِ الَّذِي شُفِيَتْ جِرَاحُهُ. مَشَى الْوَفْدُ مَعَ شَيْحَانٍ وَسَطَ السُّوقِ وَالْجُنُودُ لَا يَلْتَفِتُونَ لَهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ تُجَارِدُ دَخَلُوا الْمَدِينَةَ، أَوْ رِجَالٌ عَادِيُونَ كَغَيْرِهِمْ، فَمَا نَظَرُوا لَهُمْ كَقَادَةِ أَوْ سَادَةِ عِظَامٍ. وَكَمْ هِيَ غَرِيبَةُ النُّفُوسِ! وَكَمْ هِيَ عَجِيبَةُ تَصَارِيفِ الدَّهْرِ! فَكَأَنَّ التَّارِيخَ يَنْقَلِبُ ثُمَّ يَعُودُ بِبَعْضِ أَحْدَاثِهِ، فَقَدْ كُسِفَ شِيَارًا وَأَوْهَدًا مِنْ ضَامِرٍ قَبْلَ دَهْرِ مَضَى، وَلَمْ يَنْتَصِرْ لَهُمْ حِينَ فَرَّوْا إِلَيْهِ طَالِبِينَ الْعَوْنَ وَالْحِمَايَةَ، وَهَذَا قَدْ بَاعَهُمُ الْوَبَاصُ بِنِ ضَامِرٍ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ بَعْدَ أَنْ خَسَرُوا رِجَالَهُمْ لِحِمَايَةِ عَرْشِهِ. وَهَاهُمَا يَنْظُرَانِ الْيَوْمَ إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي عَاشَا فِيهَا عُمَرًا قَبْلَ أَنْ يُطْرَدَا مِنْهَا، وَمَا طَرَدُوا بَلْ هَرَبُوا مِنْ جَيْشِ الْغَازِيِ جُبْنًا وَخَسَّةً. وَشَاءَتِ الْأَقْدَارُ أَنْ يَمْشِيَ الْغَازِيِ الْآنَ مَعَ شَيْحَانٍ حَلِيفًا وَصَدِيقًا مُقَرَّبًا. مُعَادِلَاتٌ صَعْبَةٌ وَمُتَغَيِّرَاتٌ عَدِيدَةٌ فِي الْعُقُولِ الْبَائِسَةِ مَعَ صُرُوفِ الدَّهْرِ، وَلَا ثَابِتَ يَظْهَرُ فِيهَا إِلَّا ارْتِدَادُ الْمَكْرِ السَّيِّئِ بِأَهْلِهِ.

كان شِيحَانُ حَادًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الزَّعْزَاعِ وَمَعَ شِيَارًا وَأَوْهَدًا. وَكَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ أَيْضًا، فَمَشَى مَعَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْمَاءَ بِأَعْيُنِهِمُ الْمَدْهُوشَةَ، ثُمَّ رَجَعَ بِهِمْ إِلَى مَجْلِسِ الْمَدِينَةِ حَيْثُ يَنْتَظِرُهُمْ بَقِيَّةُ الرِّجَالِ. تَحَدَّثَ الزَّعْزَاعُ عَنِ رِسَالَةِ شَيْحَانٍ وَعَنِ شُرُوطِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا، لِيُثَبِّتَ مَا جَاءَ فِيهَا وَيَتَّفِقُوا عَلَيْهِ، وَأَبْدَا زَيْدٌ عَجْبَهُ مِنْ سُرْعَةِ فُرَاقِهِمُ لِلْوَبَاصِ، وَتَسَاءَلَ عَلَى مَاذَا افْتَرَقُوا؟ وَمَاذَا اخْتَلَفُوا مَعَهُ؟

الزعرار (بابتسامةٍ صفراء): أعتزفُ أنّ رسالتكم كانت ذكية، فقد أصابت كبدَ مُبتغاهنا. لكن لا نَظنُّوا أنّنا جَبُّنا؛ إنّما نقضنا ما كان بيننا وبين الوَباص. ونحنُ في حلِّ منه وغنى عنه، ولن نقف معه بالحرب أبداً.

شبحان: نتعهدُ أنا والغازي أمامكم ألا يُقطع الماء عنكم أبداً في سلمٍ أو حربٍ، وسنسمحُ لكم أن تردوا ماءنا إن قطع الوَباص يناييعه عنكم. فارجعوا إلى دياركم، ولا يخرجنَّ منها إلا التَجَار والرعاة دون أن يحملوا سلاحهم، حتى تضعَ الحربُ أوزارها مهما طالَت بيننا وبين الوَباص، وإن خُننتم أو تراسلنتم معه؛ خَلعَ العهدُ بيننا وأسقيناكم مراراً لم يَدُقْ أحدُ له طعمًا من قبل.

الزعرار: ونحنُ نَعاهدُكم ألا نقفَ مع الوَباص، وألا نُقاتلكم حتى تنتهي الحربُ بينكم وبينه، واعلموا أنّكم أعداؤنا في الغدِ القريبِ، فلن نترككم ولن نُسامحَ بحق من قتلتم من رجالنا وأبنائنا.

شبحان: أنتم من قتلتم رجالكم من أجل ملككم المَبجل، وهذا ما جنته أيديكم فلا تلوئمنَ إلا أنفسكم. وإن كُنّا أعداءَ لكم في الغدِ؛ فأنتم أعداؤنا اليومَ وكُلَّ يومٍ حتى تطهروا أو تُقتلوا.

وعلى هذا تم الاتفاقُ والفراقُ، فقَطَعَت رسالةُ زيدٍ الزهيدةُ أشواطاً عديدةً من الحروبِ، دونَ حاجةٍ إلى سيفٍ أو عتادٍ، ورجع أتباع الوَباص إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبةِ والخزي، فبعدَ أن كانوا يتفاخرون ويتوعّدون، أصبحوا يطلّبون الماءَ ويخشونَ انقطاعه. وكانت مُغامرةً خطيرةً أن يُكشفَ سرُّ بئرِ شبحان، فتتحركُ الأنظارُ والجيوشُ صوبه لهدمه؛ لكن نتائج تلك المُغامرة عادت بالخير، فكانت أماناً وضمناً لمدينتي الجوازل والحرجف من هُجومِ الجيوشِ التي تفرقت عليهما، ولم يبقَ للوباص إلا جيشه لِيُدافع عن حصنه، أو يلجأ إلى الروم والعجم ويستعين بجيوشهم. جعلَ شبحان العديدَ من السرايا تُراقبُ العصفوفَ وأتباعها الذين انفضّوا عنها، حتى لا يتمَ بينهم أيُّ مُراسلةٍ أو اتصالٍ،

ولِإِرْقَابِ تحرُّكاتِهِمْ حتَّى تنتهي الحربُ فينظُرَ في أمرِهِمْ. ولم يقطع الوَبَاصُ ينابيعَ العُصُوفِ عن أتباعه الذين فارقوه؛ لأنَّه عرفَ ألاَّ فائدةَ مرجوةَ من ذلك؛ فلو قطعها استغنوا عنها بماءِ شِيحان. وزاد حقدَهُم على العُصُوفِ. وربَّما ينقلبون بجيوشِهِم عليه، وذلك ما كان يخبِشُهُ الوَبَاصُ وشامان أن يحدثَ فعلاً دونَ قطعِ الماءِ عنهم.

علمَ شامان أنَّ الزِعزاعَ سيرفُضُ الرُّجوعَ إلى العُصُوفِ والوقوفِ معها، ورغم ذلك حثَّ الوَبَاصُ مراراً على الاعتذارِ منه، وأن يُطمعَهُ بالمالِ والنَّفوذِ علَّه يرجع إلى صفوفه؛ لكن الوَبَاصُ رفضَ رفضاً قاطعاً وبعنجهيةٍ رعاءً وتكبُّراً أحمقَ كالصبيان. ينسُ شامان بعد ذلك ولم يعد يُقدِّمُ الأفكارَ النيرةَ والفدَّةَ لملكه كما كان، فأصبح كالشيخِ يجلسُ عندهُ ويخرجُ دونَ مُقترحاتٍ أو حُلُولٍ، وأصبحَ دحامَ أقربِ الموثوقين للوَبَاصِ والمندفعين معه، فقام بتجهيزِ الجيشِ ودعَمَ أسوارِ المدينة، وحفَرَ الجنودَ والقادةَ للدفاعِ عن مدينتِهِم وعن أهاليهِم ومنازلِهِم.

تابع مجلسُ حربِ الجوازِلِ اجتماعاتِهِم بشكلٍ مُكثَّفٍ، فجمعوا الأخبارَ ونسجوا الخططَ والاقتراحاتَ لاحتحامِ أسوارِ العُصُوفِ الحصينةِ، ورغم عدمِ خبرةِ جيشِ العُصُوفِ في الحروبِ مُقارنةً بجيشي شِيحان والغازي، إلا أن أسوارِ مدينتِهِم العاليةِ صعبةُ المنالِ ولا يسهلُ تحطيمُها. وتابع المجلسُ أمرَ ينابيعِ العُصُوفِ وأبارها التي تمدُّ أتباعه السابقين بعنايةٍ واهتمامٍ بالغٍ، فإن قُطِعَ الماءُ عنهم؛ توجَّبَ عليهم أن يُؤمِّنوهم بالماءِ كما اتفقوا وتعاهدوا.

بلغَ تعدادُ جيشِ العُصُوفِ خمسين ألفاً، وجيشُ شِيحان والغازي يُقاربُ ثلاثين ألفَ فارسٍ، واستقرَّ رأيُ مجلسِ الحربِ على تركِ كتيبةٍ قوامها ألفا فارسٍ، أطلقوا عليها اسمَ (كتيبةِ الحماية)، وجعلوها تتمركزُ بالمنتصفِ بين الحرجفِ والجوازِلِ، لتكونَ أسرعَ في ردِّ الخائنين إن باغثوهم في القتال. كان المسؤولان عن كتيبةِ الحماية: همام في الجوازِلِ، وسهيل بن عياش في الحرجفِ، وقد نظَّما ترتيبَ الأوامرِ والحركةِ لها، فقاموا بزراعةِ

مجموعاتٍ مُتباعدةٍ من الرجال على قمم الجبال، حتى يتمكنوا من إعطاء الإشارات بينهم وبين كتيبة الحماية بسرعةٍ عاليةٍ. وجعل همام وسهيل تلك المجموعات تحمل راياتٍ مُلوّنة. كُلُّ رايةٍ لها معناها، فالبيضاءُ تعني الاستعداد، والحمراءُ تطلبُ الانطلاق صوبها، والسوداءُ تُحدِّزُ المدينةَ الأخرى للاستعداد حال غدر الغادرين.

بدأت التجهيزات لخروج جيش الجوازل والحرّجف صوبَ العصوف لهدم أسوارها، ولم يخشَ مجلسُ الحربِ غدرَ الزعزاع؛ لأنهم سيُعسكرون بموقعٍ أقربٍ إليه من مدينتي الجوازل والحرّجف، كما لم يتوقَّعوا أن يهجمَ شيار أو أوهد عليهم لضعفهما وانكسار جيوشهما. وكانت الحركة بين الجوازل والحرّجف آنذاك مفتوحةً على مصراعها، فجاء خبرُ وفاة العرافِ ياقوت من الحرّجف، يحمله من شاهد وفاته، فأخبرَ الجميعَ أنّ العرافَ امتنعَ عن شُرْبِ الماءِ من بئرِ الحرّجف، بعدَ أن نفذَ ما عندهُ من الماءِ القديم، فألحوا عليه أن يشربَ من البئرِ وكان يرفضُ بشدّة، وقد أخبرَ بعضهم أنّه سيموت إن شرب منه ولن يحيى به. وظلَّ العرافُ أيامًا يبحثُ عمّن يسقيه ماءً قديمًا، حتى احتالَ عليه رجلٌ فأسقاها ماءً من بئرِ الحرّجف على أنّه كان مخزونًا قديمًا في بيته، فلما شرب العراف منه ونزل القليلُ في جوفه، ألقى بالماء من يده، وأخذ يرتعشُ كمن لدغته أفعى وانتشر سمها في جسده، فشتم الرجل الذي خدعه ولعنه، ثمَّ جحظت عينُه وفغرَ فمُه وتيبّست أطرافُه، فأصبحَ جُثَّةً هامدةً كشجرةٍ مقطوعةٍ عَفَّ عليها الزمن. مات العراف وترك بعده حيرةً بشأن موته، فظنَّ البعضُ أنّه أخفى شأنَ البئرِ لأنّه تنبأَ وعلمَ بنهايةِ أجله حالَ شُرْبِهِ منه، وظنَّ آخرونَ أنّ موته كان حسرةً وقهراً نزلًا به كالسم.



## الفصل التاسع

### شجرة النذيرة

بعد عشرة أيام على مُعاهدة الجوازل والحرشف مع الزعزاع وشيار وأوهد، خرج الغازي وشيخان بجيشهما المقدام الهمام ووصلوا إلى مضارب العصوف، فتراجع جيشُها كاملاً إلى داخل أسوار المدينة، وتركوا مضاربهم ومراعيمهم مُسرَّعةً لهم، نزل شيخان عند ينابيع المياه وتمركز حولها، ولما أمنَ في موقعه، أرسلَ إلى السرايا التي أخذت مواقعها في مُراقبة جيوش من تعاهدوا معه، فأخبرهم أنّ ماء العصوف لن يُقطع عنهم، وأمرهم أن يُراقبوا جميعَ المتعاهدين أثناء مُغادرة مضاربهم، كما أوصى أن يتفطنوا لأيّ غدِرٍ ويُسارعوا لإعلامه حال جدّ طارئٍ عليهم.

توزَّع جيش الجوازل والحرشف أمام مداخل مدينة العصوف الأربعة، فأحاطوا المدينةَ من جميع جهاتها، وتجهَّزوا بكتائب متساوية في العدد والقوة ونصبوا خيامهم عند كُل مدخل. وعلى مدار أيام شرع الجند بإقامة جُدران حماية أساسها الحجار والخشب، فزرعوها أمام مداخل البوابات بمواقع لا تطلها سهام جيش العصوف؛ فإن خرج الجيشُ من إحدى البوابات، فلا يستطيعُ الخُروجَ دفعةً واحدةً؛ بل تستقبلهُ الرماحُ والسهامُ وتُجبرُهُم أن يلتقوا حول الجدران التي صنعوها، فيسهلُ عند ذلك محاربتهم وتشتيت صفوفهم.

لم يُحرك جيشُ العصوف ساكنًا أمام كُلّ التجهيزات التي تتّم أمامه، بل اكتفى القادةُ والجنودُ باعلاء أسوارهم، والمراقبة والنظر والانتظارٍ للهجوم المباغتِ عليهم، حتى

فرغوا من بناءِ الجُدُرانِ العاليةِ وتدعيمها، فأصبحت كأنّها حُصُونٌ مُتَنانِرةٌ تُقَابِلُ حَصْنَ العَصُوفِ. واحتارَ الوَبَاصُ ودحامَ وشامانَ اليائِسُ من استعداداتِ أعدائهم وتجهّزهم للحربِ خارجِ أسوارِ العَصُوفِ، فلم يعلموا ما الخُطّةُ التي يُدبّرُونها! وكم سيطولُ انتظارُهم في الحُصُونِ الواهيةِ التي صنعوها! وظلَّ الوَبَاصُ يخرُجُ كُلَّ يومٍ مع دحامَ وقادةِ الحربِ إلى أسوارِ العَصُوفِ، ليُلقيَ أنظارَهُ وتعليقاتَهُ الساخرةَ على الجيوشِ النائمةِ أمامِ أسواره، وينتظرُ هجومهم.

ومرّت أيامٌ ثقالٌ طالَ فيها الليلُ وقصُرَ النهارُ، وحلَّ فصلُ الشتاء، فهطلَ المطرُ الغزيرُ على الأراضيِ الجرداءِ، وأغرقتِ الحُقُولُ وفاضتِ الوديانُ. وأتمَّ جيشُ شيحانَ والغازيَ شهرينَ كاملينَ أحاطَ بهما مدينةُ العَصُوفِ، وتابعَ أخبارَ منطقةِ رأسِ الخيلِ بمُدنها ومضاربها، وصبرَ الوَبَاصُ ينفدُ وغضبه يشتدُّ يوماً بعدَ يومٍ مع بقاءِ الحالِ على ما هو عليه، وكانت كُلُّ حساباته مع دحامَ تتمحورُ حولِ الدفاعِ عن العَصُوفِ، فلم يضعها في حساباتها أن يهجموا على جيشِ شيحانَ مُطلقاً، أو يُغادروا أسوارَ مدينتهم. وتوقَّعَ شامانُ أنّ شيحانَ سيُجبرُهم على الخُروجِ من أسوارِ العَصُوفِ، فسخرَ الوَبَاصُ وحاشيته منه وتفاخروا بَمَنعةِ العَصُوفِ وقُدرتها على الصُّمودِ أشهُراً طويلةً أمامَ أقوى الجيوشِ وأعتاها، فضحكوا على تحليلاته: لكن الخوفَ كان يكبُرُ فيهم كُلَّ يومٍ، بعدَ توقّفهم عن التجارةِ والزراعةِ ورعي مواشهم.

لم يكن من السهلِ اقتحامِ أسوارِ العَصُوفِ الحصينة، وجيشُ شيحانَ والغازيَ يُحيطونَ المدينةَ، فلا هم ينوونَ دُخولها ولا الوَبَاصُ قانِعٌ بإخراجِ جيشه للقتالِ خارجها. وكانت الخُطّةُ مرسومةً وتعتمدُ على الصبرِ والتأبّي، وانتظارِ الوَبَاصِ أن يخرُجَ للقتالِ خارجِ أسواره مُرغماً، فتذهبُ كُلُّ تحصيناتِ جيشه مهبَّ الريحِ، وتبوءُ خُططُهُ بالفشلِ الذريعِ، ولن يَكَلِّفَ جيشُ شيحانَ والغازيَ بالمحاربةِ والقتالِ، من أجلِ تحطيمِ الأسوارِ والموتِ دونِ ذلك.

اقترح زيد الداهية أن يُطلقَ الفتنة بمدينة العصوف. فألقى أمام مجلس الحرب حُطَّةً مأكرةً لذلك، لم يُحبِّذها شيحان لكنَّه انصاع لقرار المجلس فوافق عليها. وعلى ضوء حُطَّةِ زيد، قرَّرَ المجلس إيصال رسالةٍ إلى الوِثَاصِ، ولكل من يوجد داخل أسوار العصوف، فاختاروا أوس لإلقائها على مسامعهم لجهرةً صوته وغلظته. حلَّ المساء ووقف أوس على حصانه شامخًا عند أقرب سياجٍ صنَّعَ أمام مدخل مدينة العصوف، فنادى بصوتٍ عالٍ ومُفزعٍ، وجعل كل الجنود يتأهبون، ويُعجلون في طلب ملكهم. نظر أوس إلى أسوار المدينة فرأى الوِثَاصِ بين حاشيته واقفًا فوقها، فصاح يتلو بيانه والصمتُ يطبقُ على الجميع يُغازله صوتُ الجَدَاجِدِ<sup>(١)</sup>:

اسمعوا يا أهل العصوف، اسمعوا وعُوا قولنا؛ فلن تسمعوا بعده إلا صلصلة السيوف. إن أردتم النجاة فاخلعوا عنكم الوِثَاصِ وألقوا لنا برأسه، وولوا عليكم من يُحسنُ فيكم فنتعاهدُ معه، ونرحلُ عنكم ونترككم آمنين. وإلا!! فستموتون جميعكم ميتةً بطينة؛ بل ستموتون كلَّ يومٍ، فلن نبرحَ مكاننا هذا ولن نقترِبَ من أسواركم حتى تخرجوا مُرغمين، فتلقاكم سيوفنا ولا نُغادر منكم أحدًا. حسبتم بالأمس أننا ستهلكُ عطشًا فخابت ظنونكم، أنتم من ستهلكون جوعًا وهزلًا. نحنُ أسياذُ رأس الخيل وأُسودها، نعشقُ الترسدَ والافتراسَ ولا نضربُ إلا الرقاب، وما أنتم إلا جردانُ تختبئونَ بجُحوركم، وإنا هنا قاعدون. سنترىصُ بكم يا أهل العصوف حتى تفرّوا من شدةِ بلاتكم مهما طالت بنا السنين، فلن تروا فيها حُقولًا ولا زرعًا، وستضمُرُ بطونكم من جوعكم فلا تجدونَ لكم ولأبنائكم ما تأكلونه. هيّا انجوا بأنفسكم، أو قَتِّروا طعامكم وشُدِّدوا بطونكم، فأمامكم أشهرٌ عجافٌ لن تأكلوا بها إلا المرارَ والحنظل.

(١) الجَدَاجِدُ : جمع جَدَجِد، وهو صرَّار الليل، حشرة صغيرة تشبه الجرادة، تصوت بالليل بصوتٍ عالٍ.



ألقى أوس الرسالة عُقب شهرين من الحصار، ولم يُعطِ مهلةً لمن تلقاها، فتركها مفتوحةً دون موعدٍ تأكيداً على عزمهم بتنفيذ فحواها، وأدار ظهره واختفى بالظلام تاركاً ظلالَ الرُعبِ يعصفُ في صدرِكِ كَلِّ من سمعه، ورجع الوَبَاصُ حائراً خائراً إلى عرشه، وأخذ يرددُ ويتوعَّدُ بمجلسِ قصره الرُعبِ، ودحامِ وشدادِ يلوزانِ بالصمتِ المطبقِ، فيما ابتسم شامانُ أمامَ غضبِهِ ودهشته، وذكره بما قاله قبل هذا؛ بأنهم سيُجبرون على الخروجِ، وذلك ما رآه ساعةً تجهيزِ أعدائهم للجدرانِ العاليةِ عندَ أبوابِ العصورِ، واعترفَ أنه تفاجأ من الرسالة؛ فهي تحملُ الفتنةَ والدمارَ بينَ طيَّاتها. صاحَ الوَبَاصُ بشامانٍ أن يصمت ولا ينطق بما يُؤذي مسامعه، فاعتذر وأطبق فمه.

الوَبَاصُ: عددنا ضعُفُ عددهم، وأسوارنا حصينةٌ وليس لبشرٍ أن يجتازها، لن نخرجُ بجيشنا بل سننقذُهم بالرماحِ والسهامِ حتى يموتوا على أسوارِ مدينتنا، اللُعناءُ أرادوا بتلك الرسالة أن ينشروا البلبلةَ ويُقلِّبوا القلوبَ عليّ.

دحام: سنقطعُ رأسَ كُلِّ من تُسَوَّلُ له نفسه أن يُفكِّرَ بذلك يا مولاي. شداد: لن نسمح لأحدٍ أن يلمزك بكلمةٍ يا مولاي. نحنُ فداك ما حيننا، وكُلُّنا تحتُ إمرتك طائعين.

الوَبَاصُ: نعمَ الرجلين أنتما. فأخبراني بأوضاعنا في المدينة ولا تكتُمنا عني شيئاً. شامان: يا مولاي، نحنُ أمامَ جيشٍ مُهابٍ وعُقولٍ لُباب، فلا يغرُتُك مدحُ أتباعك وتملُّقهم، ولا تأخذك العزَّةُ إلى الندم. انظُرْكم نعدُرُ صبراً على حصارهم، وانظُرْكم يُطيقون هُم صبراً علينا. فإن كانَ صبرهم أكبر؛ فاعلم أننا هلكتنا، وليس لنا إلا الحربُ أو الحيلةُ للنجاة.

الوَبَاصُ (باشمئزاز): لقد غدوت مُتخاذلاً، أُجِبْتَ آخرُ عُمرك! إن كان عندك من حيلةٍ فهاتها أو اصمت.

شامان: أنزل من على أسوار العصوف رُسلاً إلى ملوك الروم والعجم واطلب الدعم منهم.

اتَّسعت عينا الوَبَاصِ غضبًا. وقال: تَبَّأ لك، ليس هذا عهدي بك! سألني من يُؤيِّد أفكارك المسمومة من على أسوار العصوف. أتريدُ أن تقول العربُ أنَّ الوَبَاصِ بن ضامر حمى ملكه دهرًا من الروم والعجم، ثمَّ استعان بهم لِيُبقي على عرشه! لن أموت إلا وسيفي بيدي، فإن عجزتُ عن حماية مُلكي ومدينتي! فلا حاجة لي.  
دحام: حاشا يا مولاي، أرواحنا فداءً لك.

عمَّ الجدُّلُ ثنانيا جيش العصوف وزوايا المدينة، ودبَّ الرُعْبُ من صوتِ أوسِ الواثق، وتناقلَ الجميعُ ما أدلى به، وصاروا يُفكِّرون ويحسبون قُدرتهم على تأمين طعامهم وطعامِ أبنائهم. فتساءلوا: كم سنبقى محبوسين بين هذه الأسوار! متى سنخرج؟ هل سنقاتلهم أم سننتظر! هل حقًا سنموتُ جوعًا؟! كلَّ هذه الأفكار اودتهم في بيوتهم وفي مجالسهم، وحتى بين كتائب جيش العصوف، فقد ضربتهم رسالةُ زيد بن عياد في الصميم.

مرت أيامٌ عصيبةٌ على العصوف، كان فيها دحام حازمًا غليظًا على جُنده، فلم يسمح لهم ولا لقادتهم بالتحدُّث عن رسالة أوس أبدًا، وتوعَّد أن يُنزلَ أشدَّ العقاب بمن يُخالف أوامره، فحفَزَ روحهم القتالية وولائهم المطلق للدفاع عن الملك والمدينة، ومشى شداد على الوتيرة نفسها، فنشرَ الأخبار المطمئنة حول مخزون الطعام وكفايته، ومنع الاجتماعات والمجالس من التطرُّق لرسالة أوس أو مُناقشتها، فعين على ذلك عُيونًا وأذانًا تُراقبُ أهل المدينة. ومع مرور الوقت بدأت بعضُ أصنافِ الطعام تنفذُ من أسواق المدينة، ووافق ذلك ارتفاعُ ظاهرٍ على أسعار الحبوب والحنطة والشعير، فوقف شامان على ذلك واتَّضح أمامه استغلال بعض التجار للمرحلة التي تمرُّ بها المدينة، وقيامهم

باحتمكار السلع، ورفع السلع الأخرى بسبب تخوّف أهل المدينة من انقطاعها، وطلبها بكمّيات كبيرة تفوق حاجتهم.

عمدَ شامان إلى محاسبة كلِّ تاجرٍ سوّلت له نفسه بالعبث بأمن المدينة. فوضع يده على بضائعهم المخزونة رغماً عنهم وهدّدهم بالسجن وسوء العقاب، وأخذ الإذن من الوَبَاصِ فعينَ زُمرةً من التّجار الثقات، وأناط بهم التكفل بقوانين البيع والشراء، فمنعوا أن يُباعَ أكثرُ من حاجة الفرد اليومية. وحدّدوا الأسعار وتبّتها لكلِّ السلع. كذلك أمر دحام قادة جيشه بترشيد استهلاك الطعام المخصّص للجند والحراس، فانصاعوا له مدهوشين حائرين، وبدأ الجنود يلمسون التغيّر يوماً بعد يوم، فشعروا بالاقتراب مما ألقاه أوْسُ على مسامعهم، وأصبحوا يتهايمسون خوفاً وقلقاً، وكان دحام لا يغفر لمن يتكلم، ويشدُّ عليهم دون رحمةٍ أولّين تُفسدهم وتجعلهم مهزوزين مترددين.

أصبحت المحالُّ في السوق لا تفتح إلا ساعةً أو ساعتين في اليوم، وبالكاد تكفي لمن أراد أن يشتري مؤنّته، فيتزاحمون على أبواب المحالِّ ويتدافعون لشراء حاجاتهم، حتى أنّ الكثير أصبحوا لا يجدون شيئاً ويعودون خالي الأيدي لمنازلهم. ومن تجرّأ وتحدّث من أهل المدينة، كانت قبضة شداد بالسلاسل والأسواط بانتظاره، فسجن الكثيرين ونعتهم بالمتأمرين والمتمردين. ومع كلّ هذه الشدّة والحزم والبلاء الذي يزداد يوماً بعد يوم، بدأ الناسُ يتململون ويتذمّرون بصوتٍ مسموع، وقد زاد جوعهم وانقطعت عنهم بعضُ السلع انقطاعاً تاماً، فأصبحوا يتساءلون بينهم: هل ينقُصُ قصرُ الوَبَاصِ ما ينقُصُهم! وهل حاشية الملك وأعوانه والمقربين يُقترّون على أنفسهم كما يفعلون!..

بدأت ثورة الجوع تنزلُ ببيوت العصفوف وتضرب بطونهم، وأول ما أعلنت في المدينة حين سمع الحُرّاسُ الأصوات تعلقو في السوق، فهرعوا لها ووجدوا تجمهرًا كبيرًا. فأرأوا مناع - الحارس الذي عزله الوَبَاصِ أول ما نُوجَّ ملكًا - يقفُ مع ابنه قابس، ويصيحُ بالتجار المسؤولين الذين يتحكمون بتوزيع البضائع وكميات البيع، فتكلم وأغلظَ في قوله

ولم يرحم شداد والحراس من لسانه، وتناول على قصر الوِثَاص وحاشيته، وما وصل هذا المقام إلا حين اشتدَّ عليه الحال من شدِّ الأحزمة والترشيد، فلم يجد آذاناً تُصغي أو مسؤولاً يُعطي، وقد انقطع عنه الطعامُ أياماً ولم يعد يُدرکه، وأهله يتضوِّرون وينتظرون منه ما يقاتون به.

قطع الحراس كلام مناع وفرقوا الجموع عنه، ثمَّ سحبوه مع ابنه قابس بقوةٍ وغلظة، وساقوهما إلى السجن، فلحقت بهم زوجةٌ مناع واستوقفت شداد عند باب القصر، وتوسلت إليه أن يُخلي سبيل بعلا وولدها البكر، وأمسكت بيده تُريدُ أن تُقبلها ذُلًّا، فأبعد يده عنها بفضاظةٍ واشمزازٍ، وصاح بها أن ترجع إلى بيتها، فحملت نفسها ورجعت إلى بيتها مكسورةً تحملُ البؤسَ والقهر، واستقبلها صغارُ أبناءها بأعيُنهم الجائعة، ونظروا ليدها فوجدوها فارغةً دون طعامٍ يوكل. جلست أم قابس تبكي في زاوية المنزل، ولم تستطع أن تنظرُ في وجوه أبناءها الصغار وهم يتضوِّرون جوعاً، وهي لا تجدُ ما يُسكتُ بطونهم، حتى دخلَ عليهم أحد جيرانهم، فأعطاهم بعض الطحين والزيت، وواساهم بسوء حاله وأحوال جيرانه حوله، وقد ازداد قرعُ الجوع في بطونهم.

انتهى موسم الشتاء وبدأ الربيعُ يُزيِّن الأرضَ بألوانِ الخبزِ والعطاء، ومرَّت الأيامُ عصبيةً على مدينة العصوف، وقد مضى على حصارها خمسة أشهر، استمرَّ الحالُ بها من سيءٍ إلى أسوأ، وأصبحت الأوضاعُ أشدَّ وأقسى، وبدأت فكرةُ التمردِ تجتاحُ العقول؛ لكن الخوفَ وضعفَ الحيلة كانا هما الحاجزُ الكبيرُ أمام من يتجرأ، فكثرت الأمراضُ والسرقات وصاح الجياعُ بشوارع المدينة دون اكتراثٍ، وامتلأت السجون بالضُعفاء والفقراء، وبلغ بالحراس أن يجلدوا الناسَ في الشوارع وفي وسط السوق، فزاد الرُعبُ واشتعل بعضُ الغضب مع عدم القدرة على الاحتمال. وتفاقت الأمور وعلم الوِثَاص ما بلغ إليه الحال من سوء، فخرج بحاشيته وحراسه وألقى خطاباً في وسط المدينة، ودعا إلى الصبر فطلب من شعبه عدم الانجرار وراء الفتنة والاستقواء بالروم والعجم، كما

أقسم أن يمتثل هو وحاشيته وعلية القوم لتنفيذ سياسة التقدير وشدّ البطون، ووعدهم أخيراً وبكل ثقة بأن الأمور سوف تتحسن بعد انتهاء الحرب.

لم تكن ردة فعل أهل العصوف كما توقعها الوَبَاصُ، فضحكوا وتهامسوا سُخْرِيَةً عليه وعلى سيفه المرصع بيده، وعجبوا من ثقته وأمله بالانتصار وهو يُغلقُ على نفسه الأبواب ويختبئ من أعدائه، فانصرف عنهم غاضباً إلى قصره والحقدُ يشتعلُ في صدره.

تفاقت الأوضاع وعصفت بالمدينة، وأخذت النتائج تكبرُ وتعتظمُ شيئاً فشيئاً، فازداد الحقدُ على الوَبَاصُ وزادت النقمة على قاداته وحاشيته، والجوعُ يأكلُ أطفالهم فهلِكهم. وقد اجتمع بعض أهل المدينة للنظر في أحوالهم العصبية. بينما ملكهم يسعى للحفاظ على كُرسِيَه مهما كلفه الأمر، وتطرَقوا للبدخ الذي يصرِّفه على حاشيته وعلى السباع في قصره الكبير، واتفقوا أن يستأذنوا الوَبَاصُ لمغادرة المدينة فيلقوا مصيرهم مع شيحان. عرفَ شداد بشأن تلك المجموعة، فاقتحم مجلسهم ووضعهم بالسجن. ولما بلغ الوَبَاصُ ما كان منهم، استشاط غضباً وأمر دحام أن يُلقي بهم وبمن هم على شاكلتهم جميعاً من على أسوار المدينة ليكونوا عبرةً لغيرهم.

لم يتمكن أحد من حاشية الملك أن يثنيه عن رأيه. فأخرج شداد المتمردين وبعض المساجين وكان مناع والد قابس من بينهم، وسلّمهم إلى دحام فساقهم الحُرَّاس خلفه حتى اعتلوا أسوار العصوف أمام العُلمن. وصلت الأخبارُ لخيمة الحرب والمشاورات عن تحركات جيش العصوف واعتلائهم الأسوار وكآتهم يستعدون لبدء القتال، فأمر شيحان أن يتأهب الجيش ويستعد، وخرج مع كبار مجلس الحرب ووقفوا أمام أسوار العصوف.

نظر المحكومُ عليهم إلى نهاية أجلمهم الفظيعة، فتراقصت أرجلهم وارتعدت خلجاتهم على أسوار مدينتهم. صاحَ دحامٌ بصوتٍ عالٍ وأمرَ الجُنُودَ أن يُنقِذوا العقاب، فأمسكوا أوّلَ رجلٍ وأسقطوه، وصرخاتُ أهل العصوف تعلو وتقطع وكآتها شهقات. وألقى الجنود الرجل الذي بعده ثم الذي يليه، وعيون جيش شيحان والغازي تسقطُ مع سقطةِ كُلِّ

واحدٍ منهم، فيستمعونَ لخبطتهم في الأرض وموتهم الصامتة، وكأنَّ الجُنْدَ يقذفون بأكياسٍ من الطحين. ألقى عشرون رجلاً ووصل الدورُ أخيراً عند مناع، فأشاح دحام عنه وأعرض، فنادهُ مناع وقال: قتلتمُ واحداً وعشرين رجلاً وشرّدتمُ أهلهم، وستقتلون غداً أكثر من هذا من أجلِ عرشِ الملك. سوفَ تلقونَ ما تلقونَ يا دحام، فانظرُ أمامك إلى جيشِ شيحان؛ سبهزموكم شرّهزيمةً شئتُم أم أبيتُم، فاحفظ كلامي.

اختفى دحام عن عيني شيحان الذي ظلَّ واقفاً يحملُ مرارةً وأماً وقد شعَرَ باحتراقِ صُدورِ المكلومين أمامه، فأنبَ نفسه بسببِ الظلمِ الواقع على أهلِ العصوف، جزاء تأخير الحرب ورسالة زبد الماكرة، وظلَّ ينظرُ إلى أسوارِ العصوف وإلى القتلى أسفلها بعينٍ مُحمرةٍ، اخترقتِ الأسوار والمدينة وبلغت قصرَ الوَباص. ثم جادل سادة مجلس الحرب وطلب منهم وقف الحصار وبدء الهجوم، فأسروا عنه وأبدوا عدم ارتياحهم جميعاً لما ستؤولُ إليه الأمورُ لأهلِ العصوف، ثم طلبوا منه التآني ليقطفوا ثمار صبرهم، فاجتمعَ رأيهم على المحافظة على النسق والترتيبات نفسها والبقاء كما هم، يُحاصرون المدينة ويتجهزونَ لخروج الوَباص من جُحره الحصين، فينتقمون لأهل منطقة رأس الخيل جميعاً من شُورهِ وظلمهِ.

انقضى شهران عصيبان على مدينة العصوف، وبدأت الروح المعنوية تضعفُ لدى جند الوَباص، واستقرَّ في أفئدتهم أنَّهم هالكون جميعاً، كما ظهرَ عندهم بعضُ العصيان وقد قلت هيبةُ ملكهم في نفوسهم، وأصبحوا يشعرون بالجوع كما يشعُرُ به أبناءُ مدينتهم وأهلهم. واجتمعَ شامان ودحام وشداد مع الوَباص وأخبروه بدرجة الخُطورة التي وصلوا إليها، واعترفوا بعدم قُدرتهم على ضبطِ الأمورِ حالِ نفاذ الطعام. لاذ الوَباصُ برهةً بالصمتِ وهو يحسبُ حساباته، وينظرُ في قصره وعرشه، ويُعيدُ ماضيه المترف، وأيقنَ أخيراً أنَّه وقعَ بين المطرقةِ والسندان؛ فإن سلمَ من الفتنة والتمرد فلن يسلمَ من سيفِ شيحان.

شامان: أرى يا مولاي أن نُعَجِّلَ بالحرب فإنَّها واقعةٌ كما حَطَّطَ لها أعداؤنا، وجيشنا يضعفُ في كُلِّ يومٍ، وإن أردت أن تنأى بنفسك وبنا عنها! فلنطلبُ الصُّلحَ والمعاهدةَ.

ثار الوَبَاصُ غضبًا: كلا يا شامان، أَأَطْلَبُ صُلحًا مع الدَّ أعدائي، الموتُ أرحم لي من ذلك. سنُقاتلهم ونموتُ لحماية العصوف من عبث العابثين.

قطع الوَبَاصُ مرحلة الحصار قبل الانهيار، وأعلن بداية الحرب والاستنفار، فجمع قادة جيشه وحاكوا حُطَّةَ الهجوم، فتجهَّز الجندُ لحربهم وأخذوا ترتيباتهم. وبعد ثلاثة أيام فُرعَت الطُّبولُ في مدينة العصوف صباحًا، وخرج دحام بعشرين ألف مقاتل من البوابة الرئيسية للعصوف، فوزَّع كتائب جيشه بشكلٍ جانبي، ونظر قادة حرب الجوازل والحرَجف في أعداد جيش العصوف، وأعطى شيحان تعليماته فتراجعت الكتائب الثلاث بقيادة الغازي وولحد وأوس إلى الخلف عن مداخل العصوف الأخرى وعن الجدران التي بنوها، واقتربوا من كتيبة شيحان وثبَّتوا بمواقعهم بينها وبين البوابات. قرأ دحام المكر في أعدائه فأجبروه على التقدُّم بجيشه صوب كتيبة شيحان، فاقترَب منها وأمر شداد بإغلاق البوابة الرئيسية وحمايتها. رفض دحام بدء المعركة بالمبارزة والنزال، وأمر الرماة بإطلاق سهامهم فأطلقت واشتعلت الحرب المنتظرة والوَبَاصُ يرقُّها من على أسواره، والتحم دحام مع كتيبة شيحان، والكتائبُ الثلاثُ ثابتةٌ في موقعها تُتابع سير المعركة بقلبي بالغ، وتُراقب البوابات الثلاثة خشيةً أن يخرج بقية جيش العصوف منها.

صلصلت السيوفُ وقُطعت الرؤوس، وطال القتال وأصبحت الغلبة لدحام، فأعطى شيحان إشارةً لجيشه، فخرجت كتيبة السكارى بقيادة الليث، ومهند، وقصي، من بين الكتائب الثلاث وانضمَّوا للمعركة الدائرة، فقلبوا سيرها وقويت شوكة شيحان فتابع قتاله بالمكان نفسه ولم يتزحزح عنه. تراجع دحام إلى الخلف وأشار إلى شداد ففُرعَت الطُّبولُ وخرج بقية جيش العصوف من البوابات الثلاث مرةً واحدة، ومن كُلِّ

بوابة خرج عشرة آلاف فارس. رجع الغازي بكتيبته إلى الجدران التي عمروها، وكذلك فعل أوس وجلحد. فأخذوا مواقعهم وأمطروا أعداءهم بالسهم والرمح، ودافعوا بشراسة عن جدرانهم الواهنة مقابل أسوار العصفو العالية، فما استطاعت كتائب الوباص أن تتخطاهم وما استطاعوا أن يلتحموا معهم، وظلوا يُناورون دون نتيجة تُرجى. استمر القتال والخسائرُ تعظمُ بجيش الوباص، فانسحب دحام إلى البوابة الرئيسية وشيخان يلحقُ به، حتى منعه سهم جُند العصفو ورماحهم عن الاقتراب، فدخل دحام المدينة وكذلك فعلت بقية كتائب العصفو.

وبعد انتهاء المعركة، أخلى جيش الجوازل والجرجف ساحة القتال من الجثث، وعقدوا مجلس الحرب بخيمة المشاورات للوقوف على نتائج الحرب، فأعادوا تشكيل الكتائب كما كانت، والفرح يغمرهم بانتصارهم الأول على جيش الوباص.

وفي تلك الليلة، لم يتمكن أوهد من كبح جماح حقه الذي أعماه، فعندما علم عن اشتعال الحرب على أبواب العصفو، أرسل إلى الزعزاع وشيخار ما عقد العزم على فعله، بخرق المعاهدة والانطلاق إلى مدينة الجوازل وإبادتها، وقد استقر في عقله أن جيش شيخان والغازي في أضعف حالاتهم، مُنشغلين الآن في حربٍ ضروس لا يقدرُونَ على حسمها أو مغادرتها، وقد خرج أوهد فجراً مع فرسان قبيلته مُتوشحين سيوفهم إلى السرية التي تُراقهم، وأخرجوا سيوفهم وبدأوا قتالهم، فتقاتلوا ولم يبقَ من السرية إلا بضعة رجال، هربوا بسرعةٍ وانقسموا إلى قسمين، فذهب قسمٌ إلى مدينة الجوازل لينذرها، والقسمُ الآخرُ ذهب باتجاه العصفو لإعلام سادة المجلس بغدرِ أوهد.

رُفعت الرايات الحمراء على قمم الجبال تباعاً، ووصلت الإشارةُ إلى كتيبة الحماية، فتحرّكت على الفور إلى مدينة الجوازل واستمرت الرايات ترفُع حتى بلغت سهيل بن عياش في مدينة الجرجف، فعلم أن الغدر والخيانة قد تمّا. ووصلت كتيبة الحماية إلى همام قبل وصول أوهد، فأوصاها بالثبات والدفاع عن مدينة الجوازل بشراسة، وطلب



إلهم أن يُؤخِّروا الحربَ قدرَ المستطاع، حتى يصلهم دعمُ مجلس الحرب. وما هي إلا ساعات حتى استوت الشمس ووصل أوهد مضارب الجوازل ومعه أربعة آلاف فارسٍ، فذخَرَ النبَّالون سهامهم وأطلقوها عليهم، ثم التحمَّ الجيشان وصلصلت السيوفُ وتعالَت أصواتُ القتال. كانت المعركةُ طاحنةً واستماتت كتيبةُ الحماية بالدفاع عن الجوازل وقاتلت ببسالة؛ ولكن لغياب القادة العظام والفرسان الأشداء، وتفوق جيش أوهد بالعدد، أصبحت خسائرهم كبيرة ولم يتمكنوا من صدِّ عدوِّهم، فانسحب همام صوبَ المدينة، مما اضطر النساء والصبيان أن يهربوا منها إلى الحرجف.

استهمَّ جيشُ أوهد بعد انسحابِ كتيبة الحماية أمامه، فأكثر فهم القتلَ حتى وصلوا قلب المدينة، فصاح همام في الرجال أن يحموا نساءهم وأطفالهم، وأن يصمدوا ولا يدعوا أحدًا من جيش أوهد يجتازهم، فتلاحموا بقوةٍ أشدَّ من قبلها، واستطاع الكثيرُ من جيش أوهد اختراق صفوفهم وتجاوزها، ولحقوا بأهل الجوازل الهارين للقضاء عليهم. أدرك همام بعد الحيرة التي عصفت به والرجال يسقطون أمامه، أنَّ شيحان سيتأخَّر كثيرًا عن نجدتهم، فاحتارَ وخارت عزائمه، ولم يعلم أيَّ موقفٍ يختار؛ هل يستمرُّ في القتال الطاحن! أم يمضي لنجدة أهل الجوازل!، إلى أن اتخذ قراره، فأمر كتيبته أن تلحق بأهل الجوازل لإنقاذهم، فانطلقوا في أثرهم وجيش أوهد يركضُ خلفهم ويطعُهم في ظهورهم.

ومع البلاء الذي نزل بمدينة الجوازل، انطلق شيحان بكتيبة السكارى مع الليث ومهند على أسرع الخيل، والغضبُ يشتعلُ في قلوبهم لما قام به أوهد، وتمنوا أن تصمد كتيبة الحماية حتى وصولهم. وقد تأهبَّ الغازي وجنَّز كتيبتين من الجيش، وجعلهما في أهبة الاستعداد في حال قام الزعزاع أو شيار بخرق المعاهدة، وظهرت البليلةُ والمعمعةُ أمام قادة العصفوف، ولم يعلموا ماذا يدورُ خارج أسوارهم، فتابعوا تحركاتهم بانتباهٍ وحذرٍ شديدٍ.

كان أهل الجوازل يهربون صوبَ مدينة الحرجف، فتفاجأوا بجيشٍ كبيرٍ وفُرسانه رافعينَ سُيوفهم ويركضون صوبهم، فما علموا من هم واحترأوا أين يهربون! وفرحَ أوهد وعلا صوتُ جيشه فخرًا بمن استنصروا لهم، وعرفَ همام أن الزعزاع وشيارمكروا بهم أيضًا، فصاحَ بكتيبة الحماية أن الموتَ قد حانَ فاستقبلوه. اقترب فرسانُ ذلك الجيش من أهل الجوازل وقد تبعثروا في كُلِّ جهةٍ وناحيةٍ، فلما وصلوهم مرّوا من بينهم وتجاوزوهم برفقٍ وسلام، ثمَّ شدّوا عزائمهم وصرّوا على خيلهم، فاحتارت كتيبةُ الحماية كما احتارَ أوهدُ من فعلهم. ولما اقترب ذلك الجيش المجهول، ظهرَ القائدُ الذي يتقدّمه بألفي فارسٍ يطرقونَ الأرضَ طرقًا، وكان ذلك القائدُ أصهبَ بنِ عدي!!

أصابَ زيد بن عياد في حكّمته وصدقَ حدسه، وقطفَ ثمارَ عفوه عن أصهب، فها قد انطلقَ وفرحَ لأهل الجوازل يذودُ عنهم وعنها، وولديه سريّ ولؤيّ على يمينه وشماله، وسهيل بن عياش وسعدُ بن يحيى بجانهم، فدخلوا المعركةَ وقلبوها رأسًا على عقب، فقاتلوا قتالَ العُظماء والأشواوس، وأبادوا جيشَ أوهد فدحروه وردّوا من نجا منهم خائنين يطلبونَ النجاةَ بأرواحهم وأوهد على رأسهم. وهلّلَ أهلُ الجوازل وحيّوا أصهبَ بن عدي، وهتفوا باسمه عاليًا، وقد نجّاهم من الهلاكِ فدخلَ مدينتهم مرفوع الرأسِ وجيشه خلفه.

اتخذَ أوهد وبقيةَ جيشه المهزوم الليلَ ستارًا لهم، وترنحت خيلهم وهي تحملهم وتحملُ صمتهم، فلما وصلوا إلى شجرة المجنون سمعوا أصواتًا تدقُّ الأرضَ وتقرعُها قرعًا، وكأنَّ مارِدًا ضخّمًا سيخرُجُ منها، فتوقفوا حائرينَ فوقَ تعيمٍ وبأسهم، واقتربَ الصوتُ منهم وعلا، وزادَ رُعبًا حينما سُحبت السُيوفُ. لقد كان الموتُ الأحمرُ ما انقشعَ أمامهم، فقد وصلهم شيحان وكتيبةُ السكاري، فترلوا بهم قتلاً دونَ إعلانِ للبداية، وهجموا عليهم كما تثبُّ الذنابُ على الخراف الوديعه، فقتلوهم دونَ رحمةٍ، وظلَّ شيحان

يبحثُ عن أوهد ويقْتُل من يلقاه، حتى رآه يفرُّ هاربًا من المعركة، فلحق به حتى أدركه وطحنَ حصانَه فأسقطهما.

ترجَل شيحان عن حصانه ولطم أوهد فأدمى وجهه، ثم رجع به إلى ساحة القتال جُرُّه من ذراعه، وكان الليث ومهند وكتيبة السكارى قد أجهزوا على الجميع، وتركوا البعض مريوطينَ عند أقدامهم، فعرفوا منهم ما حصلَ بحريهم وما انتهوا إليه. أخبر مهند شيحان بما حصل وطمأنه؛ لكن شيحان لم يُعقِب أو ينبس ببنتِ شفه، فسحب أوهد أمام الجميع، وقطع لجامَ حصانٍ ولقَّه به وأحكم ربطه، ثم أغلقَ فمه بمنديلٍ حتى لا يسمعَ صوته. وبدأ يصعدُ به الجبل العالي لبلوغ شجرة المجنون. نظر الجميعُ إلى شيحان بدهشةٍ وخافوا من نظراته المفزعة، فلم يُشاهدوه غاضبًا هكذا من قبل، وحاولَ الليث أن يثنيه عن صعود الجبل، وقد عرفَ أنه نوى على فعلٍ فظيح، لكنه لم يسمع صراخه ولم يلتفت إليه أبدًا؛ بل ظلَّ يصعدُ الجبلَ بهمةً، وأوهد جاحظُ العينين كمن فارق الحياة، وهو ما يزال يسمعُ لهثات شيحان وزفراته الحارقة، حتى ألقاه على ظهره فوق الجبل، ثم قفزَ لشجرة المجنون ولفَّ اللجامَ على ساق الشجرة والمنديلُ الأحمر يُرفرفُ بجانبه. رجعَ شيحان لقمّة الجبل وبدأ يسحبُ اللجامَ بيديه حتى تارجح أوهد في الهواء، فعقد اللجامَ أسفل جذع الشجرة وأحكم ربطه بها.

نظر شيحان إلى أوهد نظرة حادة غاضبة، ثم قال: أخطأتُ إذ تركتُك حيًّا طوال هذه السنين. وقد عرفتُك نذلًا لا تعرفُ إلا ولا ذمّةً، فالآن ستأكلُ الغريبان من نذالتك التي تقطرُ من جسدك، حتى تسقطَ عظامك السامة أرضًا. ثم صاح شيحان وزمجرَ غاضبًا كالزلزال على قمّة الجبل: أنا المجنونُ يا أوهد، أنا المجنون إن أغضب.

ضربَ صوتُ شيحان كلَّ من سمعه وهزَّ أبدانهم، فقد غضبَ أكثر بكثيرٍ مما غضبَ قبلَ عقودٍ ولّت، فجعلَ شجرة المجنون جزاءً للخائنين، بعد أن كانت سراجًا للعاشقين. ونزلَ بعدها عن الجبل فطحنَ رجال أوهد ولم يتركْ منهم أحدًا، وأوصى بعض الرجال أن

ينقلوا الأخبار إلى الغازي ويُطمئنوه، ثم ركبَ حصانه وصاح بالرجال أن يُعجلوا إلى الجوازل، فركبوا خيلهم وحملوا جراحهم، ومضوا دونَ أن يُلقوا ولو نظرةً على أوهده الذي عُلّقَ بين الحياة والموت. ولما وصلوا مدينة الجوازل اطمأنَّ شيحان على أهلها ثم دخل مجلسها، ورأى أصهبُ جالسًا مع همام ومالك، فاقتربَ منه وحضنه بعنفٍ وشكره بفخرٍ، وأثنى على شجاعته ووعدَه أن يحفظَ جميله ما عاش، وكذلك فعل الليث ومهند.

وصل رسول شيحان إلى جيش الجوازل والحرجف عند أبواب العصوف، وأخبرهم بما كان ففرحوا وهلّلوا سعادةً وفخرًا، وانتظروا رجوع شيحان وكتيبة السكارى لهم. وما أن طلع الصباحُ عليهم، حتى فُتحت بوابة العصوف الرئيسية على مصراعها، وخرج جيش العصوف من المدينة، وقد ارتأى الوُباص أن يُباغتهم بكلِّ قوّته، وقد قلَّ عددهم وظهّر التخبطَ في ترتيباتهم. التحم دحام مع كتيبة الجاسم الذي أخذ مكان شيحان، ولم يتمكن من الحفاظ على ثبات كتيبته، وقد كثرت الثغرات فيها واختلَّ توازنها أمام الأعداد الكبيرة التي تفوقه، فقتلَ زهير بعد أن نزلت به السهام، وقُتل ثابت بن سلمان طعنًا.

ارتفعت عزيمة جيش العصوف واستبسّلوا في القتال، وتردّد الغازي وجلحد وأوس في الانتظار أمام بوابات العصوف، حتى قرّروا توحيد صفوفهم وضمَّ كتائبهم، فغادروا مواقعهم وانطلقوا لنصرة الجاسم. أعطى دحام إشارته لشداد على أسوار العصوف، ففُتحت البوابات الثلاث وخرج منها بقية الجيش، واغتنموا الفرصة وغاروا على ساحة المعركة ولحقوا بالكتائب الثلاث، فشَتّتوا صفوفهم وفرّقوا راياتهم، فلم يعودوا يعلموا كيف يُقاتلون.

سقط جنود الجوازل والحرجف قتلى، وكثرت خسائرهم وانكسرت قوّتهم، حتى صاح أحدُ الجنود وبشّرهم بوصول شيحان. فشُحذت هممهم وتعالّت صيحاتهم، ودحام يدعوا جيشه إلى الثبات وعدم الفرع. دخلت كتيبة السكارى ساحة المعركة، فتفرّقت كالأمواج المتلاطمة وأحاطت حلقة القتال على الجانيين، ودخل أصهب وسعد بن يحيى

مع كتيبة الحماية من الوسط، فتغيّرت نتيجة المعركة وقُلبت رأسًا على عقب، وفرّ الكثير من جيش العصوف، فلحق بهم جلود وأوس قبل أن يصلوا برّ الأمان وأبادوهم، ثمّ حاصروا جيش دحام بين بوابة العصوف الرئيسة ومخالب قادة الجوازل والجرجف. سالت الدماء وتناثرت الأشلاء، ولم يعد جيش العصوف يقدر على الصمود أكثر، فقادهم دحام إلى إحدى البوابات فلحق بهم شيحان وقادته، كما فعل جلود وأوس فتقاتلوا قتالاً شرساً تساقط فيه جند العصوف صرعاً، وتواجه جلود مع دحام فتقارعت سيوفهما والأعينُ ترقمهم، واستطاع جلود أن يطعن دحام ويُسقطه عن جواده، ثمّ وثب عليه وغرس سيفه في صدره وصاح مُزمجراً: قتلتُ دحام، قتلتُ قائد جيش العصوف.

فزعَ جندُ العصوف بمقتل دحام، ففرّوا صوب البوابة والوَبَاصُ يصيحُ بهم أن يرجعوا، فجبّونوا ودخلوا مدينتهم وأغلقوا الأبواب، وانتهت المعركة بهزيمة نكراء لهم، فقتل دحام والكثير من القادة والفرسان والجنود. انكسر جيش العصوف وأصبح هشاً ضعيفاً أمام أعدائه، فأيقن الوَبَاصُ وهو يجلس على عرشه أن نهاية ملكه أوشكت، فلم يعد عنده العدد والعُدّة ولا العزيمة للصمود أمام شيحان، فعبس وجهه وظلّ صامتاً في مجلسه لا يتكلّم.

شامان: لقد هُزمتنا يا مولاي، فاطلب الصلح أو اهرب من فوق أسوار العصوف، فلا طاقة لنا بالحرب بعد اليوم.

شداد: إن أمرت يا مولاي، ألزمتُ رجال المدينة بحمل السلاح والدفاع عنها، فنُقاتل أعداءنا حتى آخر رمقٍ فينا.

شامان: لقد ألقى الجنودُ أسلحتهم أمامهم، فهل تنتظرُ منهم حملها! أخشى أن ينقلبوا علينا فيقتلوننا.

شداد: الويلُ لمن يتجرأ.

شامان مقاطعاً: كفاك يا شداد، فقد بلغ السيلُ الزُّبى.

مرت أيامٌ وأهل مدينة العصوف في قلقٍ بالغٍ، ينتظرون أن يكشف الوَباص عن موقفه، ولم تكن همّةُ الجنود عاليةً، فتراخت أيديهم ومشيتهم في مواقعهم، حتى أن بعضهم رجعوا إلى أهلهم واكتفوا بالانتظار معهم، دون الاكتراث بقادتهم أو عقاب شداد. فُرعت الطبول في مدينة العصوف عُقبَ أسبوع، ووقفت حاشية الملك وشامان وشداد على الأسوار، ثم فُتحت البوابة الرئيسية، فخرج منها الوَباص يرتدي لباس الحرب ومعه ابنه عُمير فقط، وتأهب جيش الجوازل والحرجف، ووقفوا ينتظرون حتى تقدّم مع ابنه أمامهم.

صاح الوَباص: أنا الوَباص بن ضامر، ملك العصوف ومنطقة رأس الخيل، أين شيخان؟

تقدّم قادة الحرب مُتفاجئين، وقال شيخان: لم تعد ملكاً أيها الوَباص، فقيم قُدمك؟

الوَباص: لستُ بمقامٍ يسمحُ لي أن أفاوضكم وهزيمتي ظاهرة، لكني ما زلتُ ملكاً يا شيخان، والملكُ لا يُساوم. وها أنا ذا جنّتكم بنفسي لتبرؤوا بكلامكم، وترحلوا عن المدينة وتركوا أهلها آمنين.

الغازي: فات الفوتُ أيها الوَباص، لا ينفُج البرّوقت الغارة، كان ذلك شرطاً على أهل مدينتك وحاشيتك أن يُسلموك لنا حياً أو ميتاً فما فعلوا. الوَباص: لم تُعطوا مهلةً بكلامكم، أم تراجعتم عنه!.

تساوَرَ قادة مجلس الحرب وهم في عجبٍ شديدٍ من موقف الوَباص، وقرروا أن يتخلّصوا منه دون رحمة، وخشي زيد أن يمكربهم بالكلام فيأخذ عليهم عهداً ليس في صالحهم، فطلبَ من شيخان أن يتفطنَ لدهائه ولا يأمن مكره.

شيخان: نحنُ لا نتراجع عن قولنا، فمن وليئتم سيداً عليكم!

الوَبَاصُ: ها هو سيد العصفوف، ابني عُمير.

زيد: وبأي حقٍ قررتَ أن يكون ابنك سيد العصفوف؟

الوَبَاصُ: هذا ما اتَّفَقنا عليه في المدينة ورضي به الجميع.

الغازي: ليس ذلك من حَقِّكم، إن هي إلا مؤامرة تحتالون علينا بها.

الوَبَاصُ: بل حَقِّي إن كُنتم رجالاً! فأنا لم أهرب للنجاةٍ بنفسِي، ولم أطلب الروم

والعجم لنصرتي. لستُ أضعُ شروطاً إنَّما أسألكم إحدى اثنتين: أن تُعاهدوني بالألَّا تغدروا

ابني، أو تتركوا أسوار العصفوف كما بُنيت فلا تهدمونها.

التفت شيحان إلى الرجال حوله، فلمسوا بموقفهم رغبة الوَبَاص بحماية المدينة

والتضحية بنفسه أخيراً، فجعلوه يُعلن انتصارهم واستسلام مدينته تحت قبضتهم،

ففعل ثم عاهدوه ألاَّ يَغدروا ما لم يُغدروا، وأصروا على هدم أسوار العصفوف حجراً

حجراً، وطلبوا حُضور كبار مدينته للوقوف على معاهدتهم.

تبسَّم الوَبَاص سُخْريةً من موقفه، ثم قال: وهل نحنُ بغادرين الآن! ليس قومي

يطلبون إلاَّ النجاة والسلامة، ها هو ابني عُمير كفيلاً بما تمَّ بيننا، وشامان وشداد

يسمعون كلامنا.

نظَرَ الوَبَاص إلى أسوار مدينته مُودِعاً، ثمَّ طبعَ قُبَلته على رأس عُمير لأوَّل مرة،

وهمس بإذنه وأوصاهُ ألاَّ تنزلَ دمعَةٌ من عينه وألاَّ يرفَّ جفنه أبداً. ثمَّ تقدَّم واستلَّ سيفه

وصاح: هيا يا شيحان فأنتَ أقوى من يُبارزني، هيا فقد حان موعدنا.

حمل شيحان سيفه وتقدَّم نحو الوَبَاص فلما وصله قال: اجعل ابنتك يُشيع ببصره

عن مصيرك ونهاية خيانتك.

الوَبَاصُ: بل يرى شجاعة والده ودفاعه عن مبادئه وكرامته.

شيحان: أيّ مبادئٍ أيها الغادر، لم تبين ملكك إلا على حساب المكر والكذب والجبن.

ضحك الوَبَاصُ ضحكةً عاليةً، ثم قال: إنك ذكي وقوي يا ابن صخر لكنك لست حكيمًا، أنت تصلحُ للميادين ولا تصلحُ للملك. فأين ستصل بأهدافك! أليديكم رؤيةً للمستقبل! اعلم أنني لم أبن السرداب جُبْنًا، بل لحماية أهلي من غدر الروم والعجم، فكنتم أنتم أكثر غدرًا!! أتظن يا شيحان أنك تستطيع حماية المنطقة من أطماعهم وجبروتهم؟ فكما ورثت حريك عن والدك، ورثت حربًا ضروريًا ضدي ومطامع بعوشي ومُلْكي، ولم أقطع الماء عنكم ساعةً، وحاولت التقرب منك أنت بالذات ألف مرة فعاندت. واليوم تنعتني بالمكر والخيانة، وأنت تُؤخّر حريك ضدي مُدٌ وُلدت! فاصدقني القول، هل وافقت معاهداتك نواياك وقد حاربت دهرًا، وأنا ملكٌ عليك!! ألا إن بين المكر والخيانة شعرة رفيعة لا يعلمها إلا صاحبها، فانظر بنفسك لعلك تجدها.

أطال شيحان الصمت وشفتاه تتحركان دون كلام، فغاص في أعماقه باحثًا عن نواياه التي تزامنت مع أفعاله وقراراته، والمشاعر التي تبعها منذ حمله للسيف، للحظة التي هو فيها يُحارب بصفٍ سادة الحرجف، وقد كانوا قبل ذلك ألد أعدائه، فتساءل في نفسه عن الشعرة الرفيعة التي تحدث عنها الوَبَاصُ وشعر أنها ليست ببعيدة عنه، فكان كلامه أحد من السيف على وجهه. صاح الغازي وبقية الرجال: هيا يا شيحان اغرس سيفك في صدره. تقدم شيحان إلى الوَبَاصُ وبدأ نزاله المنتظر، فأهلك غريمه وجرحه وأسقط سيفه، وتركه ليلتقطه ثم تابع ضرباته عليه وهو يصيحُ به: لأنت شر من الروم والعجم أيها الظالم، خذ أيها اللعين. وطعنه في صدره فخرج سيفه من ظهره. وشق الوَبَاصُ وجحظت عيناه، فأمسك بيد شيحان وهو يلفظُ أنفاسه، وقال: إياك أن تهدم أسوار العصوف يا شيحان، فستحتاجونها حتمًا.

سقط الوَبَاصُ على قدميه وسيف شيحان في صدره، فنظر لابنه عمير ثم لأسوار العصوف وشامان وشداد ينظران له بألمٍ بالغ، فأخذ يُراجع حساباته الكبيرة على هامش



حياته المتبقي، حتى انقطعت أفكاره بسماع صيحات جنود الجوازل والحر جرف فخرًا بسقوطه وانتصارهم، وتوقفت ساعته وحساباته فسقط جُتَّةً هامدةً على وجهه.

انتهى عصرُ الوَبَاصِ بنِ ضامر، وترجع عمير على سدة الحكم، فأخرج جميع المساجين في مدينته قبل أن يجلس على عرشه، واختلفت أنظارُ أهل المدينة فيه؛ فمنهم من كرهه كراهةً لوالده، ومنهم من توسم فيه الخير، والقسم الأكبر ظنَّ أنه لن يدوم حتى يحكمهم طويلًا. واجتمع سادة الجوازل والحر جرف في خيمة المشاورات طويلًا، فرفضوا أن يرجعوا لما كانوا عليه من حروبٍ وقتالٍ وتفريق، فقرروا أن يُشكّلوا مجلسًا يضمّ سادة منطقة رأس الخيل من جميع المدن والقبائل، لينظروا في مستقبل المنطقة، ويتعاهدوا على نشر السلام بينهم والوقوف صفاً واحداً ضدّ أي غزوٍ عليهم.

لم تُغمض عين العصوف وأصواتُ تحطيم أسوارها تصدح، الأسوار التي استغرقت العصوفُ سنينَ طوال في بنائها، فحطمت وخضعت ذلاً وقهراً، وتهالكت بواباتها أمام أعين شيجان وقادة مجلس الحرب، فاجتمعوا بخيمة المشاورات احتفاءً بانتهاء حربهم، وأمروا بتجهيز الجيش للرحيل، كما أرسلوا الرُسلَ إلى سادة المدن والقبائل يطلبون حضورهم عند شجرة المجنون، ودعوا عمير سيد العصوف إلى ذلك.

زيد: هكذا أمها القوم كُسرت شوكة العصوفِ إلى الأبد وانتهت قوتها، فما أصعب البناء وما أسهل الهدم. قبل عامٍ وفي مثل هذا اليوم دخل علينا شيجان بعصاته، فانظروا أين كُنَّا وأين أصبحنا. سنجتمعُ غدًا مع أسياد منطقة رأس الخيل، وسنخلعهم إن رفضوا الصلح ونُوِّلي خيارهم، لقد أهلكتنا الحروبُ وبعثرتنا فزادتنا ضعفًا، ونحن الآن أحوجُّ ما نكون إلى أن نوحّد صفوفنا، ولن يكون ذلك إلا بصفاء نفوسنا، فلا يحملنَّ أحدٌ منكم عند اللقاء كبرًا أو حقدًا، ولتجمعوا رأيكم على ما نوبنا ونبوركت جُهودنا.

أزفَ الرحيلُ فرفعت راياتُ النصرِ في اليوم التالي، ولوح بها الجندُ طربًا وزهواً حتى وصلوا شجرة المجنون، فافترق الجيش ورجع كُلُّ إلى مدينته، ونزل شيجان والقادة

العظام عن خيلهم، فبنوا خيمةً كبيرةً لاستقبال الوفود من مختلف بقاع المنطقة. ألقى الجميع نظرةً على شجرة المجنون، فلم يجدوا سوى حبلٍ مربوطٍ. وبالقرب منه المنديل الأحمر يُرفرف كأنما يكتئبُ أعزوفةً تُطربُهم، ولم يرَ أحدٌ بقايا جثةٍ أوهد. وكانَّ الغريان طارت بأشلائها فرحًا وسُرورًا. وتوافد سادة المنطقة أفواجًا ولم يغب منهم أحد، وصاح بهم أوس ليسمعوا ما عندهم.

تحدّث شيحان في الموجودين: يا قوم، أعلن لكم اليوم أنني أرفضُ الملك وزعامة المنطقة، وها هو عمير بن الوياص بينكم، تعاهدنا معه ألا نغدر أو نخون كما سنتعاهد معكم. لن تنتهي الثارات والحروب بيننا إن لم نضع حدًا لذلك، وسنورثها لأبنائنا كما ورثناها، فالיום سنتعاهد أن نكون صفاً واحداً عند هذه الشجرة، شجرة النذيرة كما كان اسمها قبل عُقود. واعلموا أن الماء في العصوف والجرجف للجميع وليس حكراً على أحد، فمن كان له رأيٌ فليتحدّث. ومن كانت له نيةٌ غدرٍ أو بقي في قلبه شيءٌ فليُبج به الآن، أو يكتمه ولا يُخرجه والا انقلبنا جميعاً عليه.

تعاهد كبار المنطقة وسادتها وأقسموا على الوفاق والاتفاق، وقدروا رفض شيحان الملك والترّعب على عرش سيادة المنطقة، فعلموا أنه لم يسع إلا لتحقيق الطمأنينة والمودة بينهم، واكتفى بقطع رأس الأفعى، الوياص بن ضامر الذي قلب الناس على بعضهم، وبني عرشه على خلافاتهم وقتالهم.

كانت الأيام التي تمضي والأشهر التي تنقضي، كفيلاً برأب الصدع الكبير الذي زلزل المنطقة، فحقت الأحقاد واندثرت شيئاً فشيئاً، لكن أثرها لم يُزل كاملاً ولم ينته، فبعض الجراح لا تندمل مهما غطتها البلاسم، ومن الصعب الدخول إلى القلوب الحاقدة والناقمة ورؤية ما فيها. ومع الوقت اكتسب عمير ثقةً وجهاء المدينة وكبارها، وحظي بمحبة أهلها وجنودها بسبب تواضعه ووقاره وحسن تعامله وأدبه، فلم يشعروا أنهم

أمام صبيٍّ جاهلٍ أو متعجرفٍ، بل أمام رجلٍ نبيهٍ رزينٍ يُبشِّرُ بمستقبلٍ باهرٍ مُشرقٍ. وتكلّمت الأفرح وعمّت المنطقة بزواج سري بن أصهب من صبا بنت شيحان، فحضر سادة القبائل والمدن جميعًا مباركين مسرورين. وفرحت هند بنت الوَبَاصُ أعظم فرحة حين زارها أخوها عمير في بيتها، ودعاها إلى زيارة أهلها وقصرها مع زوجها قصي بن الغازي..

عمل مجلس رأس الخيل على حماية المنطقة من قُطاع الطرق وعبث العابثين، وتكاتفوا في صدّ كلّ شرورٍ يُحيطُ بالمنطقة، واستعادت التجارة والزراعة عافيتها، فانطلقت القوافل التجارية في الطرقات كما انطلق الرعاة في الوديان، وعاد شيحان إلى عمله بمصنع السلاح، وكان قليلًا ما يُغادره أو يُغادر المدينة، وكالعادة كان يزوره جلد وهمام والليث، فيمضون بعضًا من وقتهم عنده، ويتركونه لِيُتابع عمله. وانتقل قابس بن مناع للعيش والعمل في مدينة الجوازل، فأكرمه شيحان وقد علم أنّ والده كان أحد الذين ألقوا من على أسوار العصوف، فتبنّاه وجعله يعمل معه في مصنع السلاح وأوصى به خيرًا. كان قابس فطنًا ذكيًا، فسرعان ما أبدع في طرق الحديد وصهره، وأبدع في صناعة السيوف وأعمادها، وأتقن التجارة وفهمها فأصبحَ سنَدًا لشيحان في عمله، وقويت علاقتهما بشكلٍ ملحوظٍ، وزادت محبة شيحان له، فنظر إليه وكأنّه يرى نفسه أمام أزد الذي علمه وألهمه. وكانت آرام في كل يومٍ تُجهزُ طعامَ الغداء، وتذهبُ به إلى شيحان فيتناوله مع قابس، وتجلس عندهما حتى يفرغان منه، تمامًا كما كانت تفعل بالماضي لوالدها أزد وحببيها شيحان..

مرّت الشهور وانقضت نصفُ عامٍ، وكان الحال من حسنٍ إلى أحسن، إلى أن ظهرت أطماع الروم في المنطقة، وبانت نواياهم في السيطرة عليها ونهب خيراتها، فاجتمع سادة

رأس الخيل عند شجرة النذيرة ليقفوا على المصببة التي تُهدد أمنهم واستقرارهم، واجتمع معهم نهلان الذي أكد لهم الأخبار عن طريق معارفه التجار.

صاح الزعزاع: لقد أنهكتنا الحروب فعلمت الروم ألا طاقة لنا بها، فلن يتوانوا عن غزونا ونهب خيراتنا.

الجاسم: والفرسُ أيها القوم، أأمنون جانهم؟!.

نهلان: أعلمُ علمَ اليقين أنهم ليسوا على وفاق، فلا أظنهم يجتمعون علينا!.

شامان: لكنّ المصالح قادرة على جمعهم، فيتحدون علينا ليضعوا أيديهم النجسة على آبار مياهنا ويتحكّموا بنا.

الغازي: سُحقًا لهم، نحن اليومُ يدٌ واحدة، سنموتُ دفاعًا عن أرضنا وعرضنا.

شرع مجلس رأس الخيل بتوحيد الجيوش، في الوقت الذي بدأ به الروم تجهيز جيوشها وإعدادها، واتفقوا على حماية آبار المياه وإحكام السيطرة عليها، إذ توقّعوا أن تدور رحى الحرب بالقرب منها، في مدينتي العصوف والجرجف. وعمل رجال الجوازل بمصنع السلاح ليلاً ونهارًا، لمواجهة أسلحة الروم القوية وأعدادهم الغفيرة..

كان شيحان مع قابس في إحدى زيارته إلى مدينة العصوف، ليقف على آبارها وينابيعها، فتابع سير الجنود وهم يبنون دفاعاتهم حولها، وتمعن النظر إلى حُطام أسوارها، فهامَ بخياله وكلمة الوَباص تتردّد في أذنه حين قال له: لا تهدم أسوار العصوف فستحتاجونها حتمًا. وغادر مع قابس مدينة العصوف، ونزلوا عند شجرة النذيرة وقت العصر، فتناولا طعامهما واستراحا قليلاً، ثم بدأت الألامُ تظهرُ على شيحان فوضع يده على بطنه.

قابس (بطريقة أقرب للشماتة): رأيتُ نظراتك الحادة لحُطام أسوار العصوف يا

شيحان، أترآك ندمتَ على هدمها، فالآن أنتم بأشدّ الحاجة لها في حربكم.

دُهل شيحان من سؤال قابس وأسلوبه، والنأي بنفسه عن أمر الحرب: ويحك، لم أندم على فعلٍ قُمتَ به قط. آخ، ما هذا الألم الذي يعتصرتني؟ قابس (مُتَبَسِّمًا): إنَّه بعضٌ من الآلام التي ألحقتها بنا في العصوف، فتجرَّع طعمه المرّ.

شيحان: أيها اللعين! لقد دسستَ السمَّ في الطعام! وأغرصتَ شامان الخبيث. قابس: كُفَّ عن تحليلاتك وخيالاتك، تمتيتُ هذه اللحظة طويلًا وأنا في سجون الوَبَاصِ، وها قد حانت.

شيحان والألم يعصره جسدًا وروحًا: لماذا أيها القدر اللئيم؟ هل غير المعروف رأيتَ مِنِّي!

قابس: انتقامًا لوالدي مناع والذين ألقوا معه من على أسوار العصوف. هل تذكّرتهم؟ أنظرتَ لهم كيف سقطوا أرضًا! شيحان: ولم تُحْمَلِي وزرهم! الوَبَاصُ من قتلهم.

قابس: لولاك ما فعل! ولو كُنْتَ رجلًا لحاربتَ كالرجال، فُتقاتل وتُحطَّم الأسوار بسيفك؛ لكنك انتظرتَ أن يهلك الوَبَاصُ أهلاك أهلنا وانقلابنا عليه، فقتلتنا لثقل خسائر جيشك. ألقى الضُعفاءُ أمامك من فوق أسوار العصوف فنظرتَ إليهم فرحًا، وكُنْتَ تعلمُ أنّ أطفالنا يهلكون جوعًا كلَّ يوم. أين المروءة والشهامةُ في ذلك؟ أم ظننتَ أنّ بيدنا حيلةٌ فنقتل الوَبَاصُ وننجو، ونحنُ لا حول لنا ولا قوة! لعمري إنَّكَ شرٌّ من الوَبَاصِ وأجبن. ستأكلُ الوحوشُ جسدك، وستموتُ بعيدًا عن أهلك فلا يُكرمونك بدفنك.

نهض قابس واستلَّ سيفه وتقدّم إلى شيحان ليقْتلُه، فباغته شيحان وألقى تُرابًا في وجهه ثمَّ أمسك قدمه وأسقطه، وسارع إلى يده التي تحمل السيف فأمسكها بيده، وطوّق رقبته بيده الأخرى وعصرها بكلِّ قوّته. شعرَ شيحان بتوقّف أنفاس قابس وعلمَ

أنّه مات فدفعه عنه وإذا بقارورة السمّ تخرج من جيبه، فحملها ووضعها في جيبه. بدأ مفعول السمّ يُضعفُ شيحان شيئاً فشيئاً، فثقلت حركته وخرجت أنفاسه بصعوبةٍ ظاهرة، فوضع يده في فمه وظلّ يتقيأً حتى أفرغ ما في معدته، ثم زحف صوب حصانه مُتعباً واهناً.

اعتلى شيحان حصانه بصعوبةٍ، فألقى ذراعيه عليه وضربه بكفّ يده، وأخذ يهذي: هيا يا صديقي احملني إلى أهلي، فلن أموت وحيداً كما قالت عشتار، تَبّاً لك يا عشتار، لن أموت هنا، لا أموت إلا في بيتي، هيا أُنْها الجسد، قاوم ولا تخذلني حتى أرجع لأهلي. آآخ يا ليث لو تحملني، أين أنت يا بدور عَيّ، آرام، ربحانة، إني قادمٌ.

وصل شيحان إلى مدينة الجوازل ليلاً فوقف بباب بيته وسقط على عتبه، وصهل حصانه فخرجت آرام ورأته مرمياً على الأرض، فصُعقت وحملته وأسندته ونظرت حولها فصاحت صيحةً أفرغت أهل المدينة. حضر جميعُ أهل شيحان وسادة الجوازل واجتمعوا في بيته وخارجة، ووقف الرجال حزاني مكلومين ينتظرون أن يسمعوا خبراً عن سيدهم وزعيمهم، بينما بدورٌ تَلطمُ هي والنساء عند رأسه، فأبعدهنّ همام جميعاً عنه وأعانه جلحد والليث في ذلك، وأخذ سوار يُطعمه علاجاً للسمّ وقد علم ألا فائدة تُرجى منه، فشحب وجهه وهز رأسه حُزناً وتأسياً، وشفتا شيحان مُطبقتان لا تكادان تتحركان، ففهم الجميعُ من أنظار سوار أن زعيمهم وصل إلى نهاية مسيرته.

غطّ شيحان بنومٍ ثقيلٍ لم يعرف أحداً أينتهي قبل أن تُفتَحَ عيناهُ أم لا؟ وعمّ الصمّتُ في المدينة حتى طلع الصباح، ولم تُغمض عينٌ لكبيرٍ أو صغيرٍ في الجوازل، وحضّر سادة الحرجف إلى بيت شيحان فور بلوغهم الخبر، واستقبلهم همام وجلحد بأعينٍ باكيةٍ. واقتمحت بدور مجلس الرجال وعيناها مُتورمتان مُحمّرتان، وجلست عند رأس أخيها، تنتظرُ منه أن يستيقظ، فنادت وناحت، وبكت بكاءً تتقطعُ له الأفئدة، ودنا الليث

من والده وأمسك يده الباردة، وقبلها وضمها وبكى بحرارة وقهرٍ، وظلَّ يبكي حتى توزمت عيناه، وجلحد خلفه تتحشرجُ الأنفاسُ في صدره وببكي كالمجانين. وهمام الحزين دنا من شيحان وقبّل رأسه، واقترب من زوجته بدور ثمّ طلب إليها الانصراف من المجلس. أصبح بيتُ شيحان كخليّة نحلٍ من تجمّع الناس على باب بيته، فبقي الليث عند فراش والده مع سوار، وانتقل الرجالُ إلى مجلس الجوازِل، وتحدّثوا عن مُصاهبهم الجلل والخيانة التي وقعوا بها.

سأل الغازي: كيف عرفتم أنّ قابس من سمّم شيحان؟! ألم يُشاركه أحد؟  
همام: أخبرتنا آرام أنّ شيحان كان يهذي قبل أن يفقد وعيه، فكان يقول: قتلتني قابس اللئيم، إنّه عند الشجرة. وقد أرسلنا الرجال إلى شجرة النذيرة ووجدناه ميتاً هناك.

أوس: ولماذا فعل ذلك؟!  
همام: لا أدري، إنّما هذا ما حمله شيحان معه. وأخرج قارورة السمّ من جيبه، فشاهدها سادة الحرجف وصُعقوا بشدّة، فكانت تمامًا مثل قارورة نعمان التاجر.  
حمل زيد القارورة وتفحصها فحارت ظنونه والجاسم وأوس بجانبه ينظران إليها، وشارت الشكوك في أنفسهم لعدم قدوم سادة العصوف للطمئنان على شيحان، فتفاجأوا وتخبّطت الأفكار بهم وعصفت.

الجاسم: إنّه السم نفسه الذي استعمله نعمان، فأنتي لقابس أن يحصل عليه؟!  
أوس: لا شك أنّ شامان وعمير وراء ذلك: فقد كان شيحان في زيارتهم قبل أن يُعذر.  
جلحد: ويلٌ لهم إن ثبتت خيانتهم.  
زيد: مهلاً يا قوم، لا أظنّ شامان أو عمير يفعلان ذلك.  
الجاسم: بل يفعلانها، فالغدر ديدنهم.

وَجَهتِ الاتهامات صوب العصوف، وزيدٌ غارقٌ في تفكيره والقارورة بين يديه يُقلِّها،  
فنظر إلى مهلان وسأله: أخبرني يا مهلان، أين تُصنَعُ هذه القوارير؟!

مهلان: لم أر مثلها في بلادنا، أظنّها من بلاد الروم.

زيد: كذلك قال سوار، فهذا السمّ لا يصنعه طيببٌ فينا. هل زار قابس بلاد الروم  
من قبل؟

همام: نعم، زارها مرارًا أثناء تجارتنا معهم.

الغازي: إلام تلمح يا زيد؟!

زيد: لا أدري، قد تكون العصوف وراء الخيانة! وربما هم من طلبوا من الروم غزونا!  
فينتقمون منا ويأخذون الحماية منهم. والأمرُ الآخر الذي يُقلِّني؛ فأشكّ أنّ للروم عيونًا  
بيننا، فيبتؤون الفتن ويدسون الدسائس عن طريقهم، وقد يكون قابس واحدًا منهم.

الجاسم: هل كشف شيحان الخائنين أم لا؟!

دخل أحد الغلمان على المجلس، وأخبرهمام وجلحد أنّ سادة العصوف قد وصلوا  
المدينة، ومعهم الزعزاع بن حمزة وبعض سادة القبائل، فاستقبلوهم في مجلس الجواز  
وأخفوا ما تناقشوه عنهم. ظهر الغضبُ على وجه الزعزاع من الغدر الذي لحق بشيحان،  
وبدا الحُزنُ جليئًا على وجه عمير، وعمّ الصمتُ على الجميع والأخبارُ ترددهم أنّ شيحان ما  
زال يتنفّس. كانت الحالة صعبةً على الجميع، ومرّت الساعات ووجوه الناس كغيمَةٍ  
سوداء مُعتمة، تحملُ بين طياتها المطر الحامض الغزير، فأوجعهم البُكاءُ المكبوتُ خنقًا،  
ونزلَ بصدرِ كُلِّ من أحبّه، فظلّوا على أملٍ أن يراهم شيحان وينظروا بعينيه ولو لمرةٍ  
أخيرة، وساد الهدوءُ المدينةَ بمنازلها وسوقها وطرقاتها، ولم تعلُ أصواتُ الباعة والفتيان  
والرعاة كما كانوا، وكشف سوار بساعات الليل المتأخرة على شيحان وتحسّس حرارته،



فوجدَهَا مُنْخَفِضَةً وجسده ازداد برودةً، فعلمَ أَنَّ سَاعَتَهُ قد اقْتَرَبَتْ، وأوشكت روحه أن تُغَادِرَ جسده.

فُتِحَ بابُ المنزل صباحًا في غفلةٍ من الموجودين، وخرجَ شيحانٌ بلباسٍ خفيفٍ على جسده، فنظرَ أمامه ووجدَ أهلَ الجوازِلِ يقفون ببابه، فصاحوا من هولِ ما رأوه، واستيقظت بدور من غفوتها الخفيفة على صوت الخدم الذين صرخوا مذهبولين، فرأت أخاها واقفًا فظنَّت أنها تحلم، فنادت باسم شيحان وأيقظت الجميع من نعستهم العنيدة. هرعَ كُلُّ من في المجلس يقفُ عند شيحان يُحاولون أن يسندوه ويُرجعوه إلى فراشه، ورجاه الليث أن يُرخي جسده ولا يُحمَل نفسه فوق طاقتة، لكنه لم يستمع إلى أحد، فتسمرَ مكانه وأبعدَ الجميع عنه، ثم نادى جليحد ليستند عليه، فلما دنا واتكأ عليه، أمره أن يأخذه إلى مصنع السلاح.

لم يرفضْ جليحد طلب شيحان وهو بالكاد يتحدَّث، فأسنده ومشى معه هونًا وسط الطريق، وخلفهما موكبٌ غفيرٌ يتابعُ خطواتهما، إلى أن وصلوا إلى المصنع بصعوبةٍ بالغة، فدخله وجلسَ على مقعده، ثم تناول سيفًا كان يصنعه لنفسه، وحمل المطرقة وبدء يطرُقُه بخفةٍ طرقاتٍ مُتتَابِعَةٍ مُتفاوتة، وجليحد والليث والآخرين يبكون وهم ينظرون إليه. ووصلَ كبارُ منطقة رأس الخيل إلى المصنع، فدخلوا ووقفوا ينظرون إلى شيحان وهو يطرُق الحديد ولا يلتفتُ إلى غيره، فأبكاهم منظره وخيمَ الصمتُ على الجميع في المدينة. ولم تُسمع إلا أنغامُ طرقات شيحان، وكأَنَّها تُعطيهم دُرُوسًا وعبرًا في الحياة القاسية بقسوةٍ عابرها. طال الطرُقُ وبدأت قُوَّةُ الصوت تضعفُ شيئًا فشيئًا، حتى صدحت ضربةً قويَّةً انتهت بعدها الضربات، وهناك على شجرة النذيرة وبجانب المنديل الأحمر، أينعت على أحد الغصون ورقةٌ خضراء.

فُجِعْتُ بِكَ الْيَوْمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ الْأُولَى  
حِينَ رَأَيْتُكَ فِي مَنَامِي مَسْمُومًا  
وَمَحْمُومًا، وَأَحْشَاؤُكَ تَتَقَطَّعُ أَلْمَا وَالْعَرَقُ  
يَنهَمِرُ مِنْكَ، فَإِن جَاءَكَ طَعَامٌ فَحَرِّكْهُ  
جَمِيعَهُ بَعْضَهُ بِبَعْضِهِ، وَكُلْ مِنْهُ لُقْمَةً  
وَاحِدَةً، وَاصْبِرْ حَتَّى تَتَبَيَّنَ سَلَامَتُهُ، فَإِن  
اسْتَسَفَّغْتَهُ فَكُلْ مَا شِئْتِ. أَمَّا الْفَاجِعَةُ



الثانية، فَكَانَتْ وَقْتُتِ الْفَجْرِ حِينَ طَرَقُوا بَابَنَا يُرِيدُونَ "سَوَارًا"،  
فَظَنَنْتُ أَنَّ حُلْمِي قَدْ تَحَقَّقَ، وَلَمْ يَهْدَأْ لِي بِأَلٍ إِلَّا عِنْدَمَا  
رَجَعْتُ "سَوَارًا"، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ مَرِيضَهُ لَيْسَ أَنْتِ. وَالثَّلَاثَةُ يَا  
شَيْحَانِ، كَانَتْ لَمَّا سَمِعْتُ الْحَرَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَدْعُونَ إِلَيَّ  
مَجْلِسَ الْحَرْجَفِ"، فَخَفْتُ أَنْ تُقْتَلَ بِسَيُوفِهِمْ، وَحَضَرْتُ  
الْمَجْلِسَ مِنْ بَعِيدٍ، وَعَلِمْتُ أَنَّكَ قَدْ نَجَوْتَ لِأَيَّامٍ أُخْرَى مِنْ كَلَامِ  
سَادَةِ الْمَدِينَةِ. أَتَمَنَّي أَنْ تَنْجُو بِنَفْسِكَ مِنْ مُصَابِكِ الَّذِي  
أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ بِهِ، فَإِن خَرَجْتَ سَالِمًا مُعَافَى فَاتْرُكِ الْمُنْدِيلَ  
الْأَحْمَرَ كَمَا هُوَ.

amazon



الآن ناشرون وموزعون  
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS  
عمان - شارع الملكة رانيا  
عمارة البيجاوي (69) طابق 3  
نفسال +962 79 7162720  
alaan.publish@gmail.com

